قادة الفتح الإسلامي

في أرمينية

تأليف

اللواء الركن
محمود شيت خطاب

دار الأندلس الخضراء
دار ابن حزم

قادة الفتح الإسلامي

في أرمينية

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

دار ابن حزم

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار الأندلس الخضراء

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ - هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

إعادة كتابة المعارك العسكرية العربية الإسلاميّة

١ ـ تطوّر المعارك:

المعارك العسكرية العربيّة الإسلاميّة، قسم من أقسام العسكريّة الإسلامية لا تقلّ أهمية عن أقسامها الأخرى، فهي التّطبيق العمليّ للعقيدة العسكريّة الإسلاميّة علىٰ الأرض وفي ميادين القتال، وهي التي أثبتت عملياً بأن العقيدة العسكرية الإسلاميّة مبادئ قابلة للتطبيق العمليّ بنجاح وقادرة على إحراز النّصر.

والمعارك العسكريّة العربية الإسلاميّة، بدأت في السنة الثانية من هجرة النبيّ ﷺ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنورة، فقاد الرسول القائد عليه الصّلاة والسلام ثمان وعشرين غزوة، وبعث سبعاً وأربعين سريّة، وكان من جملة ثمرات تلك الغزوات والسّرايا توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام.

والفرق بين الغزوة والسريّة، أنّ الغزوة يقودها النبي ﷺ والسريّة يقودها أحد قادته.

وبعد التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، بدأت حروب الرِدَّة، وهي معارك بين المسلمين من جهة وبين المرتدِّين عن الإسلام من جهة أخرى، وجرت في أوائل خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، واستمرت نحو سنة كاملة، أحرز فيها المسلمون النّصر المؤزّر على المرتدِّين.

وبدأت معارك الفتح الإسلامي بعد عودة الوحدة إلى شبه الجزيرة

العربيّة تحت لواء الإسلام بانتصار المسلمين في حروب الرِدَّة سنة إحدى عشرة الهجرية على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتصاعد مدّ الفتح الإسلامي على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وأوائل عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، حتى أصبح الفتح طوفاناً عارماً.

ولكنّ مدّ الفتح أصيب بنكسة من جرّاء اختلاف المسلمين، فأصيب هذا الفتح بالجزر، ثم استأنف مسيرته المظفّرة بعد إعادة الوحدة ثانية إلى المسلمين، فاستعادت معارك الفتح مدّها العارم كما استعاد المسلمون فتح البلاد التي سبق فتحها وانتقضت، فكانت المعارك كافة بين الفتح واستعادة الفتح، حتى توقّف الفتح سنة مئة الهجريّة (٧١٨م).

ومن سنة مئة الهجرية بدأت معارك الدفاع عن البلاد الإسلامية، وندرت الفتوح واستعادة الفتوح، لتفرّق كلمة العرب والمسلمين وتشتّت صفوفهم، فتوزّعت الدولة الواحدة دولًا، على كلِّ دولة منها قائد أو ملك أو أمير.

وكانت المعارك الدفاعية ناجحة في الغالب، حتى جاء التتار بجحافلهم فاستولوا على بغداد في صَفَر سنة ست وخمسين وستمائة الهجرية (١٢٥٨م)، ودخلوها دخول الضواري المفترسة، وقتلوا مئات الألوف من أهلها، ونهبوا خزائنها وذخائرها، وحرقوا كتبها وألقوا بقسم منها في نهر دجلة حتى اسودّ النهر من مداد تلك الكتب النفيسة، وقضوا على الخلافة العباسيّة، وعلى معالم الحضارة الإسلامية، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته إداريين وقادة وجنوداً.

وما كان هذا الانهيار الشنيع ليصيب الدولة الإسلامية، لو بقيت دولة واحدة لقيادة واحدة، بحماية جيش واحد.

لقد أُصيبت بهذا الانهيار الفظيع، لأنها كانت دولًا كثيرة لا دولة واحدة.

٢ ـ بصيص النور في الظلام:

وبعد غزو التتار لبلاد المسلمين، أصبحت المعارك الدفاعيّة الناجحة للمسلمين هزائم شنيعة تعاقبت على المسلمين، فانهار المسلمون قوّة عالمية لها وزن واعتبار، وبقي الإسلام قوّة حضارية عالمية.

وانهزم المسلمون عسكرياً أمام التتار، ولكنّ الإسلام انتصر على التتار فلم يلبثوا إلّا قليلًا على شركهم حتى اعتنقوا الإسلام.

ولكن المعارك الدفاعية الإسلاميّة التي بدأت سنة مئة الهجرية، لم تخلُ من معارك هجوميّة منتصرة، فقد فتح أسد بن الفُرات جزيرة صِقِلِيَّة سنة ثلاث عشرة ومئتين الهجرية (٨٢٨م)، واستعاد صلاح الدين الأيوبيّ فتح القدس من الصليبيين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة الهجرية (١١٨٧م)، وفتح محمد الفاتح القُسْطَنْطِيْنِيّة سنة سبع وخمسين وثمانمائة الهجرية (١٤٥٣م)، فكانت هذه المعارك بصيصاً من النور في وسط الظلام الدامس.

كما استطاع السلطان قطز في معركة (عين جالوت) الانتصار على التتار على أرض فلسطين سنة ثمان وخمسين وستمائة الهجرية (١٢٦٠م)، أي بعد انتصارهم على العباسيين في بغداد بسنتين فقط، فكانت هذه المعركة بصيصاً رابعاً من النور وسط الظلام، بعد تلك المعارك الثلاث المنتصرة.

وبلغ انهيار المسلمين أقصى مداه، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين إذ غزاهم الاستعمار في عقر دارهم، وسيطر على بلادهم، ولم ينجُ بلد إسلامي من الاستعمار إلا شبه الجزيرة العربية وأفغانستان.

وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة وألف هجرية (١٩٤٨م)، اقتطع العدو الصهيوني قسماً من فلسطين، وخلق له كياناً في ذلك الجزء من البلاد العربية بمعاونة الاستعمار.

وفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف الهجرية (١٩٦٧م)، استطاع ذلك العدو السيطرة على فلسطين كافة وأجزاء من سوريّة والأردن ومصر، وهذا هو قمّة ما وصل إليه المسلمون من ذلٍّ وهوان.

وإعادة كتابة المعارك العربيّة الإسلاميّة من جديد، بأيدٍ أمينة قادرة في غاية الأهمية بالنسبة لمعارك الفتح واستعادة الفتح، لأنها المفاخر الأولى والأخيرة للعرب والمسلمين، ولأنّها تثبت عملياً بأنّ هذه الأمة قادرة على الفتوح وعلى استعادة الفتوح بالنصر على الأمم الأخرىٰ وإن مكانها ليس الذل والهوان بل المجد والعز إن أعدّت قواتها بالإيمان والسِّلاح والاتحاد.

ولكنّ أهميّة إعادة كتابة المعارك العربية الإسلاميّة لا تقتصر على معارك الفتح ومعارك استعادة الفتح باعتبارها صفحات مضيئة في تاريخ العرب والمسلمين المجيد، بل تشمل المعارك الدفاعية الناجحة والمعارك الدفاعيّة الخاسرة، لكي نعرف عرباً ومسلمين لماذا انتصرنا ولماذا اندحرنا، وكيف يمكن أن ننتصر، وكيف يمكن أن نتحاشى الاندحار.

إنّ الدروس المستنبطة من المعارك كافة، والعِبَر التي نتعلّمها من دراسة تلك المعارك كافة، لها أعظم الفائدة لحاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم.

وهذه هي فائدة التاريخ لكلِّ أمّة من الأمم، لأنّ الماضي هو دعامة الحاضر وأمل المستقبل فلا ينبغي إهماله أو إلغاؤه، كما لا ينبغي استنساخه بدون إبراز دروسِه المفيدة وعِبَره النّافعة، فالأمة التي لا تاريخ لها كالشجرة التي لا جذور لها، تموت غداً إن لم تكن قد ماتت اليوم أو بالأمس القريب أو البعيد.

٣ ـ المصادر:

معارك الفتح ومعارك استعادة الفتح والمعارك الدفاعيّة، متيسِّرة في المصادر التاريخية العربيّة الإسلاميّة المعتمدة.

وهذه المصادر موثوق بها، لأنّ المؤرخين الذين ألّفوها ثقاة من طراز فريد، فقد كانوا في أكثرهم مفسِّرين ومحدِّثين وفقهاء ونُحاة وأدباء ومؤرخين، إضافة إلى علوم أخرىٰ كالطبري مثلًا صاحب: تاريخ الرُّسل والملوك، وإمام المؤرِّخين.

لقد كان الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤هـ - ٣١٠هـ) مفسِّراً، وهو مؤلف تفسير الطبري المشهور، ومحدِّثاً، وفقيهاً، وهو صاحب كتاب: اختلاف الفقهاء، ونحويّاً، ومؤرخاً وكان مشهوراً بالورع والتّقوى، معروفاً بالاستقامة والصِّدق.

وقد ذكره الإمام النووي في كتابه: (تهذيب الأسماء واللُّغات)، فقال: «هو في طبقة الترمذي والنَّسائي، وكان أحد الأئمة، يُحكم بقوله ويُرْجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله. وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصَّحابة والتابعين فمن بعدهم في الأحكام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله كتاب التاريخ المشهور، وكتاب في التفسير لم يصنف أحدٌ مثلَه، وكتاب تهذيب الآثار لم أرَ سواه في معناه لكنه لم يتمه، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة وتفرّد بمسائل حُفظت عنه»[1].

وذكره الإمام الذّهبيّ في كتابه: (ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال)، فقال: «الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، صاحب التصانيف الباهرة، ثقة، صادق، من كبار أئمة الإسلام المعتمدين»[2].

وقال ابن خلكان في كتابه: (وفيّات الأعيان) عن المؤرخ ابن الأثير: «وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدِّمة والمتأخِّرة، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم، صنّف في التاريخ كتاباً كبيراً سمّاه (الكامل) ابتدأ فيه من أوّل الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة الهجريّة، وهو من خيار التواريخ»[3].

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٧٨ - ٧٩).
(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي (٣/ ٣٥).
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٣٣ - ٣٤).

تلك هي بعض مزايا الطبري وابن الأثير، وأمثالُهما من المؤرخين المعتمدين يحرصون علىٰ تدوين الحقائق التاريخيّة كما حدثت بصدق وأمانة، لأنّهم يخافون الله فلا يفترون الكذب، ولأنّهم علماء بحق لا يلوثون علمهم بالكذب والافتراء، ولأنّهم قادرون على تدوين التاريخ بأمانة وصدق وعلم، ولو أنهم لا يقدرون علىٰ التدوين كما ينبغي، لانصرفوا عنه إلى علومهم الأخرى التي يحاولون ما استطاعوا أن ينتفع بها الناس، واضعين نصب أعينهم حديث رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله[1] إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له»[2]، فكانوا يعتبرون العلم عبادة من أجل العبادات، ويرجون ثواب الله في كلِّ كلمة يخطونها باعتبار العلم يتجدّد ثوابه ما أقبل عليه الناس وانتفعوا به، ولا ثواب إلّا علىٰ علم موثوق به لا غشّ فيه ولا تدليس، ولا ثواب على علم ملفّق لا ينفع الناس.

لذلك كان المؤرخون المسلمون القُدامى كالطبري وابن الأثير وأضرابهما من المؤرخين، يحاسبون أنفسهم قبل أن يُحاسبوا، ونياتهم أن يتعبّدوا بما يكتبون، وإنما الأعمال بالنيّات.

ولا يدّعي أحدٌ الكمالَ للمؤرخين المسلمين المعتمدين، فالكمال لله وحده، والكتاب العزيز هو الكتاب الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ أما ما يخطّه البشر فلا يخلو من الوهم والخطأ والنسيان وكتب المؤرخين المسلمين المعتمدين لا تخلو من الخطأ، ولكن نسبة خطئهم إلى صوابهم ضئيل.

وقد كانت الرقابة النقدية على مختلف رواة الأخبار صارمة جداً في العصور العابرة والرواة الذين ينحرفون عن الصدق يسجل عليهم انحرافهم

---

(١) فائدة عمله وتجديد ثوابه.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (١/ ٥٦).

بلا رحمة ولا هوادة، فيقول عنهم النّقاد بصراحة وصدق وأمانة: «لا يوثق بهم»، أو يقولون عن المفتري: «كذّاب»، أو يعبرون عن أقوالهم بأنها غير موثوق بها بقولهم: «حاطب ليل»، أو: «لا يؤخذ بأقواله».

وحتى في تعبير أصحاب الرجال والمؤرخين، يقولون عن الموثوق به: «روى فلان»، و«قال فلان» ويقولون عن غير الموثوق به: «زعم فلان»، أو يقولون عنه: «لا يؤخذ بقوله».

والمصادر التاريخية العربيّة الإسلاميّة المعتمدة لإعادة كتابة معارك الفتح ومعارك استعادة الفتح والمعارك الدفاعيّة، هي: تاريخ الطبري، وتاريخ ابن الأثير، وتاريخ فتوح البلدان للبلاذري، وما أكثر المصادر الأخرى، ولكنّ المصادر الثلاثة التي ذكرتها تعتبر من أوثق المصادر التاريخيّة القديمة المعتمدة، وقد تكفي للنهوض بمهمة إعادة كتابة المعارك العربية الإسلاميّة الخاصة بالفتوح واستعادة الفتوح.

أما المعارك الدفاعية الحديثة التي خاضها العرب والمسلمون، فمصادرها العربية والأجنبية كثيرة جداً، ولكنّ معظمها لا يخلو من تحيّز وانحياز: العرب يتحيّزون لأمَّتِهم، والأجانب ينحازون لأقوامهم، وقد ضاعت الحقائق بين التحيّز والانحياز.

والمؤرخون المحدثون في الغالب، غير ملتزمين بالمُثُل العليا التي كان يلتزم بها المؤرخون القدامئ المعتمدون، فيقتضي دراسة المصادر والمراجع المحدثة على حذر شديد، للعثور على الحقائق بين ركام الإفراط والتفريط فقد مضى الوقت الذي كان المؤرخون يعتبرون العلم عبادة من أجلِّ العبادات، وجاء الزّمن الذي أصبح فيه أكثرهم يعتبرون العلم تجارة من أربح التجارات.

ولكن لا يخلو أيّ وقت من الثُّقاة، وعلى هؤلاء مسئولية إعادة كتابة معارك العرب والمسلمين الحديثة.

٤ ـ الأسلوب والمنهاج:

كتبَ المؤرخون القُدامى المعارك العربيّة الإسلامية بأسلوب يضمّ جميع المعلومات المفصلة عن تلك المعارك، ولكن الحوادث غير منسّقة تارة وغير مترابطة تارة أخرى وفيها شيء من الغموض الذين يصعب فهمه على كثير من القرّاء والدارسين.

كما أنّ المصطلحات القديمة لا يعرفها غير المختصين ويجهلها غيرهم من الناس.

والأسلوب المطلوب إعادة كتابة المعارك بموجبه، هو تقسيم كل معركة إلى الموقف العام قبل المعركة، والقوات المشاركة في المعركة للجانبين، وقادة الطرفين، وسير القتال وخسائر الطرفين، ونتائج المعركة، والدروس المستنبطة من المعركة.

ومن المناسب جداً أن تكون المعركة موضّحة على خريطة أو عدّة خرائط تعين الدارس والقارئ على تفهّم سير القتال تفهّماً كاملًا.

وهذا هو الأسلوب أو المنهاج الحديث لإعادة كتابة تاريخ المعارك، والمؤرخون القدامىٰ لم يكونوا على علم به، وطريقتهم في عرض المعارك هي حشد المعلومات عنها بحسب توقيت وقوع الحوادث تارة وبعدم الالتزام بالتوقيت تارة أخرى، ويتمّ حشد المعلومات عن المعركة حشداً كيفما اتّفق في بعض الأحيان.

والمهمّ في إعادة كتابة تاريخ المعارك، هو الاحتفاظ بالمعلومات الواردة عنها في المصادر التاريخيّة العربية الإسلامية المعتمدة، وعدم تشويشها أو بترها أو إقحام معلومات جديدة عليها لم تقع أبداً بحجة أو بأخرى.

إن الأمانة المطلقة في النّقل مطلوبة للغاية، ومعيد كتابتها مسئول (فقط) عن تصنيف المعلومات الواردة عنها وتبويبها، واستنتاج الدروس

المستنبطة التي تفيد العرب والمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم وتوضيحها بالخرائط والمخطّطات إن أمكن، على أن تستوفى المعلومات الواردة عنها بكلٍّ دقّة وأمانة بدون زيادة ولا نقصان.

٥ ـ قوات الجانبين وخسائرهم:

سقط قسم من المؤرخين العرب المسلمين المحدثين، وبينهم أسماء لامعة جداً وصلت إلى القمّة في الشّهرة، في وحدة التّشكيك بتَعداد قوّات الجانبين التي اشتَبكت في المعارك بعامة وبتعداد الجانب العربي الإسلامي بخاصة، إلّا إذا حظى التَعداد العربيّ الإسلامي بتزكية مصدر من المصادر الأجنبيّة مهما يكن ذلك المصدر الأجنبيّ تافهاً لا قيمة له من الناحية العلمية ولا وزن.

وهذا التّشكيك يتمّ تسويغه باسم البحث العلميّ، وغالباً ما يزرع الباحث الشك دون أن يبدي رأيه في تعداد قوّات الجانبين، بل يترك الأمر مبهماً بعد أن يسدل عليه ستاراً من الدّخان الكثيف.

ومن الغريب جداً، أن يعزو المؤرِّخ العربيّ المسلمُ المُشكِّك أمر التّشكيك إلى نفسه كأنّه استنتجه ببحثه العلميّ الخاص به الذي لم يسبقه إليه مؤرخ آخر، والواقع أنه نقله نقلّا حرفياً من أحد المصادر الأجنبيّة بأمانة، دون أن يشير بأمانة أيضاً إلى المصدر الذي نقل حرفياً منه التشكيك كما تقضي الأمانة العلمية في النّقل.

وتعود إلى المصدر الأجنبيّ المنقول منه ذلك التشكيك، فيذهلك حقاً أن مؤلِّفه الأجنبي عدو للعرب والمسلمين، كاره لتاريخهم العريق، لأنّه يهوديّ أو مبشِّر أو جاسوس، أكل قلبه الحقد على الفتوح العربية الإسلامية، وهو مَعْنِي بهدم هذه الفتوح والتهوين من شأنها وقيمتها، ليصل إلى هدفه الحيوي وهو التهوين من قدرة العرب أُمّة ومن أثر الإسلام في العرب ديناً.

وما يقال عن التّشكيك في تَعداد قوّات الجانبين، يقال عن التشكيك في تعداد خسائر الجانبين بالأرواح.

وتتلخّص حجج الأجنبي في تشكيكه في تساؤله: كيف يمكن حصر عَدد قوات الجانبين، وكيف يمكن إحصاؤها في الظروف الحربيّة الصّعبة، وحصرُ القوات وإحصاؤها صعب في الظروف الاعتيادية!؟

وكيف يمكن إحصاء الخسائر بالأرواح في الحرب، وهركَرٌ وفَرّ لا تستقر علىٰ قرار ولا تعطي الوقت الكافي للإحصاء؟!

وهدف الأجنبي الحاقد مفهوم، أما هدف المؤرخ العربي المسلم الذي يستسلم للتشكيك المريب فغير مفهوم، إلّا أن يكون الناقل جاهلًا، يستورد تاريخ العرب والمسلمين من المصادر الأجنبية دون فهم ولا تمحيص.

أو يكون الناقل ملوّث العقل بما قرأه في المصادر الأجنبيّة، فلوّث بالعدوىٰ عقول تلاميذه وطلّابه في المؤسسات التعليميّة وقرائه وسامعيه.

ولا ينبغي السّكوت عن الجهل الذي أدّى إلى تلويث عقول فلذات أكبادنا التلاميذ والطلاب، وإخواننا الدّارسين والسامعين العرب المسلمين.

إنّ القوّات العربية الإسلاميّة التي كانت تشهد الحروب، يسودها النظام الدقيق منذ مغادرة المقاتل بيته حتى يشتبك في القتال، ثم يعود إلى بيته سالماً إذا وضعت الحرب أو زارها أو يسقط شهيداً، فهو لا يخرج وحده من بيته إلى ميدان القتال، بل مع جماعة من إخوانه المجاهدين، وغالباً ما يكونون من عشيرته أو قبيلته أو قومه.

وللسّيطرة على المقاتلين الذين غادروا ديَارهم، وللتعاون الوثيق بينهم في حلهم وترحالهم وقبل القتال وفي أثنائه وبعده، يكون على كلِّ عشرة مقاتلين عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب من عشيرة المقاتلين أو من قبيلتهم أو من قومهم.

ويمضي بناء القوات العربيّة الإسلامية الهرميّ في تصاعده قُدُماً، فيكون على كلِّ عشرة نقباء أمير هو أمير الألف (كردوس)[1]، وعلى كل عشرة

(١) الكردوس: جمعها كراديس، ومعناها الكتيبة، وهي كلمة يونانية في الأصل (Koortis).

أمراء أمير الجيش، وهو أمير عشرة آلاف فصاعداً وهو قائد الجيش الذي يتولى قيادة جيش المسلمين في قطر من الأقطار أو إقليم من الأقاليم الإسلامية ويكون عادة والي القطر أو الأقليم الذي يطلق عليه عادة لقب: الأمير.

وكلّ جزء من أجزاء الجيش، اعتباراً من العريف الذي يقود عشرة رجال، يتألّف من جنود ينتسبون إلى عشيرة واحدة أو قبيلة واحدة كعشيرة بني سعد من قبيلة بني تميم (مثلًا)، وقائدهم من رتبة عريف إلىٰ أمير لألف يكون من نفس العشيرة أو نفس القبيلة، قُدِّم على رجاله لتقواه واستقامته وشجاعته وإقدامه وكفايته وإخلاصه، فإذا كان من رؤساء العشائر أو رؤساء القبائل مَنْ يتَسِم بتلك السِّمات القيادية، فُضِّل علىٰ غيره في قيادة عشيرته أو قيادة قبيلته، أما إذا لم يتّسم بالسِّمات القيادية المطلوبة، فيفضّل عليه غيره من أفراد عشيرته أو قبيلته، وكثيراً ما تبرز السِّمات القيادية للرجال في القتال، فتقدِّمهم أعمالهم وتلفت إليهم الأنظار، والقتال أهمَ محكِ لسِمات الرِّجال القياديّة.

والقادة بمختلف رتبهم ومناصبهم ـ عدا أمير الجيش ـ يعيشون في أيام السّلام في بلد واحد مع رجالهم، فقد قسم المسلمون البلاد إلى أجناد في القواعد الإسلاميّة الرئيسة، وكان جند كلِّ قاعدة ينقسم باعتبار العشائر والقبائل، فكانت البصرة (مثلًا) خمسة أقسام تسمى: الأخماس، يقيم في كلِّ خمس منها قبيلة من القبائل العربية وهم: الأَزْد، وتَميم، وبَكْر، وعبد القيس، وأهل العالية، وهم أهل المدينة المقيمون، وكانوا من قريش وكِنَانة والأَزد وبَجِيْلة وخثعم وقيس عَيْلان كلِّها ومُزَيْنة، وكان على كلِّ خمس أمير من أمراء تلك القبائل.

أما في أيام الحرب، فتبدأ سيرة القادة مع رجالهم ابتداءً من رحلتهم إلى ميدان القتال، فيكون اتصال القادة برجالهم في مرحلة مسير الاقتراب من القاعدة إلى الهدف، وفي المعسكرات في مراحل التنقّل، وفي المعسكرات

المتقدِّمة قبل نشوب القتال، وفي القتال، وبعده، وفي مسيرة العودة إلى الوطن.

ولا يمكن أن يكون الاتصال المباشرة وثيقاً بمثل هذه الدرجة بين القائد ورجاله في أيام السّلام والحرب معاً حتىٰ في الجيوش الحديثة لكلِّ الأمم بدون استثناء، وعلى هذا يكون التعارف بينهم وثيقاً إلى أبعد الحدود.

كما كان يجري إحصاء الجند وتسجيلهم بالأسماء في ديوان الجند الذي يطلق عليه: الديوان، وبموجب هذا الديوان يتقاضى الجند أعطياتهم ما داموا على قيد الحياة، فإذا قتلوا رُقِّن قيدهم في الديوان، وهذا الديوان إحصاء دقيق للجندوهم إحياء، وإحصاء دقيق لهم إذا قتلوا، وطالما سمعنا القادة يقول: «بلغ ديواني مائة ألف وهكذا، وقبل المعركة يستعرض القائدُ الجند، فيسأل عن رجلٍ رجلٍ، مَنْ هو؟ وما هي قبيلته وعن حاله وسلاحه، فإذا مرّ الجندي بالقائد العام بحضور قائده المرءوس رمى بسهم في مكان معيّن، ثم مضىٰ إلىٰ سبيله، فإذا نشب القتال، ثم انتهت المعركة استعرض القائد العام الجنود من جديد، فيأخذ كل جندي بعد استعراضه سهماً واحداً وبعد انتهاء العرض يبقى عدد من الأسهم في مكانها المعيّن لم يأخذها أحد، وهي بعدد القتلىٰ الذين سقطوا في المعركة من الشهداء، وهذا الاستعراض إحصاء بالغ الدقّة لتعداد الجنود قبل المعركة، وتعدادهم بعد المعركة من جراء القتال، هذا بالإضافة إلى تَعدادهم بالديوان، ومعرفة كلّ قائد وبخاصة العرفاء تعداد جنوده الذين شهدوا المعركة وعدد خسائره من الجنود في القتال، وأخيراً فإنّ العريف مسئول عن ترقين أسماء الشهداء من الديوان بعد المعركة، لتتوقّف أعطياتهم وتنقل إلى أهليهم الأحياء.

فإذا لم تكن كلّ هذه الإجراءات الدقيقة كفيلة بمعرفة تعداد الذين شهدوا المعركة وتعداد الخسائر بدقّة متناهية، فلا نعرف كيف يتم الإحصاء الدقيق!!

وما يقال عن تعداد المقاتلين العرب والمسلمين، يقال عن تعداد المقاتلين من الرّوم والفرس. وما يقال عن تعداد خسائر العرب والمسلمين

في كلِّ معركة من المعارك، يقال عن تعداد خسائر الروم والفرس أيضاً. ولكن دقة تعداد العرب والمسلمين أكثر دقّة من تعداد الفرس والروم، نظراً لعلاقة القربى بين القادة وجنودهم واتصالهم المباشر بكل شيء. ومما تقدّم نستطيع أن نتبيّن بوضوح وجلاء، أنّ التّشكيك في تعداد المقاتلين وخسائرهم من الجانبين، لا يدلّ إلّا على الحقد الأسود أو الجهل المطبق.

وإذا كنّا لا نطمع في الحدِّ من حقد الأجنبيّ اليهودي أو المبَشِّر الصليبي أو الجاسوس علىٰ أمور المسلمين فلا أقلّ من أن نعيد المغرّر بهم من العرب والمسلمين إلى طريق الحق والصواب.

٦ ـ المحافظة على حقائق التاريخ:

أعاد قسم من الأخوة العسكريين كتابة بعض معارك الفتح الإسلامي بخاصة كمعركة القادسية ومعركة اليرموك ومعركة نهاوند التي أُطلق عليها بحق: معركة فتح الفتوح، ومعركة حصن بابليون فحملوا تلك المعارك ما لا تطيق وما لا ينبغي أن تتحمّل، إذ جعلوا منها معارك حديثة من آخر طراز، وما هي كذلك ولا يمكن أن تكون كذلك، وشتّان بين معركة جرت قبل خمسة عشر قرناً، وبين معركة جرت قبل سنوات معدودات.

وقد تتشابه المعركة القديمة والمعركة الحديثة في تطبيق قسم من مبادىء الحرب المعروفة التي لا تتغيّر، أما في أساليب القتال، فالتّشابه بينهما غير وارد، لاختلاف الأساليب القتالية باختلاف الأسلحة المستخدمة في القتال وتطوّرها وتعداد المقاتلين وتنظيمهم وتسليحهم وتجهيزهم باختلاف عقائدهم القتالية.

والأساليب القتالية تتغيّر عبْر القرون، أما مبادىء الحرب فثابتة لا تتغيّر.

والدروس المستنبطة من معارك الفتوح الإسلامية بالنسبة لمبادىء الحرب الثابتة قيمة جداً ومفيدة للغاية، وبالإمكان أن نقنع بهذه الفائدة

الكبيرة دون أن نجعل من المعارك بعد إعادة كتابة تاريخها تحافظ على اسمها التاريخي فقط ولا تحتفظ بمضمونها التاريخي الأصيل.

وإذا لم يستطع الذين يعيدون كتابة معارك الفتوح وغيرها من المعارك، أن يحتفظوا بالحقائق التاريخية ويحافظوا على أصالتها، فما أعادوا كتابة تاريخ تلك المعارك، بل مسخوا تاريخها مسخاً وشوّهوه تشويهاً، والأفضل لهم وللمسلمين وللتاريخ أن يُريحوا ويستريحوا.

ومن الصعب جداً أن نقارن بين معركة إسلامية جرت قبل خمسة عشر قرناً، وبين معركة حديثة جرت في الحرب العالمية الثانية (١٣٥٨هـ - ١٣٦٥هـ) أي (١٩٣٩م - ١٩٤٥م)، من ناحية التفاصيل والأساليب القتالية المتغيّرة أبداً، وزجّ هذه المقارنة بمناسبة وبدون مناسبة في مثل هذا الموقف خطأ لا مسوِّغ له في أي حال من الأحوال.

والذين يقعون في مثل هذا الخطأ، يحسبون أنّهم يحسنون صُنْعاً، بحجّة أنّهم يثبتون سبق المسلمين في هذا الميدان، وما أحسنوا بل أساءوا إساءة بالغة، لأنهم جعلوا من العسكريّة الإسلاميّة ذنباً للعسكرية الأجنبية، وهي ليست ذنباً بل رأساً، وقد يقتبس الحديث من القديم، والعكس ليس صحيحاً بل مستحيلاً، كما أن العسكريّة الإسلاميّة رائدة، لأنها استطاعت فتح بلاد شاسعة تضم في الوقت الحاضر سبعاً وثمانين مملكة وجمهورية وإمارة ومشيخة ومستعمرة في آسيا وأوروبا وأفريقية ولو لم تكن عسكرية رائدة لما استطاعت بمثل هذه السرعة المذهلة تحقيق كلّ هذه الانتصارات السريعة الحاسمة الباهرة الباقية.

ولست أجهل أنّ حسن النيّة وإسباغ المفاخر على المعارك الإسلامية حباً بالعرب والمسلمين من أسباب الوقوع في هذا الخطأ الشنيع.

ولكنني أخشى أن تكون من أسبابه ابتلاء عقول قسم من الذين أعادوا كتابة تاريخ الفتوح الإسلاميّة من عسكريين ومدنيين عرباً ومسلمين بالاستعمار الفكريّ البغيض، وانبهارهم الخطر بالعسكرية الأجنبيّة واعتمادهم في إعادة كتابة تاريخ المعارك الإسلاميّة على المصادر الأجنبيّة وحدها.

إنّ المطلوب من الذين يعيدون كتابة تاريخ المعارك الإسلامية، المحافظة على حقائق التاريخ وأصالة المعارك، بأسلوب حديث ومنهج واضح.

والمطلوب منهم أن يبقوها عربية إسلامية، ولا يمسخوها أعجميّة أجنبية!

● ● ●

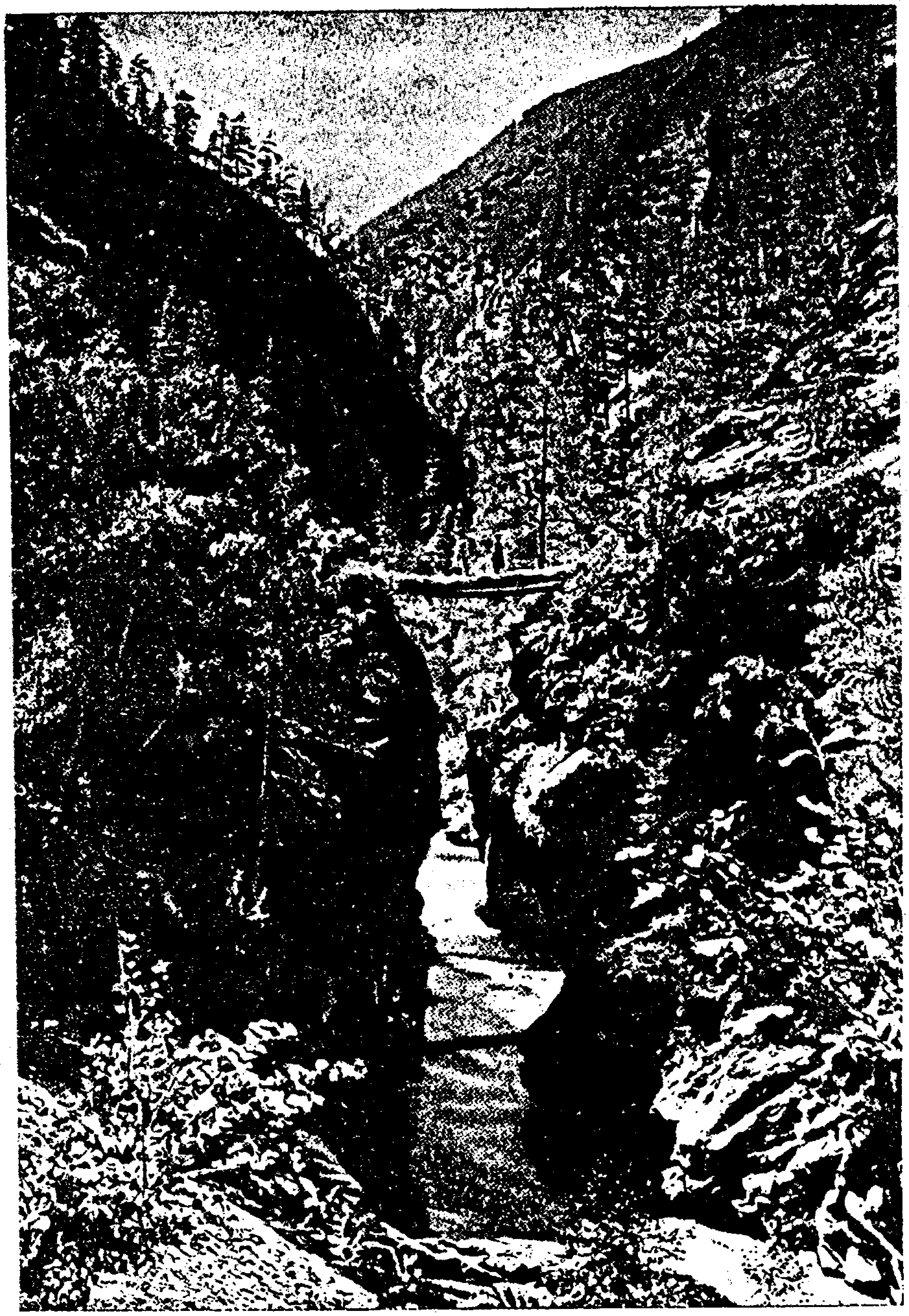

منظر أحد الوديان بجبال القوقاز

أَرْمِيْنِيَة
قبل الفتح الإِسلامي وفي أيامه

الطبيعة:

١ ـ الموقع والأقسام:

تقع إرْمِيْنِيَة جنوب القوقاز، في الشمال الشرقي من هضبة الأنضول، وهي إقليم جبليّ[١]، تمتدّ من مدينة (بَرْذَعَة) إلى (باب الأبواب) شرقاً، ويقطعها (أي يحدّها) جبل (القَبْق) ـ وهو القفقاس الكبرى حالياً ـ من جهة الشمال، وبلاد الرّوم غرباً[٢]، وبلاد العراق وبعض حدود الجزيرة[٣] جنوباً.

وهذه الحدود العامة، تعطي صورة تقريبيّة عن حدود إرْمِيْنِيَة في أيام الفتح الإسلامي، وكانت حدودها الغربيّة بخاصة تقررها الأوضاع السائدة بين الفُرس والروم.

ويتكوّن إقليم إرْمِيْنِيَة من أربعة أقسام إدارية.

إرمينية الأولى: تتكوّن من (السِيْسَجَان) و (أَرَّان) و (تَفْلِيْس) و (بَرْذَعَة) و (البَيْلَقَان) و (قَبَلَة) و (شَرْوَان).

وإرمينية الثانية: تتكوّن من (جُرْزَان) و (صُغْدَ بِيْل) و (باب فَيْرُوز قُبَاذ) و (اللّكز).

---

(١) القاموس الإسلامي (١/ ٧٣).

(٢) مختصر كتاب البلدان (٢٨٦) وصبح الأعشى (٤/ ٣٥٣).

(٣) الأصطخري (١٨١) وصورة الأرض (٢/ ٣٣١).

وإرمينية الثالثة: وتضمّ (البُسْفرَّ جان) و (دَبِيْل) و (سِراج طَيْر) و (بَغْرَوَنْد) و (نَشْوَى).

وإرمينية الرابعة: وتشمل (شِمْشَاط) و (خِلاط) و (قَالِيْقَلا) و (أَرجِيْش و (باجُنَيْس)[1].

والجغرافيون العرب والمسلمون القُدامى، متّفقون على هذا التقسيم، ولكنهم مختلفون على التفاصيل، واختلاف الجغرافيين الذين جاءوا بعد جغرافيي القرن الرابع الهجري هو بإضافة أسماء المدن الجديدة التي أنشأها المسلمون بعد الفتح.

٢ ـ الجبال:

أ ـ يتكوّن سطح إقليم إرمينية من هضبة ترتفع بصورة تدريجّية من المنخفض الأوسط الذي يجري فيه نهر (الرَسّ) إلى جهة الغرب، حيث تشكِّل القسم الشرقي من هضبة الأنضول، ويبلغ أوج ارتفاعها عند سهل مدينة (أَرْضرُوم) التي كان يطلق عليها قديماً: مدينة (قَالِيْقَلَا)، وتتكوّن هذه الهضبة من مرتفعات جبلّية يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر بين (١٥٠٠م ـ ١٨٠٠م).

ويقطع الأقليم عدّة سلاسل جبليّة ضخمة تشغل جزء كبيراً من مساحة الأقليم.

ب ـ وجبل (القَبْق): يمتدّ من شمالي الإقليم ويُعَدّ من أعظم جباله، ويتكوّن من عدّة سلاسل جبليّة تمتد عموماً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشّرقي بصورة متوازية على الأخص في القسم الغربيّ منها، حيث تمتدّ إلى السّاحل الجنوبي الشرقيّ للبحر الأسود (بُنْطُس). أما اتجاهها نحو الجنوب الشرقيّ فيمتدّ إلى أن يتعامد على بحر (قَزْوِيْن) وهو بحر (الخَزَر)، حيث

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٢٢).

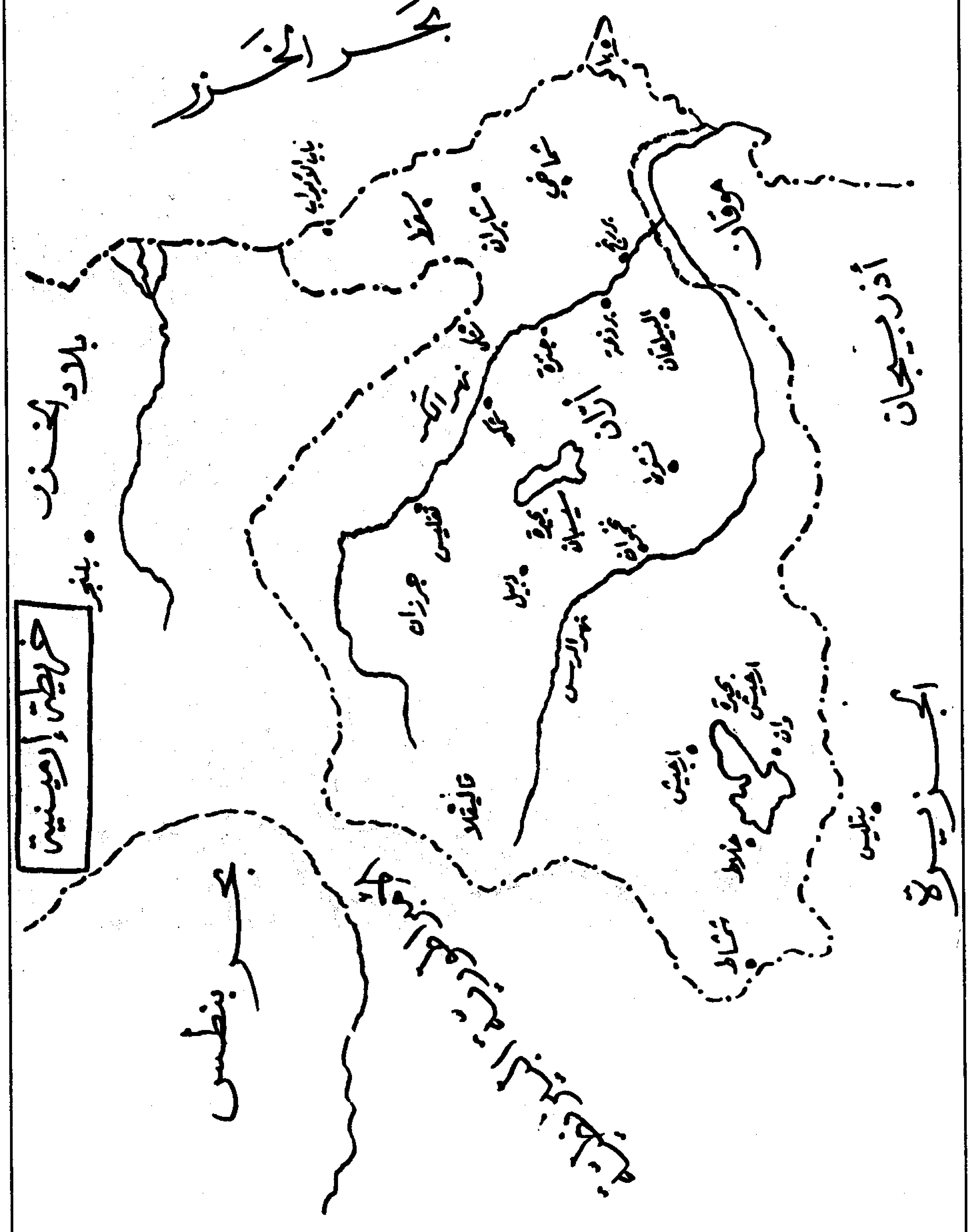

خريطة أرمينية

ينتهي على بعد ثلاثة أميال منه، ويترك سهلًا ساحلياً ضيِّقاً بينه وبين البحر[1].

ويبلغ متوسط ارتفاعه عن سطح البحر بين (٢٧٠٠م - ٣٦٠٠م) ويضمّ قمماً يتجاوز ارتفاعها (٤٥٠٠م)، ويبلغ طوله (١٢٠٠كم)[2].

ويقطع هذا الجبل ممّران: الأول عن طريق مدينة (باب الأبواب)[3]، والثاني عن طريق باب (اللّان)، ويطلق عليه حالياً ممر (دَارْيِيْل)[4]، وقد استخدم هذان الممران في الماضي والحاضر للتنقّل بين جانبي جبل القفقاس[5]، وللعمليات العسكرية غزواً وفتحاً.

جـ - جبل الحارث والحُوَيرث[6]: ويسمى (القوقاز الصغرى)، ويمتدّ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويتكوّن من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهو القسم الجنوبي الشرقي الذي يبدأ من وادي نهر (الرَسّ) بسلسلتين من موضعين متباعدين، ثم تضيق المسافة بينهما تدريجياً حتى يلتقيا ويحصرا بينهما بحيرة (سيفان).

والقسم الثاني: يتكوّن من جبال القوقاز الصغرى والوسطى من قوس جبلي يتّجه نحو الجنوب ويصعب اجْتيازه.

والقسم الثالث: يتكوّن القسم الأخير من هذا الجبل من جبال معقدة التكوين، يتَصل من جهة بجبال مدينة (قالِيْقَلا) وهي جبال (الله أكبر) حالياً،

---

(١) الأعلاق النفيسة (١٤٨)، ويراد بكلمة القبق: الأمير، انظر تاريخ القوقاز (٢٥/٠).
(٢) تاريخ القوقاز (١١).
(٣) باب الأبواب: دربند.
(٤) الموقع الجغرافي للعراق (٣٠٠)، ويسمى ممر (داريال)، انظر تاريخ القوقاز (١٥).
(٥) الموقع الجغرافي للعراق (٣٠٠).
(٦) نسب الجبل إلى الحويرث بن عقبة والحارث بن عمرو الغنويين اللذين شهدا مع سلمان بن ربيعة الباهلي فتح إرمينية، انظر معجم البلدان (١٩٨/٣).

ومن جهة أخرى يتّصل بجبال (أكاري داغ) التي تعرف باسم: جبل (سورام).

د - جبل كوه سيبان: يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة (خِلَاط)، وهو جبل شاهق مكتظ بالسكّان، تغمره الثلوج طيلة السنة.

٣ - الأنهار:

أ - نهر الكُرّ: ينبع من كورة (جُرْزَان) وهي (جُورجيا) الحاليّة في الجهة الغربيّة لمدينة (تَفْلِيْس) من جبال تدعى حالياً: (جليدير)(١)، ويأخذ الاتجاه الشرقي في مجراه، ويمرّ بمدينة (تَفْلِيْس) فيقسمها إلى قسمين، ثم يمرّ بمدينة (خُنَان)(٢)، ثم يجري إلى مدينة (شَكّى)(٣)، وتقع مدينة (جَنْزَة)(٤) و(شَمْكور)(٥) إلى جانبه، ويمرَ بالقرب من مدينة (بَرْذَعة)، ثمّ يصل إلى مدينة (بَرْزَنْج)، ثم يتّجه نحو سهل (أرّان) فيجري فيه حتى يجتمع بنهر (الرَسّ)، ويبلغ طوله من منبعه حتى التقائه بنهر (الرَسّ) نحو (٩٤٠كم).

ب - نهر الرَسّ: ينبع من جبال (بنكول داغ) في غرب إرمينية، ثم يتّجه في جريانه نحو الشّرق نحو مدينة (دَبِيْل)، ومنها إلى كورة (أرّان) حيث يصب به نهر (أرّان)، ثم يمرّ بعدها بصحراء (البلاسجان)، وهي صحراء إلى شاطىء البحر، فيكوّن هناك الحدود الطبيعية بين إقليم (أَذْرَبِيْجَان) وإقليم إرمينية وأرّان، فما جاوره من ناحية المغرب والشمال فهو من أرّان، وما كان من جهة المشرق فهو من أذربيجان.

---

(١) تاريخ القوقاز (١٣).

(٢) خنان: مدينة من بلاد جُرزان، انظر معجم البلدان (٣/ ٤٦٨).

(٣) شكى: ولاية بأرمينية، انظر معجم البلدان (٥/ ٢٨٦).

(٤) جنزة: أعظم مدينة بأرّان، وهي بين شروان وأذربيجان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٥١).

(٥) شمكور: قلعة بنواحي أرّان، بينها وبين كنجة يوم واحد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٩٥).

ويقترب النهر من مدينة (وَرْثَان) وهي من أعمال أذربيجان ويمرّ بها، ثم يجتمع بعد ذلك في نهر (الكُرّ) بالجمع، ويكونان نهراً واحداً يصبّ في بحر الخزر، ويبلغ طول النهر (٥٥٠ ميلًا).

جـ ـ نهر الفُرات: ينبع من جبال (قَالِيْقلا)، وينحدر جنوباً حيث يسمى: (قَره صو)، وبالقرب من مدينة (مُلْطية)[١] يتّصل به فرع آخر ينبع من تركيّا الحالية يسمى: (مرادصو)، ويستمر النهر بالجريان حتى يدخل بلاد الشّام، ثم يدخل العراق حتى يلتقي بنهر دجلة في شط العرب، الذي يصب في الخليج العربي.

٤ ـ البحيرات:

أهمها بحيرة (أَرْجِيْش)، وتسمى بحيرة (وَانْ) حالياً، وتقع إلى الجنوب من مدن: (بركري)، و (خِلَاط) و (أَرْجيش) وشرقي مدينة (خِلاط) على مسافة يوم منها في سهل إرمينية، ويبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر (٥٦٤٠ قدماً)، ويبلغ عمقها (٩٩٠٠قدماً)، وقد تكونّت نتيجة لثوران البراكين.

وماء هذه البحيرة صالح، ولهذا لا تستطيع الحيوانات المائية كالضفادع والسرطان العيش فيها، أما الأسماك فتظهر في أثناء الفيضانات لمدة شهرين فقط.

ويعد بحيرة (وان) في الأهميّة، تأتي بحيرة (سيبان) وتقع في سهل (أرّان) بين التقاء جبلي الحارث والحويرث، ويبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر (١٤٥٤٠ قدماً)[٢].

---

(١) ملطية: بلدة من بلاد الروم (تركيا) مشهورة مذكورة تتاخم بلاد الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٥٠).

(٢) انظر التفاصيل في: فتح العرب إرمينية (١٩ ـ ٣٥).

السُكّان:

١ ـ الخَزَر:

من أكبر الأمم التي سكنت هذا الأقليم وأقواها، وهم قوم من أصل تركي[١]، ولكن لغتهم ليست تركية ولا فارسية، بل هي لغة خاصة بهم، لا يشاركهم فيها فريق من الأمم. والخزر لا يشبهون الأتراك، فهم سود الشعور، وهم صنفان: الخزر البيض، والخزر السُّمر (قره خزر)[٢]، ويبدو أنّ لغتهم القديمة كانت اللغة التركية، ولطول مدة اختلاطهم بالأمم الأخرى وابتعادهم عن الأتراك، تطورت لغتهم وأصبحت لغة خاصة بهم، تختلف عن التركية واللّغات المحليّة الأخرى، ولو أنها لا تخلو من مفردات تركية ومفردات محليّة. وقد استقر الخزرُ في المنطقة التي تقع خلف مدينة (باب الأبواب) على الساحل الشمالي الغربي من بحر قَزوين (بحر الخزر) بالقرب من مصب نهر (الفولغا)[٣]، التي تعرف ببلادالخزر، وهي تمتدّ إلى جبال القفقاس في شمال بحر الخزر من جهة وإلى إقليم (خُوارِزْم) من (خُراسان)[٤] من جهة أخرى. (وإتِل) اسم مدينة واسم (نهر) أيضاً، والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة، والأتِل قطعتان: قطعة على غربي هذا النهر المسمى (إتل) وهي أكبرهما، وقطعة على شرقيّه، والملك يسكن الغربيّ منها[٥]، ونهر (إتِل) هو نهر (الفولغا) الذي يجري إلى بلاد الخزر من بلاد الروس والبلغار. والخزر نصارى ويهود ووثنيون، وانتشر الإسلام بينهم بعد الفتح الإسلامي.

وكانت علاقة الخزر بالرّوم علاقة طيِّبة وبخاصة في المدة التي سبقت

---

(١) إيران في عهد الساسانيين (٤٣١).

(٢) معجم البلدان (٣/ ٤٣٤)، وانظر القاموس الإسلامي (٢/ ٢٣٣).

(٣) القاموس الإسلامي (٢/ ٢٣٣).

(٤) الخراج وصنعة الكتابة لقدامة (٢٥٩).

(٥) معجم البلدان (٣/ ٤٣٣)، وانظر معجم البلدان (١/ ١٠٣) حول مدينة إتل ونهر إتل.

الفتح الإسلامي لإقليم إرمينية، حيث أجرى الأمبراطور هرقل مفاوضات معهم أسفرت عن عقد حلف بين الطرفين، وأصبح الخزر حلفاء الروم، وبالفعل حاربوا الفُرس في أرض القوقاز وإرمينية[١] في سنة (٦٢٧م)، ثم حاصروا مدينة (تفليس) واستولوا عليها، في الوقت الذي هبّ فيه هرقل لشن هجوم جديد على الفرس، ولعلّ العداء المستحكم بين الخزر والفرس هو الذي ساعد على توطيد العلاقات بينهم وبين الروم.

وهكذا تناوب على حكم إقليم إرمينية الروم والفرس والخزر حتى مطلع القرن السابع الميلادي عند ظهور الإسلام، إذ استطاع الروم بقيادة هرقل استعادة بعض أجزاء إقليم إرمينية من الفرس[٢].

وكان موقف الخزر من الفتح الإسلامي عدائياً، فانضموا إلى جانب القوات البيزنطية التي قاومت الفاتحين دون جدوى.

٢ ـ الأكراد:

الآثار القديمة الخاصة بالأكراد، المكتشفة حتى اليوم، لا تعطينا فكرة قاطعة عن أصل الأكراد ومنشئهم[٣]، ومن المحتمل جداً أنّ الأكراد هاجروا في الأصل من شرقي إيران إلى الغرب في منطقة كردستان واستوطنوا فيه منذ فجر التاريخ، وهذا لا يمنع وجود أقوام في تلك المنطقة قبل الهجرة إليها، فاختلط الشعب الوافد بتلك الأقوام واندمج فيها اندماجاً كلياً، فصاروا أمة واحدة على مدى الأيام[٤].

وقد ورد ذكر الأكراد في المصادر الأرمينية[٥]، وكانوا موجودين في إرمينية في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد في منطقة بحيرة (وان)، وفي

---

(١) الروم (١/ ٢٢٧).
(٢) إيران في عهد الساسانيين (٤٣١).
(٣) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٠).
(٤) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤١).
(٥) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٥).

القرن الأول قبل الميلاد استولى (ديكران) الثاني على منطقة الأكراد[١]، ولا بدّ أنّ مدينة (خِلاط) الواقعة على الضفة الشمالية لبحيرة (وان) تحتوي على آثار وعاديات تخلّفت من الأكراد[٢].

كما انتشر الأكراد في منطقة (أرّان) والراجح أنّهم نزحوا إليها وإلى (إرمينية) من (أَذربيجان)، وقد قاتلهم سليمان بن ربيعة الباهليّ عند فتح كورة (أرّان)، فأسلم قسم منهم وأدّى عدد قليل منهم الصدقة[٣].

٣ ـ اللَّكز:

قوم لهم لغة خاصة بهم ولهم قوّة وشوكة، وباسمهم سُمِّيت بليدة خلف مدينة (باب الأبواب)[٤]، يقطنون جبل (القَبْق) وهو جبل القفقاس الكبرى، بالقرب من مدينة (باب الأبواب)[٥]، وهم ذوو خلق وأجسام ولهم أرض واسعة وكور مأهولة، ومجتمعهم يتكوّن من طبقات ثلاث: الطبقة الأولى طبقة الملوك، والثانية طبقة الخماشرة، والثالثة من الأكرة والمهان[٥].

٤ ـ الضَّارِية:

تمتد بلادهم بين قلعة باب اللّان ومدينة تَفْلِيس، ومن المحتمل أن يكون أصلهم عرباً[٦]، بحجّة أنهم أيدوا العرب المسلمين في أيام الفتح الإسلامي، وقد أيّدت كثير من الأقوام الفتح وهم ليسوا عرباً. وقد استنصر بهم هرقل في هجومه على أقاليم فارس[٧]، وهذا دليل على قوتهم العسكريّة، مما جعلهم مستظهرين على جيرانهم من الأمم، وكانوا قبل الإسلام نصارى.

---

(١) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٤).
(٢) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (٤٦).
(٣) البلدان لابن الفقيه (٢٩٣).
(٤) معجم البلدان (٧/ ٣٣٧).
(٥) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٢٤).
(٦) المسالك والممالك للإصطخري (١٨٦ ـ ١٨٧).
(٧) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (٢).

وقد صالحهم حَبِيْبُ بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ، وكانوا مع المسلمين مدّة الحكم الأُموي، ولكنهم نقضوا أيام العباسيين، فحاربهم المنصور والرشيد، فخضعوا للعباسيين أيضاً وأدوا الخراج[(١)].

٥ ـ الدُّودانِيَّة:

يدّعون بأنهم ينتسبون إلى دُوْدَان بن أَسَد بن خُزَيْمَة[(٢)] فهم عرب، ومن المحتمل أنهم من العرب الذين نقلهم كسرى أنوشروان من بلاد العرب إلى كور أرّان للدفاع عن بلاده من خطر الخزر، فبنى لهم الحصون والقلاع، وأطلق عليها: أبواب الدُّودانِيَّة[(٣)].

وقد صالحهم حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ عند فتح إقليم إرمينيَة[(٤)].

٦ ـ الصُّغْد:

قوم من فارس، يقطنون منطقة مدينة (صُغْدبِيْل) التي تقع على نهر (الكُرّ) في الجانب الشرقيّ منه قبالة (تفليس) والتي بناها كسرى أنوشروان وأنزلها قوماً من أهل الصُّغْد من أبناء فارس، وجعلها مَسْلحة[(٥)].

وقد حصّن (الصُّغْد) منطقتهم لحمايتها من هجمات الخزر وغيرهم.

٧ ـ الأرمن:

سكّان إرمينية الأصليون، وهم ينتسبون إلى الجنس الآري[(٦)]، وكانوا يعيشون في البلقان، ثم استوطنوا آسيا الصغرى[(٧)]، وكانوا يعيشون حوالي مدينة (قُونِيَة) و (قَيْصَرِيَّة) ومنها اتجهوا نحو جبال (أرارات)، واستمرّ

---

(١) انظر التفاصيل في: فتح العرب إرمينية (٤٥ ـ ٤٧).

(٢) فتوح البلدان (٢٧٤).

(٣) فتوح البلدان (٢٧٤).

(٤) فتوح البلدان (٢٨٥).

(٥) معجم البلدان (٥/ ٣٦٤)،

(٦) تاريخ القوقاز (٢٠).

(٧) تاريخ أرمينيا (٦).

تقدّمهم إلى جوار مدينة (أرضروم) وهي (قالِيقَلا) في القرن السادس. قبل الميلاد حتى بحيرة (وان) وحوض (نهر الكُرّ)[1].

٨ ـ لغات السكّان:

يتكلّم أكثرية سكان إرمينية اللُّغة الفارسية ثم العربية[2]، والذين يتكلّمون الفارسية لا يستطيعون التخاطب باللّغة العربية، عدا التجار وأصحاب الصناعات فإنهم يجيدون العربية ويتخاطبون بها بطلاقة. أما سكان مدينة (دَبِيْل) و (نَشَوى) وضواحيهما فيتكلّمون الأرمينيّة[3] وكذلك سكّان منطقة مدينة تَفْلِيْس[4].

وقد تعّددت اللُّغات في جبل (القَبْق)، فهناك اثنتان وسبعون لغة فيه لا يفهم بعض سكانها بعضاً إلّا بترجمان[5].

الكُوَرُ[6] والمدن:

١ ـ كورة أَرّان:

تمتدّ من مدينة (باب الأبواب) في الشمال الشرقي لأقليم إرمينية إلى مدينة (تَفْلِيْس) غرباً، ويحدّها نهر (الرّسّ) من الجنوب والجنوب الغربي[7].

ويعتبر نهر (الرّسّ) الحّد الفاصل بين كورة (أرّان) وإقليم أَذْرَبِيْجَان،

---

(١) تاريخ القوقاز (٢٠).

(٢) المسالك والممالك للإصطخري (١٩١ ـ ١٩٢).

(٣) المسالك والممالك للإصطخري (١٩٢).

(٤) مراصد الاطلاع (١/٢٠٧).

(٥) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (٢٩٥).

(٦) الكور: جمع كورة، وهي كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٦)، والكورة تطابق المحافظة في المصطلحات الإدارية الحديثة.

(٧) المسالك والممالك للإصطخري (١٩٠).

وأنّ كل ما يجاوره من ناحية المغرب والشمال فهو من (أرّان)، وما كان من جهة المشرق فهو من أَذْرِبِيْجان[1].

وكورة أرّان من أعمال إرمينية الأولى كما ذكرنا سابقاً، وأهمّ مدن أرّان هي:

أ ـ مدينة بَرْذَعَة:

هي قاعدة كورة أرّان[2]، وتقع على بعد ثلاثة فراسخ من نهر الكُرّ[3]، وتشرب من جدول صغير يستمدّ مياهه من نهر (الثُّرْثُور) الذي يبعد عنها فرسخاً تقريباً[4].

تقع هذه المدينة في أرض سهلة خصبة[5]، لها سور قويّ فيه عدّة أبواب، وقد حاصر سلمان بن ربيعة الباهلي المدينة فلم يستطع اقتحام سورها، ولم يتمّ له فتحها إلّا بعد أن صالحه أهلها[6].

وبقيت هذه المدينة محتفظة بمركزها عاصمة لكورة أرّان حتى بعد فتحها، حيث كانت مركزاً للأمير المسلم الذي يتولّى إقليم إرمينية.

ب ـ مدينة باب الأبواب:

تقع على ساحل بحر الخزر (قزوين)، في أرض سهلة خصبة، وتنتهي حدودها عند جبل (القَبْق)، وتشرف على وادٍ عميق في جبل القَبْق، ولا يستطيع أحد العبور بين جانبي هذا الجبل إلّا من تحتها. وموقعها الممتاز هو الذي أعطاها أهميتها السَّوْقِيّة، فهي أهم المنافذ الذي توصل بين جانبي هذا الجبل.

---

(١) معجم البلدان (١/ ١٧٠).
(٢) معجم البلدان (٢/ ١٢٠).
(٣) معجم البلدان (٢/ ١٢٠).
(٤) معجم البلدان (٣/ ١٠ ـ ١١).
(٥) أحسن التقاسيم (٣٧٥).
(٦) فتوح البلدان (٢٨٥).

وقد أدرك الفرس أهمية موقع هذه المدينة لحماية أقاليمهم في منطقة القوقاز من هجمات الخزر والترك، فبنى كسرى قباذ بن فيروز في هذه المنطقة سداً بين شروان وباب اللّان كما بنى عدداً من المدن والقلاع، ثم بنى ابنه أنوشروان سُدّاً آخر في هذه المنطقة وسمى باسم سُدّ: (باب الأبواب)، ويمتدّ هذا السُدّ من جبل (القَبْق) إلى بحر الخزر[1].

جـ ـ مدينة البَيْلَقان:

تقع في السَّهل الممتّد بين التقاء نهر (الرسّ) ونهر (الكُرّ)، وهي إحدى المدن الذي بناها قباذ للدفاع عن المنطقة من هجمات الخزر، وهي قريبة من باب الأبواب[2].

د ـ مدينة قَبَلة:

تقع بالقرب من مدينة (باب الأبواب)، أحدثها قباذ بن فيروز[3]، وهي من المدن الدفاعيّة تجاه هجمات الخزر والترك.

هـ ـ مدينة شَمْكُور:

تقع بالقرب من مدينة (بَرْذَعة) إلى الشمال الغربي منها[4] في كورة أرّان، وهي من المدن القديمة[5].

و ـ مدينة بَرْزَنْج:

تقع على نهر (الكُرّ) في جنوب مدينة (بَرْذَعة) في سهل (أرّان) الشَرْقِيّ، وفي هذه المدينة معبر على نهر (الكُرّ) يعبر منه إلى مدينة (شَماخي)، وتعتبر المفتاح الذي يؤدي إلى مدينة (شَماخي) عاصمة (شِرْوان) وإلى مدينة (باب الأبواب) أيضاً[6].

---

(١) انظر التفاصيل معجم البلدان (٢/ ٩ ـ ١٤).

(٢) معجم البلدان (٢/ ٣٤٠).

(٣) معجم البلدان (٧/ ٢٩).

(٤) تقويم البلدان (٤٠٣).

(٥) معجم البلدان (٥/ ٢٩٥).

(٦) معجم البلدان (٢/ ١٢٣).

ز ـ مدينة مَسْقَط:

تقع في القسم الشمالي الشّرقي من كورة (أرّان) بين مدينة (باب الأبواب) و (اللَكَّز) على بحر الخزر، بناه أنوشروان بن قُباذ لما بنى مدينة (باب الأبواب)[1]، فهي مدينة دفاعية لصد هجمات الخزر دفاعاً عن ممتلكات الساسانيين.

ح ـ مدينة شَرْوَان:

تقع قرب بحر الخزر من نواحي مدينة (باب الأبواب)، بينهما مائة فرسخ، بناها كسرى أنوشروان فسميّت باسمه، قصبتها مدينة (شَماخي)[2].

وهي من المدن التي أُنشئت للدِّفاع عن إرمينية ضدّ هجمات الخزر والمعتدين.

ط ـ مدينة الشَّابَرَان:

تقع إلى الجنوب من مدينة (باب الأبواب) في السفوح الشرقية لجبال القفقاس في أرضٍ متموِّجة، بناها أنوشروان[3]، لتكون مدينة دفاعية تصدّ الخزر وغيرهم.

ي ـ مدينة شَكيّ:

تقع على نهر الكر قرب مدينة (تفْلِيس)[4].

٢ ـ كورة السِيْسَجَان:

تقع في إرمينية الأولى[5] في الجهة الغربية لكورة أرّان[6]، أي بين أرّان وكورة جُرْزَان.

---

(١) معجم البلدان (٨/ ٥٤).

(٢) معجم البلدان (٥/ ٢٥٨).

(٣) معجم البلدان (٥/ ٢٠٥) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (١٢٣) والبلدان لابن الفقيه (٢٨٨).

(٤) معجم البلدان (٥/ ٢٨٦).

(٥) فتوح البلدان (٢٧٤).

(٦) معجم البلدان (٥/ ١٩٧).

وكانت تحت نفوذ الخزر مع كورة أرّان والبُسْفُرْجَان وجُرْزان[1]، ثم خضعت إلى نفوذ الفُرس بعد أن افتتح قُباذ ما كان للخزر في إقليم إرمينية. ولما تولى أنوشروان بن قباذ الملك بنى في هذه الكورة بعض القلاع القوية والتحصينات العسكرية لكي تثبت أمام غارات الخزر، وأسكن في هذه القلاع ذوي البأس والنجدة[2].

٣ ـ كورة جُرزان:

هي من أقسام إرمينية الثانية كما ذكرنا سابقاً، وتقع في القسم الشمالي الغربيّ منها، وتعتبر (جُورجِيا) الحالية قسماً من هذه الكورة. وهي منطقة جبلية تلتقي فيها جبال (القَبْق) مع امتداد جبل الحارث والحويرث (القفقاس الصغرى)، وينبع من شمالها نهر (الكُرّ).

استولى عليها الفرس على عهد أنوشروان الذي بنى فيها (صُغدْبِيْل) و (باب لاذِقَة) و (باب بارقة) ثم قصره الذي أسماه: (باب فيروز قُباذ)[3]، وهذه المدن حصون دفاعية لصدّ هجمات الخزر والترك، ولكن الخزر استطاعوا الاستيلاء على هذه الكورة قبل الفتح الإسلامي وبقيت تحت سيطرتهم حتى قدم المسلمون الفاتحون، ففتحها حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِي.

وأهمّ مدن هذه الكورة هي:

أ ـ تَفْلِيس:

قصبة كورة جُرْزَان[4]، تقع في وادي نهر (الكُرّ)، إلى الغرب من مدينة (باب الأبواب)، تحيطها أرض سهلة، وهي مدينة خصبة كثيرة الزروع والفواكه.

---

(١) تاريخ اليعقوبي (١/٢٠٣).

(٢) تاريخ اليعقوبي (١/٢٠٣).

(٣) فتوح البلدان (٢٧٤) ومعجم البلدان (٣/٨٣).

(٤) معجم البلدان (٣/٨٣).

يمرّ نهر (الكُرَ) في وسط هذه المدينة، وهو يقسمها إلى قسمين، ويربط بين جانبي المدينة جسر، ويتكلّم أهل المدينة الأرمينية[1].

ب ـ صُغْدُ بِيل:

تقع على نهر (الكُرّ) من الجانب الشرقي قبالة (تَفْلِيْس)، بناها أنوشروان حيث بنى (باب الأبواب) وأنزلها قوماً من أهل الصُّغْد من أبناء فارس وجعلها مَسْلحة[2].

وهذه المدينة مدينة دفاعية للثبات أمام هجمات الخزر والأتراك.

جـ ـ اللَّكْزِ:

تقع في جبل القفقاس خلف مدينة (باب الأبواب)[3]، واعتبرها الجغرافيون العرب من أقسام إرمينية الثانية[4]، ويسكنها قوم يعرفون باللَّكْز، وهم قوم أشداء أقوياء.

د ـ باب فيروز قُباذ:

قصر بناه أنوشروان له في كورة جُرْزَان بالقرب من حدود بلاد الرّوم[4]، ليكون حاجزاً منيعاً أمام غارات اللان والأتراك[5] والرّوم.

هـ ـ خُنَان:

مدينة من بلاد جُرْزان من فتوح حبيب بن مَسْلَمَة، وتعرف بقلعة التراب لأنها على تل عظيم[6]، وتقع إلى الشرق من مدينة (تَفْلِيس) على بعد اثنين وعشرين فرسخاً عنها، بين نهر الكُرّ وروافده[7].

---

(١) مراصد الاطلاع (١/ ٢٠٧).
(٢) معجم البلدان (٥/ ٣٦٤).
(٣) معجم البلدان (٧/ ٣٣٧).
(٤) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٢٣).
(٥) إيران في عهد الساسانيين (٣٣٨).
(٦) معجم البلدان (٣/ ٤٦٨).
(٧) المسالك والممالك للإصطخري (١٩٣).

و ـ الجَرْدَمان:

قلعة تقع بين مدينة (بَرْذَعَة) ومدينة (تَفْلِيْس) على بعد اثني عشر فرسخاً من شرقي مدينة (تفليس)[1]، على أحد روافد نهر (شَمْكُور)، بناها كسرى أنوشروان لتكون له من جملة المنظومة الدفاعية تجاه اللآن والترك، وهي في سهل يحاذي سهل (الكُرّ)[2].

وهناك بعض المواقع والمدن والقلاع، ورد ذكرها في فتح كورة (جُرْزان) ليس من السهل تثبيت مواقعها الجغرافية منها: جوارح، وكسفربيس، وكِسَال، وسَمْسَخِي، وكستسجي، وشُوشِت، وبازليت، وقد فتح هذه المعالم حبيب بن مَسْلمة الفِهرِيّ صلحاً[3].

٣ ـ كورة البُسْفُرُّجَان:

من أقسام إرمينية الثالثة كما ذكرنا سابقاً، وتقع جنوب كورة (أرّان) في السهل الذي يقع بين منحدرات جبل الحارث والحُوَيْرث (القفقاس الصغرى) في الشّرق وجبل (أرارات) في الغرب، وتمتدّ حدود هذه الكورة إلى مدينة (مُكْس)[4] الواقعة قرب مدينة (قالِيْقَلا) على بحيرة (أرْجِيْش)، ويجري في هذا السهل نهر (الرسّ).

ومن أنهار هذه الكورة نهر الأكراد، ويسمى أيضاً نهر (دَبِيْل)، ويسمى حالياً نهر (أردشاط) الذي تقع عليه مدينة (دَبِيْل)، ويصبّ في نهر (الرسّ)، ومن أهم مدن هذه الكورة.

أ ـ النَّشَوى:

أهم مدن هذه الكورة، تقع في السّهل الممتد بين نهر (الرسّ) في

---

(١) المسالك والممالك للإصطخري (١٩٢).

(٢) فتح العرب إرمينية (٨٨).

(٣) فتوح البلدان (٢٨٥).

(٤) مكس: موضع بأرمينية قرب قاليقلا، انظر معجم البلدان (٨/ ١٣٢).

الجنوب، وبين سفوح جبل الحارث والحُوَيْرِث (القَفقاس الصغرى) على نهر (نَقْجَوان)[1] أو (نَخْجُوان) بلد من نواحي (أرّان) وهي مدينة (نَشَوَى)[2]، بناها كسرى أنوشروان، وكانت قبل الفتح الإسلامي خاضعة للروم، وفتحها حبيب بن مَسْلَمة على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصالح أهلها على الجزية وأداء الخراج.

ب ـ دَبِيل:

هي المدينة الثانية في هذه الكورة، تقع قرب مدينة (يَرفان) الحاليّة. بناها كسرى أنوشروان وحصّنها لتكون حصناً دفاعياً تجاه الروم[3].

ج ـ سِراج طَير:

مدينة من مدن إرمينية الثالثة[4]، ويبدو أنها مدينة دفاعية للروم.

د ـ بَغرَوَنْد:

بلد معدود في إرمينية الثالثة[5]، والظاهر أنه موقع دفاعي للروم.

هـ ـ مُكس:

موضع بأرمينية من ناحية البُسْفُرْجان قرب (قالِيْقَلا)[6].

و ـ أَلْبَاق:

لا ذكر لها إلّا في المسالك والممالك لابن خرداذبّة[7]، ويبدو أنها تقع قريبة من (قالِيْقَلا).

---

(١) انظر معجم البلدان (٨/ ٣٠٧).
(٢) معجم البلدان (٨/ ٢٨٩).
(٣) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٥ ـ ٣٦).
(٤) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٥٨)، وكانت تقع في بلاد الروم قبل الفتح الإسلامي، انظر ابن خرداذبة (١٢٣).
(٥) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٤٥)، وكانت تقع في بلاد الروم قبل الفتح الإسلامي، انظر ابن خرداذبة (١٢٣).
(٦) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٣٢).
(٧) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٢٣).

ح - جُرْنَي:

بلد من نواحي إرمينية قرب (دَبِيْل) من فتوح حبيب بن مسلمة الفِهريّ[1].

ط - أَرْدَشَاط:

تقع جنوب مدينة (دَبِيْل)، من فتوح حبيب بن مَسْلمة، وهي قرية القِرْمِز[2].

ي - ذات اللُّجُم:

منطقة في كورة البُسْفُرُّجان[3]، سميّت بهذا الاسم نسبة إلى لُجُمُ الخيل، وذلك لأنّ المسلمين في أثناء هجومهم لفتح مدينة (تَفْلِيْس) سرّحوا دوابهم وجمعوا لجُمها، فخرج عليهم بغتة سكّان تلك المنطقة وقاتلوا المسلمين وانتصروا عليهم، فسمى هذا الموضع: ذات اللُّجْم. ويظهر أنّ هذه المنطقة تقع في الوادي الذي يصل بين مدينة (دَبِيْل) ومدينة (تفليس) والذي يسمى اليوم: وادي (جومرو) أو ممر جومرو[4].

وذكرت قرى: أشوش والجبل كوتة ووادي الأحرار[5]، وهي قرى (دَبِيْل).

٤ - مدن إرمينية الرابعة:

أ - مدينة شِمْشاط:

تقع على نهر (شِمْشاط) أحد روافد الفرات بين مدينة (بالوية) شرقاً و (خَرْتبَرْت) غرباً، وهي محسوبة من أعمال (خَرْتِبَرْت)[6]، في أرض سهلة، بناها كسرى أنوشروان للدفاع عن إرمينية تجاه الهجمات الروميّة.

---

(١) معجم البلدان (٣/ ٨٩).

(٢) معجم البلدان (١/ ١٨٤).

(٣) فتوح البلدان (٢٨١).

(٤) الموقع الجغرافي للعراق (٢٩٨).

(٥) انظر فتوح البلدان (٢٨١ - ٢٨٢).

(٦) معجم البلدان (٥/ ٢٩٣)، وانظر ما جاء حول (خرتبرت) في معجم البلدان (٣/ ٤١٥) وما جاء حول (بالوية) في معجم البلدان (٢/ ٤٨).

ب ـ مدينة قالِيقَلا:

تُعدّ من إرمينية الرابعة[1]، وتقع بالقرب من الحدود الشرقيّة للأمبراطورية البيزنطية في هضبة إرمينية الغربيّة التي تَتّصل بهضبة الأنضول في أرض سهلة مستوية[2]، فتحها حبيب بن مسلمة الفِهريّ[3].

ج ـ مدينة باجُنَيس:

تقع بالقرب من مدينة (أَرْجِيْش)، وكانت قبل الفتح الإسلامي تحت نفوذ الروم[4]، فتحها عِياض بن غُنْم[5].

د ـ أَرْجِيْش:

مدينة تقع في السّاحل الشمالي الشرقي لبحيرة أَرْجِيْش (بحيرة وان) في أرض سهلة[6].

هـ ـ مدينة خِلَاط:

كانت قبل الفتح الإسلامي تابعة للروم[7]، وتقع بالقرب من الساحل الغربي لبحيرة (أرْجِيْش) على بعد يوم منها، وقد فتحها عياض بن غُنْم[8].

تلك لمحاتٌ في: كور إرمينية ومدنها تطرقت فيها ما يمكنْ أن يفيدنا في تتبّع: فتح إرْمِيْنِيَة، وأوجزت في ذكر ما يمكن أن يلقي شيئاً من الضوء على هذا الفتح، وأغفلت التفاصيل التي لا فائدة فيها في هذا المجال.

وآمل أنّ ما ذكرته يكفي لإِيضاح تفاصيل الفتح لإسلامي في هذه المنطقة التي كان لها شأن كبير في حماية الدولة الإسلامية والدفاع عنها محلياً وخارجياً.

---

(١) فتوح البلدان (٢٧٢).

(٢) الموقع الجغرافي للعراق (٢٩٥).

(٣) فتوح البلدان (٢٧٧ ـ ٢٧٨).

(٤) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٢٣).

(٥) معجم البلدان (٢/ ٢٥).

(٦) انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٨١).

(٧) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٢٣).

(٨) معجم البلدان (٣/ ٤٥٣).

فتح إِرْمِينِيَة

الموقف العام

١ ـ البلاد وأهلها:

موقع إرمينية بين دولتين كبيرتين: فارس والروم، عرّضها للاحتلال في جزء منها أوكلّها، فإذا اشتدّ ساعد الفُرس كان لهم حصّة الأسد من إرمينية، وإذا قوى الروم ضمّوا أجزاء كبيرة منها إلى بلادهم، وهكذا كانت هذه المنطقة ساحة من ساحات الصّراع بين الدولتين الكبيرتين.

ولم يقتصر موقعها الجغرافيّ على تعريضها لهجمات الفُرس والروم حسب، بل عرّضها لهجمات الأمم الطامعة فيها إذا سنحت لهم الفرصة للتوسّع والاحتلال أو للغارات الوقتية، وعلى سبيل المثال، كانت الخَزَر تخرج فتغير وربما بلغت (الدَّيْنَوَر)[١] في بلاد الفُرْس مجتازة إرمينية إلى جارتها الساسانيّة[٢].

ووجّه الملك السّاساني قُباذ بن فيروز[٣] (٤٤٨م ـ ٥٣١م) قائداً من عظماء قوّاده في اثني عشر ألفاً، فاكتسح بلاد (أرّان) وإلى المنطقة التي تقع ما بين نهر (الرسّ) إلى (شرْان) وكان (جرْزان) و(أرَّان) بيد الخزر وسائر إرمينية في أيدي الروم، ويتولاّها صاحب أَرْمَنِياقُس، ثم لحق قُباذ بقائده، فبنى بأرّان مدينة (البَيْلَقَان) ومدينة (بَرْذَعَة) وهي مدينة ثغر (أَرّان) كلّه، وبنى

---

(١) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قَرْمسين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٨/٤).

(٢) فتوح البلدان (٢٧٣).

(٣) ملك قباذبن فيروز ثلاثاً وأربعين سنة، انظر سني ملوك الأرض (١٩).

مدينة (قَبَلة)، ثم بنى سُدَّ اللَّبِن فيما بين أرض شروان وباب الّلان وبنى على سُدِّ اللَّبن ثلاثمائة وستين مدينة خربت بعد بناء مدينة (الباب) و(الأبواب) الأخرى.

وتولى الملك بعد قُباذ ابنه أَنوشِرْوان كِسْرى بن قُباذ[1] (**٥٣١م - ٥٧٩م**)، فبنى الشَابِران ومدينة (مَسْقط)، ثم بنى مدينة (الباب) و (الأبواب) الأخرى، وإنما سُمِيَّت أبواباً لأنها بنيت على طريق في الجبل، وأسكنها قوماً سمّاهم: (السِياسيجين)، وبنى بأرض (أرّان) أبواب (شَكّن) و (القَمِيْبَران) وأبواب (الدُّدَانِيّة)، وهم أمة يزعمون أنهم من بني دُوْدَان بن أسد بن خُزَيْمَة، وبنى (الدُّرْذُقِيّة) وهي اثنا عشر باباً، كلّ باب منها قصر من الحجارة، وبنى بأرض جُرْزان مدينة يقال لها: (صُغْدَبِيْل) وأنزلها قوماً من الصُّغْد وأبناء فارس وجعلها مَسْلحة. وبنى مما يلي الروم في بلاد جُرْزان قصراً يقال له: (باب فِيْروز قُباذ)، وقصراً يقال له: (باب لاذِقَة) وقصراً يقال له: (باب بارقة)، وهو على بحر (طَرَابَزُنَدَةِ)، وبنى باب الّلان وباب سَمْخَى، وبنى قلعة (الجَرْوَمان) وقلعة (شَمْشَلْدَى). واستولى أَنوشِرْوان على جميع ما كان تحت سيطرة الروم من إرمينية وعمّر مدنية (دَبِيْل) وحصّنها، وبنى مدينة (النَّشَوَى) وهي مدينة كورة (البُسْفُرَّجان)، وبنى حُصْن (وَيْص) وقلاعاً بأرض السِّيْسجَان منها قلعة (الكلاب) و (ساهيونس)، وأسكن هذه القلاع والحصون ذوي البأس والنجدة من السياسجية.

ووادع أَنوشِرْوان ملك الترك، وتزوج ابنته، وزوّج ملك الترك ابنته، واجتمع به بالبَرْشَلِيَّة وتنادما أياماً[2]، فلما نال ثقته اقترح أَنوشروان على ملك الترك أن يأذن له ببناء حائط يفصل بين الطرفين، فأجابه ملك الترك إلى ذلك وانصرف إلى بلاده.

---

(١) ملك أنو شروان سبعاً وأربعين سنة، انظر سني ملوك الأرض (١٩).

(٢) انظر قصة اجتماع أنو شروان بملك الترك في: فتوح البلدان (٢٧٥ - ٢٧٦)، واسم الملك التركي حينذاك: سنجيبو، انظر إيران في عهد الساسانيين (٣٦٤).

وأقام أَنوشِرْوان لبناء الحائط، فبناه وجعله من قِبَل البحر بالصّخر والرّصاص، وجعل عرضه ثلاثمائة ذراع وألحقه برءوس الجبال، وأمر أن تحمل الحجارة بالسُّفن وتغريقها في البحر، حتى إذا ظهرت على وجه الماء بنى عليها، فقاد الحائط في البحر ثلاثة أميال، فلما فرغ من بناء السد، جعل على مدخله أبواباً من حديد، وجعل على كل باب منه مائة فارس يحرسونه، وخصص جماعة من ثقاته يراقبون الحرّاس ويسهرون على أداء واجباتهم في الحراسة، وكانت منطقة السُّد تحتاج قبل إنشائه إلى خمسين ألف جندي لحمايتها، فقيل لخاقان ملك الترك بعد إكمال السُّد: إنه خدعك وتحصّن منك!... فلم يستطع ملك الترك في حينه أن يفعل شيئاً.

ولم يكتف أَنوشِرْوان بالتحصينات التي أنشأها والمدن والحصون الدفاعية التي أقامها دفاعاً عن مملكته تجاه الترك والخزر والرّوم، بل قسَّم مملكته ومنها إرمينية تقسيمات إدراية ثابتة، وجعل على كلِّ قسم إداريّ منها ملكاً مسئولًا أمامه مباشرة، ليدافع كلّ ملك (مَحَلِيّ) عن منطقته ما استطاع بقواته المحلية، فإذا أخفق في دفاعه سنده جيرانه بأمر أنوشروان، فإذا استفحل الخطر، زجّ كسرى بقوات الجيش الساساني في المعركة.

وقد عدّد البلاذري تسعة ملوك محليين[1]، كما ذكر أن كسرى أقرّ ملوك جبل (القَبْق) وهو جبل القوقاز الكبرى، وصالحهم على الأتاوة. ولم تزل إرمينية في أيدي الفُرس حتى ظهر الإسلام، فتخلّى السِيَاسِيجِين عن حصونهم ومدائنهم حتى خربت، وغلب الخَزَر على ما كان في أيديهم من قبل[2].

فقد أوقف هِرَقْل إمبراطور الروم الزحف المظفّر الذي قامت به جيوش الفرس، فاستعاد آسيا الصغرى، وتقدّم طارداً جيوش كسرى من إرمينية

---

(١) فتوح البلدان (٢٧٦ ـ ٢٧٧).

(٢) انظر التفاصيل في: فتوح البلدان (٢٧٣ ـ ٢٧٦).

وأَذْرَبِيْجَان، وفي السنوات التالية استولى الخزر، وهم قوم من أصل تركي كانوا قد استقروا في القوقاز في النصف الأخِير من القرن السادس على (دَرْبَنْد)، وهي مدينة (باب الأبواب) وتحالفوا مع الرّوم[١].

لقد كانت إرمينية قبل الفتح الإسلاميّ مسرحاً للحرب بين الدولتين الكبيرتين: الساسانيّة والبيزنطية من جهة، وبين هاتين الدولتين والغزاة من الخزر والأتراك من جهة أخرى، فكانت أمور الفُرس تستتبّ في بعض الأزمنة، فيتولى الملوك المحليّون إدارة إرمينية، وتستتب أمور الروم في بعض الأزمنة فيتولى ملوك الطوائف كملك أَرْمَنِيا قُس وهو من الروم، فلما مات ملكت الجزء التابع للروم من إرمينية امرأته، وكانت تسمى: (قالى)، فبنت مدينة (قالِيقَلا) وسمتها: (قالِيقَالا)، ومعنى ذلك: إحسان قالى، وصُوِّرت على باب من أبوابها، فأعربت العرب (قالِيقَاله) فقالوا: (قالِيْقَلا)[٢].

٢ ـ المسلمون:

أ ـ فتح **المسلمون** (جزيرة ابن عمر) سنة سبع عشرة الهجرية[٣] (٦٣٨م)، وكان سبب فتحها أنّ أهلها استشاروا الرّومَ على أهل (حِمْص) فقصد الرُّوم أبا عُبَيْدَة بن الجرّاح[٤] ومَن معه من المسلمين بحِمْص، وحاصروا المسلمين في هذه المدينة[٥].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد اتخذ في كلِّ مِصْر من أمصار المسلمين خيولًا على قدره من فضول أموال المسلمين عُدّة لمعالجة المواقف العسكرية الطارئة، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس،

---

(١) إيران في عهد الساسانيين (٤٣١).

(٢) فتوح البلدان (٢٧٧).

(٣) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٥٤ ـ ٨١).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٥٣٠).

وكان المسئول عليها سلمان بن ربيعة الباهليّ ونفر من أهل الكوفة. ولما سمع عمر بن الخطاب زحف حشود الرُّوم إلى (حِمْص) ومحاصرتها، كتب إلى سعد بن أبي وقاص[١] في الكوفة: «أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو[٢] وسرِّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى (حِمْص)، فإنّ أبا عُبَيْدَة قد أُحيط به، وتقدّم إليهم في الجد والحَث». ولم يكتف عمر بذلك، بل كتب إلى سعد بن أبي وقاص: «سرِّح سُهَيْل بن عَدِيّ[٣] إلى (الرَّقَّة) فإنّ أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الرّوم على أهل (حِمْص)، وأمره أن يسرِّح عبد الله بن عِتْبَان[٤] إلى (نَصِيْبِيْن) ثم ليقصد (حَرَّان) و (الرَّها)، وأن يسرِّح الوليد بن عُقْبَة[٥] على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، وأن يسرِّح عِياض بن غَنْم، فإن كان قتال، فأمرهم إلى عِياض».

ولما بلغ أهلَ الجزيرة الذين أعانوا الرُّوم على أهل حِمْص، وهم معهم في حصار المدينة، خبرُ المسلمين الذين قصدوا الجزيرة، تفرّقوا إلى بلادهم وفارقوا الرُّوم، فأصبح الروم المحاصِرين لحمص ضعفاء، فقاتلهم أبو عبيدة بن الجرّاح وانتصر عليهم، فانسحبوا إلى بلادهم[٦].

وانطلق قادة فتح (الجزيرة) إلى أهدافهم: عِيَاض بن غَنْم الفِهْرِيّ[٧]، وسُهَيْل بن عَدِيّ الخزرجيّ، وعبد الله بن عِتْبان الأنصارِيّ، والوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط الأُمويَ، وعُمَيْر بن سَعْد الأنصاريّ[٨]، ففتحوا الجزيرة

---

(١) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨ ـ ٢٩٦).
(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٣١ ـ ٣٥٥).
(٣) سيرته المفصلة في: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٨٠ ـ ٤٨٥).
(٤) سيرته المفصلة في قادة فتح العراق والجزيرة (٤٨٦ ـ ٤٩٢).
(٥) سيرته المفصلة في قادة فتح العراق والجزيرة (٤٩٣ ـ ٥١٢).
(٦) الطبري (٤/ ٥١ ـ ٥٢) وابن الأثير (٣/ ٥٣١).
(٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٠ ـ ٤٧٩).
(٨) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٥١٣ ـ ٥١٩).

كلها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى لم يبق بها موضع قدم إلّا فتح على عهده[1].

وفي رواية: أنّ فتح الجزيرة كان سنة ثمان عشرة الهجرية[2]، وفي رواية أخرى: أنّ فتحها كان سنة تسع عشرة الهجرية[3]، وفتحها سنة سبع عشرة الهجرية[4]. أصح، لأنه جاء لغرض تخفيف الضغط عن المسلمين في زحف الروم عليهم وحصارهم في حمص، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجرية. لقد كانت (الجزيرة) أسهل البلاد فتحاً[5].

والجزيرة هي حدود إرمينية من الجنوب، فأصبحت قاعدة أمامية للرّوم، تهدِّد الجزيرة وأرض الشّام، فكان على المسلمين فتحها للتخلّص نهائياً من تهديد الرّوم للجزيرة وأرض الشام، لأنّ الروم كانوا يسيطرون على مناطق إرمينية التي تهدّد هذه المناطق المفتوحة من الشمال، ولأنّ الروم يحشدون قواتهم في إرمينية لاستعادة الجزيرة وأرض الشام، فلا سبيل إلى حماية البلاد المفتوحة إلّا بفتح إرمينية.

ب ـ فتح المسلمون (أَذْرَبِيْجَان) سنة اثنتين وعشرين الهجرية[6] (٦٤٢م)، فتوجّهت أنظارهم لفتح إرمينية الواقعة شمالها، والتقدّم نحو مدينة (باب الأبواب) من كورة (أَرّان)، وذلك لمطاردة فلول الجيش السّاسانِيّ المنسحب شمالاً، لحرمانه من إعادة تنظيم صفوفه للقيام بهجوم مقابل بهدف استعادة (أذربيجان) والبلاد الفارسية المفتوحة. كما أنّ فتح (إرمينية) يحرم

---

(١) فتوح البلدان (٢٤٠).

(٢) فتوح البلدان (٢٣٧).

(٣) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٣).

(٤) الطبري (٤/ ٥٠) وابن الأثير (٢/ ٥٣٠).

(٥) الطبري (٤/ ٥٤) وابن الأثير (٢/ ٥٣٢).

(٦) الطبري (٤/ ١٥٣) والعبر (١/ ٢٦).

الفرس من استعادة أذربيجان ويدافع عن تلك البلاد المفتوحة دفاعاً غير مباشرة.

لقد كانت حدود الفُرس تمتدّ حتى مدينة (باب الأبواب) التي أخضعها السّاسانيون لنفوذهم في القرن الرابع الميلادي، وأجلوا الروم عن المناطق المحيطة بها[1]، فحّصنوها وأقاموا بها قوات عسكرية تدافع عنها من غارات الخزر، فكان لا بدّ للمسلمين من التقدم شمالًا لفتحها.

وكان هذا الفتح حيوياً للمسلمين، لموقع باب الأبواب الجغرافي المهم بين بلاد الخزر وبلاد الفُرس، ووجود السُّد فيها والحصون المنيعة على امتداد جبل القفقاس التي تحرم الخزر من تقديم الإمدادات إلى قومهم الذين كانوا في إقليم إرمينية وأذربيجان قبل الفتح الإسلاميّ.

ثم إنّ جبل القفقاس الذي يقع إلى جانبها، حصن حصين يلجأ إليه أعداء المسلمين ويستروا حشودهم في طيّاته ويجعلونه موضعاً دفاعياً طبيعياً يسهل عليهم أمر الدفاع والهجوم معاً، كما أنّ الجبل بحدِّ ذاته يشِّكل موضعاً سَوْقياً مهماً للغاية، لأنه يشرف على سهول إرمينية وأذربيجان من الشمال، فإذا فتحه المسلمون استطاعوا حماية حدودهم الجديدة بسهولة ويسر.

لقد كان الموقف العسكري بعد فتح أذربيجان، يقضي على المسلمين من أجل حماية ما فتحوه أن يتقدّموا شمالًا لفتح (باب الأبواب) وجيل القفقاس، للقضاء على آخر مناطق المقاومة الفارسية التي تهدِّد ما فتحوه بأفدح الأخطار.

الفتح:

١ ـ فتح عِيَاض:

شجّع انتصار المسلمين في (الجزيرة) وفتحها بسهولة، عياض بن غَنْم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (١٧٨/٩)، تحت مادة: دربند.

الفِهْري على المضيِّ قدماً لفتح إرمينية المجاورة للجزيرة، فاجتاز (الدّرب)[1] إلى (بَدْلِيس)[2]، وبلغ مدينة (خِلاط) فصالحه بطريقها حتى انتهى إلى (العين الحامضة) من إرمينية[3].

ويبدو أنّ قوّات الرُّوم انسحبت من (الجزيرة) بدون قتال باتجاه إرمينية على أمل أن تجمع شملها وتنظِّم صفوفها وتضمّ إليها قوّات جديدة، لمهاجمة المسلمين لاستعادة (الجزيرة)، ولكن تغلغل عياض بالعمق في مطاردة قوّات الرّوم، فوّت عليها هذه الفرصة، فاستسلمت تلك القوّات للمسلمين، فعقد عياض مع بطريق الرُّوم في (خِلاط) صلحاً، فكان عياض أوّل من أجاز (الدَّربِ)[4] عبر الجزيرة إلى إرمينية، وبذلك مهّد للفتح الإسلامي في إرمينية وعاد عياض إلى (الرقَّة) ومضى إلى (حمص)[5]، وكان فتح عياض في إرمينية سنة سبع عشرة الهجرية على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

٢ ـ فتح عثمان بن أبي العاص الثقفي[6]:

يبدو أنّ حصار الرّوم لأبي عُبيدة بن الجرّاح في (حِمْص) حمل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه على استنفار القادرين على حمل السِّلاح كافة، لكسر شوكة الرّوم وردِّهم خائبين إلى عقر دارهم، حتى لا يعودوا لمثلها أبداً، فكان عثمان بن أبي العاص الثَقفي ممن استنفرهم عمر بن الخطّاب، وكان يومئذٍ على البحرين.

---

(١) الدّرب: الطريق ما بين طرسوس وبلاد الرُّوم، لأنه مضيق كالدرب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٤٨).

(٢) بدليس: بلدة بنواحي إرمينية قرب خلاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٩٠).

(٣) ابن الأثير (٢/ ٥٣٥) ومعجم البلدان (٢/ ٩٠) و(٣/ ٤٥٣).

(٤) الاستيعاب (٣/ ١٢٣٤) وأسد الغابة (٤/ ١٦٤) والإصابة (٥/ ٥٠).

(٥) ابن الأثير (٢/ ٥٣٥).

(٦) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢ ـ ٢٦٩).

وانجلّت الغمّة على المسلمين في (حِمْص) وانسحب الرّوم إلى قواعدهم، وفتح عِياض بن غَنْم الفِهْرِي (الجزيرة) سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨م)، كما فتح شطر إرمينية الرابعة، وكان فتحه الخاطف غير ثابت الأركان كما يبدو.

وفي سنة تسع عشرة الهجرية (٦٤٠م) وجّه عِياض بن غَنْم إلى إرمينية الرابعة عثمان بن أبي العاص، فكان عندها شيء من قتال أصيب فيه صَفْوان بن المُعَطَّل[١] السُّلَمّي شهيداً، ثم صالح عثمان أهلها على الجِزْيَة، على كلِّ أهل بيت دينار[٢].

ولم تتطرّق المصادر التاريخية المتيسرة إلى تفاصيل فتح عثمان في إرمينية الرابعة، والظاهر أنّ فتحه كان أشبه ما يكون بالغارة منه بالفتح المستدام، الهدف منه تأديب الروم في عقر دارهم، حتى لا يهاجموا المسلمين مرة أخرى كما فعلوا في حصار مدينة (حمص)، وبخاصة وأنّ القوات الإسلامية لم تكن كافية لتوطيد أركان الفتح في الأرجاء النائية كأرمينية حينذاك.

وما يقال عن فتح عثمان يقال عن فتح عياض أيضاً، إلّا أنّ عياضاً بدأ الفتح، وعثمان قَوّىَ جذوره، وكان هدفهما شلّ قوّات الروم في بلادها، فحقّقا هذا الهدف، ولم يحقّقا توطيد أركان الفتح وترسيخ جذوره، لقلّة القوات المتيِّسرة لديهما حينذاك، ولانتشار المسلمين في بلاد شاسعة لا تتناسب مع قواتهم المقاتلة، ومن المعروف أنّ من السهولة فتح البلاد ولكنّ الصعوبة في الاحتفاظ بها.

وكان فتح عثمان بن أبي العاص على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً.

---

(١) صفوان بن المعطَّل: شهد المريسيع، وقبل: شهد الخندق وما بعدها، وكان شجاعاً خيِّراً فاضلًا، وقد استشهد في غزوة إرمينية، انظر الاستيعاب (٢/ ٧٢٥) وأسد الغابة (٣/ ٢٦) والإصابة (٣/ ٢٥١) وابن الأثير (٢/ ٥٦٣).

(٢) الطبري (٤/ ٥٣) وابن الأثير (٢/ ٥٣٣).

٣ ـ فتح سُراقة بن عمرو[١]:

كان فتح مدينة (باب الأبواب) ذات الموقع السَّوْقِيّ الحيويّ يهدف إلى وضع حدٍ حاسم لمقاومة الفرس وحماية البلاد المفتوحة في بلاد فارس وأذربيجان من القوّات الفارسية، بالقضاء على آخر معقل للفرس في إرمينية.

وقد أوكل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مهمة فتح مدينة (باب الأبواب) إلى سُراقة بن عمرو ـ وكان يُدْعَى ذا النور ـ وجعل على مقدّمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي[٢] ـ وكان أيضاً يُدْعَى ذا النور ـ وجعل على إحدى مجنبتيه حُذَيفة بن أَسِيد الغِفارِيّ[٣]، وسمىّ للأخرى بُكَيْر بن عبد الله اللَّيثي[٤] ـ وكان بإزاء مدينة (باب الأبواب) قبل قدوم سُراقة بن عمرو عليه، وكتب إلى بُكَيْر أن يلحق بسُراقة، وجعل على المقاسم سَلْمان بن ربيعة الباهِلِيّ[٥].

وسلك سُراقة طريق بحر الخزر، لأنه أقصر طريق يؤدي إلى (باب الأبواب)، ولأنّ هذا الطريق يجنِّب الجيش الإسلاميّ وعورة المسالك الجبليّة، ولأنّ الجيش يكون في جناحه الأيمن أميناً بالبحر وجناحه الأيسر أميناً بأذربيجان التي استسلمت نهائياً للمسلمين[٦].

وقدّم سُراقة عبد الرحمن بن ربيعة الباهِليّ، وخرج في أثره من أَذْرَبَيْجان باتجاه (الباب) على ما عَبَّأَهُ عمر بن الخطّاب في قيادة الميمنة

---

(١) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٠٩ ـ ٢١٣).

(٢) انظر سيرته في هذا الكتاب: قادة فتح المشرق الإسلامي.

(٣) حذيفة بن أَسِيد الغِفاري: صحابي جليل، شهد غزوة الحديبيّة وبايع تحت الشجرة ونزل الكوفة وتوفي فيها سنة اثنتين وأربعين الهجرية، انظر التفاصيل في: أسد الغابة (١/ ٣٨٩) والإصابة (١/ ٣٣٢).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا قادة فتح بلاد فارس (٢٠٥/ ٢٥٨).

(٥) انظر سيرته في هذا الكتاب: قادة فتح المشرق الإسلامي.

(٦) الطبري (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

والميسرة، كما أمدّه عمر بحبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِي[١] الذي صرفه إليه من (الجزيرة)[٢].

ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على (الباب)، والملك بها يومئذ شهربراز من أهل فارس، يحكم تلك المنطقة باسم الفرس، استأمن الملك عبد الرحمن على أن يأتيه، فأمنه عبد الرحمن، فأتى الملكُ وهو خارج المدينة قبل أن يفتحها.

وقال الملك لعبد الرحمن: «إني بإزاء عدوٍ كَلِب[٣] وأمم مختلفة، لا يُنْسَبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء، ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان، ولست من (القَبْج)[٤] في شيءٍ، ولا من الأرمن، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم، وصَغْوِي[٥] معكم، وبارك الله لنا ولكم، وجِزْيتنا إليكم والنّصر لكم، والقيام بما تحبّون، فلا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم». فقال عبد الرحمن: «فوقي رجل قد أظلّك، فسرْ إليه».

وسار الملك إلى سُراقة، فقال له مثل ما قال لعبد الرحمن، فقال سُراقة: «قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا، ما دام عليه، ولا بدّ من الجِزاء ممن يُقيم ولا ينهض»، فقبل ذلك، وصارت سنّة فيمن كان يحارب العدوّ من المشركين، وفيمن لم يكن عنده الجِزاء، إلّا أن يُسْتَنْفَروا فتُوضع عنهم جِزاء تلك السَّنَة.

---

(١) انظر سيرته في هذا الكتاب: قادة فتح المشرق الإسلامي.

(٢) الجزيرة: هي جزيرة ابن عمر، وبعث عمر بن الخطّا ب على الجزيرة مكان حبيب بن مسلمة زياد بن حنظلة، انظر الطبري (٤/١٥٦).

(٣) كَلِبٌ: شرس، عنيف، قاس.

(٤) قَبْج: أمة من الأمم، أصلها (قبجق)، وهي كلمة جركسية الأصل معربة من (كبجك) بمعنى: النازح من سفح الجبل، وهو جبل (القبق) أو (القبج) أو (القبجق)، وهم (الخزر)، انظر هامش تاريخ القوقاز (٦٤).

(٥) صغوي: مَيْلِي. والصغو المَيْل.

وكتب سُراقة إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بذلك، فأجازه وحسّنه[1].

وهذا الاتِّفاق بين المسلمين من جهة وبين ملك مدينة باب الأبواب من جهة أخرى، يدلّ على أن المسلمين كانوا يفرضون الجِزْية على المغلوبين لقاء الدفاع عنهم وحمايتهم، فهي تقابل: بدل الخدمة العسكريّة بالضبط أو ما يسمى: ضريبة الدفاع. أما الذين يدافعون عن أنفسهم ويقاتلون عدوّهم مع المسلمين، فلا جِزْية عليهم.

وكانت (باب الأبواب) خالية من أهلها الأصليين، فقد استأصلتهم الغارات والحروب[2]، وغادرها أهل الجبال إلى جبالهم، فلم يبق فيها غير الجنود ومَن أعانهم أو اتّجر معهم.

وكان نص وثيقة الصلح بين سُراقة وشهر براز ما نصّه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى سُراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، شهر براز وسكّان إرمينية والأَرْمن من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملّتهم، ألّا يضارّوا ولا ينتقضوا، وعلى أهل إرمينية والأبواب الطُرّاء منهم والتُّنّاء[3]، ومَنْ حولهم فدخل معهم، أن ينفِروا لكلِّ غارة، وينفذُوا لكلِّ أمر ناب أو لم يَنُب رآه الوالي صلاحاً، على أن توضع الجِزاء عمّن أجاب إلى ذلك إلّا الحَشْر، والحشر عِوَضٌ عن جِزائهم، ومَن استُغني عنه منهم أو قعد، فعليه مثل ما على أهل أَذْرَبِيْجان من الجِزاء والدَّلالة والنُّزْل يوماً كاملًا، فإن حُشِروا وُضِعَ ذلك عنهم، وإن تركوا أُخِذُوا به. شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبُكَيْر بن عبد الله، وكتب مُرْضِيّ بن مُقَرّن[4] وشهد».

---

(1) الطبري (٤/ ٢١٠) وابن الأثير (٣/ ٣٨).

(2) قادة فتح بلاد فارس (٢١٠).

(3) تنأ بالبلد: أقام.

(4) هو مرضي بن مقرّن المُزَنِيّ، أخ النعمان بن مُقرّن المزنيّ.

وفتح المسلمون مدينة باب الأبواب، وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجرية[(١)]، (٦٤٢م) على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

وبعد فتح مدينة (باب الأبواب) وجّه سُراقة بُكَيْر بن عبد الله وحبيب بن مَسْلَمة وحُذيفة بن أَسِيْد وسلمان بن ربيعة إلى الجبال المحيطة بأَرمينية، فوجّهُ بُكَير إلى (مُوْقان)، ووجّه حبيباً إلى (تَفْلِيْس)، ووجّه حذيفة بن أَسيد إلى مَنْ بجبال (اللاّن)[(٢)]، ووجّه سلمان بن ربيعة إلى الوجْه الآخر (بلاد الخزر التي تقع خلف مدينة الباب)، وكتب سُراقة بالفتح وبالذي وجّه فيه هؤلاء النّفر إلى عمر بن الخطّاب، فاضطرب عمر لذلك أشدّ الاضطراب، لأنه قدّر أن قوّات المسلمين التي توجّهت لفتح هذه المناطق غير كافية للنهوض بتحقيق واجباتها عَدَداً وعُدَداً، وفعلًا لم يفتح أحد القادة ما وُجِّه له من أهداف إلّا بُكَيْر فإنه فتح (مُوْقان)[(٣)].

ومات سراقة في (باب الأبواب) قبل أن يرى ثمرات جهاده، واستخلف قبل موته عبد الرحمن بن ربيعة الباهِلِيّ؛ فأقرّ عمر عبد الرحمن على ثغر (الباب)[(٤)].

٤ ـ فتح سلمان بن ربيعة الباهِلِيّ:

في سنة خمس وعشرين الهجريّة (٦٤٥م)، كان الوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط[(٥)] على الكوفة لعثمان بن عفّان رضي الله عنه، وكان أهل (أَذْرِبِيْجان) قد نقضوا، فغزاهم الوليد في هذه السنة، وأغار على أهل (مُوْقان) و(بَرْزَند) و (الطَّيْلَسان)، ففتح وغنم وسبي، لذلك طلب أهل كور (أَذْرِبِيْجان)

(١) الطبري (٤/١٥٦ ـ ١٥٧).
(٢) جبل اللاّن: الجزء الأوسط من جبل القفقاس.
(٣) الطبري (٤/١٥٧) وابن الأثير (٣/٢٩).
(٤) الطبري (٤/١٥٨) وابن الأثير (٣/٢٩).
(٥) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٩٣ ـ ٥١٢).

الصّلح، فصالحهم على صلح حُذَيْفَة بن اليَمَان[1]، وهو ثمانمائة ألف درهم، وقبض المال.

وبثّ الوليد سراياه، بعث سلمان بن ربيعة الباهِليّ إلى أهل (إرمينية) في اثني عشر ألفاً، فسار في (إرمينية) يقتل ويسبي ويغنم، ثمّ انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد بن عُقْبَة.

وعاد الوليد إلى الكوفة، وقد جعل طريقه إليها على (المَوْصِل)، فوصل إلى (الحَدْيثَة) وهي (حَدِيْثَة الموصل) التي تقع في الجانب الشرقي من (الموصل) قرب الزاب الأعلى، ونزلَها[2].

وفي (الحَدِيْثَة) أتى الوليدَ كتابُ عثمان بن عفّان رضي الله عنه، الذي جاء فيه: «إنّ معاوية بن أبي سُفيان كتب إليّ يخبرني أنّ الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فابعث لهم رجلًا له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف في المكان الذي يأتيك كتابي فيه، والسّلام».

وقام الوليد خطيباً في الناس، وأعلمهم الحال، وندبهم مع سلمان، فانتدب معه ثمانية آلاف، مضوا حتى دخلوا مع أهل الشّام أرض الروم، وأصاب الناسُ ما شاؤوا، وافتتحوا حصوناً كثيرة.

وكان حبيب بن مَسْلمة الفِهْري على رأس أهل الشام، ففتح بلاداً كثيرة في (إرمينية) نذكرها وشيكاً في فتح حبيب، وكان سلمان ساعده الأيمن في فتوحه.

وبعث حبيبُ سلمانَ إلى (أرّان)، ففتح (البَيْلَقان) صلحاً، بعد أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم، واشترط عليهم الجِزْيَة والخَراج.

---

(١) انظير سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ ـ ١١٧).

(٢) ابن الأثير (٣/٨٣) وابن خلدون (٢/ ١٠٠٠).

وأتى سلمان مدينة (بَرْذَعَة)، فعسكر على نهر (الثُّرْثُور) بينه وبين (بَرْذَعَة) نحو فرسخ، فقاتله أهلها أياماً، وشنّ الغارات في قراها، فصالحوه على مثل صلح (البَيْلَقَان)، ودخلها جيش المسلمين.

ووّجه سلمان خيله، ففتحت رساتيق ولاية (أَرّان)، ثم وجّه سرية إلى (شَمْكُور) ففتحوها.

وسار سلمان إلى مجمع نهري (الرَسّ) و (الكُرّ)، ففتح مجمع ما بينهما.

وصالح سلمان صاحب (شَرْوان) وسائر ملوك الجبال وأهل (مَسْقَط) و (الشَابِران) ومدينة (باب الأبواب)، ثم امتنعت بعده[١].

والظّاهر أنّ (الباب) امتنعت بعد فتحها الأول سنة سبع عشرة الهجرية، فأعاد إليها سلمان الهدوء والاطمئنان، وفتحها ثانية وأعادها إلى أحضان الدولة الإسلامية.

وهكذا استعاد حبيب بن مَسْلَمة وسلمان بن ربيعة فتح مناطق شاسعة من إرمينية، وفتحا معاً مناطق جديدة لأول مرة، وكان هذا الفتح في سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥م).

٥ ـ فتح حبيب بن مَسْلَمَة الفهري:

فتح حبيب (شِمْشَاط) سنة تسع عشرة الهجرية(٦٤٠م) في عهد عمر بن الخطاب.

ولما استُخْلِف عثمان بن عفان رضي الله عنه، كتب إلى معاوية بن أبي سُفيان[٢] وهو عامله على الشّام والجزيرة وثغورهما، يأمره أن يوجِّه حبيباً إلى إرمينية، وكان حبيب ذا أثر جميل في فتوح الشّام وغزو الروم قد

(١) ابن الأثير (٣/٨٥ ـ ٨٦) وابن خلدون (٢/١٠٠١).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (١٧٤ ـ ١٩٤).

علم ذلك منه عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما ثمّ مَنْ بعدهما.

وتحرّك حبيب نحو هدفه في ستة آلاف، وقيل: في ثمانية آلاف من أهل الشّام والجزيرة، فأتى (قالِيْقَلا) وأناخ بساحتها. وخرج إليه أهل (قالِيْقَلا)، فقاتلهم حبيب حتى ألجأهم إلى داخل المدينة، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجِزْية، فجلا كثير منهم ولحقوا ببلاد الروم.

وأقام حبيب بها فيمن معه أشهراً، ثمّ بلغه أنّ بطريق أَرْمِيناقس قد جمع للمسلمين جمعاً عظيماً، وانضمّت إليه أمداد أهل (اللّان) والخَزَر، وقد توجّه في ثمانين ألفاً من الرُّوم[1] ومن والاهم، فكتب إلى معاوية بن أبي سُفيان، فكتب معاوية إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى الوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط يأمره بإمداد حبيب، فأمدّه بسلمان بن ربيعة على رأس ثمانية آلاف من أهل الكوفة[2]، كما بعث إليه معاوية بن أبي سفيان ألفي رجل أسكنهم (قاليقلا) وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها[3].

وأبطأ المدد على حبيب، فأجمع على تبييت الروم الذين حشدوا جموعهم ونزلوا على نهر (الفُرات)، فاجتاح المسلمون الروم وقتلوا قائدهم الموريان، فانهزمت الروم[4].

وعاد حبيب إلى (قاليقَلا)، فقدِم سلمان بن ربيعة بعد أن فرغ المسلمون من عدوّهم، فطلب أهل (الكوفة) أن يشركوهم في الغنيمة، فلم يفعلوا[5].

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٨٣ ـ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٨٣).

(٣) فتوح البلدان (٢٧٨).

(٤) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١)، والموريان: اسم بطريق أرميناقُس.

(٥) فتوح البلدان (٢٧٨).

وسار حبيب ومعه سلمان، فنزل (مِرْبَالا)، فأتاه بطريق (خِلاط) بكتاب عِياض بنَ غنْم بأمانه، فأجراه عليه، وحمل إليه البطريق ما عليه من مال[1].

ونزل حبيب (خِلاط)، ثم سار منها فلقيه صاحب (مُكْس) وهي من (البُسْفُرْجان) فقاطعه على بلاده ووجّه معه رجلًا وكتب له كتاب صلح وأمان.

ووجّه حبيب إلى قرى (أَرْجِيْش) و (باجُنَيْس) مَن غلب عليها وجبى جِزَي رءوس أهلها، فأتاه وجوههم فقاطعهم على خراجها.

وتقدم حبيب إلى (أَرْدَشَاط)، ونزل على (دَبِيْل)، فسرّح الخيول إليها وحاصرها بعد أن تحصّن أهلها بها، فنصب عليها منجنيقاً، فطلب أهلها الأمان، فأجابهم إليه، ففتح (دَبِيْل) وغلب على جميع قراها.

وكان كتاب صلح (دَبِيْل): «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من حبيب بن مَسْلَمَة لنصارى أهل دَبِيْل ومجوسها ويهودها، شاهدهم وغائبهم، أني آمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبِيَعِكُم وسور مدينتكم، فأنتم آمنون، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأدّيتم الجزية والخراج، وشهد الله وكفى بالله شهيداً.. وختم حبيب بن مسلمة».

ثمّ أتى حبيب مدينة (النَّشْوى) ففتحها على مثل صلح (دَبِيْل).

وقدم على حبيب بطريق (البُسْفُر جان) فصالحه على جميع بلاده.

وأتى حبيب (السِيْسَجان)، فحاربه أهلها، فهزمهم واستولى على حصونهم[2].

وسار حبيب بمن معه يريد (جُرْزان)، فلما انتهوا إلى موضع أطلقوا عليه: (ذات اللُّجُم) سرّحوا بعض دوابهم، وجمعوا لُجُمها، فخرج عليهم

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٢) انظر تفاصيل الحصون في فتوح البلدان (٢٨٢).

جماعة من سكّان تلك المنطقة فأعجلوهم عن الألجام، فقاتلوهم، فكشف المسلمين عدوُّهم، وأخذوا تلك اللّجم وما قدروا عليه من الدّواب، ولكن المسلمين كرّوا عليهم، فقتلوهم واسترجعوا ما أخذوا منهم، فسمّى الموضع: ذات اللُّجم.

وأتى حبيباً رسولُ بطريق (جُرْزان) وأهلها وهو بطريقه إليها، فأدىّ إليه رسالتهم، وسأله كتاب صلح وأمان لهم، فكتب حبيب إليهم: «أما بعد! فإنّ (نُقْلِيّ) رسولكم قدم عليّ، وعلى الذين معي من المؤمنين، فذكر عنكم أنّا أمّة أكرمنا الله وفضّلنا، وكذلك فعل الله، وله الحمد كثيراً، وصلّى الله على محمّد نبيِّه، وخيرته من خلقه وعليه السَّلام، وذكرتم أنكم أحببتم سِلمنا، وقد قوّمت هديتكم وحسبتُها، من جِزْيتكم، وكتبت لكم أماناً واشترطُّ فيه شروطاً، فإن قبلتموه ووفيتم به وإلّا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، والسّلام على مَن اتبع الهدى»، وصالح حبيب رسولَ بطريق أهل (جرزان) وأهلها.

وسار حبيب إلى (تَفْلِيس)، وكتب لأهلها صلحاً هذا نصّه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من حبيب بن مَسْلَمَة لأهل تَفْلِيس من مَنْجَلِيْس، من جُرْزَان القِرْمِز بالأمان على أنفسهم، وبِيَعِهم، وصوامعهم، وصلواتهم، ودينهم، على إقرار بالصَّغار والجِزْية على كلِّ أهل بيت دينار، وليسَ لكم أن تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفاً للجزية، ولا لنا أن نفرِّق بينهم استكثاراً منها، ولنا نصيحتكم وضلعلكم على أعداء الله ورسوله ﷺ ما استطعتم، وقِرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا، وإن انقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه، إلى أدنى فئة من المسلمين إلّا أن يُحال دونهم، وإن أنبْتُم وأقمتُم الصّلاة فإخواننا في الدين، وإلّا فالجزية عليكم، وإن عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوُّكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم، هذا لكم وهذا عليكم، شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً»[(١)].

(١) فتوح البلدان (٢٨٠ ـ ٢٨٤) وانظر ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠٢).

وبعث حبيب سلمان بن ربيعة، ففتح ما فتحه من (إرمينية) كالذي ورد تفصيله في فتح سلمان، وتمّ فتح حبيب وسلمان سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥م).

وفي سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م)، كان عبد الرحمن بن ربيعة الباهليّ على مدينة (باب الأبواب)، فخاض معارك قاسية استشهد في أحدها عبد الرحمن أخو سلمان[1]، فخلفه سلمان على (باب الأبواب).

وأمدّ عثمانُ بن عفّان رضي الله سلمانَ بأهل الشّام، وعلى رأسهم حبيب بن مَسْلمة، وذلك سنة اثنتين وثلاثين الهجرية[2] (٦٥٢م).

ولم يكن في هذه المدّة فتح يذكر في (إرمينّية)، لأنّ سلمان وحبيباً اختلفا، والإخفاق ثمرة من ثمرات الاختلاف.

لقد شملت فتوح حبيب بن مَسْلَمة المناطق الواقعة بين مدينة (النَّشْوى) شرقاً، إلى مدينة (قالِيْقَلا) غرباً، إلى جبال القفقاس شمالاً، وقد فتح معظم كور (البُسْفَرْجان)، و(السِيْسَجَان) و (جُرْزان)، فلا عجب أن يطلق عليه المؤرخون ومعاصروه من الناس لقب: (حبيب الرُّوم)، لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم[3].

لقد ذهب حبيب بن مَسْلَمة بفخر فتح إرمينية، فاستحقّ ما أطلقه المسلمون الأولون عليه: حبيب الرُّوم.

عِبْرة الفتح:

كان الملك شهر بَراز على مدينة (باب الأبواب) عاملًا للسّاسانيين قبيل فتح المسلمين إرمينية، فصالحه سُراقة بن عمرو الذي تُوفي بعد فتح مدينة

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١٣١).

(٢) ابن الأثير (٣/ ١٣٣).

(٣) الاستيعاب (١/ ٣٢٠) وأسد الغابة (١/ ٣٧٥) وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).

(باب الأبواب) صُلحاً، فخلفه عبد الرحمن بن ربيعة الباهِليّ كما ذكرنا في سير حوادث الفتح.

وكان عبد الرحمن بن ربيعة في مجلسه وعنده شهر بَراز، فأقبل رجلٌ عليه شُحُوْبَة حتى دخل على عبد الرحمن، فجلس إلى شهر بَراز.

وذكر شهربَراز لعبد الرحمن، أنه بعث هذا الرجل منذ سنين إلى ملك الصِّين، وزوّده بهديّة عظيمة تبلغ قيمتها مئة ألف في بلاده وثلاثة آلاف ألف أو أكثر في بلاد الصِّين، فتقبَل ملك الصِّين هدية شهر بَراز بقبول حسن، وبعث مع رسوله بهدية ثمينة هي عبارة عن ياقوتة حمراء.

وقدّم شهربَراز تلك الياقوتة الحمراء إلى عبد الرحمن، فتناولها ونظر إليها، ثمّ ردّها إلى شهر بَراز.

وقال شهربَراز مخاطباً عبد الرحمن: «لَهَذه خير من هذا البلد - يعني مدينة باب الأبواب - وإيمُ الله لأنتم أحبّ إليّ مَلَكَةً من آل كسرى، ولو كنتُ في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني، وأيمُ الله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم وَوَفَى ملكُكُم الأكبر»[1].

ومهما قيل في صحّة هذه القصّة التاريخية، فإنها تدلّ على استقامة السلف الصالح من العرب المسلمين وتعفّفهم ورغبتهم في ما عند الله لا في ما عند الناس، لذلك انتصروا بمبادئهم العالية أكثر من انتصارهم بسيوفهم البتّارة.

وقد وصف عبد الرحمن بن ربيعة الباهِلّي حال الفاتحين الأولين أحسن وصف، فقد خرج بالناس للفتح، فقال له شهر بَراز: «ما تريد أن تصنع؟!»، قال: «أُريد بَلَنْجَر»، قال: «إنا لنرضىَ منهم أن يَدَعُونا من دون الباب»، قال: «لكنّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتِيَهُم في ديارهم، وتالله إنّ

(١) الطبري (٤/١٥٩ - ١٦٠).

معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغتُ بهم الرَّدْمَ[1]!»، قال: «وما هم؟!»، قال: «أقوام صَحِبوا رسول الله ﷺ، ودخلوا في هذا الأمر بنيّة، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهليّة، فازداد حياؤهم وتكرّمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النّصر معهم حتى يُغيِّرهم مَنْ يَغْلِبهم، وحتى يُلْفَتوا عن حالهم بمن غيرَّهم»[2].

وليست بي حاجة إلى شرح ما قاله عبد الرحمن بن ربيعة، فكلامه واضح لا يحتاج إلى شرح، وهو يريد أنّ هؤلاء النفر من الصحابة المجاهدين، لا يريدون في جهادهم غير إعلاء كلمة الله، وليس من أهداف جهادهم المال أو الأسرى أو الاستعلاء، لذلك يَغْلِبون ولا يُغْلَبُون.

ومن أمثلة الحرب العادلة التي كان يخوضها المسلمون حينذاك، إسقاط الجِزْية عن الذِميّ الذي يحارب في صفوف المسلمين: «وعلى أهل إرمينية والأبواب، الطُرّاء[3] منهم والتُنَّاء[4] ومَنْ حولهم فدخل معهم، أن ينفِروا لكلِّ غارة، وينفذُوا لكلِّ أمر نابَ أو لم يَنُبِتْ رآه الوالي صلاحاً، على أن توضع الجِزاء عمّن أجاب إلى ذلك إلّا الحَشْر، والحَشْرُ عِوَضٌ من جِزائهم»[5].

وقد كانت الجزية عند الأمم السابقة لا تمنع دافعيها من تجنيدهم في جيش الغالبين وإراقة دمائهم، فكانوا يدفعون الجزية ويساقون إلى الحرب مرغمين، ولكنّ الإسلام أعفاهم من الخدمة في الجيش في حالة تقاضي الجزية منهم، فإذا تطوّعوا في الجيش سقطت عنهم الجزية تلقائياً.

لقد كان من أهم انتصار المسلمين الأولين السريع الحاسم وبأقل

---

(١) الرّدم: يقصد به هنا، سُدّ الإسكندر في الصين. والرَّدم لغة: السُّدُّ العظيم.

(٢) الطبري (١٥٨/٤) وابن الأثير (٢٩/٣ ـ ٣٠).

(٣) الطُرّاء: جمع الطارئ، وهو الغريب.

(٤) التناء: تنأ بالبلد: أقام، والتناء: المقيمون في البلد.

(٥) الطبري (١٥٧/٤).

الخسائر الماديّة والمعنوية، هو الحرب العادلة البعيدة عن الظلم والاستغلال والاستعباد، فاستحوذوا بذلك على ثقة الشعوب المغلوبة، الذين شعروا بأنّ الفاتحين الجدد أرحم من المستعبدين القدامى وأعدل، ومن مصلحة تلك الشعوب أن تتعاون مع الفاتحين وتعينهم.

ولم يكن انتصار الفاتحين الأولين: «لعدم وجود جيش منظّم قوي يستطيع صدّ الفتح الإسلامي ويحمي البلاد المفتوحة، ولأنّ الحرب السّاسانيّة البيزنطيّة قد استنزفت كلّ قوي الدولتين، وأنْ مصاولة الفاتحين اقتصرت على السكّان المحليين أو القوّات المحليّة بطاقاتهم المحدودة»، كما يدعي أعداء العرب والمسلمين من المؤرخين الأجانب.

ومن المؤسف حقّاً أنّ قسماً من المؤرخين العرب والمسلمين، نقلوا مزاعم هؤلاء الأعداء نقلًا بسذاجة وجهل إلى المدارس والمعاهد والجامعات الإسلامية وسمّموا بها أفكار التلاميذ العرب والمسلمين والطلّاب بمزاعم باطلة لا يقرّها المنطق ولا يصدِّقها العقل وتناقض دقائق التاريخ.

لقد حارب الفاتحون جيوش الفُرْس والرُّوم في معارك حاسمة وفي معارك محليّة، فانتصروا انتصارات حاسمة وانتصارات محليّة، ولم تقتصر معاركهم على الجيوش المحليّة حسب.

حارب الفاتحون جيوش الفُرس في معركتين حاسمتين: في (القادسيّة) وفي (نَهاوَنْد).

وحاربوا جيوش الرُّوم في معركتين حاسمتين أيضاً: في (اليرموك) وفي (بابليون) أو (الفُسطاط).

وكان الفُرس الرُّوم متفوِّقين على الفاتحين فواقاً كاسحاً، بشهادة المؤرخين القُدامى من الفُرْس والرُّوم في العَدَد والعُدَد وفي تجاربهم الحربيّة وقربهم من قواعدهم الرئيسة.

وحارب الفاتحون جيوش الفُرْس والرُّوم في معارك لا تُعدْ ولا تحصى محليّاً، في الصحاري والجبال، شرقاً وغرباً.

وانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله.

وقد كان الفُرْس والرُّوم يحتلّون بلاداً عربية قبل الإسلام، وتدين لهم بالولاء دول عربيّة أكثر حضارة وأكبر عَدَداً وأغزر عُدَداً من أولئك الفاتحين القادمين من الصحراء بعد الإسلام، فلماذا لم ينتصر العرب على الفُرس والرُّوم قبل الإسلام، وانتصروا عليهم بعد الإسلام؟!

إنّ الأسباب التي قضت على الفُرس والرُّوم بالهزيمة، ليست هي الأسباب التي قضت للعرب بتكوين (وحدة) وقيام (دولة) وانتشار (عقيدة) وإشاعة (لغة) وإحراز (نصر)، لأنّ استحقاق أُناس للزوال والفناء، لا ينشىء لغيرهم حقَّ الظهور والبقاء.

فلا مراء بأنّ انتصار العرب المسلمين على العرب غير المسلمين وعلى الفُرس والرّوم والأمم الأخرى، كان انتصار عقيدة.

وأعداء العرب والمسلمين الذين يزعمون أنّ الفتح الإسلامي كان لضعف أعداء العرب والمسلمين، يهدفون إلى تهوين أثر الإسلام في العرب والتقليل من أثره في النفوس والعقول معاً، وفتح إرمينية واستعادة فتحها دليل واحد من أدّلة كثيرة على أثر الإسلام في العرب وتأثيره فيهم، لعلّه ينير الطريق لطالبي الحق والباحثين عن الحقيقة.

ولا أظنّ أنّ الحق يخفى والحقيقة تموت، ولكنّ أغراض العدو تُعمى وتصمى، وعلى الباحث أن يجاهر بالحق ولو كره المبطلون.

والحمد لله كثيراً، وصلّى الله على سيدنا ومولانا رسول الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قادة فتح إِرْمِينِيَة

التسلسل	القائد الفاتح	البلاد المفتوحة	الإقليم	التاريخ هـ	التاريخ م	الخليفة
١	عِيَاض بن غَنْم الفِهْرِيّ	١. بَدْلِيس ٢. خِلاط ٣. العين الحامِضَة	أَرْمِينِيَة الرّابعة	١٧	٦٣٨	عمر بن الخطّاب
٢	عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيّ	إرمينية الرّابعة	إرمينية الرابعة	١٩	٦٤٠	عمر بن الخطّاب
٣	سُراقة بن عمرو	باب الأبواب	إرمينية الأولى	٢٢	٦٤٢	عمر بن الخطّاب
٤	سلمان بن ربيعة الباهِلِيّ	١. البَيْلَقَان ٢. بَرْذَعة ٣. ولاية أرّان ٤. شَمْكُور ٥. مجمع نهري الرَّسّ والكُرّ ٦. شَرْوان ٧. مَسْقَط ٨. الشَابِران	إرمينية الأولى	٢٥	٦٤٥	عثمان بن عفّان
٥	حَبِيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ	١. شِمْشاط	إرمينية الرابعة	١٩	٦٤٠	عمر بن الخطّاب
		٢. قَالِيْقَلا	إرمينية الرابعة			
		٣. مِرْبالا	إرمينية الرابعة			
		٤. فُكُس	إرمينية الرابعة			
		٥. أَرْجِيْش	إرمينية الرابعة	٢٥	٦٤٥	عثمان بن عفان
		٦. باجُنَيْس	إرمينية الرابعة			
		٧. أَرْدَشَاط	إرمينية الثالثة			
		٨. دَبِيْل	إرمينية الثالثة			
		٩. النَّشْوَى	إرمينية الثالثة			
		١٠. البُسْفَرْجان	إرمينية الثالثة			
		١١. جُرْزان	إرمينية الثانية			
		١٢. تَفْلِيس	إرمينية الأولى			

استعادة فتح إرْمِينِية

الموقف العام

ابتدأت المشاكل والفوضى تعمّ أرجاء الدولة الإسلاميّة من سنة ثلاث وثلاثين الهجريّة (٦٥٣م) في أواخر عهد عُثمان بن عَفَّان رضي الله عنه، وبدأت هذه المشاكل والفوضى في (الكوفة) و (البصرة). وتكاتب نفر من المسلمين إلى بعضهم: «أن أَقْدِموا، فإِنّ الجهاد عندنا»، فأصبح الجهاد في المدينة المنوّرة قاعدة المسلمين الرئيسة وعاصمتهم، على رأي أولئك النفر، لا في البلاد المفتوحة في خارج شبة الجزيرة العربية، ولا في البلاد المجاورة التي تهدِّد البلاد المفتوحة!!

وفي سنة خمس وثلاثين الهجرّية (٦٥٥م) قُتل عثمان بن عفّان رضي الله عنه في المدينة المنوّرة بيد المسلمين لا بيد أعدائهم، وبذلك أصبحت سيوف الفاتحين عليهم لا على مَن يعاديهم ويحاربهم.

وتولّى الخلافة عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، والقلوب مختلفة والنفوس متفرِّقة والبلاد مضطربة، فسار قُسْطنطين بن هِرَقْل في ألف مركب سنة خمس وثلاثين الهجرية[1] (٦٥٥م) يريد بلاد المسلمين، وهكذا أصبح الطالب مطلوباً، والمنتصر مغلوباً.

وفي سنة ست وثلاثين الهجريّة (٦٥٦م) نشب الخلاف في الأمصار والمدن الإسلامية داخل البلاد العربية ـ قاعدة الفتح والفاتحين، وضعفت سيطرة القيادة المركزيّة.

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١٩٩).

وفي هذه السنة، جرت معركة (الجَمَل) في البصرة[1]، اقتتل فيها الفاتحون، وتساقط منهم في ساحة المعركة عشرات الألوف من قادة الفتح وجنوده.

وفي هذه السنة أيضاً، سار الخوارج إلى (سِجِسْتان)[2]، فامتدّ الاقتتال بين الفاتحين إلى البلاد المفتوحة في خارّج البلاد العربيّة.

وفي سنة سبع وثلاثين الهجريّة (٦٥٧م)، تطوّر الاقتتال بين الفاتحين قادة وجنوداً في معركة (صِفِّين)[3] تطوّراً خطيراً، وسقط عشرات الألوف من القتلى والجرحى في ميدان الاقتتال، فأصبح الصدع من الجانبين عرباً مسلمين لا يقبل الالتئام.

وانطلق الشَاعر العربي يعتصر قلبه شعراً فقال:

أصبحت الأمّةُ في أمرٍ عَجَبْ ... والمُلكُ مجموعٌ غداً لمن غَلَبْ
فقلت قولًا صادقاً غير كَذِبْ ... إنّ غداً تهلكُ أعلامُ العربْ[4]

وفي هذه السنة انتقضت (خُراسان) وامتنعت، فحاصر أهلها عاملُ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حتى صالحهم بعد جهد جهيد[5]، وبدأ قتال الخوارج، فسقط آلاف القتلى والجرحى منهم ومن رجال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[6] بعد اقتتال مرير.

وفي سنة ثمان وثلاثين الهجريّة (٦٥٨م) مَلَك عمرو بن العاص[7]

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣/ ٢٠٥ ـ ٢٦٤).
(٢) ابن الأثير (٣/ ٢٦٤).
(٣) انظر تفاصيل المعركة في: ابن الأثير (٢٧٦ ـ ٣١٦).
(٤) الشّعر من قول الشّاعر: كعب بن جُعَيْل التَغْلُبيّ، انظر الطبري (٥/ ١٤).
(٥) ابن الأثير (٣/ ٣٢٦).
(٦) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٣/ ٣٣٤ ـ ٣٤٨).
(٧) انظر سيرته المفصلّة في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (١٢٣ ـ ١٦٣).

مصر وقتل محمد بن أبي بكر الصدِّيق عامل عليّ بن أبي طالب على مصر[1]، فأصبحت الدولة الإسلامية دولتين تعمهما الفتن والاضطرابات والفوضى.

وفي تسع وثلاثين الهجرية (٦٥٩م)، طمع أهل (فارس) و (كَرْمان) في كسر الخراج، فطمع أهل كّل ناحية وأخرجوا عاملهم[2]، واشتدّ القتال بين رجال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والخوارج، وفرّق الاقتتال بين الدولتين الإسلاميتين، وأصبحت غاراتهما تنصب على بلاد المسلمين المفتوحة لا على بلاد الأعداء لفتح جديد.

وفي سنة أربعين الهجرية قُتل أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيد عربيّ في عاصمته الكوفة في المسجد وهو ينادي: الصّلاة... الصّلاة..[3]!

لقد استشهد ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة: عمر بن الخطّاب قتله فارسيّ، وعثمان بن عفّان قتله العرب، وعليّ بن أبي طالب قتله عربيّ من مُراد.

وبويع معاوية بن أبي سفيان، ولكن الدولة الإسلامية كانت تغلي كالمِرجَل، وأصبح الفاتحون شِيَعاً وأحزاباً.

وفي سنة إحدى وأربعين الهجرية (٦٦١م)، بدأ الاقتتال بين معاوية والخوارج، فنكثت (خُراسان)[4].

وفي سنة اثنتين وأربعين الهجرية (٦٦٢م)، بدأت تباشير الاستقرار في

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥/ ٩٤ ـ ١١٠).
(٢) انظر التفاصيل ابن الأثير (٣/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).
(٣) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٣/ ٣٨٧ ـ ٣٩٦).
(٤) ابن الأثير (٣/ ٤١٧).

البلاد العربية، فغزا المسلمون (اللّان) والرُّوم، وهزموهم هزيمة منكرة[١].

وفي سنة ثلاث وأربعين الهجرية (٦٦٣م) غزا المسلمون (سِجستان) بعد أن انتقضت، فاستعادوا فتحها بلداً بلداً[٢]، كما استعادوا فتح (طخارستان)[٣].

ومن سنة أربع وأربعين الهجرية حتى وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة ستين الهجرية (٦٦٤م ـ ٦٧٩م)، عمّ الاستقرار أرجاء البلاد العربية، فغزا المسلمون (السِّند) و (القُسْطَنْطِينِيَّة) و (إِفْرِيْقِيَّة) والرُّوم، وفتحوا جزيرة (أَرْواد) وفتوحات جديدة أخرى، واستعادوا فَتح المناطق التي سبق فتحها ثم انتقضت، وذلك بفضل عودة الاستقرار والوحدة إلى المسلمين.

وتولّى يزيد بن معاوية بعد وفاة أبيه سنة ستين الهجرية (٦٧٩م)، فبدأت الاضطرابات والفتن والثورات تنبعث ثانية في أرجاء البلاد الإسلامية وفي البلاد العربية قلب الدولة الإسلامية، وفي سنة إحدى وستين الهجرية (٦٨٠م) استُشهد الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في (كَرْبَلاء)[٤]، وَغدر أهل (كابلُ) ونكثوا وقتلوا المسلمين، ووقعت العصبية القبلية بين الفاتحين في البلاد المفتوحة[٥]، مما أضعفهم وهوّن أمرهم بين الأعداء..

وفي سنة ثلاث وستين الهجرية (٦٨٢م) كانت وقعة (الحَرَّة) في المدينة المنوّرة، فأُبيحت المدينة ثلاثة أيام يقتلون الناس ويأخذون الأموال والمتاع، فتساقط القتلى والجرحى من سكّانها بالآلاف[٦].

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٤٣٠).
(٢) ابن الأثير (٣/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧).
(٣) ابن الأثير (٣/ ٤٣٨).
(٤) انظر تفاصيل استشهاده في: ابن الأثير (٤/ ٤٦ ـ ٩٤).
(٥) انظر ابن الأثير (٤/ ٩٧ ـ ٩٨).
(٦) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٤/ ١١١ ـ ١٢٢).

وفي سنة أربع وستين الهجرية (٦٨٣م) مات يزيد بن معاوية، وكان قد عهد بالأمر إلى ابنه معاوية بن يزيد، فبقي في الخلافة شهرين أو أقلّ، ثم مات ولم يستخلف أحداً[١].

وفي هذه السنة بويع لعبد الله بن الزبير بمكة المكرمة، وكان حصار الشاميين قد اشتدّ على ابن الزبير، فلما علموا بموت يزيد انسحبوا إلى المدينة المنّورة في طريقهم إلى دمشق[٢].

وغلبَ على الشّام الضَحّاك بن قيس الفِهْرِي[٣]، فدعا إلى ابن الزبير ثمّ إلى نفسه، وانحاز عنه مروان بن الحكم من بني أُميّة إلى أرض (حَوْرَان)، فوافاهم عبيد الله بن زياد[٤] من الكوفة على البرية منهزماً من أهلها، فقوى عزم مروان على طلب الخلافة. وجرت أمور كثيرة إلى أن التقى مروان والضحّاك بـ (مَرْج راهِط) بنواحي دمشق شرقي (الغُوْطة)، فقُتِل الضحّاك وقتل معه نحو ثلاثة آلاف، وانتصر مروان في سنة أربع وستين الهجرية[٥] (٦٨٣م).

وبويع مروان بن الحكم في هذه السنة، فانتقضت (الرَيّ)[٦]، وبايعت (خُراسان) والياً اختارته[٧]، وثارت فتنة المختار في (الكوفة) فأرعدت الفتنة وأبرقت[٨].

ومات مروان سنة خمس وستين الهجرية (٦٨٤م)، وتولّى

(١) العبر (١/ ٦٩).
(٢) ابن الأثير (٤/ ١٣٠).
(٣) انظر سيرته في: تهذيب ابن عساكر (٦/ ٧ ـ ١٢).
(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد ما وراء النهر.
(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٦).
(٦) ابن الأثير (٤/ ١٤٤).
(٧) ابن الأثير (٢/ ١٥٤ ـ ١٥٨).
(٨) ابن الأثير (٢/ ١٦٨ ـ ١٧٤).

عبد الملك بن مروان، فكان على أرض الشّام ومصر، وكان عبد الله بن الزبير[1] على البلاد الإسلامية الأخرى.

وبدأ عبد الملك بن مروان يبذل قصارى جهده لإعادة الوحدة الشاملة إلى بلاد المسلمين، فكانت في سنة سبع وستين الهجريّة (٦٩٥م) وقعة (الخَازر) اندحر فيها أهل الشام، وكانوا أربعين ألفاً، وظفر بهم إبراهيم بن الأشتر النّخَعِيّ، وقتل أمراء الشّام، وكان ابن الأشتر قائداً من قادة المختار[2].

وقضى مُصْعَب بن الزبير على المختار[2]، وقضى عبد الملك على مُصْعَب، وخرجت الخوارج بفارس والعراق وذلك سنة ثمان وستين الهجرية (٦٩٦م).

وفي هذه السّنة، وافى (عَرَفات) في موسم الحجِّ أربعة ألوية: لواء لمحمد بن الحَنفِيّة وأصحابه، ولواء لابن الزبير وأصحابه، ولواء لبني أُميّة، ولواء لنَجْدَة الحَرُوريّ[3]، وهكذا تفرّق المسلمون حتى في أداء شعائر الحج!!!

وفي سنة إحدى وسبعين الهجرية (٦٩٠م) قضى عبد الملك بن مروان على مُصْعَب بن الزبير في العراق[4].

وفي سنة اثنتين وسبعين الهجرية (٦٩١م) قضى عبد الملك على قسم من فتن الخوارج والخارجين عليه في الأمصار[5].

وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢م)، قضى الحجّاج بن يُوسُف

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٣٦ - ٩١).
(٢) ابن الأثير (٤/ ٢٦١ - ٢٦٧).
(٣) ابن الأثير (٤/ ٢٩٦).
(٤) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٤/ ٣٢٣ - ٣٣٦).
(٥) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٤/ ٣٤٢ - ٣٤٧).

الثَّقَفِيّ على عبد الله بن الزبير في الحجاز[1].

وهكذا قضى عبد الملك بن مروان من سنة خمس وستين الهجرية إلى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٨٤م - ٦٩٢م) في صراع مرير لاستعادة الواحدة الشّاملة إلى الدولة الإسلامية، سقط من جرائه ما لا يعدّ ولا يحصى من القتلى، وشغل العرب فيما بينهم بالاقتتال عن القتال في ساحات الجهاد، فضعف شأن المسلمين في البلاد المفتوحة، واجتاحتها الفتن والاضطرابات والفوضى.

لقد كانت سنة ثلاث وسبعين الهجرية سنة الوحدة الشّاملة للدولة الإسلامية.

والدرس الذي نتعلّمه، أنّ من أسباب فتوح المسلمين وحدتهم بالإسلام، وأنّ الفتوح تمتدّ شرقاً وغرباً في أيام الوحدة، وتنحسر في كلِّ مكان في أيام الفِرْقة.

ولم تكن إرمينية أسعد حَظّاً من البلاد المفتوحة الأخرى، بل كانت مثلها في انتقاض أهلها واستقلالهم عن الدولة الإسلاميّة.

القادة

١ - جهاد محمد بن مروان:

لما كانت فتنة عبد الله بن الزبير، انتقضت إرمينية[2]، وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرّية (٦٩٢م) وهو عام الوحدة، ولّى عبد الملك بن مروان أخاه محمد بن مروان على الجزيرة وإرمينية، فغزا منها وأثخن في العدو[3]، وقتل وسبى وغلب على البلاد[4]. وفي سنة أربع وسبعين غزا محمد بن

---

(١) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٤/٣٤٨ - ٣٥٩).

(٢) فتوح البلدان (٢٨٩).

(٣) ابن الأثير (٤/ ٣٦١).

(٤) فتوح البلدان (٢٨٩).

مروان الصَّائفة الرُّوم[1]، كما غزا الروم سنة خمس وسبعين الهجرية (٦٩٢م) الصّائفة أيضاً[2].

وفي سنة ست وسبعين الهجرية (٦٩٥م) غزا محمد الروم من ناحية (مَلَطْيَة)[3].

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) غزا محمد إرمينية فهزمهم، ولكنهم قتلوا وكيله عليهم بعد أن صالحهم، فغدروا به وقتلوه غدراً[4].

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) غزا محمد إرمينية فصَافَ فيها وشتى[5].

وفي سنة إحدى وتسعين الهجرّية (٧٠٩م) عزل الوليد بن عبد الملك عمّه محمد بن مروان عن إرمينية والجزيرة واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك[6].

لقد كان محمد بن مروان قائداً متميِّزاً، له شخصية قوّية نافذة، وقد أعاد الهدوء والاستقرار إلى أرمينية، وخافهُ أهلها[7].

٢ ـ جهاد مَسْلَمة بن عبد الملك[8]:

أ ـ ولايته الأولى:

عزل الوليد بن عبد الملك عمّه محمد بن مروان عن (الجزيرة) و

---

(١) ابن الأثير (٤/٣٧٣).
(٢) ابن الأثير (٤/٣٩١).
(٣) ابن الأثير (٤/٤١٨).
(٤) ابن الأثير (٤/٤٧٦).
(٥) ابن الأثير (٤/٥١٤).
(٦) ابن الأثير (٤/٥٥٥).
(٧) فتوح البلدان (٢٨٩).
(٨) انظر سيرته المفصلّة في كتابنا: قادة فتح بلاد الرّوم.

(إرمينية) سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م) واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة[١]. ولما أراد الوليد عزل عمِّه، لم يقدم أحدٌ عليه إلّا مَسْلَمَة[٢].

وفي هذه السنة غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب)، وفتح مدائن وحصوناً، ونصب عليها المجانيق[٣].

وأمضى مسلمة السنوات التالية في غزو بلاد الرّوم، وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م) غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) وفتحها وخرّبها، ثم بناها بعد ذلك[٤] بعشر سنين[٥] أو تسع سنين[٦]، وقد انتقضت هذه المدينة فأعادها للمسلمين مرة أخرى، والظاهر أنها استعصت عليه فاستعادها عَنْوة.

وغزا مسلمة بلاد الروم سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) وسنة سبع وتسعين[٧] الهجرية (٧١٥م) وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م - ٧١٧م) عزل سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة وولاّه قائداً عاماً لقوات المسلمين المعتزمة فتح القُسْطَنْطِيْنِيَّة[٨]، فسار على رأس جيشه نحو هدفه.

ب - ولايته الثانية:

وفي سنة سبع ومئة الهجريّة (٧٢٥م)، استعمل هشام بن عبد الملك

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٥٥٥).
(٢) ابن الأثير (٥/ ٧٠).
(٣) الطبري (٦/ ٤٥٤) وابن الأثير (٤/ ٥٥٥) وابن خلدون (٣/ ١٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٢) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢).
(٤) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).
(٥) البداية والنهاية (٩/ ١١٧).
(٦) البداية والنهاية (٩/ ١١٧) والمعارف (٣٦٥).
(٧) البداية والنهاية (٩/ ٧٢٨).
(٨) أبو الفدا (١/ ٢٠٠) والعبر (١/ ١١٦).

أخاه مَسْلَمة على إرمينية وأَذْرَبِيْجان خلفاً للجرّاح بن عبد الله الحَكِميّ[١]، فاستعمل مسلمةُ الحارث بن عمرو الطائيّ[٢]، فافتتح رستاقاً وقرى كثيرة، وأثّر فيها أثراً حسناً[٣].

وفي سنة ثمان ومئة الهجريّة (٧٢٦م)، حاصر الترك مدينة (وَرْثان)[٤] ورموا بالمنجنيق، فقصدهم الحارث بن عمرو بأمر مَسْلَمَة وعبر نهر (الرسّ) بالقرب من (وَرْثان)، والتقى بالترك وانتصر عليهم بعد أن كبّدهم خسائر فادحة بالأرواح[٥].

وفي سنة تسع ومئة الهجرّية (٧٢٧م)، غزا مسلمةُ التركَ من ناحية (أَذْرَبِيْجان)، فغنم وسبى وعاد سالماً[٦].

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨م)، غزا مَسْلَمةُ التركَ في باب (اللاّن)، فلقي خاقان[٧] في جموعه، ونشب القتال بين الجانبين قريباً من شهر واحد، وأصابهم مطر شديد، فانهزم خاقان وعاد مسلمة منتصراً[٨].

---

(١) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

(٢) انظر سيرته في: تهذيب ابن عساكر (٣/ ٤٥٦).

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٣٧ - ١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب (١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٥٠).

(٤) ورثان: بلد هو آخر حدود أذربيجان، بينه وبين وادي الرسّ فرسخان، وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤١٣).

(٥) تهذيب ابن عساكر (٣/ ٤٥٦).

(٦) ابن الأثير (٥/ ١٤٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) وتاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٥٢).

(٧) خاقان: لقب ملك التركي، ومعناه: الملك.

(٨) ابن الأثير (٥/ ١٥٥). وكانت هذه الغزوات من غزوات توطيد سيطرة الدولة في البلاد المفتوحة، وإشاعة الأمن والاستقرار في (أذربيجان) و(إرمينية) الجبليتين ذات البرد القارس والسكّان الجبليين الماهرين في الحروب الجبليّة والمتميزين بالشجاعة والإقدام.

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩م)، استعمل هُشام بن عبد الملك الجّراحَ بن عبد الله الحَكِميّ على إرمينية، وأذربيجان وعزل أخاه مسلمة[١].

ومن الواضح أن مسلمة وطّد أكناف إرمينية وأذربيجان وأحرز انتصارات باهرة على الخَزَر والترك، فأدىّ واجبه على أحسن وجه، ولم يبق ما يسوِّغ بقاءه في منصبه بعيداً عن عاصمة الخلافة (دِمَشْق)، وبخاصة فإنّ وجوده في دمشق يفيد جميع الأقطار الإسلامية ولا يقتصر على قطرين إسلاميين حسب. ولعّل عزل مسلمة كان لحرص هشام على أن يبقى مسلمة إلى جانبه، مستشاراً ناصحاً وقائداً لامعاً وإدارياً حازماً، فاستأثر به لنفسه من أجل مصلحة الدولة الإسلامية كلِّها، إذ لا يمكن الاستغناء عن كفاية مسلمة الذي أصبح قائد الدولة البارز غير منازع في كفايته وإخلاصه إلّا لتولي مهمّة جديدة هي أكبر من مهمّته الكبيرة والياً على إرمينية وأذربيجان. ومن المحتمل أن عزله كان لأسباب قاهرة كالمرض مثلًا، لأنّ هشام بن عبد الملك لا يمكن أن يعزل أخاه مسلمة بدون رغبته إلّا لأسباب قاهرة، سكت المؤرخون عن ذكرها.

ولم يغز مسلمة سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م) خلافاً لعادته التي التزم بها في الغزو كلّ سنة مرّة أومرتين، وفي تلك السنة سارت الترك إلى (أذربيجان) فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم[٢]، مما يدلّ على أنّ مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال، فقاد المعركة قائد ممن يعملون بإمرته، وهذا يدّل على أنّ مسلمة كان في (دمشق) لأسباب غير عاديّة، فأراد هشام أن يولّي غيره دون أن يعزله لريبة أو تقصير.

---

(١) ابن الأثير (١٥٨/٥) وتاريخ الإسلام (٣٠٢/٤) والنجوم الزاهرة (٢٧٠/١) وابن خلدون (٢٩٩/٣) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خيّاط (٣٥٣/٢).

(٢) ابن الأثير (١٥٨/٥).

ج ـ ولايته الثالثة:

استُشهد الجّراح بن عبد الله الحكمّي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرّية (٧٣٠م)، فاضطرمت إرمينية وأذربيجان ناراً، وأصبح الموقف العسكريّ حرجاً مما يهدِّد البلاد المفتوحة بأفدح الأخطار.

وأعاد هشامُ مَسْلمةَ إلى إرمينية سنة اثنتى عشرة الهجرية[١] (٧٣٠م)، ليتدارك الموقف المتردي فيها، بعد أن استفحل أمر الخَزَر والترك فأبادوا قائد المسلمين وجيشه[٢].

وفي سنة ثلاث عشرة الهجرية (٧٣١م) ضمَّ هشام إلى مسلمة أذربيجان أيضاً[٣].

وانطلق مسلمة إلى إرمينية سنة اثنتي عشرة الهجرية مسرعاً، لاستعادة هيبة الدولة وإعادة الأمن، فليس مسلمة من الذين يسكتون على استشهاد قائد من قادة المسلمين وإفناء جيشه دون أن يعيد المعتدين إلى صوابهم.

وكان على مقدمة مسلمة سعيد بن عمرو بن أسود الحَرَشِيّ[٤]، فواقع سعيد الخَزَر وقد حاصروا (وَرْثان) فكشفهم عنها وهزمهم. وانسحب الخزر إلى (مِيْمَذ) من عمل أَذْرَبِيْجان، فلما تهيّأ لقتالهم أتاه كتاب مسلمة يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه، ويعلمه أنه قد عزله وولّى قيادة عسكره غيره. وسلّم سعيدٌ القيادةَ، فأخذه رسول مسلمة وحبسه وأخذه مقيّداً إلى (بَرْذَعة) وحُبس في سجنها. وانصرف الخزر، فأتبعهم مسلمة وكتب بذلك إلى هشام، فكتب هشام إلى مسلمة:

أَتَتْرُكُهُمْ بِمْيمَذ قد تَراهُم وتَطْلُبُهم بمنقطع التراب!!

---

(١) فتوح البلدن (٢٩٠).

(٢) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٣) تاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٥٨).

(٤) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

وأمر هشام بإِطلاق سراح سعيد من السجن.

وقد كان الخزر بميمذ، فلم يناجزهم مسلمة أولًا، بل قصد مدينة (باب الأبواب) ثم عبرها، فتبعه الخزر[1]. وكان على مسلمة أن يبدأ بها، حتى لا يعرِّضَ خطوط مواصلات جيش المسلمين للخطر، ولكن حصل العكس، مما أدّى إلى الاختلاف بين مسلمة وسعيد من جهة وبين مسلمة وهشام من جهة أخرى، وكان سعيد وهشام على حق، وكان مسلمة على خطأ.

وصالح مسلمة أهل (خَيْزان) وأمر بحصنها فهدم[2]، مما يدل على تكرار انتقاضها وشدّة مقاومتها للفاتحين.

وسالم مسلمة ملوك الجبال: جبال القفقاس، وسار إليه صاحب (مَسْقَط)[3].

وهاجم مسلمة مدينة (باب الأبواب)، وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخَزَر، فحاصرهم ورماهم بقنابل الحجارة والحديد، فلم ينتفع بهذا القصف، وبقيت المدينة ثابتة.

وعمد مسلمة إلى العَيْن التي كان أَنُوشِرْوان أجرى منها الماء إلى صهريج المدينة، فذبح البقر والغَنَم، وألقى فرثها وفضلاتها الأخرى في الصهريج، فلم يمكث ماؤهم إلّا ليلة حتى دوّد وأنتنَ وفسد، فلما جنّ عليهم اللّيل هربوا وأخلوا القلعة[4]، وهكذا استعاد مسلمة مدينة (باب الأبواب) بعد حصار طويل وقتال مرير.

ووطّد مسلمة العزم على ترصين مدينة باب الأبواب لجعلها قاعدة

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٢) فتوح البلدان (٢٩١).

(٣) فتوح البلدان (٢٩١).

(٤) فتوح البلدان (٢٩١).

متقدِّمة للمسلمين، فأسكن المدينة أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشّام على العطاء، فأهل الباب لا يدعون عاملًا يدخل مدينتهم إلّا معه مال يفرِّقه بينهم[(١)].

وبنى مسلمة في مدينة باب بالأبواب هُرْياً للطعام، وهُرْياً للشَّعير، وخزانة للسِّلاح، وأمر بتطهير صهريج المدينة، ورمّ المدينة وشرَّفها[(٢)]. وهكذا جعل مسلمة من هذه المدينة قاعدة أمينة متقدِّمة في محاولة لعدم انتقاضها مرة أخرى، ولكي ينطلق منها المسلمون شمالًا لحماية البلاد المفتوحة ولإضافة فتح جديد.

وقد فرّ الخزر من مدينة باب الأبواب باتِّجاه منطقة باب (اللّان)، فطاردهم مسلمة إلى هناك للقضاء عليهم وإجبار قوّاتهم الضّاربة على الاستسلام.

ولقي مسلمةُ (خاقان)[(٣)] في جموعه، فنشب بين الجانبين قتال مديد استغرق قريباً من شهر، وأصابهم مطر شديد، فانهزَم خاقان في السّابع من جمادى الآخرة من هذه السنة.

وهذه الغزوة تسمى غزوة الطيِّن، وكانت ملحمة عظيمة، لهطول الأمطار الغزيرة التي جعلت ساحة المعركة تغصّ بالطيِّن[(٤)].

لقد قضى مسلمة هذه السنة صيفاً وشتاءً غازياً، وكان من عادة المسلمين أن يغزوا الصّائفة ويستقرّوا في الشتاء، ولكن سير الحوادث في تلك السنة أجبرته على ألّا يُرِيح ولا يستريح، للقضاء على مقاومة الخزر الأشدّاء الأقوياء المتمرِّسين على الحروب الجبليّة.

---

(١) فتوح البلدان (٢٩١).

(٢) فتوح البلدان (٢٩١).

(٣) الخاقان: لقب ملك الترك، ومعناه) الملك.

(٤) النجوم الزاهرة (١/٢٦٧) وتاريخ الإسلام (٤/٣٠٤).

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجريّة (٧٣١م)، فرّق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان، ففتحت مدائن وحصون على يديه، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق، ودانَ له مَنْ وراء جبال (بَلَنْجر) من بلاد الخزر، وقتل ابن خاقان[١]، فاجتمعت تلك الأمم جميعها: الخزر والترك وغيرهم عليه في جمع لا يعلم عددهم إلّا الله. وكان مسلمة قد جاوز مدينة (بَلَنْجَر)، فلما بلغه خبرهم، أمر أصحابه فأوقدوا النيران، ثم ترك خيامهم وأثقالهم، وعاد وعسكره جريدة[٢]، وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان، وطووا المراحل: كلّ مرحلتين، في مرحلة واحدة، حتى وصل إلى (الباب) في آخر رمق[٣]، فأكمل بناء الباب وحصّنها[٤].

وفي سنة أربع عشرة الهجرية (٧٣٢م)، استعمل هشامُ بن عبد الملك مروانَ بن محمد بن مروان بن الحَكَم وهو ابن عمّه على (الجزيرة) و (أذربيجان) و (إرمينية) وعزل أخاه مسلمة[٥]، فعاد أدراجه إلى دمشق.

ولم يكن الموقف العسكريّ بصالح المسلمين عند عزل مسلمة، وما مثل مسلمة يرضى بأن يتخلّى عن القيادة، والبلاد التي بإِمرته ورجاله والمسلمون في موقف عصيب.

ولم يكن هشام ليعزل مسلمة الذي كان الرجل الثاني في الدولة بدون موافقة مسلمة المسبّقة، وليس من المعقول أن يُعْزَل مسلمة لقلة كفايته، لأنّ كفايته فوق الشبهات، ولأنّ هشام بن عبد الملك ولاّه لكفايته المتميّزة، ليعيد سيطرة الدولة، على تلك الأصقاع النائية.

وممّا يلفت النّظر، أنّ مسلمة لم يَغْزُ ولم يتولّ ولاية أو قيادة منذ سنة

---

(١) في المعارف (٣٦٥): أنه قتل ملك الترك.

(٢) الجريدة: خيل لا رجّالة فيها، ويقصد: أن الجيش كان مسرعاً كسرعة الخيالة.

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٧٣ - ١٧٤).

(٤) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٥٩).

(٥) ابن الأثير (٥/ ١٧٧) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٣) وابن خلدون (٣/ ٣٠٠).

أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢م)، حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٧م) أو إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٣٨م).

وغيابه عن تحمّل أعباء الجهاد، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الواجب، ليس طبيعياً، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ في مثل تلك الظروف الحرجة.

وإذا كان بالإمكان أن يتخلّى مسلمة عن تولي المناصب الإداريّة، فليس بالإمكان أن يتخلّى عن تولي المناصب القياديّة، وهو الذي يؤثر أن يكون غازياً لا والياً، فقد حمل السِّلاح قائداً وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، وقضى كلّ سنيّ حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية، فمن المعقول أنه تخلّى عن تولي المناصب القياديّة لأسباب خارجة عن إرادته.

والذي يبدو أنّ تخليه عن تولي القيادة، لم يكن بإرادته ولا بإرادة الخليفة هشام، بل تخلّى عنها مُكرهاً، وذلك لإصابته بمرض أقعده عن توليّ هوايته المفضَلة، ومن المعروف أنّ من مزايا القائد المتميِّز تمتّعه بالقابلية البدنيّة المتميِّزة، ليستطيع تحمّل أعباء الجهاد، وما أثقلها من أعباء.

وإلّا فليس هناك أيّ سبب آخر يسوِّغ ابتعاده عن ساحات الجهاد غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش بكفاية وقوّة وأمانة.

٣ ـ جهاد الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ[١]:

في سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢م)، ولّى يزيدُ بن عبد الملك الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ إرمينية[٢].

---

(١) انظر سيرته المفصلّة في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

(٢) ابن الأثير (٥/١١١) وتاريخ خليفة بن خيّاط (١/٣٣٧) والعِبر (١/١٢٦) وتاريخ الموصل (١٧).

وسبب تولية الجرّاح، أنّ المسلمين في سنة ثلاث ومئة الهجرّية (٧٢١م)، دخلوا بلاد الخَزَر (القفقاس) من إرمينية وعليهم ثُبيْت النَّهْرانِيّ[١] فاجتمعت الخزر في جمع كثير، وأعانهم الترك في مختلف أنواعهم، فلقوا المسلمين في موضع يُعرف بـ (مُرْج الحجارة). ونشب القتال بين الجانبين بشدّة وعُنف، فقُتل من المسلمين بشر كثير[٢]، واستولى الخزر على معسكرهم، وغنموا جميع ما فيه[٣]، وذلك في عزِّ الشتاء من شهر رمضان من سنة ثلاث ومئة الهجرية[٤] (٧٢١م).

وهكذا تجمّعت على المسلمين حُشود الخزر الضخمة وحلفاؤهم، وبرد الشتاء القارس في عنفوانه ببلاد جبلية باردة جداً، فأدىّ هذان العاملان إلى هزيمتهم.

وأقبل المنهزمون إلى الشّام، وقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثُبَيْت، فوبخهم يزيد، فقال ثُبَيْت: «يا أمير المؤمنين! ما جبنتُ ولا نكبتُ عن لقاء العدد، ولقد لصقتِ الخيل بالخيل والرجل بالرجل، ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي، وضاربت حتى انقطع سيفي، غير أنّ الله سبحانه وتعالى يفعل ما يريد»[٥].

ولما تمّت الهزيمة على المسلمين، طمع الخزر في البلاد، فجمعوا وحشدوا، فاستعمل يزيدُ بن عبد الملك على إرمينية وأَذْرَبِيْجان الجرّاحَ بن عبد الله الحَكَمِيّ، وأمدّه بجيش كثيف، وأمره أن يغزو الخزر وغيرهم من الأعداء، وقَصْدَهم في عقر دارهم. وتسامع الخزر وحلفاؤهم بقدوم

---

(١) في تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٦): أنّ قائد المسلمين كان مَعْلق بن صَفّار البهرانيّ.

(٢) في تاريخ خليفة بن خيّاط (١/ ٣٣٦): فأصيب من المسلمين جميعاً.

(٣) ابن الأثير (٥/ ١١٠).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٦).

(٥) ابن الأثير (٥/ ١١١).

المسلمين، فلجأوا إلى مدينة (باب الأبواب). ووصل الجرّاح إلى مدينة (بَرْذَعَة)[(١)]، فأقام بها حتى استراح هو ومَنْ معه. وتوجّه نحو الخزر، فعبر نهر (الكُرّ)[(٢)]، فسمع أن بعض مَن كان معه في جيشه من أهل الجبال (جبال القفقاس) قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجرّاح إليه، فأمر مناديه فنادى بالناس: «إنّ الأمير مقيم ههنا عدّة أيام، فاستكثروا من الميرة»، فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر يخبره أنّ الجرّاح مقيم، ويشير عليه بترك الحركة لئلا يطمع المسلمون فيه[(٣)].

ولما كان اللّيل، أمر الجرّاح بالرّحيل، فسار مُجِدّاً حتى انتهى إلى مدينة (باب الأبواب)، فلم ير الخزر، ويبدو أنهم انسحبوا بسرعة من المدينة إلى منطقة حشودهم، فدخل المسلمون المدينة، وبثَّ الجرّاح سراياه على ما يجاور المدينة، فغنموا وعادوا في الغد.

وسار الخزر وحلفاؤهم إلى المسلمين بقيادة ابن ملكهم (ابن خاقان). فالتقوا عند نهر (الرّان)[(٤)]، فنشب القتال الشديد بين الجانبين، وحرّض الجرّاح أصحابه، فظفر المسلمون بالخزر وهزموهم، فطاردهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقُتل منهم خلق كثير، وغنم المسلمون جميع ما معهم، وفُتح حصن (الحُصَيْن) سلماً، ونقل أهله عنه.

وسار الجرّاح بالمسلمين إلى مدينة (يَرْغوا)[(٥)]، فأقام عليها ستة أيام،

---

(١) برذعة: مدينة من مدن إرمينية الأولى، انظر التفصيل في معجم البلدان (١/ ١١٩ ـ ١٢٢).

(٢) نهر الكرّ: نهر ينبع من كورة جرْزان (جورجيا) من جبال (جلدير) ويمرّ بمدينة تفليس، ويبلغ طوله نحو (٩٤٠ كم)، انظر ما جاء عن هذا النهر في: معجم البلدان (٧/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٣) ابن الأثير (٥/ ١١١).

(٤) نهر الران: هو نهر (أرّان)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢١٣ ـ ٢١٤)، ومنطقة أرّان من إرمينية الأولى.

(٥) يرغوا: لم أجد لهذه المدينة ذكراً في معجم البلدان، وقد وردت في كتاب: تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٧): يزعوا.

وهو مجد في قتال أهلها، فطلبوا الأمان، فأمنّهم ونقلهم[١] منها.

وسار الجرّاح إلى (بَلَنْجر) وهو حصن مشهور من حصونهم، وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة، شدّوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها، وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن، وكانت تلك العجل أشدّ شيءٍ على المسلمين في قتالهم[٢].

وخرج رجل من المسلمين فقال: «مَنْ يَشْري الله نفسه؟»، فأجابته جماعة ما بلغت عدَّتهم ثلاثين رجلًا، فكسروا جفون سيوفهم، وشدّوا على العجل، وأجلوا الرجال عنها، وأخذوا عجلة منها[٣].

وجدّ الخزر بقتالهم، ورموا من النشّاب ما كان يحجب الشّمس، فلم يتراجع مغاوير المسلمين حتى وصلوا إلى العَجَل، وتعلّقوا ببعضها، وقطعوا الحبل الذي يمسكها، وجذبوها، فانحدرت، وتبعها سائر العَجَل، لأنّ بعضها كان مشدوداً إلى بعض، وانحدر الجميع إلى المسلمين[٤].

والتحم القتال واشتدّ، وعظم الأمر على الجميع، حتى بلغت القلوب الحناجر، فانهزم الخزر وحلفاؤهم، واستولى المسلمون على الحصن عَنْوَةً، وأصابوا جميع ما فيه غنائم للمسلمين، فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً، وكانت تلك المعركة في ربيع الأول[٥] من سنة أربع ومئة الهجرية[٦].

وسار الجرّاح عن (بَلَنْجَر) بعد أن أسر أولاد صاحب (بَلَنْجَر) وأهله،

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١١٢).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١١٢).

(٣) تاريخ خليفة بن خيّاط (١/ ٣٣٧).

(٤) تاريخ خليفة بن خيّاط (١/ ٣٣٧).

(٥) كان فتح بلنجر يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول، انظر خليفة بن خيّاط (١/ ٣٣٧).

(٦) ابن الأثير (٥/ ١١٢) وتاريخ خليفة بن خيّاط (١/ ٣٣٧).

فبعث الجرّاح إليه وأحضره وردّ أمواله وأهله وحصنه إليه وجعله عيناً للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخزر وحلفاؤهم.

ونزل المسلمون على حصن (الوبندر)[1] وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك، فصالحوا الجرّاح على مال يؤدونه[2].

وسار الجرّاح إلى (وَرْثان)[3]، فأدركه الشتاء، فأقام المسلمون فيها.

وكتب الجرّاح إلى يزيد عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه، وأنّ أهل تلك البلاد تجمّعوا وأخذوا الطرق على المسلمين، ويسأله المدد.

ووعد يزيد أن يبعث بالمدد إلى الجرّاح، ولكنّ الأجل أدركه قبل أن يبعث بما وعد به، فأرسل هشام بن عبد الملك إلى الجرّاح المدد، وأقرّه على عمله[4].

ب ـ وفي سنة خمس ومئة الهجريّة (٧٢٣م)، زحف الترك نحو إرمينية، وزحف الجرّاح لصدّ زحف الترك، فالتقى الجانبان في موضع يقال له: (الزَمّ)[5]، بين نهري (الكُرّ) و (الرَسّ) من إرمينية في شهر رمضان من هذه السنة، واستمرّ القتال أياماً، فانهزم الترك[6].

والظّاهر أنّ المدد الذي وعد الخليفة هشام بن عبد الملك بإرساله إلى

---

(١) وبندر: لم أجد لهذا الحصن ذكراً في كتاب: معجم البلدان، ويبدو من سير القتال أنه يقع في منطقة أرّان.
(٢) ابن الأثير (١١٢/٥).
(٣) تاريخ خليفة بن خيّاط (٣٣٨/١)، وفي ابن الأثير (١١٣/٥): أنه عاد إلى رستاق (مليّ).
(٤) ابن الأثير (١١٣/٥).
(٥) الزم: بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل، انظر معجم البلدان (٤٠٥/٤)، وليست هي المقصودة هنا، لبعدها عن ساحة القتال، بل هي موضع بين نهري (الكُرّ والرسّ) في إرمينية.
(٦) تاريخ خليفة بن خيّاط (٣٣٩/١).

إرمينية قد وصل إلى الجرّاح في الوقت المناسب، فاستأنف المسلمون استعادة ما انتقص من إرمينية، فغزا الجرّاح (اللّان)[1]، وهي بلاد واسعة غنيّة، فاستعاد الجرّاح فتحها وفتح مدائن وحصون وراء (بلنجر)، وأصاب غنائم كثيرة[2].

جـ - وفي سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤م)، غزا الجرّاح بلاد (اللّان)، فصالح أهلها وأدّوا الجزية[3] بعد أن أوغل في بلاد الخزر، وهو أول مَنْ قفل من باب (اللّان) في إرمينية[4].

د - وفي سنة سبع ومئة الهجريّة (٧٢٥م)، عزل هشام بن عبد الملك الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان وولّاها أخاه مسلمة بن عبد الملك[5].

ولم يذكر المؤرخون سبباً لعزل الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان، لأنّ الجرّاح لم يقصِّر في واجبه قائداً وإدارياً، كما أنّ نزاهته كانت فوق الشبهات. ويبدو أنّ هشام بن عبد الملك أراد أن يستفيد من كفاية أخيه مسلمة القياديّة في منطقة نائية جبلية اشتدّ فيها القتال وكثرت الخسائر، فعزل الجرّاح واستعمل أخاه.

هـ - وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩م)، استعمل هشامُ بن عبد الملك الجرّاحَ ثانية على إرمينية وأذربيجان، وعزل أخاه مسلمة بن عبد الملك[6].

---

(١) اللآن: بلاد واسعة في طرف إرمينية قرب مدينة (باب الأبواب) مجاورة للخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣١٦).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٢٥) وتاريخ خليفة بن خيّاط (١/ ٣٣٩) والبداية والنهاية (٩/ ٢٣١).
(٣) ابن الأثير (٥/ ١٣٤).
(٤) تاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٤٩).
(٥) ابن الأثير (٥/ ١٣٧).
(٦) ابن الأثير (٢/ ١٥٨) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٠) وابن خلدون (٣/ ٢٩٩).

ودخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية (تَفْلِيْس)، واستعاد فتح مدينة من مدن الخزر هي مدينة (البيضاء)[1]، ثمّ انصرف سالماً[2].

وجمعت الخزر جموعاً كثيرة بقياة ابن خاقان، فدخلوا إرمينية، ثمّ سار ابن خاقان، فحاصر (أَرْدَبِيْل)[3].

و ـ وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٠م)، زحف الجرّاح من (بَرْذَعة)، وكان الخزر والترك قد حشدوا جموعهم من ناحية (اللّان). وعسكر الجرّاح ومَنْ معه بمرج (أَرْدَبِيْل)، وقاتل جموع الخزر والترك أشدّ قتال رآه الناس، فصبر الفريقان صبراً جميلاً[4].

وتكاثر الخَزَر والتُّرك على المسلمين، فاستُشهد الجرّاح لثمانٍ بقين من رمضان من سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية، وغلبت الخَزَر على أذربيجان وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا مدينة (المَوْصِل)، وعظم الخطب على المسلمين[5]، وتكبّدوا خسائر فادحة بالأرواح والأموال.

٤ ـ جهاد سعيد بن عمرو الحَرَشِيّ:

لما بلغ هُشام بن عبد الملك، خبر استشهاد الجرّاح بن عبد الله الحُكَمِيّ، دعا سعيداً الحَرَشِيّ، فقال له: «بلغني أنّ الجرّاح قد انحاز عن المشركين!»، قال: «كَلّا يا أميرَ المؤمنين! الجرّاح أعرف بالله من أن ينهزم، ولكنه قُتل». قال: «فما رأيك؟»، قال: «تبعثني على أربعين دابّة من دوّاب البريد، ثمّ تبعث إلّي كل يوم أربعين رجلًا، ثمّ اكتبْ إلى أُمراء الأجناد يوافوني»، ففعل ذلك هشام[6] وولّاه مقدّمة مَسْلَمة بن

(١) البيضاء: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٣٥).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٥٨) وتاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٥٤).

(٣) تاريخ خليفة ابن خيّاط (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).

(٤) تاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٥٥).

(٥) ابن الأثير (٥/ ١٥٩) وتاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٥٦).

(٦) ابن الأثير (٥/ ١٥٩ ـ ١٦٠)، وانظر الطبري (٧/ ٧٠) وتاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٦٥).

عبد الملك[١] الذي ولّاه إِرْمِينِيَة وأَذْرَبِيْجان[٢].

وسار الحَرَشِيّ، فكان لا يمرّ بمدينة إلّا ويستنهض أهلها، فيجيبه مَن يريد الجهاد في سبيل الله.

ووصل إلى مدينة (أَرْزَن)[٣]، فلقيه جماعة من أصحاب الجرَّاح وبكوا وبكى لبكائهم، ففرّق بينهم نفقة وردّهم معه.

ووصل الحَرَشِيّ على رأس المقدّمة التي كانت مؤلّفة من جيش كامل ـ وإنما سمِّيت مقدّمة لأن الحَرَشي انطلق بسرعة قبل مَسْلَمَة ـ وصل إلى (خِلاط)[٤]، وفتح الحصون والقلاع شيئاً بعد شيءٍ، إلى أن وصل إلى (بَرْذَعَة) بعد فتح (خِلاط) عَنْوَة.

ونزل (بَرْذَعة)، وكان ابنُ خاقان يومئذٍ بأذربيجان يغير وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصِر مدينة (وَرْثان)[٥]، فخاف الحَرَشِيّ أن يملكها، فأرسل بعض أصحابه إلى أهل(وَرْثان) سِرّاً يعرِّفهم بوصوله ويأمرهم بالصّبر؛ فسار الرسول ولقيه بعض الخَزَر، فأخذوه وسألوه عن حاله، فأخبرهم وصدقهم!! وقال الخَزَر له: إنْ فعلتَ ما نأمركَ به، أحسنّا إليك وأطلقناك، وإلّا قتلناك. قال: «فما الذي تريدون؟»، قالوا: تقول لأهل (وَرْثَان): إنّكم ليس لكم مدد ولا مَنْ يكشف ما بكم، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا... فأجابهم إلى ذلك.

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٢) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٣) أرزن: مدينة مشهورة قرب خِلاط، ولها قلعة حصينة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٩٠ ـ ١٩١).

(٤) خلاط: مدينة مشهورة، وهي قصبة إرمينية الرّابعة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٥٣).

(٥) ورثان: بلد هو آخر حدود أذربيجان، بينه وبين نهر (الرسّ) فرسخان، وبين ورثان وبَيْلَقَان سبعة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤١٣ ـ ٤١٤).

وقارب الرَّجلُ المسلمُ المدينة، فوقف بحيث يسمع أهلها كلامه، والخَزَر يترصّدونه ويسمعون كلامه، فقال لأهل (وَرْثان): «أتعرفوني؟»، قالوا: نعم، أنت فلان! قال: «فإنّ الحَرَشِيّ قد وصل إلى مكان كذا في عساكر كثيرة، وهو يأمركم بحفظ البلد والصّبر، وفي هذين اليومين يصل إليكم»، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتّهليل.

وقتلت الخَزَر ذلك الرَّجل، ثم رحلوا عن مدينة (وَرْثان)، فوصلها الحَرَشِيّ في العساكر وليس فيها أحد من الخزر.

وارتحل الحَرَشِيّ يطلب الخَزَر في (أَرْدَبِيل)[1]، فانسحب الخزر منها.

ونزل الحَرَشِيّ (باجَرْوَان)[2]، فجاءه غب يخبره أنّ الخَزَر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أسارى وسبايا، وقد نزلوا على بُعْدِ أربعة فراسخ من مكانه الذي هو فيه.

وسار الحَرَشِيّ ليلًا، فوافى الخَزَر آخر اللّيل وهم نيام، ففرّق أصحابه في أربع جهات، وكبس الخَزَرَ مع الفجر، ووضع المسلمون فيهم السَّيف، فما بزغت الشمس حتى أُبِيْدَ الخَزَرُ، وحتى أصبح أسرى المسلمين وسباياهم أحراراً، فأخذهم الحَرَشِيّ معه إلى (باجَرْوان).

ولم يكد يستقِرّ به المقام في (باجَرْوان) إلّا وأتاه مَنْ يخبره بأنّ الخَزَر ومعهم أموال المسلمين وحُرَم الجَرَّاح وأولاده في مكان قريب.

وأسرع الحَرَشِيّ إلى هدفه الجديد، فلم يشعر الخَزَر إلّا والمسلمون معهم، فوضعُوا فيهم السَّيف وقتلوا كيف شاءوا، ولم يفلت من الخَزَر إلّا الشّريد، واستنقذ المسلمون مَن معهم من المسلمين والمسلمات الأسرى

---

(١) أردبيل: من أشهر مدن أذربيجان، وكانت قبل الفتح الإسلاميّ قصبة أذربيجان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٨٢ ـ ١٨٤).

(٢) باجروان: مدينة من نواحي (باب الأبواب) قرب مدينة (شروان)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٤).

والسبايا، وغنموا أموالهم، وأخذوا أولاد الجرَّاح وحُرَمه وأكرموهم وأحسنوا إليهم، وحملوا الجميع إلى (باجَرْوان) أيضاً.

وبلغ ما فعله الحَرَشِيُّ بعساكر الخَزَر ابنَ ملكهم، فوبّخ عساكره وذمّهم ونسبهم إلى العجز والوَهَن، فحرّض بعضهم بعضاً، وأشاروا عليه بجمع أصحابه والعود إلى قتال المسلمين.

وجمع ابنُ ملك الخَزَر أصحابه من نواحي أذربيجان، فاجتمع معه جيش كثيف.

وسار الحَرَشِيّ إلى جموع الخَزَر، فالتقى المسلمون بالخزر في أرض (بَرْزَنْد)[1]، فنشب القتال بين الجانبين بشدّة وعنف. وانحاز المسلمون وقتاً يسيراً، وتصدّعت صفوفهم، ولكن الحَرَشِيّ حرّضهم على القتال وأمرهم بالصّبر، فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة.

واستغاث مَنْ مع الخَزَر من أسارى المسلمين، ونادوا بالتكبير والتّهليل والدُّعاء، فتصاعد استقتال المسلمين، ولم يبق أحد إلّا وبكى لبكاء الأسرى.

واشتدّت حملة المسلمين على الخَزَر، فولّوا الأدبار منهزمين، فطاردهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر (الرَّسّ)[2]، ثمّ عادوا عنهم بعد أن أطلقوا أسرى المسلمين وسباياهم، وغنموا أموال الخَزَر، وساروا عائدين أدراجهم إلى قاعدتهم المتقدِّمة (باجَرْوان).

وجمع ابن ملك الخَزَر من لحق به من عساكره، وكرّ راجعاً إلى

---

(١) برزند: بلدة من نواحي تَفْلِيس من أعمال جُرزان من إرمينية الأولى، بينها وبين أردبيل خمسة عشر فرسخاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٢٤).

(٢) نهر الرَّس: نهر مخرجه من (قاليقلا) ويمرّ بأرّان ثمّ يمرّ بورثان ثمّ يمرّ بالمجمّع فيجتمع هو ونهر الكُرّ وبينهما مدينة البيلقان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٥٠ - ٢٥١).

المسلمين، فنزل على نهر (البَيْلَقَان)[1]، فالتقى الخَزَر بالمسلمين هناك.

وحمل المسلمون على الخزر حملة صادقة، في منطقة نهر (البَيْلَقَان)، فتضعضعت صفوف الخَزَر. وتتابعت حملات المسلمين، فصبر الخَزَر صبراً عظيماً، ثمّ كانت الهزيمة عليهم، فولّوا الأدبار منهزمين، وكان مَنْ غرق من النهر منهم أكثر مِمّن قُتِل.

وجمع الحَرَشِيّ الغنائم، وعاد إلى (باجَرْوان) فقسمها[2].

وقَدِم مَسْلَمَةُ بن عبد الملك إرمينية، والخَزَر قد انسحبوا إلى (مِيمَذ)[3]، والحَرَشِيّ يستعدّ لقتالهم، فأتاه كتاب مَسْلَمَة يلومه على قتاله الخَزَر قبل قدومه، ويُعْلِمُهُ أنه قد عَزله وولّى قيادة جيشه غيره.

وسلّم الحَرَشِيّ القيادة لخلفه، فأخذه رسولُ مَسْلَمَة وقيّده وحبسه في سجن (بَرْذَعَة).

وكتب مَسْلَمَة إلى هُشام بن عبد الملك بما حدث، فكتب هُشام إلى مَسْلَمَة:

أتتركُهُمْ بمِيمَذ قد تراهم ... وتطلبهم بمنقطع الطريق!!

وأمر هُشامَ بإطلاق سراح الحَرَشِيّ من سجنه[4]، فرحل إلى دمشق[5].

٥ ـ جهاد مَرْوان بن محمد بن مروان الأُمَوِيّ:

تولّى مَسْلَمَة بن عبد الملك إرْمِينِيَةِ وأَذْرَبِيْجَان للمرّة الثالثة سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٠م) بعد استشهادَ الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ كما

(١) البيلقان: مدينة قرب (باب الأبواب) تُعَدّ من إرمينية الأولى قريبة من (شروان)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٥٩ ـ ١٦٢).

(٣) ميمذ: مدينة بأرّان في إرمينية الأولى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٢٧).

(٤) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٥) ابن الأثير (٥/ ١٦٢).

ذكرنا، وكان معه ابن عمه مَرْوان بن محمد بن مروان، فنازل مروان الخَزَر مع مسلمة وأبلى وقاتل قتالًا شديداً[1].

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٢م)، استعمل هُشامُ بن عبد الملك مروانَ بن محمد بن مروان وهو ابن عمّه على (الجزيرة) وأَذربيجان وإرمينَية وعزل مَسْلمة بن عبد الملك أخاه عن إرمينية وأذربيجان[2]، وكانت ذلك في مستهل شهر المحرّم من هذه السنة[3].

وسيّر هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة إلى إرمينية، فاجتمع عند مروان من الجنود والمتطوِّعة مئة وعشرون ألفاً. وأظهر مروان بعد إكمال حشد رجاله أنه يريد غزو (اللّان) وقصد بلادهم، وأرسل إلى ملك الخَزَر يطلب منه المهادنة، فأجابه إلى ذلك. وأرسل ملك الخَزَر إلى مروان وفداً لتقرير شروط الصلح، فأمسك مروان الوفد عنده إلى أن فرغ من جهازه، ثمّ أغلظ للوفد الخَزَرِيّ القول وآذانه بالحرب. وسيّر مروانُ وفد الخَزَر إلى ملكهم بذلك، ووكل به مَنْ يسيِّره عن طريق فيه بُعْد، ثم انطلق هو في أقرب الطرق، فما وصل الوفد الخَزَرِيّ إلى ملكهم إلّا ومروان قد وافاهم. وأعلم الوفدُ ملكَ الخزر بإخفاق المفاوضات مع المسلمين، وأنهم قد قرّروا الحرب، فاستشار الملك أصحابه، فقالوا: إنّ مروان قد أَغْرَّكَ ودخل بلادك، فإن أقمتَ إلى أن تجمع رجالك، لم يجتمع عندك إلى مدّة فيبلغ منك ما يريد، وإن أنت لقيته على حالك هذه هزمك وظفر بك، والرأي أن تنسحب إلى أقصى بلادك وتدَعَه وما يريد. . . فقَبِل رأيهم وسار حيث أمروه.

ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى حتى انتهى إلى آخرها في توغّله، وأقام فيها عِدّة أيام حتى أذلّ الخزر وانتقم منهم[4].

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٢).

(٢) الطبري (٧/ ٩٠) وابن الأثير (٥/ ١٧٧) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٢).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٩).

(٤) ابن الأثير (٥/ ١٧٨).

وفي رواية، أنّ ملك الخزر حين بلغه كثرة مَنْ وطيءَ به مروان بلاده من الرجال وما هم عليه في عُدّتهم وقوّتهم، امتلأ قلبه رعباً. ولما دنا مروان من عاصمة ملك الخَزَر، أرسل إلى ملك الخزر رسولًا يدعوه إلى الإسلام أو الحرب، فقال الملك: «قد قبلتُ الإسلام، أرسل إليّ مَنْ يعرضه عليّ»، ففعل مروان.

وأظهر ملكُ الخَزَر الإسلام، وودع مروان الذي أقرّه في مملكته، وسار مروان مع الملك بخلق من الخَزَر، فأنزلهم ما بين (السَّمُور) و (الشَّابَران)[1] في سهل أرض (اللَّكز)[2].

وكان مروان قبل أن يتقدّم إلى بلاد الخَزَر، وقد نزل مدينة (كِسال) وهو الذي بنى مدينتها، وهي من (بَرْذَعَة) على أربعين فرسخاً، ومن (تَفْلِيْس) على عشرين فرسخاً، ثمّ دخل أرض الخَزَر مما يلي باب (آللان) بَرَتَل تحت قيادته، وأمر أَسِيْد بن زافر السُّلَمِيّ أبا يزيد ومعه ملوك الجبال أن يدخل أرض الخَزَر من ناحية (بابَ الأبواب) على رأس رَتَل آخر، فأغار مروان على (صقالبة)[3] كانوا بأرض الخَزَر، فسبى منهم عشرين ألف بيتٍ، وأسكنهم (خَاخِيْط)، ولكنّ الصّقالبة قتلوا أميرهم وهربوا، فطاردهم مروان وقتلهم[4].

ودخل مروان بلاد ملك (السّرير)[5]، فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له

---

(١) السمور والشّابران: لم أجد لمدينة السمور ذكراً في معجم البلدان، أما الشابران، فهي مدينة من أعمال أرّان، بينها وبين مدينة شروان نحو عشرين فرسخاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٠٥)، والظاهر أنّ مدينة السمور في تلك المنطقة أيضاً قريبة من الشّابران.

(٢) فتوح البلدان (٢٩٢).

(٣) الصقالبة: (ج) صَقْلَب، جيل حمر الألوان صُهْبُ الشعور يتاخمون بلاد الخَزَر في أعالي جبال الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧٢ - ٣٧٣).

(٤) فتوح البلدان (٢٩٢).

(٥) السرير: مملكة واسعة بين (آللان) وباب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٨٠).

الملك وصالحه على ألف رأس: خمسمائة غلام وخمسمائة جارية في كل سنة، وعلى مئة ألف مُدْيٍ[1] تحمل إلى أهراء مدينة (الباب)، وأخذ منه الرهن.

وصالح مروان أهل (تُومان)[2] على مئة رأس: خمسين جارية وخمسين غلاماً وعشرين ألف مُدْيٍ للأهراء في كل سنة.

ثمّ دخل أرض (زِرِيكرِان) فصالحه ملكها على خمسين رأساً وعشرة آلاف مُدْي للأهراء في كل سنة.

ثم أتى أرض (حمزين) فأبى حمزين أن يصالحه، فحصرهم وافتتح حصنهم بعد أن حاصرهم شهراً، فأحرق وأخرب، وكان صلحه إياه على خمسمائة رأس يؤدونها دفعة واحدة ثم لا يكون عليه سبيل، وعلى أن يحمل ثلاثين ألف مُدْيٍ من أهراء الباب في كل سنة.

ثمّ أتى مروان (سُغْدان)[3]، فافتتحها صلحاً على مئة رأس يعطيها إيّاها صاحبها دفعة واحدة، ثمّ لا يكون عليه سبيل فيما يُسْتَقْبل، وعلى أن يحمل في كلِّ سنة إلى أهراء الباب خمسة آلاف مُدْيٍ.

ووظف مَرْوان على أهل (طَبَرْسَرَانْشاه)[4] عشرة آلاف مُدْيٍ من كل سنة تحمل إلى أهراء الباب.

---

(١) المدى: مكيال في الشّام ومصر يسع تسعة عشر صاعاً.

(٢) تومان: لم أجد لها ذكراً في معجم البلدان، والظّاهر أنها في منطقة الّلان.

(٣) سغدان: وردت كذلك في ابن الأثير (٥/١٧٨)، ووردت: سدان في فتوح البلدان (٢٩٣)، والأول أصحّ.

(٤) ملّكَ أَنُوشِرْوان ملوكاً رتّبهم، وجعل لكلِّ امرىءٍ منهم شاهيّة ناحيةٍ من النواحي، فمنهم خاقان الجبل، وهو صاحب السّرير ويدعى وهرارزانشاه، ومنهم ملك فِيلَان وهو فِيْلَان شاه، ومنهم طَبَرْسَرانشاه، وملك اللّكز ويدعى جرشانشاه، وملك لِيْران ويدعى ليْرانْشاه، وملك شِرْوان ويدعى شَرْوَانْشاه، انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٧٦ ـ ٢٧٧)، وهم ملوك الطوائف في إرمينية الذين كانوا يحكمون باسم الفُرس في حينه.

ولم يوظِّف على (فِيلَانشاه) شيئاً، وذلك لحسن غنائه وجميل بلائه وإحماده أمره.

ثمّ نزل مروان على قلعة (اللّكْز) وقد امتنع صاحبها من أداء شيءٍ من الوظيفة، وكان صاحبها قد خرج يريد صاحب الخَزَر فقتله راعٍ بسهم رماه به وهو لا يعرفه، فصالح أهل اللّكْز على عشرين ألف مُدْيٍ تحمل إلى أهراء مدينة الباب.

وسار مروان إلى قلعة (شَرْوان) وهي تدعى (خِرْس)[1] وهي على البحر، فأذعن أهلها بالطّاعة والانحدار إلى السّهل، وألزمهم عشرة آلف مُدْيٍ في السنة.

وجعل مَرْوان على صاحب (شَرْوان) أن يكون في المقدّمَة إذا بدأ المسلمون بغزو الخَزَروفي السّاقة إذا رجعوا.

وجعل على فِيلَانشاه أن يغزو مع المسلمين فقط، وعلى طَبَرْسَرانْشاه أن يكون في الساقة إذا بدأوا وفي المقدّمة إذا انصرفوا.

وسار مروان إلى (الدُّودانِيّة)[2]، فأوقع بهم، ثم عاد أدراجه إلى مقره[3].

ومن الواضح أنّ مروان أحرز انتصارات باهرة في غزوته هذه السنة، فافتتح عهده في إرمينية افتتاحاً موفّقاً: استعاد المناطق التي انتقضت، وقاتل الذين أصرّوا على انتقاضهم، وصالح الذين أحبّوا الطّاعة و السّلام، وأدّب الذين اعتادوا إشاعة الفوضى، وكافأ الذين اعتادوا النّظام، وطبّق عملياً مبدأ العقاب والمكافأة بالنسبة للمسيئين والمحسنين، وقسّم الواجبات القتاليّة على القادة المحليين والواجبات الإداريّة على الإداريين.

---

(١) خرس: وردت في: فتوح البلدان (خرش) خطأ من الناشر والمحقّق، وهو حصن بإرمينية على البحر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤١٩).

(٢) قوم يدعون أنهم عرب من نسل دُوْدان بن أسد بن خزيمة.

(٣) انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٩٢ ـ ٢٩٤) وانظر ابن الأثير (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

ولم يكن لمروان سنتي خمس عشرة ومئة الهجرية (٧٣٣م) وست عشرة ومئة الهجرية (٧٣٤م) أيّ نشاط عسكريّ في إرمينية، مما يدلّ على نجاح تدابيره العسكرية والإدارية فيها.

ولكنه بعث بَعْثين سنة سبع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٥م) إلى جبل (القَبْق) وهو جبل القفقاس الكبرى، فافتتح أحدُ البعثين ثلاثة حصون من (اللان)، ونزل البعثُ الآخر على تُومانشاه، فنزل تومانشاه على حكم مروان، فبعث به مروان إلى هُشام بن عبد الملك في (دِمَشْق)، فردّه هشام إلى مروان، فأعاده مروان على مملكته[1].

ومن الواضح أنّ الاضطرابات التي حدثت في إرمينية كانت اضطرابات طفيفة، لذلك بعث من يعالجها ولم يتولّ معالجتها بنفسه، كما أنّ عفوه عن تُومان شاه وإعادته إلى مملكته دليل على أنّ اضطراباته لم تكن خطيرة فتمّ تسويتها بسلام.

وفي سنة ثمان عشرة الهجرّية (٧٣٦م) غزا مروان أرض (وَرْتَنِيْس)[2]، فدخلها من ثلاثة أبواب، فهرب وُرْتَنِيْس إلى الخَزَر وترك القلعة، فنصب مروان عليها المجانيق، وقُتِل ورتنيس في طريقه إلى الخَزَر، فبعث مَنْ قتله برأسه إلى مروان، فنصبه لأهل حصنه، فنزلوا على حكم مروان، فقتل المقاتلة وسبى الذريّة[3].

وفي سنة تسع عشرة الهجرية (٧٣٧م) غزا مروان في إرمينية، فدخل من باب اللان، واخترق هذه الولاية حتى خرج منها إلى بلاد الخَزَر، فمّر بمدينة (بَلَنْجَر)، و (سَمَنْدَر) وانتهى إلى (البيضاء) عاصمة خاقان، فهرب خاقان منه[4].

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٢) وابن الأثير (٥/ ١٨٦).

(٢) ورتنيس: حصن في بلاد سُمَيْسَاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤١٣).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٣) وابن الأثير (٥/ ١٩٨)، وورد فيه: ورنيس.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦) وابن الأثير (٥/ ٢١٥) وانظر النجوم الزاهرة (١/ ٢٨٢).

وكانت هذه الغزوة من غزوات مروان الشاملة التي قصد بها إبراز قوّة الدولة الإسلامية ومقدرتها على قمع كلِّ انتقاض بكفاية وسرعة.

ويبدو أن هذه الغزوة أثمرت في توطيد الأمن والاستقرار في ربوع إرمينية، فقد كانت سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٨م) سنة سلام واستقرار في أرجاء إرمينية بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للسكان الأصليين، إذ لم يَغْزُ مروان هذه السنة، فاستعادت قوّات المسلمين أنفاسها، وأكملت استحضاراتها لجهاد جديد.

وفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٣٨م)، غزا مروان في إرمينية، فأتى قلعة بيت السَّرير فقتل وسبى.

ثمّ أتى قلعة ثانية، فقتل وسبى أيضاً.

ودخل مروان (غوْمَسْك)[١] وهو حصن فيه بيت الملك يكون فيه ملك السّرير، فأقام مروان عليه فخرج الملك هارباً حتى أتى حصناً يقال له: (خثرج)[٢] فيه سرير الذّهب، فأقام مروان عليه شتوةً وصيفةً، فصالحه على ألف رأس في كل سنة ومئة ألف مُدْيٍ.

وسار مروان، فدخل أرض (تُوْمان)، فصالحه تومان شاه ملكُها.

وسار مروان، فدخل أرض (زَرُوبُكْزان)[٣]، فصالحه ملكها.

وصار حتى أتى (حمزين)[٤] فأخرب بلاده، وحصر حصناً له شهراً، فأخرب بلاد حمزين، ثم سأله حمزين الصلح فصالحه.

---

(١) ورد كذلك في تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٦٧)، أما في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠) فقد وردت: غوميك.

(٢) ورد كذلك في تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٦٧)، أما في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠)، فقد وردت: خبزج.

(٣) وردت كذلك في ابن خيّاط (٢/ ٢١٧)، أما في تاريخ ابن الأثير (٥/ ٢٤٠)، فقد وردت: أزرو بطران.

(٤) وردت كذلك في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠)، أما في تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٦٧)، فقد وردت: خُمرين.

وأتى مروان أرض (مسدار)[1] فافتتحها على صلح، ثم نزل على (كِيْران)[2]، فصالحه طَبَرْسرانشاه وفيلان شاه.

وكلّ هذه الولايات على شاطىء البحر من إرمينية إلى (طَبَرِستَان)[3].

ومن الواضح أنّ هذه الغزوة كانت لفرض سيطرة الدولة على الذين انتقضوا، وإظهار قوّتها للذين خالفوا وللذين يَترددون في إعلان مخالفتهم، والقوّة هي السبيل الوحيد لقمع الفوضى وفرضِ النِّظام إذا عجزت السياسة عن فرضهما بالحسنى.

وقد تهيأ لمروان في هذه السنة من الفتوحات أمْرٌ عظيم، ووقع في قلوب الخَزَر والترك منه رعبٌ عظيم[4].

وقد وطدّ أركان الأمن والاستقرار في إرمينية، وأصبح الذين كان دأبهم الانتقاض على الدولة والشّغب عليها وقطع الجزية عنها أو المماطلة في أدائها، يخافون مروان ويهابونه ويطيعونه وينفذون أوامره، كما أصبح للدولة هيبة في نفوس السكّان، لذلك نعمت إرمينية بالسّلام والاستقرار، وانصرف مروان إلى التعمير، حتى عاد أدراجه من إرمينية إلى دمشق على رأس جيش ضخم سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٤م) مطالباً بالخلافة، فتولى الخلافة بعد يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فانتهى برحيله عن إرمينية ما نَعِمَت به خلال ست سنوات من نعمة السَّلام والاستقرار والتعمير، وهي سنوات لم تنعم إرمينية بمثلها قبل مروان ولا بعده، فكانت ولايته خيراً على إرمينية: فتح خلالها بلاداً كثيرة وحصوناً متعدِّدة، لأنه كان لا يفارق الغزو،

---

(١) وردت كذلك في تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٦٧) أما في تاريخ ابن الأثير (٥/ ٢٤٠) فوردت مسداز.

(٢) كيران: مدينة بأرمينية بالقرب من البيقان، انظر معجم البلدان (٧/ ٣٠٥).

(٣) تاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٦٧) وابن الأثير (٥/ ٢٤٠).

(٤) العبر (١/ ١٥٣).

وأحرز انتصارات باهرة على التُّرك والخَزَر والّلان وغيرهم، وكان شجاعاً بطلًا مقداماً حازم الرأي[1].

وبقدر نجاحه قائداً في المجال العسكريّ، كان إخفاقه خليفة في المجال السياسي، فخسرته العسكرية ولم تربحه السيّاسة، فقد كان مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين.

ولم يستطع خلفه على إرمينية أن يملأ الفراغ الذي تركه مروان، وشغل أيامه بالاقتتال الذي أشاعه خصوم الدولة من العرب لأسباب قبليّة ومذهبيّة وطائفية، فأثاروا موجة عارمة من الفوضى والاضطرابات والفتن، ولم يبق له وقت ولا قوّات للقتال لإيقاف موجة الانتقاض الذي أظهره أعداء المسلمين، وبذلك أصبح الاقتتال هو القاعدة والقتال هو الاستثناء، وأصبحت سيوف العرب المجاهدين على العرب لا على أعدائهم.

وتوقّف الفتح واستعادة الفتح بسقوط الأُمويين، وكان قصارى ما يطمح إليه العباسيون هو المحافظة على البلاد المفتوحة، أما إضافة فتح جديد فقد ذهب إلى غير رجعة.

عِبْرَة استعادة الفتح:

بمقارنة سير الحوادث في فتح إرمينية بسير الحوادث في استعادة فتحها، تبرز حقائق واضحة جليّة، ما أحرانا أن نعتبر بها في حاضرنا ومستقبلنا، لأنّ التاريخ ليس قصّة للتسلية وتبديد الوقت سدى، بل للعبرة للدارسين والباحثين والسّامعين، لا بدّ من الاعتبار بها من أجل حاضر أفضل ومستقبل أحسن، وفائدة التاريخ تكمن في اتِّخاذ حوادثه عبرة للأمة التي سجل أحداثها بخاصة ولغيرها من الأمم بعامة.

---

(١) البداية والنهاية (١٠/٤٧).

وكان المسلمون الأوّلون يحرصون على تعليم القرآن الكريم والحديث الشّريف واللّغة والتاريخ وعلى تعلّمها، لتقويم عقولهم وقلوبهم وألسنتهم لبناء الفرد المسلم إنساناً، ولبناء المجتمع الإسلامي أمّةً، حتى يربىَ الفرد مثالياً والأمة لا تُقْهر أبداً.

وكان الفرد يعتبر بالتاريخ ليتأسّى بالمُحْسِنيْن فيسجِّل بأعماله صفحات من نور في تاريخ أمتّه، ويترفّع عن أخطاء المُسِيْئين حتى لَا يَسوِّد صفحات أمته ويلحق بها العار.

وكانت الأمّة تعتبر بالتاريخ، للتأسِيِّ بالأمم المُحْسِنة، فتسجِّل بأعمالها صفحات من نور في تاريخها تنافس بها الأُمم الأخرى، وتترفّع عن أخطاء الأُمم المسيئة، حتى لا تسوِّد تاريخها وتلطِّخه بالعار.

لقد فتح المسلمون إرمينية لأول مرة بسهولة، ولكنهم استعادوا فتحها بصعوبة.

وكان الفتح بسرعة، وكانت الاستعادة ببطىء.

وكان الفاتحون قليلين عَدَداً وعُدَداً، فأصبحوا كثيرين عَدَداً وعُدَداً في أيام استعادة الفتح.

وكان الفاتحون قليلي الخبرة والتجربة، فأصبحوا خبراء بالبلاد وسكّانها وأصحاب تجربة عملية طويلة في أيام استعادة الفتح.

وكانت خسائر الفاتحين بالأموال والأرواح قليلة، فأصبحت خسائر المُسْتَعِيْدِين بالأموال والأرواح كثيرة.

فكيف أصبحت النتائج بعكس المقدِّمات؟!

إنّ المفروض في حالة ازدياد تَعْداد الفاتحين وعُددهم، وتكاثر خبرتهم

وتضاعف تجربتهم في البلاد وأهلها، أن يكون استعادة الفتح أسهل من الفتح لا أصعب منه وأسرع في استعادة الفتح من الفتح لا أبطأ منه، وأن تكون الخسائر بالأرواح والأموال أقلّ في استعادة الفتح لا أكثر منها في الفتح، وبخاصة أنّ أهل البلاد لم تتطوّر قوّتهم الضّاربة بعد الفتح ولا في أيام استعادة الفتح، فما تغيّر أهل البلاد، ولكّن الفاتحين في أيام استعادة الفتح غيّروا ما بأنفسهم، فتزعزعت معنوياتهم التي كانت الحافز الأول للفتح، وضعفوا واستكانوا ولم يُفلحوا أبداً.

لقد كان المسلمون أيام الفتح محرِّرين كما رآهم أهل البلاد، فأصبحوا أيام استعادة الفتح مستَعْبِدِين في نظر أهل البلاد، لأنّ المسلمين كانوا يطبِّقون الحرب العادلة نصاً وروحاً في أيام الفتح، تلك الحرب التي تنصّ عليها تعاليم القتال في الإسلام، فكانوا محرِّرين للشعوب حقاً، هدفهم إعلاء كلمة الله ونشر الفضيلة والتّسامح والإخاء والمُثل العليا بين الناس، فلا عجب أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً، وأن يُقبلوا على تعلّم العربية الفصحى لأنها لغة الكتاب العزيز ولغة الإسلام ولغة الفاتحين، رهبان الليل فرسان النهار الذين كانوا يمثلون تعاليم الإسلامي في تطبيقها العملي بشراً سوياً يمشون على الأرض ويأكلون الطعام كسائر البشر، فكان الفتح فتح مبادىء لا فتح سيوف، لذلك كان فتحاً سهلًا سريعاً مُيّسراً.

وقال قائل أهل البلاد المفتوحة من إرمينية: «والله لأنتم أحبّ إليّ مَلَكَةَ من آل كسرى، والله لا يقوم لكم شيء ما وفيتم وَوَفَى ملككم»[1]، وكان هذا القائل هو شهر براز ملك مدينة (باب الأبواب) الذي تولّى الملك على عهد كسرى قبل أن يفتح المسلمون بلاده، وتولّى على عهد المسلمين الفاتحين، مجرّب حُكْم كسرى، ثم جرّب حكم المسلمين، فقال ما قاله نتيجةً لتجربته لا نتيجةً لعاطفته.

---

(١) الطبري (٤/١٥٩).

ولما غزا عبد الرحمن ذو النور بن ربيعة الباهِليّ بلاد الخَزَر لأول مرة سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م) على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، والخَزَر من أشدّ الأمم قوّةً وشجاعة وإقداماً، قال الخزر: ما اجترأ علينا هذا الرَّجل إلّا ومعه الملائكة تمنعه من الموت[١]! فتحصّن منه الخَزَر وهربوا، فرجع بالغُنْم والظّفر بدون خسائر في الأرواح[٢].

ولكنّ تغيّر كثير من الذين تحمّلوا أعباء استعادة الفتح، فقد كان جند الكوفة حينذاك ينهض بمهمة الفتح واستعادة الفتح في الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية ومنها إرمينية، فتبدل أهل الكوفة لاستعمال مَن ارتدّ في جيوش المسلمين استصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك وزادهم فساداً أن سادهم من طلب الدنيا[٣].

وفي سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م) قاد عبد الرحمن ذو النور بن ربيعة الباهلي جيشاً إلى (بَلَنْجَر) في بلاد الخَزَر من إرمينية، أي إلى المنطقة التي هاجمها قبل عشر سنوات فقط، فكان الجيش الذي قاده في الغزوة الأولى مؤلفاً من عناصر وصفهم عبد الرحمن بقوله: «أقوام صحبوا رسول الله ﷺ، ودخلوا في هذا الأمر - يريد هذا الدين - بنيّة، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهليّة، فازداد حياؤهم وتكرّمهم، فلا يزال هذا الأمر لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيِّرهم مَنْ يغلبُهم، وحتى يُلْفَتُوا عن حالهم بمن غيّرهم»، فغزا في هذه الغزوة الأولى (بَلَنْجَر) وبلغت خيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بَلَنْجَر) بدون خسائر في الأرواح[٤]، أما في غزوته الثانية التي كانت سنة اثنتين وثلاثين الهجرية، بعد تغيُّر نفوس

---

(١) الطبري (٤/ ١٥٨) وابن الأثير (٣/ ٣٠).
(٢) الطبري (٤/ ١٥٨).
(٣) الطبري (٤/ ١٥٨).
(٤) الطبري (٤/ ١٥٨).

الفاتحين أو تغيّر قسم من نفوس الفاتحين، فقد غزا (بَلَنْجَر) فاستُشهد عبد الرحمن وانهزم المسلمون وتفرّقوا[١].

وقد انتبه عثمان بن عفّان إلى تغيّر نفوس قسم من الفاتحين، فكتبَ إلى عبد الرحمن قبل أن يخوض معركة (بَلَنْجَر) الثانية يقول: «إنّ الرعيّة قد أبْطَرَ كثير منهم البِطْنَة، فقصِّر، ولا تقتحم بالمسلمين، فإني خاشٍ أن يُبْتَلوا»، فلم يزجر ذلك عبد الرحمن عن غايته، فقُتل وقتل كثير من رجاله، وانهزم المسلمون هزيمة نكراء!!

إنّ أكثر الذين خاضوا معارك الفتح في إرمينية وفي غيرها من البلاد، كانوا من أصحاب (القلوب)، فأصبح أكثر الذين خاضوا معارك استعادة الفتح في إرمينية وفي غيرها من البلاد المفتوحة، من أصحاب (الجيوب).

وبتعبير آخر، إنّ أكثر جنود الفتح وقادته، كانوا من ذوي العقيدة الراسخة التي تجعلهم يتحلّون بمزية: (إرادة القتال) لتحقيق هدفها الواضح، وهو: إنما هي إحدى الحُسْنَيَيْنَ: النصر أو الشّهادة.

وأصحاب العقيدة الرّاسخة، يعملون لعقيدتهم التي هي المصلحة العليا للمسلمين كافة في العّزة والكرامة، والدفاع عن الأرض والعِرْض، ونشر الفضيلة والأخوة والمُثُل العليا بين الناس، والترفّع عن الظلم والاستغلال والاستثمار والمصالح الشخصيّة للفرد.

أما أكثر جنود استعادة الفتح وقادته، فقد تخلّوا بدرجات متفاوته عن عقيدتهم الرّاسخة التي قادت سلفهم إلى النصر، وخسروا مزيّة: (إرادة القتال)، فأصبحوا يعملون لأنفسهم لا لعقيدتهم أو لمصلحة المسلمين العليا، فتخلّى عنهم النصر، واستهان بهم عدوّهم.

---

(١) الطبري (٤/٣٠٤).

والفرق بين أصحاب العقيدة الرّاسخة وأصحاب العقيدة المهزوزة، أنّ كلَّ فرد من الأولين، يتمنّى أن يموت قبل صاحبه، وكلَّ فرد من الآخرين يتمنى أن يموت صاحبه قبله!!

وليس معنى ذلك، أنّ جميع الذين شهدوا الفتح صالحون خيِّرون، وأنّ جميع الذين شهدوا استعادة الفتح طالحون سيئون، ولكنّ كان الغالبية العظمى من الذين شهدوا الفتح من ذوي العقيدة الراسخة والأقليّة النادرة من ذوي العقيدة المهزوزة، بينما انتشر الانحراف بين الذين شهدوا استعادة الفتح، وثبت قسم على عقيدتهم الرّاسخة فلم يُبدِّلوا أو يُغيِّروا ولم يتبدّلوا أو يتغيّروا.

فقد قرأنا أنّ قائداً من قادة الفتح قُدِّمت له ياقوتة حمراء هي أغلى من مدينة (باب الأبواب)، فردّها إلى صاحبها غير مكترث بها ولا بقيمتها العظيمة[1]، لأنّ أمانته أغلى عليه، فآثر الأمانة على الخيانة، وما عند الله على ما عند الناس.

وقرأناً أنّ قائداً من قادة استعادة الفتح، اصطفى أموال المغلوبين وذراريهم، فأخذ منها ما أعجبه، وأمر بتقسيم الباقي على رجاله[2]، لأنّ أمانته هانت عليه، فآثر المَغْنَم على الأمانة، وما عند الناس على ما عند الله.

ولكن لم تخل أجْنادُ استعادة الفتح وقادته من عناصر صالحة خيِّرة تعتبر نماذج عالية في الصّلاح والخير.

فقد استشهد الجرّاح بن عبد الله الحكميّ في إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية مُقبلًا غير مُدْبِر، صابراً محتسباً[3].

---

(١) الطبري (٥/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) الطبري (٧/ ١٠).

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٥٩).

واشترى أحد جنود استعادة الفتح جُوْنة[1] بدرهمين ممّن يتولى بيع ما تَبَقّى من الغنائم في مزاد علنيّ، فلما عاد بها إلى خيمته في المعسكر فتحها، فوجد فيها سبائك من ذهب، فرجع وهو واضع يده على لحيته وردّ الجُونة وأخذ الدرهمين، فلما ذاع الخبر طُلب فلم يوجد[2]!!

وبعث قائد من قادة استعادة الفتح أحد رجاله سِرّاً إلى مدينة يحاصرها العدو ويضيّق عليها الخناق، وهي غاصّة بالمسلمين وذرّياتهم، ليعرِّفهم وصول المدد من المسلمين إليهم قريباً ويأمرهم بالصبّر. واخترق الرجل مواضع العدو الحصينة متحدِّياً الأهوال والأخطار، فألقي القبض عليه، فسألوهُ عن حاله، فأخبرهم وصدقهم، فقالوا له: إن فعلتَ ما نأمرك به أحسنّا إليك وأطلقناك: تقول لأهل البلد المحاصرين، إنكم ليس لكم مَدَدٌ ولا مَنْ يكشف ما بكم، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا. . . . فأجابهم إلى ذلك.

ولما قاربَ المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه، فقال لهم: «أتعرفونني؟»، قالوا: نعم، أنت فلان. قال: «فإنّ جيش المسلمين قد وصل إلى مكان كذا في عساكر كثيرة، وقائد الجيش يأمركم بحفظ البلد والصّبر، وفي هذين اليومين يصل إليكم»، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتّهليل.

وقتل العدو ذلك الرجل، ورحلوا عن المدينة المحاصَرة، ونجا أهلها من القتل والأسر والسّبي[3]!

وأوغل الخَزَر في بلاد المسلمين، وقتلوا قائدهم في إرمينية وأبادوا رجاله وأسروا قسماً منهم وسَبوا، فعيّن الخليفة قائداً جديداً، وأرسله إلى أرمينية على دواب البريد ليتدارك الأمور هناك ويستنقذ المسلمين ويستعيد الفتح.

---

(١) الجونةُ: سُلَيْلة مستديرة مغشّاة بالجلد يحفظ فيها العطّارُ الطِّيبَ، وفي الحديث في صفته ﷺ: «فوجدتُ لِيَدِهِ بَرْداً ورِيْحاً كأنما أخرجها من جُونة عطّار». ج: جُوَنٌ.

(٢) الطبري (٧/ ١٠).

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٦٠).

وسار القائد الجديد مسرعاً إلى إرمينية، فكان لا يمرّ بمدينة إلّا ويستنهض أهلها، **فيجيبه مَنْ يريد الجهاد**[1].

ولقد عمدت إلى إبراز تعبير: **مَنْ يريد الجهاد**، فالموقف الرّاهن الذي هو عبارة عن اكتساح بلاد المسلمين من عدوهم، وأوغل العدو في البلاد حتى قاربوا مدينة (المَوْصِل)، وعظم الخطب على المسلمين[2].

في مثل هذا الموقف يصبح الجهاد فرضاً عَيْنِيّاً على حدٍّ تعبير الفقهاء، يشمل كلّ قادر على الجهاد بماله ونفسه من المسلمين: القادر على الجهاد بماله، يجاهد بماله، والقادر على الجهاد بنفسه يجاهد بنفسه، والقادر على الجهاد بماله ونفسه يجاهد بهما معاً لا فرق بين غني وفقير، أو أمير وأجير، أو كبير وصغير، وليس لمسلم في مثل هذا الموقف أن يريد أو لا يريد، لأنّ الجهاد ليس من المسائل المزاجيّة، بل هو فرض من الفروض المقدّسة الذي يلتزم بها المسلم الحق، وإلّا كان من الخوالف: يعتزله المسلمون في الدنيا ويقابلونه بالاحتقار، وينال عقاب الذين رضوا أن يكونوا مع الخوالف في الآخرة.

لقد كان جنود الفتح في الأغلب من أمثال صاحب الجُوْنة في أمانتهم المثالية، وكان في جنود استعادة الفتح من أمثال صاحب الجُوْنة ومن اللاهثين وراء الثراء.

وكان معظم جنود الفتح من أمثال الفدائيّ الذي ضحّى نفسه لإنقاذ المسلمين المحاصَرين، وكان في جنود استعادة الفتح من أمثال ذلك الفدائي قليل.

وكان المسلمون كلّهم بدون استثناء في أيام الفتح مجاهدين، فأصبح قسم من جنود استعادة الفتح مجاهدين وقسم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف.

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٦٠).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٥٩).

وما تغيّرت العقيدة، ولكنّ المسلمين تغيّروا.

وكان تغيير المسلمين ما بأنفسهم من عقيدة راسخة طفيفاً، ثم ازداد التغيير شيئاً فشيئاً، كالزاوية تبدأ صغيرة ثم يبتعد الضلعان قليلًا قليلًا، فتزداد المسافة بين الضلعين بالتدريج، حتى أصبح المسلمون بمرور الزمن بعيدين عن روح الإسلام الصحيح.

لقد كان الفتح بالإسلام في دعوته للجهاد بالأموال والأنفس سريعاً سهلًا حاسماً قليل التكاليف، ثم أصبح استعادة الفتح بالمجاهدين الصادقين وغيرهم بطيئاً صعباً متردِّداً كثير التكاليف، لأنّ المجاهدين الصادقين قلّوا عَدَداً بالنسبة لعَددهم أيام الفتح وكثر الجنود النِّظاميّون الذين يقاتلون لأنهم يتقاضون مرتباتهم الشهريّة من الدولة، وشتّان بين المجاهدين الصادقين الذين يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وبين الجنود النِّظامين الذين يقاتلون من أجل قبض المرتبات.

وبالرغم من ازدياد عدد الجيوش وعُدَدها وتضاعف تجاربها القتالية في أيام استعادة الفتح، فإنها لم تحقق ما حقّقه المسلمون في أيام الفتح اندفاعاً وتضحية ونصراً، وهذا دليل عمليّ من سير حوادث الفتح وسير حوادث استعادة الفتح، يدلّ بشكل قاطع على كذب ادعاء أعداء العرب والمسلمين من الأجانب وغير الأجانب: «أنّ الفتح كان لضعف الحكومات القائمة في أيام الفتح و لعدم وجود جيش منظَّم قويّ يستطيع صدّ الفتح الإسلامي ويحمي البلاد المفتوحة، ولأنّ الحرب السّاسانيّة البيزنطيّة قد استنزفت كلّ قوى الدولتين، وأنّ مصاولة الفاتحين اقتصر على السكّان المحليِّين أو القوّات المحليّة بطاقاتهم المحدودة»، فقد قاتل الفاتحون في معارك حاسمة جيوش الفُرس والروم وانتصروا عليها، ولم يقاتل المسلمون في أيام استعادة الفتح جيوش الفرس والروم في معارك حاسمة، لأنّ دولة الفرس انقرضت والرّوم كانوا في شغل شاغل في الدفاع عن وطنهم الأم ومحاولة استعادة جزء من البلاد التي فتحها المسلمون. كما أنّ معارك المسلمين في أيام

استعادة الفتح اقتصرت على السكّان المحليين والقوّات المحليّة بطاقاتها المحدودة، ومع ذلك خسر المسلمون معارك كثيرة ولم يخسروا معركة واحدة من معارك الفتح.

إنّ وقائع التّاريخ تكذِّب ادعاء أعداء العرب والمسلمين من المؤرخين الأجانب وغير الأجانب في أنّ الفتح الإِسلامي كان للأسباب التي يردِّدونها والتي ذكرنا مجملها، وهدف هؤلاء هو (التهوين) من شأن الإِسلام في إحراز النصر، ومن أثره في تحقيق الفتح، فقد حقد هؤلاء على الإِسلام لأنه أكل قلوبهم وفتح بلادهم وانتشر في أرجاء العالم وأصبح القوّة التي تخيفهم وتفضّ مضاجعهم وتهدِّد حاضرهم ومستقبلهم كما هدّدت ماضيهم.

ولكنّ الواقع شيء، واتباع الهوى شيء آخر.

ولو كان انتصار المسلمين على أعدائهم في أيام الفتح، لضعف أعدائهم دون سائر الأسباب الأخرى وعلى رأسها انتصار الفاتحين بالإِسلام الذي وحّد صفوفهم وأهدافهم، وأشاع فيهم الانسجام الفكرّي الذي يؤدي إلى التعاون فيما بينهم جماعات وأفراداً، وأرسى دعائم مجتمع الأخوّة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] و«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2]، فجعل هذا المجتمع كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، ورفع معنوياتهم... لكان انتصار المسلمين بعد ازدياد عَدَدهم وعُدَدهم وتضاعف خبرتهم في القتال ومعرفتهم بطبيعة البلاد المفتوحة وصفات سكّانها الأصليين، مع بقاء عدوّهم على تفرّقهم وضعفهم وانهيار معنوياتهم، أسهل وأسرع وأثبت في أيام استعادة الفتح، ولكنّ الواقع التاريخي كان عكس ذلك تماماً، مما يدل على أنّ انتصار المسلمين في أيام الفتح كان انتصار عقيدة راسخة، وتعثر انتصارهم في أيام استعادة الفتح كان لأنّهم غيّروا ما بأنفسهم

---

(١) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٠).

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والإِمام أحمد في مسنده عن أنس، انظر: مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٣٦٦).

فكان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، فتعثّر انتصارهم ولولا بقيّة من بقايا الصالحين فيهم لما انتصروا أبداً.

وكان من بوادر انحراف المسلمين في أيام استعادة الفتح عما كانوا عليه في أيام الفتح، ظهور العصبيّة القبليّة، والتفرّقة المذهبية والطّائفية، والتكالب على المادة أموالاً ومساكن وطعاماً وشراباً وجنساً، والحرص على المناصب الإِداريّة والرُّتب العسكريّة، والتهالك على حبّ الدنيا وكراهيّة الموت.

كان رجالُ الفتح يحّب أحدهم أن يموت قبل صاحبه (مجاهداً) إلّا مَن غضب الله عليه وهم قِلّة قليلة.

فأصبح رجال استعادة الفتح يحبّ أحدهم أن يموت صاحبه قبله (قاعداً) إلّا مَن رحم الله.

وما استطاع رجال استعادة الفتح أن ينتصروا إلّا بالرجال الذين تمسّكوا بعقيدتهم الراسخة جهاداً في سبيل الله، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ولكن بمرور الزّمن تناقص عدد المجاهدين الصادقين، فتبدّل حال المسلمين من حال إلى حال.

والعرب مادّة الإِسلام كما قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وهم قادة الفتح وجنوده وعلى أكتافهم وبجهادهم وجهودهم تحقّق النّصر فتحاً واستعادة للفتح، وهم الذين غيّروا ما بأنفسهم يوماً بعد يوم، حتى ساءت الحال وتردّى المآل.

لقد كان العرب قبل الإِسلام مستعبَدِين للفُرس في العراق وللرُّوم في أرض الشام، وحتى للأحباش في اليمن.

وجاء الإِسلام، فاستطاع الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام أن يوحِّد شبه الجزيرة العربيّة تحت لواء الإِسلام، ولا يعرف التاريخ أحداً وحدّها قبله ولا بعده حتى هذا اليوم.

وكان تعداد صحابة رسول الله ﷺ الذين خلفهم من بعده مئة وخمسة وعشرين ألفاً في أكثر ما ذكره المؤرِّخون.

وارتدّ قسم من العرب بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، فاستطاع خليفته على المسلمين أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه أن يستعيد بهم الوحدة إلى شبه الجزيرة العربية، واستطاع بهم أن يخوض معركة (اليرموك) الحاسمة التي فتحت للمسلمين أبواب أرض الشّام، كما استطاع أن يخوض بهم معارك ثانويّة مهّدت للمسلمين فتح العراق.

وتولّى عمر بن الخطّاب الخلافة، فأكمل الفتح الذي بدأه أبو بكر الصديق رضي الله عنهما، ففتح العراق وإيران وأكثر مناطق إرمينية وأرض الشام بما فيها سورية ولُبنان وشرقي الأردن وفلسطين، ومصر وليبيا والنّوبة، وكان عهد عمر بن الخطّاب هو عهد الفتح الإِسلامي الذهبيّ بدون منازع[١].

ومع كلٍّ فتوحات عمر بن الخطّاب، فقد كان حسنة من حسنات أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما.

واستمّر مدّ الفتح الإِسلاميّ عارماً في أوائل عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، حتى نشبت الخلافات بين المسلمين، فانتقض أهل فارس سنة تسع وعشرين الهجرية[٢] (٦٤٩م)، وانتصر الخَزَر والترك على المسلمين لأول مرة سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م)، فقتلوا قائد المسلمين عبد الرحمن بن ربيعة الباهِلي في (بَلَنْجَر) وكبّدوا المسلمين خسائر فادحة بالأرواح والأموال[٣]، وانتشرت الفوضى في عقر ديار المسلمين، حتى قتل عثمان بن عفّان في المدينة عاصمة المسلمين سنة خمس وثلاثين الهجرية (٦٥٥م) بيد العرب لا بيد أعدائهم[٤]!

---

(١) انظر التفاصيل في كتابنا: الفاروق القائد ـ ٩٣.

(٢) ابن الأثير (٣/ ١٠١).

(٣) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣/ ١٣١ ـ ١٣٣).

(٤) ابن الأثير (٣/ ١٥٤ ـ ١٧٩).

وبدأ الاقتتال بين الفاتحين بعد استشهاد عثمان بن عفان، وأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم، فانتقضت البلاد المفتوحة، وضعفت هيبة الدولة داخلياً وخارجياً، حتى استطاع عبد الملك بن مروان جمع شمل العرب مرة أخرى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢م) وإعادة الوحدة إليهم، فكانت هذه السنة سنة الوحدة بحق، فانطلق الفتح من جديد وانطلق استعادة الفتح، ولكنّ عوامل التفرقة ظلّت كالنّار في الرماد لا تخبو مدة إلّا لتظهرَ في مدة ثانية، حتى توقف الفتح نهائياً سنة مئة الهجرية (٧١٨م).

وكان عصر الفتح وهو القرن الأول الهجريّ هو خير القرون، ويمكن أن نقسم هذا العصر إلى ثلاثة أقسام: عهد الفتح أولّا، وهو من غزوة (بدر الكبرى) في السنة الثانية الهجرّية (٦٢٣م)، وكانت هذه الغزوة من الغزوات التاريخيّة الحاسمة، بدأ فيها الفتح تدريجياً حتى شمل شبه الجزيرة العربية كلّها في وحدة عربية شاملة تحت لواء الإسلام، وانتهى هذا العهد في سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٤٩م) في أوائل خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

وعهد الاقتتال الداخليّ من سنة تسع وعشرين الهجرية حتى سنة الوحدة في أيام عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢م)، وفي هذا العهد توقّف الفتح لأنّ الفاتحين شُغلوا بالاقتتال فيما بينهم ولم يشغلوا بالجهاد، فانتقضت كثير من البلاد المفتوحة وشاعت الفوضى في البلاد المفتوحة التي لم تنتقض، حتى أدّى المسلمون الجزية للرُّوم ولغيرهم، فأصبح الغالب مغلوباً والقائد مقوداً والمنتصر مهزوماً.

وعهد الفتح واستعادة الفتح من سنة الوحدة أي سنة ثلاث وسبعين الهجرية إلى انسحاب المسلمين من حصار القُسْطَنْطِيْنِيّة بقيادة مَسْلَمَة بن عبد الملك[1]، وفي هذا العهد فتح المسلمون (السِّندِ) بقيادة محمد بن

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح بلاد الرّوم.

القاسَم الثّقفِيّ، وما وراء النهر (تركستان الشرقيّة) بقيادة قُتَيْبَة بن مُسْلِم البَاهِلِيّ[١] وشمالي إفريقية: الجزائرَ والمغرب، بقيادة موسى بن نصير[٢]، والأندلس بقيادة طارق بن زياد[٣] وموسى بن نُصَيْر اللَّخْمِيّ، وبعد تلك الفتوح توقفّ الفتح نهائياً إلّا ما كان من فتوح قليلة في (صِقليّة) بقيادة أسد بن الفرات[٤]، والقُسْطنطينيّة بقيادة محمد الفاتح[٥]، وما كان من استعادة فتح القدس وفلسطين وأجزاء من أرض الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبيّ[٦].

وهذه الفتوح واستعادة الفتح التي جرت في القرن الأول الهجريّ يمكن اعتبارها فتوحات سَوْقِيّة لأهميتها المصيرية، وما عداها تعتبر فتوحات تعبويّة لأنها ثانويّة.

وبعد سنة مئة الهجرية حتى سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩م) وهي سنة سقوط الدولة الأَمويّة في الشّام ومولد الدولة العباسية في بَغْداد، حدث شيء من استعادة الفتح في خُراسان سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١م) وسنة أربعة ومئة الهجرّية (٧٢٢م) وفي إرمينية في تلك السنة أيضاً، وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجريّة (٧٣١م) وأربع عشرة ومئة الهجريةّ (٧٣٢م) في إرمينية وبلاد الخَزَر، وكذلك سنة إحدى وعشرين ومئة الهجريّة (٧٣٨م)، كما حدثت عدّة غزوات دفاعيّة في هدفها هجوميّة في أسلوبها خلال هذه المدّة هنا وهناك، لها طابع محليّ وصفه تعبوية، ثم توقف استعادة الفتح أيضاً حتى سقطت الدولة الأمويّة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية.

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

(٢) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).

(٣) انظير سيرته في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار.

(٤) ابن الأثير (٥/ ٢٨١).

(٥) ابن الأثير (٥/ ٢٨٧).

(٦) العبر (١/ ١٦٢).

وسبب توقف الفتح واستعادة الفتح في هذا المدة القاحلة من حكم الدولة الأُمويّة، تفرق كلمة الفاتحين واقتتالهم فيما بينهم، وإقبالهم على الدنيا وانغماسهم بالترف، واستشراء النزعة القبلية والطائفية بينهم، وغياب الوازع الديني الذي قادهم للنصر: فقد كان في العراق خلال سنتي إحدى ومئة واثنتين ومئة الهجريتين ثورة يزيد بن المُهلّب هدّدت كيان الدولة، وكان في خراسان اقتتال سنة ست ومئة الهجرية بين مُضَر واليمن، وتصاعد نشاط دعاة بني العباس في خُراسان بخاصة وفي أقطار المشرق الإِسلامي بعامة، وازدادت ثورات الطالبيين وكثرت مقاتلهم، وفسدت اليمانيّة وفسدت قُضاعة وهم واليمن أكثر جند أهل الشام[1] وأشدّهم بأساً.

ولم تقتصر التفرقة على العرب المسلمين بل شملت البيت المالك، فقد قُتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك نتيجة لمؤامرة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وبذلك بدأت المؤامرات بين رجال البيت المالك، حتى قال قائلهم: هَلَكَ بنو مروان[2]!

وبُويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك بالخلافة سنة ست وعشرين ومئة الهجريّة[3] (٧٤٣م) وهو الذي تآمر على ابن عمِّه وقتله، فاضطرب أمر بني أُميّة وهاجت الفتنة، فوثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد قتل الوليد بعَمّان، وكان قد حبسه الوليد بها، فخرج من الحَبْس وأخذ ما كان بها من الأموال وأقبل إلى دمشق[4]، وخالف مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وكان على إرمينية وأذربيجان فترك ولايته وأنفذ إلى الثغور مَنْ يضبطها ويحفظها له وسار على رأس رجاله إلى دمشق[5].

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٢٨١).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٢٨٧).

(٣) العبر (١/ ١٦٢).

(٤) ابن الأثير (٥/ ٢٩٢).

(٥) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

ومات يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية بعد ستة أشهر وليلتين من توليه الخلافة[١]، فتولّاها بعده أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك[٢] الذي لم يتمّ له الأمر، فكان يُسلَّم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يُسَلَّم عليه بواحدة منهما، فمكث أربعة أشهر، ثم سار إليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فخلعه[٣].

وفي سنة سبع وعشرين ومئة الهجرّية (٧٤٤م) بُويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق بالخلافة[٤]، وأعانه على تولي الخلافة جنوده الذين كانوا معه في الجزيرة وإرمينية فتركوا مواضعهم وعادوا إلى دمشق وخاضوا في طريق العودة معارك طاحنة دارت بينهم وبين القوات الموالية لإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك[٥]، تكبّد الجانبان فيها خسائر فادحة بالأرواح والأموال، كما تعرّضت البلاد المفتوحة للفتن، وتوقّف الفتح واستعادة الفتح دون مسوِّغ.

ولم يكد مروان يستقرّ على عرشه، حتى خلعه سليمان بن هشام بن عبد الملك، فدارت معارك طاحنة بين العرب الفاتحين من أنصار مروان وأنصار سليمان[٦].

وكان من نتيجة اختلاف الأمويين وتفرّقهم، تفشّي الخلاف في البلاد الإِسلامية، فخالف أهل حِمْص[٧]، وخالف أهل فلسطين[٨]، واضطربت

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٣١٠).
(٢) العبر (١/ ١٦٢).
(٣) ابن الأثير (٥/ ٣١١).
(٤) العبر (١/ ١٦٤).
(٥) العبر (١/ ١٦٤).
(٦) ابن الأثير (٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٤).
(٧) ابن الأثير (٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤).
(٨) ابن الأثير (٥/ ٢٩٤ ـ ٢٩٧).

أمور خُراسان[1]، وحارب أهل اليمامة عاملهم الذي ولّاه الخليفة[2]، ووقع الاختلاف بين أهل خُراسان[3]، واضطربت أمور المغرب العربي[4]، وذلك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٣م).

وفي سنة سبع وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٤م)، انتقض أهل حِمْص[5]، وخالف أهل (الغوطة) وهي جزء من دمشق وولّوا عليهم أميراً وحاصروا دمشق[6]، وخالف أهل فلسطين[7]، واضطرب أمر العراق[8]، وخلع أهل الأندلس أميرهم الشّرعي[9]، واشتدّ ساعد مشيعة بني العبّاس في خُراسان وأقطار المشرق الإسلامي[10]، وهكذا شملت الفتن الأقطار الإسلامية البعيدة والقريبة وامتدّت إلى قلب عاصمة الدولة: دمشق، بعد أن شملت العرب الفاتحين والمسلمين كافة، وامتدّت إلى قلب الدولة الإسلاميّة: البيت المالك.

وأصبحت الدولة تهتزّ أركانها بعنف شديد، فضاعت هيبة الدولة وتبدّدت هيبة الحُكم، وشغل العرب عن الفتح واستعادة الفتح بالفتن والاضطرابات الداخليّة.

وهكذا أصبحت سلطة الخلافة لا تتجاوز عاصمة الدولة أو لا تتجاوز القصر الذي يسكنهُ الخليفة، بينما كانت سلطة الخلافة تمتدّ من الصين شرقاً

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).
(٢) ابن الأثير (٥/ ٢٩٨ ـ ٣٠١).
(٣) ابن الأثير (٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٧).
(٤) انظر التفاصيل في (٥/ ٣١١ ـ ٣١٩).
(٥) ابن الأثير (٥/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).
(٦) انظر ابن الأثير (٥/ ٣٢٩).
(٧) ابن الأثير (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).
(٨) ابن الأثير (٥/ ٣٣٤ ـ ٣٣٧).
(٩) ابن الأثير (٥/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩).
(١٠) ابن الأثير (٥/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠).

إلى قلب فرنسا غرباً، ومن سيبيريا شمالاً إلى المحيط جنوباً، وإنما كانت سلطة الخلافة بالتمسّك بروح الإسلام الذي جعل الجهاد فريضة على القادرين على الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وأمر بالوحدة ونهى عن الفرقة، وحارب العصبيّة والتعصّب، وحارب الاتجاه نحو المادة تطاولاً في البنيان واكتنازاً للأموال والجشع والترف.

وليستْ بي حاجة إلى تعداد المآسي والفتن التي حاقت بالعرب في تلك السنين التي انحرف المسلمون أو أكثرهم عن دين الله، فغيّروا ما بأنفسهم، فقد قامت الدولة العباسيّة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريّة (٧٤٩م)، وقتل مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بني أُميّة شريداً طريداً في مدينة نائية من مدن مِصْر سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية، وبانقضاء عهد بني أُميّة انقضى عهد الدولة العربيّة التي كانت تؤمن بأنّ العرب مادة الإسلام، وبقيام الدولة العباسيّة تزعزع مركز العرب وارتفع شأن الفُرس لأنهم أعانوا على قيامها بقيادة أبي مُسْلِم الخُراسانِيّ الذي نفذ التعليمات الصّادرة إليه وبالغ بتنفيذها، وكان نصّ تلك التعليمات في خطاب موجّه إلى أبي مسلم الخُراسانِيّ: «إنك رجل منّا. . . . . وأما مُضَر فإنهم العدوّ القريب الدار، واقتل مَنْ شككتَ فيه، وإن استطعتَ أن لا تَدَعَ بخُراسان مَن يتكلّم بالعربيّة فافعلَ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله. . .»[1]، فقتل مئآت الألوف من العرب الفاتحين صبراً وغدراً في خُراسان وغيرها من أقطار المشرق الإسلامي، وساد العنصر غير العربيّ على العنصر العربيّ بالعصبيّة والتعصب لا بتطبيق تعاليم الإسلام.

وبدأ بقيام الدولة العباسيّة عصر التنافس بين العرب وغيرهم، ودام هذا التنافس حتى توفيّ المعتصم العباسي سنة سبع وعشرين ومئتين الهجريّة[2] (٨٤١م)، وفي هذا العصر أصبحت الدولة الإسلامية الواحدة دولاً، وضعف

---

(١) ابن الأثير (٥/٣٤٨).

(٢) العبر (١/٤٠٠).

شأن العرب وقلّت قيمتهم المعنوية وتولّى القيادة الإدارية والعسكريّة على الأكثر غير العرب، وقلّ المجاهدون وكثر المحترفون.

وبعد المعتصم ساد العنصر الأعجميّ على العنصر العربي، وكثرت دول الطوائف، وسيطر غير العرب على الخلفاء، وأصبحت الخلافة منصباً رمزياً له سمة دينيّة حسب والحكم لغير الخليفة، حتى انقرضت الدولة العباسيّة على أيدي التاتار سنة ست وخمسين وستمائة الهجرية (١٢٥٨م)، وكان هذا العصر عبارة عن مآسي قاصمة للظهر حاقت بالمسلمين، لأنّهم تخلّوا عن الجهاد إلّا مَن رحم الله، وفي هذا العصر ذلّ العرب لأنهم غُزوا في عقر ديارهم وانصرفوا عن الجهاد، واعتمدوا على غيرهم للدفّاع عنهم وعن أرضهم وعرضهم.

وبدأ بعد سقوط الدولة العباسيّة عصر الظلمات، فهان العرب على أنفسهم وعلى الناس، وتولى قيادتهم الفعليّة غيرهم من الأمم، حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادّي، وأوائل القرن العشرين، حيث بدأ عصر استعمار الدولة العربية.

واستقّل العرب سياسيّاً وعسكرياً واقتصادياً في أواخر النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، ولكنهم بقوا يعانون الاستعمار الفكريّ البغيض إلى اليوم، حتى سيطر العدو الصهيوني على فلسطين والهضبة السّورية وجزء من الأردن ومصر، في غياب الجهاد عن العرب وغياب التمسّك بتعاليم الدين الحنيف.

وكانت انتصاراتهم في عصر الفتح الذهبيّ وعصر استعادة الفتح انتصار عقيدة، وحّدت صفوفهم وجمعت كلمتهم وجعلتهم كالنبيان المرصوص يشُدّ بعضه بعضاً، فأصبحوا في توحيدهم ووحدتهم قوّة لا تقهر أبداً.

فلما غيّر المسلمون ما بأنفسهم وانحرفوا عن عقيدتهم، لم ينتصروا أبداً، لأنّ أنفسهم هانت عليهم فهانوا على الأمم.

وقد جرّب المسلمون مبادىء وعقائد شتى، فما زادتهم إلّا ضَعْفاً وهواناً على الناس، ولا يزالون يجرِّبون مبادىء وعقائد جديدة، ولكنهم بقوا في آخر قائمة الأمم عسكرياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً، وحسبهم أن تعتبرهم الأمم المتقدمة في قائمة الأمم النامية، وهو التعبير التخديريّ الذي معناه: الأمم المتخلِّفة!

لقد أصبح المسلمون في سنوات معدودات بالإِسلام في الأوج، فقادوا العالم عسكرّياً وسياسياً وحضارياً، وأصبحوا خير أمة أخرجت للنّاس.

وأمسى المسلمون منذ قرون طويلة بغياب الإِسلام في الحضيض، ففقدوا ما فتحوه وخسروا دار الإِسلام واستعبدتهم الأمم، وأمسوا أهون أمة في العالم، وحتى أصبح للصهاينة في بلادهم دولة وكيان، لا لقوّة الصهاينة ولكن لضعف العرب.

فمتى يعود العرب والمسلمون إلى الإِسلام من جديد، ليستعيدوا مكانهم ومكانتهم في الأرض، ويعودوا خير أُمة أخرجت للنّاس!

تلك هي عبرة: استعادة الفتح، لعلّ فيها فائدة للمسلمين في كلِّ مكان.

إنّ الطريق واضحة المعالم، ولكنّ الاستعمار الفكري الذي يسيطر على قلوب المسلمين وعقولهم معاً هو الذي جعل المسلمين يتيهون في متاهات لا أوّل لها ولا آخر، وهو الذي جعلهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، فمتى يميِّز المسلمون بين الحق والباطل، فيقلعون عما صنعه لهم أعدائهم فتقبّلوه وفيه هوانهم الأبدي؟!

والحمد لله والشكر له، وصلىّ الله على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قادة فتح أرمينية
القادة الفاتحون
والقادة الذين استعادوا الفتح

١ ـ عياض بن غَنْم الفِهرِيّ.

٢ ـ عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيّ.

٣ ـ سُراقَة بن عمرو.

٤ ـ عبد الرحمن بن ربيعة الباهِليّ.

٥ ـ سلمان بن ربيعة الباهِليّ.

٦ ـ حبيب بن مَسْلَمة الفِهرِيّ.

٧ ـ محمد بن مَرْوان بن الحَكَم.

٨ ـ مَسْلَمَة بن عبد الملك بن مروان.

٩ ـ الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ.

١٠ ـ سعيد بن عمرو الحَرَشِيّ.

١١ ـ مَرْوان بن محمد بن مَرْوان.

عياض بن غنم الفهري
فاتح الجزيرة(1) وشطر إزمِينية

إسلامه:

أسلم عِيَاض بن غَنْم الفِهْري القُرَشِيّ قديماً قبل الحُدَيْبية، وشهد الحديبية مع رسول الله ﷺ(2)، وبذلك نال شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرَّسول القائد عليه الصلاة والسّلام.

جهاده:

١ ـ في العراق:

كتب أبو بكر الصِّديق إلى خالد بن الوليد رضي الله عنهما بعد معركة اليَمَامة: «إنَّ الله فتح عليك، فعارق حتى تلقى عِياضاً». وكتب إلى عياض

(1) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات، تشتمل على ديار مضر وديار ربيعة، سميت (الجزيرة) لأنها بين دجلة والفرات. وهي صحيحة الهواء جيدة الربيع والنماء واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٩٦) وانظر حدودها بالتفصيل في المسالك ـ للإصطخري ـ ص (٥٠).

(2) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٨) والإصابة (٥/ ٥٠) وأسد الغابة (٤/ ١٦٤) والاستيعاب (٤/ ١٢٣٤) وصفة الصفوة (١/ ٢٧٧) وهناك من يعتقد أن عياض بن غنم وعياض بن زهير الفهري هما شخص واحد، وهناك من يعتقد أنهما شخصان. وأنني أرجح أنهما شخصان، لأن عياض ابن زهير هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة وشهد بدراً وأحداً والخندق وتوفي بالمدينة سنة ثلاثين، بينما عياض بن غنم لم يهاجر إلى الحبشة ولم يشهد بدراً وأحداً والخندق ومات سنة عشرين في الشام. راجع عن عياض بن زهير طبقات ابن سعد (٣/ ٤١٧) والإصابة (٥/ ٤٩) وأسد الغابة (٤/ ١٦٣) والاستيعاب (٣/ ١٢٣٣).

وهو بين (النَّبَاج)[١] والحجاز: «سِرْ حتى تأتي (المُصَيَّخ)[٢] فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالداً»[٣]، أي أنّ أبا بكر كتب إلى خالد بن الوليد إذ أمّره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها، وإلى عياض إذ أمّره على حرب العراق أيضاً أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى (الحِيرة)، فأيّهما سبق إليها فهو أمير على صاحبه[٤].

واستمدّ عياض أبا بكر، فأمدّه برجل واحد هو عبد بن غوث الحِمْيَرِيّ[٥] وهو من أبطال العرب، كما أمدّ خالداً برجل واحد أيضاً هو القَعْقَاع بن عمرو التَّمِيْمِيّ، وكتب إليه وإلى خالد: «استنفرا مَنْ قاتل أهل الرِدَّة ومَنْ ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزونَّ معكم أحد ارتدّ حتى أرى رأيي»، فلم يشهد الأيام مرتد[٦].

وسار عياض إلى (دُوْمَة الجندل)[٧] ليخضع أهلها المتمردين، ثم يسير منها شرقاً إلى هدفه؛ ولكنّه لم يستطع فتح (دومة الجندل)، فكتب إلى خالد بعد أن عجز عن فتحها يستمّده على من بإزائه من العدو، وكان خالد حينذاك قد فرغ من فتح (عَيْن التَّمْر)[٨]، فسار سيراً حثيثاً نحو عِياض، فلما وصل (دومة الجندل) وجد عياضاً قد حاصر أهلها وحاصروه، وقد أخذوا

---

(١) النباج: منزل لحجاج البصرة، وهو موضع بين مكة والبصرة، وهو من البصرة على عشرة مراحل. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٤٣).

(٢) المصيخ: مدينة بين حوران والقلت. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٧٩).

(٣) الطبري (٢/ ٥٥٣) وابن الأثير (٢/ ١٤٧).

(٤) الطبري (٢/ ٥٥٤).

(٥) عبد بن غوث الحميري: بعثه أبو بكر إلى عياض لما استمده من العراق وشكا قلة من معه. راجع الإصابة (٥/ ١٠١).

(٦) الطبري (٢/ ٥٥٤) وابن الأثير (٢/ ١٤٧).

(٧) دومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق، تقع بين دمشق والمدينة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٠٦).

(٨) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له (شفاثا) راجع معجم البلدان (٦/ ٢٥٣).

عليه بالطريق وأشجوه وشُجوا به، فجعل خالد (دومة الجندل) بين عسكره وعسكر عياض.

وخرج أهلها لقتال المسلمين، ولكنّهم لم يلبثوا أن انهزموا إلى الحصن، فلما امتلأ أغلق مَن فيه أبوابه دون أصحابهم وتركوهم عرضة للقتل والأسر.

وأطاف خالد بباب الحصن، ثم أمر به فاقتُلع، واقتحم المسلمون على من فيه وقتلوا المقاتلة كافة إلّا أسارى بني كَلْب الذي أمنهم بنو تميم(١).

وعاد خالد ومعه عياض إلى الحيرة، فاستخلفه عليها عندما خرج للقاء عدوه في (المُصَيِّخ)(٢)، لأنّ الحيرة أصبحت القاعدة المتقدمة للمسلمين، وحمايتها ضرورية لأمن قواتهم المقاتلة في ساحات القتال.

٢ ـ في الشام:

استصحب خالد عياضاً إلى أرض الشّام عند نقله من منصب القائد العام في العراق إلى منصب القائد العام في الشّام(٣)، فشهد مع خالد معاركه كافة في طريقه من العراق إلى الشام، وكان من أحد كراديس الميسرة في معركة اليَرْموك(٤).

وفي معركة فتح دمشق كان عياض على الخيل(٥)، كما شهد مع أبي عُبَيْدَة بن الجرّاح رضي الله عنه معاركه كافة في أرض الشّام، وكان معه في فتح (حَلَب)(٦) على المقدمة، وكان هو الذي أبرم الصلح مع

---

(١) الطبري (٢/ ٥٧٨ ـ ٥٨٠) وابن الأثير (٢/ ١٥٢).

(٢) الطبري (٢/ ٥٨٠).

(٣) الطبري (٣/ ١٥٤).

(٤) الطبري (٢/ ٥٩٣).

(٥) الطبري (٢/ ٦٢٦).

(٦) حلب: مدينة عامرة بالأهل جداً، على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر=

أهل (حَلَب)، فأنفذ أبو عبيدة صلحه[١].

وعاد عياض إلى العراق، وكان على الخيل عند تقدّم المسلمين إلى (المَدائِن)[٢] وشهد فتحها كما شهد معركة جلولاء[٣]، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م).

٣ ـ الفاتح:

لما قصد الرّوم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ومَنْ معه من المسلمين (بِحمص)[٤]، كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «اندب الناس مع القَعْقَاع بن عمرو وسرِّحهم من يومهم، فإنَّ أبا عبيدة قد أُحيط به! وسرِّح سُهَيْل بن عَدِيّ إلى (الرَّقَّة)[٥]، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الرُّوم على أهل حِمص». وأمره أن يسرِّح عبد الله بن عبد لله بن عِتْبَان إلى (نَصِيْبِيْنْ)[٦]

= الشامات، انظر المسالك والممالك للإصطخري ص (٤٦) وهي مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء وهي قصبة جند قنسرين. وحلب بلد مسوَّر بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب السور قلعة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣١١).

(١) البلاذري ص(١٥٢) وفي رواية أنه عاد إلى العراق مع أهل العراق بعد معركة فتح دمشق فشهد القادسية تحت لواء سعد بن أبي وقاص. راجع الطبري (٣/ ٧٥).

(٢) المدائن: عاصمة كسرى، اسمها بالفارسية (توسفون) وعربوه على (الطيسفون)، وإنما سمتها العرب المدائن لأنها سبع مدائن بين كل مدينة وأخرى مسافة قريبة أو بعيدة، وهي الآن بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٤١٢) واسمها اليوم سلمان باك وفيها ضريح سلمان الفارسي.

(٣) الطبري (٣/ ٨٠).

(٤) حمص: بلد مشهور قديم كبير مسوّر، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٣٩) والمسالك والممالك ص(٤٦).

(٥) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٧٢) والمسالك والممالك (٥٣).

(٦) نصيبين: مدينة كبيرة عامرة في بلاد الجزيرة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٩٢) والمسالك والممالك (٥٢).

ثم ليقصد (حَرّان)[1] و (الرُها)[2]، وأن يسرِّح الوليد بن عُقْبَة على عرب الجزيرة من ربِيْعَة وتَنُوْخ، وأن يُسرِّح عياض بن غنم، فإِن كان قتال فأمرهم إِلى عياض.

وخرج عياض وأمراء الجزيرة، فأخذوا طريق الجزيرة وتوجّه كلّ أمير إلى المنطقة التي أُمِّرَ عليها[3]، فأرسل سُهَيل بن عدي إلى (الرّقة) فحاصرها، فطلب أهلها الصلح وبعثوا في ذلك إلى عياض، فقبل منهم وصالحهم وصاروا ذِمَّة، كما فتح عبد الله بن عبد الله بن عتبان (نَصِيْبِيْن) صُلحاً، إذ كتب أهلها بذلك إلى عياض، فقبل منهم وعقد لهم.

وتوجّه عياض بعد أن ضمّ إليه سُهَيْلًا وعبد الله إلى (حَرَّان) فأجابه أهلها إلى الجزية، فسرّح سُهَيْلًا وعبد الله إلى (الرُها) فأجابوهما إلى الجزية أيضاً، فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً[4].

وبعد فتح الجزيرة على يد عياض حتى لم يبق بها موضع قدم إلّا فتح على عهد عمر بن الخطاب[5]، رجع سهيل وعبد الله إلى الكوفة، والتحق عياض بأبي عبيدة الذي كتب إلى عمر يسأله أن يضّم إليه عياضاً، فوافق عمر وصرفه إليه، واستعمل حبيب بن مَسْلَمَة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عُقْبة على عربها[6].

---

(١) حران: مدينة عظيمة مشهورة في الجزيرة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٤١) والمسالك والممالك ص(٥٤).

(٢) الرها: مدينة في الجزيرة. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٤٠) والمسالك والممالك ص(٥٤).

(٣) الطبري (٣/ ١٥٤) وابن الأثير (٢/ ٢٠٥).

(٤) الطبري (٣/ ١٥٦ ـ ١٥٧) وابن الأثير (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٥) البلاذري ص(١٧٩) والاستيعاب (٣/ ١٢٤٣).

(٦) الطبري (٣/ ١٥٧) وابن الأثير (٢/ ٢٠٦) وهناك روايات مختلفة عن فتح الجزيرة. انظر ابن الأثير (٢/ ٢٠٦) والبلاذري (١٧٦ ـ ١٨١) وكلها روايات مرجوحة لوضوح التباين في تسلسلها التاريخي وتسلسلها الجغرافي أيضاً، لذلك اخترنا الرواية التي=

ولم يقتصر عياض على فتح الجزيرة، بل دخل (الدَّرْب) وأجازه إلى (بَدْلِيس) وبلغ (خِلاط) فصالحه بَطْرِيقُها وانتهى إلى (العين الحامِضة)[1] من إرْمِينِيَة، ثم عاد إلى الرَقَّة ومضى إلى حمص[2]، فكان عياض أوّل مَنْ أجاز (الدَّرب)[3] وعبر الجزيرة إلى بلاد الرُّوم، وبذلك مهد للفتح الإسلامي في إرمينية.

الإنسان:

كان عياض ممن نزل الشّام من صحابة رسول الله ﷺ[4]، فلما مات أبو عبيدة استخلف عياضاً على (حمص)[5] وفي رواية أنّه استخلفه على جند (حمص)[6]، وأرجح هذه الرواية، لأنّ عياضاً كان دائماً في ساحات القتال بعد موت أبي عبيدة مما يؤيد أنه كان غازياً لا والياً.

وسأل عمر بن الخطاب: «من استخلف أبو عبيدة؟». فقالوا: عياض ابن غنم، فأقره قائلاً: «لا أبدِّل أميراً أمّره أبو عبيدة»[7] وكتب إليه: «إني قد وليتك ما كان أبو عبيدة يليه، فاعمل بالذي يحقّ الله عليك»[8]، ورزقه حين ولّاه حمص كلّ يوم ديناراً وشاة ومُدّاً، وبقي بمنصبه هذا حتى توفاه الله بالشّام سنة عشرين الهجرية (٦٤٠م) وهو ابن ستين سنة، أي أنّه

= ذكرناها في أعلاه لقربها إلى العقل والمنطق وإلى الواقع من الناحية العسكرية في تعاقب الفتح الإسلامي وتسلسله.

(١) العين الحامضة: عين في أرمينية.

(٢) ابن الأثير (٢/ ٢٠٧) ومعجم البلدان (٢/ ٩٠) و(٣/ ٤٥٣).

(٣) الإصابة (٥/ ٥٠) والاستيعاب (٣/ ١٢٣٤) وأسد الغابة (٤/ ١٦٤) وابن الأثير (٢/ ٢٢٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٨).

(٥) الإصابة (٥/ ٥٠).

(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٨).

(٧) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٨) والإصابة (٥/ ٥٠) وأسد الغابة (٤/ ١٦٤) والاستيعاب (٣/ ١٢٣٤) وصفة الصفوة (١/ ٢٧٧).

(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٨).

ولد سنة أربعين قبل الهجرة (٥٨٣م) ودفن بحمص[١].

مات عياض ولم يترك مالاً ولم يكن عليه دين[٢]، إذ أنفق أمواله بسخاء في سبيل الله، فقد كان كريماً جداً، وكان يقال له: زاد الراكب، لأنّه كان يطعم رفقته ما كان عنده، وإذا كان مسافراً آثرهم بزاده، فإن نفذ نحر لهم جمله[٣].

وكان سمحاً يعطي ما يملك فكلّم فيه عمر، فقيل: «يبذّر المال!»، فقال: «إنّ سماحه في ذات يده، فإذا بلغ مال الله عز وجلّ لم يعط منه شيئاً، ولا أعزل من ولّاه أبو عبيدة»[٤].

وفي أحد الأيام من أيام إمارته على أرض الشّام، قدم عليه نفرٌ من أهل بيته يطلبون صلته، فلقيهم بالبشر وأنزلهم وأكرمهم؛ فأقاموا أياماً ثم كلّموه في الصِّلة، وأخبروه بما لقوا من المشقة في السفر رجاء صلته؛ فأعطى كلّ رجل منهم عشرة دنانير (وكانوا خمسة)، فردّوها وتسخّطوا ونالوا منه، فقال: «أي بني عم! والله ما أنكر قرابتكم ولا حقكم ولا بعُد شقّتكم، ولكن والله ما إلى ما وصلتكم به إلّا ببيع خادمي وبيع مالا غنى بي عنه، فاعذروني!». قالوا: «والله ما عذرك الله فإنك والي نصف الشّام وتعطي الرجل منا ما جهده أن يبلغه إلى أهله؟!»، قال: «فتأمرونني أسرق مال الله، فوالله لأن أشق بالمنشار أحبّ إليّ من أن أخون فلساً أو أتعدىّ!!»، قالوا: «قد عذرناك في ذات يدك، فولّنا أعمالاً من أعمالك نؤدي ما يؤدي الناس إليك ونصيب من المنفعة ما يصيبون، وأنت تعرف حالنا، وأنّا لسنا نعدو ما جعلت لنا»؛ قال: «والله إني لأعرفكم بالفضل والخير، ولكن يبلغ عمر أني

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٨) والإصابة (٢/ ٥٠) وأسد الغابة (٤/ ١٦٦) والاستيعاب (٣/ ١٢٣٤) وابن الأثير (٢/ ٢٢٠) وانظر معجم البلدان (٣/ ٩٩) حول دفنه بحمص.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٨).

(٣) الإصابة (٥/ ٥١) وأسد الغابة (٤/ ١٦٥).

(٤) صفة الصفوة (١/ ٢٧٧).

وليت نفراً من قومي فيلومني»، قالوا: «فقد ولّاك أبو عبيدة وأنت منه في القرابة بحيث أنت، فأنفذ ذلك عمر؛ فلو ولّيتنا لأنفذه»؛ قال: «إني لست عند عمر كأبي عبيدة»؛ فمضوا لائمين له[١].

إنه كان يحرص على أموال الأمة أكثر مما يحرص على ماله الخاص، فسماحته في ذات يده لا في أموال المسلمين كما قال عنه عمر بن الخطاب، وقد كان يفضل أن يشق بالمنشار على أن يسرق أو يتعدى!!

وكان شاعراً من شعراء الفرسان، قال في فتح الجزيرة[٢]:

مَن مُبلغُ الأقوام أنّ جموعنا ... حَوَتِ الجزيرة غير ذات زِحام
جمعوا الجزيرة والغياث فنفّسوا ... عمن بحمص غَيابة القُدّام
إنّ الأعزّة والأكارم معشر ... فضّوا الجزيرة عن فراخ الهام
غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا ... عن غزو مَن يأوى بلاد الشّام

وكان فاضلًا سمحاً[٣]، ذكره ابن الرقيات فيمن ذكره من أشراف قريش، فقال[٤]:

وعياض وما عياض بن غنم ... كان من خير من أجنّ النساء[٥]

لهذه المزايا وثق به أبو عبيدة فاستخلفه، ولم يستخلفه لأنّه كان ابن عمه أو ابن خاله أو ابن عمته أو ابن زوجه[٦]، ولهذه المزايا أيضاً أقره عمر بن الخطاب، وَمَن لا يستخلف مثله ومن لا يُقرّ أمثاله؟؟.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٧٧ - ٢٧٨).
(٢) الطبري (٣/ ١٥٧) ومعجم البلدان (٣/ ٩٨).
(٣) الإصابة (٥/ ٥٠) وأسد الغابة (٤/ ١٦٥).
(٤) الاستيعاب (٣/ ١٢٣٤).
(٥) أجن الشيء في صدره: أكنه، وأجنّت المرأة ولداً، أي أكنته في بطنها. يريد خير من حملت النساء في بطونها.
(٦) الإصابة (٥/ ٥٠) وأسد الغابة (٤/ ١٦٤) والاستيعاب (٢/ ١٢٣٤).

القائد:

كان حازماً يحرص غاية الحرص على غرس روح الضبط والطاعة في نفوس رجاله، فقد ذكروا أنّه جلد[1] صاحب (دارا)[2] حين فتحت، فأغلظ له هشام بن حكيم[3] القول حتى غضب عياض. ثم مكث ليالي فأتاه هشام واعتذر إليه، ثم قال: ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشد الناس عذاباً أشدّهم للناس عذاباً في الدنيا؟». فقال عياض: «قد سمعنا ما سمعت ورأينا ما رأيت. أو لم تسمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أراد أن ينصح لذي سلطان عامة فلا يبد له علانية ولكن ليخل به، فإن قَبِلَ منه فذاك، وإلّا كان قد أدّى الذي عليه!»[4] وعلى الرغم من إعجابنا الشديد بالروح الإنسانية التي دفعت هشام بن حكيم للدفاع عن إنسان يعذبه الأمير ولو كان هذا الإنسان في ساحة قتال وعلى غير دينه، إلّا أنّ ذلك من جهة ثانية يدلّ على

(١) كان الفاتحون يقضون قضاءاً مبرماً على حياة أعدائهم عند فتح بلادهم، فإذا اكتفى عياض بالجلد فإن ذلك يعتبر رحمة منه بالنسبة لأعمال غيره من الفاتحين، ومع ذلك فلم يسكت بعض رجاله عن عمله هذا واعترضوا له.

(٢) دارا: بلد في لحف الجبل بين نصيبين وماردين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٥).

(٣) هشام بن حكيم الأسدي القرشي: أسلم يوم الفتح ومات قبل أبيه وقيل إنه استشهد في معركة أجنادين. وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ذكر مالك أن عمر بن الخطاب كان يقول إذا بلغه أمر ينكره: «أما ما بقيت أنا وهشام بن حكيم فلا يكون ذلك» وكان هشام في نفر من أهل لشام يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ليس لأحد عليهم إمارة، فكانوا يمشون في الأرض بالإصلاح والنصيحة يحتسبون.
وكان هشام رضي الله عنه كالسائح لم يتخذ أهلًا ولا ولداً. راجع الإصابة (٦/ ٢٨٥) والاستيعاب (٤/ ١٥٣٩).

(٤) أسد الغابة (٤/ ١٦٥). هذا إذا كان يستطيع أن يخلو بالسلطان ليبدي له نصحه، وإذا كان السلطان من صحابة رسول الله ﷺ ومن ذوي المثل العليا، أما إذا لم يستطع الناصح أن يخلو بالسلطان وكان هذا السلطان بعيداً عن المثل العليا وعن العقيدة الراسخة، فما على الناصح إلا أن يفضي بمكنون فؤاده للناس علانية بأي وسيلة من وسائل النشر والإذاعة والإعلان.

حسن تصرف عياض في عدم إفساح المجال لتغلغل روح الاعتراض بين رجاله على تصرفاته، مما يكون له أسوأ الأثر في الضبط والطاعة على رجاله في ميدان القتال.

لقد كان قائداً عقائدياً من الطراز الأول، ولكنّه لم يكن يتحلّى بروح (المباغتة) و (التعرض)، فبقى في حصار مستكِنّ حول دومة الجندل مدة طويلة، حتى أنقذه خالد من ورطته بالقضاء على مقاومة أهلها وفتحها بعد ذلك.

لقد كان عياض يثق برجاله ويثقون به وكان موضع ثقة مرجعه الأعلى، فقد وثق به عمر وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح، كما كان يحب رجاله ويحبونه، بل كان يحب كل الناس ويؤثرهم بزاده على نفسه في أحرج الأوقات، وكان له ماض ناصع مجيد.

عياض في التاريخ:

لا تزال رايات الإسلام ترفرف في ربوع الجزيرة، ولا يزال العرب يسكنون هذه المناطق حتى اليوم، ولا يزال يذكر عياض ما ذكر فتح الجزيرة.

وكان له جهود مشرفة في فتوح العراق والشام أيضاً.

وهو الذي مهّد لفتح إرمينية.

رضي الله عن الصحابي الجليل، القائد الفاتح، عِياض بن غنم الفِهْري.

عثمان بن أبي العاص الثقفي

فاتح إرمينية الرابعة[(١)] وجزيرة بركاوان[(٢)] وبلاد فارس[(٣)]

وأول مَن هَاجَم السّند

«إنه كيِّس وقد أخذ من القرآن صدراً»

(محمد رسول الله ﷺ)

إسلامه:

أسلم أبو عبد الله عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد بن دهمان الثقفي في رمضان من السنة التاسعة للهجرة؛ فقد قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة (تبوك) في رمضان وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف، وكان عثمان أحد رجال وفد ثقيف المؤلف من ستة رجال[(٤)]؛ وقد ذكر أحد رجال

---

(١) أرمينية الرابعة: هناك أربع أرمينيات، وأرمينية بصورة عامة بلاد بين أذربيجان والروم ذات مدن وقلاع وقرى كثيرة. انظر آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ص(٤٩٥). ومن مدن أرمينية الرابعة: شمشاط وقاليقلا وأرجيش وباجنيس. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٠٤).

(٢) جزيرة بركاوان: وردت: أيزكاوان في الفاروق عمر للدكتور هيكل (٢/ ٤٧). ووردت: أبركاوان في البلاذري ص(٣٧٨)، والصحيح ما جاء أعلاه، انظر معجم البلدان (٦/ ٣٢٦) و(٢/ ١٤٩)، وهي جزيرة لافت الواقعة في بحر عمان بينها وبين هجر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣١٤).

(٣) بلاد فارس: حدودها من الشرق كرمان ومن الغرب كور خوزستان وأصبهان، ومن الشمال المفازة التي بين فارس وخراسان وبعض حدود أصبهان، ومن الجنوب البحر العربي. انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري ص(٦٧) ومعجم البلدان (٦/ ٣٢٤) وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ص(٢٣٢).

(٤) راجع تفاصيل قدوم وفد ثقيف في سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٤) وطبقات ابن سعد (١/ ٣١٢)=

الوفد: «إن بلال بن رباح الحبشي كان يأتينا ـ حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ﷺ ما بقي من رمضان ـ بفطرنا وسحورنا من عند رسول الله ﷺ»[1]. وقد وصف المغيرة بن شعبة الثقفي إسلام ثقيف قائلًا: «فدخلوا الإسلام، فلا أعلم قوماً من العرب بني أب ولا قبيلة كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم»[2].

ولما أسلم وفد ثقيف وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم، أمَّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص ـ وكان من أحدثهم سناً، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن، فقال أبو بكر الصديق للنبي ﷺ: «يا رسول الله! إني قد رأيت هذا الغلام منهم، من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن»[3].

كان عثمان أصغر الوفد سناً، فكانوا يخلفونه على رحالهم يتعاهدها لهم، فإذا رجعوا من عند رسول الله ﷺ وناموا وكانت الهاجرة، أتى عثمان رسول الله ﷺ فأسلم قبلهم سراً منهم وكتمهم ذلك وجعل يسأل رسول الله عن الدين ويستقرئه القرآن، فقرأ سوراً على رسول الله؛ وكان إذا وجد النبي ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر الصديق فسأله واستقرأه، وإلى أُبيّ بن كعب فسأله واستقرأه؛ فأعجب به الرسول ﷺ وأحبه وأمَّره على ثقيف لما رأى من حرصه على الإسلام[4]، وقال الرسول عنه:

= وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس (٢/ ٢٢٨) والطبري (٢/ ٣٦٣) وكان وفد ثقيف مؤلفاً من: ١ ـ عبد ياليل، ٢ ـ الحكم بن عمرو بن وهب، ٣ ـ شرحبيل بن غيلان، ٤ ـ عثمان بن أبي العاص، ٥ ـ أوس بن عوف، ٦ ـ نمير بن خرشة. انظر سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٨).

(١) انظر سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٨). وفي جمهرة أنساب العرب (٢٥٤): أن أمه هي صفية بنت أمية بن عبد شمس.

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٣١٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٧) والطبري (٢/ ٣٦٥) وأسد الغابة (٣/ ٣٧٣) وجوامع السيرة لابن حزم ص(٢٥٦).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٥٠٨).

«إنه كيِّس وقد أخذ من القرآن صدراً»، وولاه (الطائف)[1].

وأمر النبي ﷺ عثمان بتعليم قومه شرائع الإسلام، ومما أمره به: أن يصلي بهم، وأن يقتدي بأضعفهم - أي لا يطول عليهم إلا على قدر قوة أضعف من يصلي وراءه - وأمره أيضاً أن يتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً[2].

ولم يزل عثمان على (الطائف) حتى قبضَ رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر وخلافة عمر بن الخطاب، حتى إذا أراد عمر أن يستعمل على (البحرين) سمُوا له عثمان بن أبي العاص، فقال عمر: «ذاك أمير أمَّره رسول الله ﷺ على الطائف فلا أعزله»، فقالوا: يا أمير المؤمنين! تأمره يستخلف على عمله من أحبّ وتستعين به، فكأنك لم تعزله! فقال عمر: «أما هذا فنعم»[3].

وارتدت العرب بعد موت النبي ﷺ، فوقف عثمان في قومه موقفاً حازماً لا ينسى أبداً، فقد همت ثقيف أن ترتد، فقام عثمان عامل النبي عليهم فقال: «يا أبناء ثقيف! كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من ارتد»[4]، وبذلك استطاع تثبيتهم على الإسلام بينما ارتدت كل قبيلة أما عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً[5]، وكان لعثمان أثر حاسم في ثبات ثقيف على الإسلام.

جهاده:

١ - قبل الفتح:

كانت قواعد المسلمين التي يستندون عليها في إمدادهم بالرجال

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠) وانظر جمهرة أنساب العرب (٢٥٤) حول توليه الطائف.

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص(٢٥٧).

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٥٠٩) وأسد الغابة (٣/ ٣٧٣).

(٤) الإصابة (٤/ ٢٢١).

(٥) ابن الأثير (٢/ ١٣٠).

والقضايا الإدارية لإدامة حرب الردة في زمن أبي بكر الصديق، ثلاثة مدن: المدينة ومكة والطائف، وكان عثمان مسؤولاً عن إدارة قاعدة (الطائف)، كان لمجهوده الذي بذله في إقرار أهلها على الإسلام أولاً، وتقوية معنويات المسلمين الذين حولها ومعاونتهم مادياً ومعنوياً في مكافحة المرتدين من قبائلهم والقبائل الأخرى ثانياً، وإمداد قادة المسلمين بالرجال والمواد لقتال المرتدين ـ حتى وصلت بعوثه إلى اليمن[١] ـ ثالثاً، أثر خالد على انتصار المسلمين على المرتدين وإعادة الوحدة إلى ما كانت عليها في أواخر أيام النبي ﷺ.

وبقي عثمان على عمله أميراً على الطائف في عهد أبي بكر كما أسلفنا، كما بقي على عمله هذا سنتين في خلافة عمر بن الخطاب، وكان المسلمون حينذاك يسيرون من نصر إلى نصر في العراق وفي بلاد الشام وكان الخليفة بحاجة شديدة إلى رجال ذوي عقول وأحلام وكفاءة لقيادة الجيوش خارج شه الجزيرة العربية؛ لذلك أشار عليه الناس باستعمال عثمان على البحرين وعمان، ليقوم بإدارة تلك المنطقة الحيوية التي أصبحت القاعدة المتقدمة للفتح الإسلامي باتجاه أرض الفرس، وليتحمل قسطه من الفتح الإسلامي؛ ولكن عمر تحرج من عزل عثمان، فأشار عليه الناس أن يطلب إلى عثمان أن يستخلف هو على عمله بالطائف من أحبّ ويذهب إلى عمله الجديد، فاستخلف عثمان على الطائف أخاه الحكم بن أبي العاص[٢]، وفي رواية: أنه استخلف خالاً له من ثقيف[٣] وأنه وجَّه أخاه الحكم إلى البحرين وسار هو إلى عمان[٤]، وهذا ما نرجحه، لأن الحكم

---

(١) ابن الأثير (٢/١٤٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/٥٠٩) والإصابة (٢/٢٨) والظاهر أن استخلافه لأخيه كان لمدة قليلة فقط ريثما علم عثمان من عمر بتوليته عمان والبحرين، فاستصحب أخاه معه ليعاونه في مهمته الجديدة.

(٣) جمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص(٣٤٩).

(٤) أسد الغابة (٣/٣٧٣).

فتح كثيراً من البلاد الفارسية، وابتدأ بالفتح بعد تولي أخيه عثمان عمان والبحرين، مما يدل على أن عثمان استصحب أخاه الحكم بعد مغادرته الطائف إلى منصبه الجديد مباشرة.

٢ ـ الفاتح:

أ ـ فتح إرمينية الرابعة:

وجه عياض بن غنْم الفهري عثمان إلى إرمينية الرابعة، وذلك في سنة تسع عشرة للهجرة، فكان عندها شيء من قتال أصيب فيه صفوان بن المعطل السلمي شهيداً[١]، ثم صالح عثمان أهلها على الجزيرة على كل أهل بيت دينار[٢].

ب ـ فتح بلاد فارس:

بعد معركة (نهاوند) الحاسمة، ازداد الفرس اضطراباً، وازدادت معنوياتهم انهياراً؛ فقرر عمر بن الخطاب أن يتغلغل بقواته في سائر ولايات الفرس؛ لذلك عقد بنفسه ألوية عهد إلى أصحابها بالانسياح في أرض فارس كلها، فجعل لواء (اصطخر)[٣] إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، وجعل ألوية المناطق الأخرى إلى قادة آخرين[٤]؛ فأرسل عثمان بعثاً من الرجال إلى ساحل فارس فقاتلوا هناك[٥]، ويمكن اعتبار هذا البعث غزوة استطلاعية لها

---

(١) صفوان بن المعطل السلمي: شهد المريسع، وقيل شهد الخندق وما بعدها، وكان شجاعاً خيِّراً فاضلًا وقد استشهد في غزوة أرمينية. انظر الإصابة (٣/ ٢٥١) وأسد الغابة (٣/ ٢٦) والاستيعاب (٢/ ٧٢٥).

(٢) الطبري (٣/ ١٥٦) وابن الأثير (٢/ ٢٠٦) وأسد الغابة (٣/ ٢٦) والاستيعاب (٢/ ٧٢٥).

(٣) اصطخر: عاصمة إقليم اصطخر، وهي أقدم مدن فارس وأشهرها وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٧٥) والمسالك والممالك ص(٦٨) وآثار البلاد وأخبار العباد ص(١٤٧).

(٤) الطبري (٣/ ١٨٩) وابن الأثير (٣/ ٨).

(٥) ابن الأثير (٣/ ٨).

ما بعدها، إذ اندفع المسلمون من البحرين لغزو ولاية فارس، فركب عثمان السفن عابراً الخليج العربي إلى جزيرة (بركاوان) ففتحها وتخطاها إلى أرض فارس، فسار بجنوده إلى مدينة (توّج)[1] الحصينة وحاصرها حاصراً طويلًا حتى استسلمت للمسلمين[2].

وسار عثمان يريد (اصطخر) عاصمة إقليم فارس وأكبر مدينة فيه، فالتقى الطرفان في ضواحي مدينة (جور)[3]، وبعد قتال عنيف ارتدت القوات الفارسية إلى (اصطخر)، ففتح المسلمون (جور) ثم استسلمت (اصطخر) على الجزاء والذمة[4]؛ وبعد المعركة خطب عثمان الناس قائلًا: «إن الله إذا أراد بقوم كفهم ووفر أمانتهم فاحفظوها فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، فإذا فقدتموها جدد لكم في كل يوم فقدان شيء من أموركم»[5].

---

(١) توَّج: مدينة بفارس. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٤٢٦).

(٢) في رواية أن عثمان وجه أخاه الحكم بن أبي العاص في البحر إلى فارس ففتح جزيرة (بَرْكاوان) ومنها سار إلى (توج). راجع البلاذري ص (٣٧٨). وفي رواية أن الذي فتح (توج) هو مجاشع بن مسعود السلمي. انظر الطبري (٣/ ٢١٤) وابن الأثير (٣/ ٤) وأسد الغابة (٤/ ٣٠٠).

(٣) جور: مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخاً. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٦٤) والمسالك والممالك ص(٧٦).

(٤) الطبري (٣/ ٢٥٢) وابن الأثير (٣/ ١٦).

(٥) جاء في الطبري (٣/ ٢٥٢) ما نصه: «وعفَّت الجند عن النهاب وأدوا الأمانة فجمعهم عثمان ثم قام فيهم وقال: إن هذا الأمر لا يزال مقبلًا ولا يزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يغلُّوا، فإذا غلُّوا رأوا ما ينكرون ولم يسد الكثير مسد القليل اليوم». وقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه: الفاروق عمر (٢/ ٤٨) ما نصه: «وبلغ عثمان أن بعض المسلمين أخذ من المغنم لنفسه قبل قسمة الفيئ، فقام في الناس فقال: وذكر النص الذي أوردناه أعلاه». ولا أدري كيف استنتج هيكل أن بعض المسلمين أخذ من المغنم لنفسه!! بينما الذي قاله عثمان لرجاله هو عكس ما ذكره هيكل، إذ لا يدل إلا على أمانة المسلمين حينذاك، ولا عجب، إذ كانت الذمم بخير، خاصة وأن عمر بن الخطاب كان هو الخليفة وأن قادته كانوا من الصحابة الأجلاء، وقد عفوا فعف الناس.

وسار أبو موسى الأشعري بأمر عمر بن الخطاب من البصرة وانضم إلى عثمان بن أبي العاص في هذه المرحلة من قتال الفرس، ففتح معه (أرّجان)[(١)] صلحاً على الجزية والخراج، ثم فتحا (شيراز)[(٢)] صلحاً وفتحا (سينيز)[(٣)] من إقليم أردشير[(٤)] وصالح عثمان مدينة (فَسَا)[(٥)] ومدينة (سابور)[(٦)].

بل إن عثمان كان أول من حاول فتح السند من قادة المسلمين، ثم لم تزل السند تغزى إلى زمان زياد بن أبيه وإلى زمن الحجاج بن يوسف الثقفي الذي افتتح باقي السند[(٧)].

الإنسان:

كان عثمان بن أبي العاص صحابياً جليلًا من أهل الطائف من قبيلة ثقيف المشهورة بشجاعتها الفائقة، وكان من شخصيات ثقيف المرموقة في الجاهلية بدليل اختياره أحد ستة من وفد ثقيف الذي قدم على النبي ﷺ ليعلن إسلام ثقيف.

---

(١) أرجان: مدينة كبيرة كثيرة الخير، بينها وبين البحر مرحلة وبينها وبين شيراز ستون فرسخاً وبينها وبين سوق الأهواز ستون فرسخاً. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٧٩).

(٢) شيراز: مدينة في وسط بلاد فارس. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٢٠).

(٣) سينيز: بلد على ساحل الخليج العربي أقرب إلى البصرة من سيراف. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٠١).

(٤) البلاذري ص(٢٨٠).

(٥) فسا: مدينة بفارس بينها وبين شيراز أربع مراحل. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٧٥).

(٦) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس على اسم مدينة نسابور التي بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخاً. انظر معجم البلدان (٥/ ٤). وانظر ما جاء حول فتحها في جمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص(٣٤٧)، أما الطبري في (٣/ ٢٥٤). فيذكر أن الذي فتح فسا ودارا بجرد هو سارية بن زنيم.

(٧) جمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص(٣٤٧) وانظر جمهرة أنساب العرب (٢٥٤) وفيه: غزا ثلاثة من مدن بلاد الهند.

وكان حصيفاً ذكياً متزناً حريصاً على تفهم الدين، مما جعله موضع ثقة النبي ﷺ فولاه إمارة الطائف فبقي عليها في عهده وعهد أبي بكر وعهد عمر حتى سنة خمس عشرة للهجرة إذ نقله دون أن يعزله عن الطائف إلى البحرين وعمان وبقي أميراً عليهما حتى استشهد عمر بن الخطاب[1] فأقره عثمان على ولايته حتى سنة ثمان وعشرين للهجرة[2] على الأقل؛ ثم سكن البصرة واستقر فيها حتى مات بها في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة خمس وخمسين وقيل سنة إحدى وخمسين[3]، وقيل سنة خمسين[4]. والظاهر أنه تعاون مع عثمان بن عفان في صدر خلافته، حتى إذا شعر أن الرياح تجري على غير ما يريد ترك عمله واعتكف في البصرة دون أن يعاون في إثارة الفتنة في أواخر أيام عثمان بن عفان أو يلوّث يديه بدماء المسلمين في الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية.

وكان أحد الصحابة الرواة، روى تسعة وعشرين حديثاً عن رسول الله ﷺ[5]، كما كان فقيهاً في الدين ومن أصحاب الفتيا من الصحابة[6].

وكان إدارياً قديراً أثبت كفاءة ممتازة في إدارة الطائف في أحرج الظروف، كما أثبت كفاءة ممتازة في إدارة عُمان والبحرين فسيطر عليهما سيطرة كاملة وسار بهما على الطريق السوي[7] في عنفوان أيام الفتح الإسلامي، فهو بدون شك ذو عقل وقوام وكفاية[8].

---

(١) الطبري (٣/ ٢٠٤) وابن الأثير (٣/ ٣٠).
(٢) ابن الأثير (٣/ ٣٦).
(٣) الإصابة (٤/ ٢٢١).
(٤) ابن الأثير (٣/ ١٨٦).
(٥) أسماء الصحابة الرواة ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٢٨١).
(٦) أصحاب الفتيا من الصحابة ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٣٢١).
(٧) البلاذري ص (٣٧٨).
(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠).

ولم يذكر لنا التاريخ أنه أثرى على حساب الفتح أو من استغلال النفوذ، إذ كان ينفق أمواله على الفقراء والمحتاجين وفي الجهاد، كما كان كريماً مضيافاً.

وكان كثير التدين مؤمناً قوي الإيمان، آلفا مألوفاً وفياً شهماً صادق القول والعمل على حد سواء.

إنه مثال العربي في مزاياه والمسلم في أخلاقه... لقد كان من خيار الصحابة[١]، وإليه ينسب شط عثمان بالبصرة[٢].

القائد:

كان عثمان سريع القرار صائبه نتيجة لذكائه وكفاءته وبعد نظره وترتيباته الاستطلاعية التي كان يتخذها دائماً قبل خوض معاركه، لذلك انتصر في كل معركة خاضها: داخلية ضد المرتدين، وخارجية في الفتح الإسلامي.

وكان شجاعاً مقداماً، يثق بقواته وتثق قواته به، له شخصية نافذة وإرادة قوية، يتحمل مسؤوليته كاملة؛ يبادله رجاله حباً بحب وثقة بثقة، له ماض ناصع مجيد قبل الإسلام وبعده.

وكان يحرص على (اختيار مقصده وإدامته)، كما كان قائداً (تعرضياً) يطبق مبدأ (المباغتة) في حروبه، ويعمل على (تحشيد قوته) قبل البدء بالقتال، ويضع مبدأ (الأمن) نصب عينيه دائماً حتى يحافظ على قواته سالمة و (يديم معنوياتها) قبل المعركة وأثناءها وبعدها.

عثمان في التاريخ:

يذكر التاريخ عثمان بإعجاب شديد: لعقيدته الراسخة ولفتوحاته.

يذكره لعقيدته الراسخة التي جعلته يسارع إلى الإسلام قبل أصحابه في

(١) جمهرة أنساب العرب (٢٥٤).

(٢) جمهرة أنساب العرب.

وفد ثقيف، ويحرص على استيعاب الدين الجديد قبلهم، ثم يقف صامداً أمام الذين أرادوا نبذ الإسلام من ثقيف بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى - مما أدى إلى بقاء قومه في الطائف مسلمين يدافعون عن الإسلام.

ويذكر فتوحاته الواسعة التي شملت أكثر بلاد فارس موطن الفرس الأصلي الذي انبعثوا منه إلى أرجاء العالم القديم ليكونوا أقوى امبراطورية لا تزال آثار حضارتها باقية حتى اليوم.

لقد فتح بالإضافة إلى فارس إرمينية الرابعة، وكان أول من هاجم السند فكانت معاركه التمهيدية فيها إيذاناً بفتحها فيما بعد ونشر الإسلام في ربوعها.

إن عثمان بن أبي العاص مفخرة من مفاخر التاريخ العربي الإسلامي.

رضي الله عن الصحابي الجليل، الإداري الحازم، القائد الفاتح، عثمان بن أبي العاص الثقفي.

سُراقة ذو النور بن عمرو

فاتح باب الأبواب[1]

إسلامه:

كان سراقة بن عمرو بن لبنة صحابياً جليلاً[2] ذكروه في الصحابة ولم ينسبوه[3] وكان يدعي: ذا النور[4]، ولكننا لا نعرف بالضبط متى أسلم ولا الغزوات التي شهدها مع رسول الله ﷺ. والظاهر أنه أسلم متأخراً أو كان صغيراً في عهد النبي ﷺ، فنال شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت راية الرسول القائد.

جهاده:

١ ـ عرف عمر بن الخطاب لسراقة فضله العظيم في الجهاد، فولّاه البصرة[5]، ولكنه رد أبا موسى الأشعري إلى البصرة، وورد سراقة إلى

---

(١) باب الأبواب: ويقال لها: (الباب) أيضاً. ميناء كبير على بحر (الخزر)، وهي مدينة كبيرة محصنة، وفي وسطها مرسى للسفن، وبين هذا المرسى وبين البحر قد بني على حافتي البحر سدان، حتى ضاق مدخل السفن وجعل المدخل ملتوياً، وعلى فم المدخل سلسلة ممدودة لا يخرج المركب ولا يدخل إلا بأمر. وإلى جانبها جبل عظيم يجمع في قمته كل عام حطب كثير ليشعلوا فيه النار إن احتاجوا إليه لينذروا أهل المناطق المجاورة بالعدو إذا داهمهم. انظر التفاصيل في المسالك والممالك ص (١٠٩ ـ ١١٠) ومعجم البلدان (٢/ ٩) وآثار البلاد وأخبار العباد ص(٥٠٦).

(٢) الإصابة (٣/ ٦٩) وأسد الغابة (٢/ ٢٦٤).

(٣) الاستيعاب (٢/ ٥٨٠).

(٤) الإصابة (٣/ ٦٩) وأسد الغابة (٢/ ٢٦٤) والاستيعاب (٢/ ٥٨٠) معجم البلدان (٢/ ١٢).

(٥) ابن الأثير (٣/ ٧).

(الباب)، وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وكان يدعى ذا النور أيضاً[1]، وجعل على إحدى المجنبتين حذيفة بن أسيد الغفاري[2] وسمى للأخرى بكير بن عبد الله الليثي وكان بإزاء الباب قبل قدوم سراقة بن عمرو عليه[3]، فقدم سراقة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وخرج على الأثر حتى قدم على بكير بن عبد الله الليثي في أداني (الباب)، وأمده عمر بن الخطاب بحبيب بن مسلمة صرفه إليه من (الجزيرة).

ولما تغلغلت طلائع المسلمين وعلى رأسها عبد الرحمن بن ربيعة في منطقة الباب، كاتبه ملكها[4] واستأمنه على أن يأتيه، فأمّنه عبد الرحمن، فلما لقيه قال له: «إني بإزاء عدوٍ كلب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب، وليس لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان، ولست أنا من (القبج) ولا من الأرمن في شيء، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي، فأنا منكم ويدي مع أيديكم وجزيتي إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم». فأجابه عبد الرحمن: «فوقي رجل قد أظلك، فسر إليه»، ثم سيَّره إلى سراقة، فلقيه بمثل هذا الكلام، فقبل منه سراقة وقال له: «لا بد من الجزية ممن يقيم ولا يحارب العدو»، أي أنه وافق على وضع الجزية عن الذين يقاتلون العدو جنباً لجنب مع المسلمين... وأصر على أخذها من القاعدين من أهل البلاد.

وكتب سراقة إلى عمر بذلك، فأجازه وحسنّه[5]، وهكذا صالح

---

(١) الاستيعاب (٢/ ٥٨٠) والطبري (٢/ ٢٣٥).

(٢) حذيفة بن أسيد الغفاري: شهد الحديبية وبايع تحت الشجرة ونزل الكوفة وتوفي بها سنة اثنتين وأربعين. انظر الإصابة (١/ ٣٣٢) وأسد الغابة (١/ ٣٨٩).

(٣) الطبري (٣/ ٣٣٥).

(٤) كان ملكها يدعى: شهريراز. انظر الطبري (٣/ ٢٣٦).

(٥) ابن الأثير (٣/ ١١). وانظر نص وثيقة الصلح بين سراقة وملك باب الأبواب في الطبري (٣/ ٢٣٦)، وهي تثبت أن المسلمين كانوا يفرضون الجزية على المغلوبين=

أهل إرمينية والأرمن[١].

٢ ـ ولما أنجز سراقة فتح هدفه الأصلي وهو (باب الأبواب) بعث قادته إلى الجهات: بعث بكير بن عبد الله الليثي إلى (موقان)[٢]، ووجه حبيب بن مسلمة إلى (تفليس)[٣]، ووجه حذيفة بن أسيد الغفاري إلى جبان (اللان)[٤]، وسلمان بن ربيعة الباهلي إلى الوجه الآخر، وكتب سراقة بالفتح وبالذي وجَّه فيه هؤلاء النفر إلى عمر بن الخطاب، فاضطرب عمر لذلك أشد الاضطراب، لأنه قدّر أن قوات المسلمين التي توجهت لفتح هذه المناطق غير كافية عدداً وعُدداً لإنجاز واجباتها، وفعلًا لم يفتح أحد من

= لقاء الدفاع عنهم وحمايتهم، فهي بدل الخدمة العسكرية بالضبط: ضريبة الدفاع. أما الذين يدافعون عن أنفسهم ويقاتلون عدوهم مع المسلمين فلا جزية عليهم... وهذا نص الوثيقة: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهريراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينتقصوا. على أهل أرمينية والأبواب الطُرّاء منهم والثناء ومن حولهم فدخل معهم، أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً، على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم، ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملًا، فإن حشروا وضع ذلك عنهم، وإن تركوا أخذوا به.. وشهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبد الله، وكتب مرضي بن مقرن المزني وشهد». أقول: لا توجد مثل هذه الشروط الرحيمة في وثائق الصلح بين الغالب والمغلوب حتى بعد تثبيت قوانين الحرب والحياد في القانون الدولي، فمن يريد دليلًا على ذلك فليقارن بين ما جاء في هذه الوثيقة التي كانت في القرن السابع وبين نصوص معاهدة فرساي بين ألمانيا من جهة والحلفاء من جهة ثانية في نهاية الحرب العالمية الأولى أي في القرن العشرين. وقد صدق من قال: «لم يشهد العالم فاتحين أكثر عطفاً ورحمة وتسامحاً من العرب».

(١) الطبري (٣/ ٢٣٦) وابن الأثير (٣/ ١١).

(٢) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة، يحتلها التركمان للرعي، وهي بأذربيجان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٩).

(٣) تفليس: مدينة قرب باب الأبواب. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٩٦).

(٤) جبال اللان: جبال في منطقة باب الأبواب بالقرب من تفليس، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة كبيرة مشهورة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٢٤).

هؤلاء القادة ما وجَّه له إلا بكير فإنه فتح (موقان)[1].

ومات سراقة في (باب الأبواب) قبل أن يرى ثمرة جهاده كاملة، فاستخلف قبل موته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي[2].

الشاعر:

قال سراقة بن عمرو يصف فتح (باب الأبواب)[3]:

ومن يك سائلًا عني فإني ... بأرض لا يؤاتيها القرار
بباب الترك ذي الأبواب دار ... لها في كل ناحية مغار
نذود جموعهم عما حوينا ... ونقتلهم إذا باح السَّرار[4]
سددنا كل فرج كان فيها ... مكابرة إذا سطع الغبار
وألحمنا الجبال جبال قبج ... نناهبهم وقد طار الشرار
على خيل تعادي كل يوم ... عتاداً ليس يتبعها المهار

وهو شعر سلس يصور المعركة تصويراً رائعاً حتى تكاد تلمس فيه جو المعركة الصاخب: غباراً ثائراً، وخيلًا تكر وتفر، وقتلى تتهاوى.. ولم ينس تدابير المسلمين الدفاعية من منطقة باب الأبواب: مراقبة الطرق التقريبة إليها ليلًا ونهاراً، وسد منافذ الجبال.. إلخ.

لقد كان سراقة من شعراء الفرسان المجيدين.

الإنسان:

من الصعب جداً أن نتلمس الناحية الإنسانية من حياة سراقة بن عمرو،

---

(١) الطبري (٣/ ٢٣٧) وقد وردت قصة فتح موقان في ترجمة بكير بن عبد الله الليثي.

(٢) ابن الأثير (٣/ ١١) والاستيعاب (٢/ ٥٨٠) وسترد تفاصيل جهاد عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي في ترجمته.

(٣) معجم البلدان (٢/ ١٢).

(٤) السرار: سرر الشهير بفتحتين، أخر ليلة منه، وكذا (سراره) بفتح السين وكسرها، وهو مشتق من قولهم: استسر القمر، أي خفي ليلة (السرار) فربما كان ليلة وربما كان ليلتين. وإذا باح السراه: معناها إذا بزغ القمر وانكشف محاقه.

فقد ظهر فجأة على مسرح أحداث الفتح الإسلامي وقام خلال فترة قصيرة بأعمال فذة، ثم انتهت حياته في أوج مجده وفي خضم جهاده المتواصل العنيف.

على كل حال، كان مثالًا رفيعاً من أمثلة السجايا العربية وفضائل الإسلام، ولولا سجاياه وفضائله تلك لما تولى منصب قيادة الجيوش وإمارة الولايات في عهد خليفة لم يبق له الحق صديقاً ـ وهو عمر بن الخطاب.

وقد توفي في مدينة (باب الأبواب) سنة اثنتين وعشرين للهجرة[١] (٦٤٢م).

القائد:

كان سراقة يتحمَّل المسؤولية الكاملة، فهو يفكر ويقدر، فإذا اقتنع برأي أبرمه على مسؤوليته الخاصة متحملًا كافة نتائجه برحابة صدر وعن طيبة خاطر.

ولقد كان جريئاً غاية الجرأة في إعطاء القرارت، فقد رأيت كيف صالح ملك (باب الأبواب) صلحاً مبتكراً حقاً، ثم أخبر بقراره هذا مرجعه الأعلى بعد إبرامه، فما كان من مرجعه عمر بن الخطاب إلا أن أجاز ما أبرم سراقة وحسنَّه. كما أنه سيِّر الجيوش إلى المناطق المحيطة (بالباب) قبل الرجوع إلى الخليفة، وفي هذه المرة خشي عمر نتائج إقدام قائده سراقة على مثل هذا العمل الجريء وحسب لنتائجه ألف حساب.

وليس من السهل أن يصدر سراقة أو أي قائد آخر قرارات جريئة مبتكرة لم يسبق لها مثيل، في عهد يتولى فيه القيادة العليا مثل عمر بن

---

(١) ابن الأثير (٢/ ١١) والطبري (٣/ ٢٣٧). وقد ذكر الزركلي في كتابه: الأعلام (الطبعة الثانية (٣/ ١٢٦): إن سراقة توفي سنة ثلاثين للهجرة، مع أنه اعتمد الإصابة في ترجمة سراقة بن عمرو، وليس في الإصابة شيء عن تاريخ وفاته. راجع الإصابة (٣/ ٦٩). والصحيح أن تاريخ وفاته هو ما ذكرناه أعلاه.

الخطاب رضي الله عنه الذي كان يميل إلى المركزية ويتدخل في كل كبيرة وصغيرة من أمور القادة المرؤوسين حرصاً على أرواح المسلمين ومصائرهم؛ مما يدل على أن سراقة كان يتمتع بشخصية قوية وإرادة حديدية وعقلية راجحة ـ كل ذلك جعله يمضي قدماً في تنفيذ أجرأ القرارات في أحرج المواقف والظروف.

سراقة في التاريخ:

لا تقتصر أهمية فتح (باب الأبواب) على نشر الإسلام في منطقة شاسعة من الأرض غنية بالثروة الزراعية والحيوانية، بل إن لفتحها أهمية خاصة، وهي أنها أصبحت القاعدة المتقدمة لقوات المسلمين في حركاتهم العسكرية شمالاً باتجاه أرمينية وتركستان والقفقاس حتى حدود سيبيريا، لهذا كان فتح (باب الأبواب) نصراً سوقياً (استراتيجياً) للمسلمين ظهرت نتائجه البعيدة بعد سنوات قليلة من الفتح.

إن التاريخ يذكر لسراقة فتح (باب الأبواب) القاعدة المتقدمة للفتح الإسلامي باتجاه الشمال، ويذكر له نشره الإسلام في منطقة شاسعة من الأرض وبين أقوام وأمم مختلفة، ويذكر له جرأته الفذة في إصدار القرارات الجريئة وتحمله نتائجها بشجاعة وإصرار.

إنه قضى كل حياته مجاهداً في سبيل عقيدته، فمات غريباً في بلاد نائية عن بلاده وهو في خضم جهاده، فسقط ميتاً ولم يسقط السيف من يده.

رضي الله عن الصحابي الجليل، البطل المقدام، القائد الفاتح، سراقة ذو النور بن عمرو.

عبد الرحمن ذو النور بن ربيعة الباهلي

فاتح بَلَنجَر[1] والبيضاء من بلاد الخَزَر[2]

الصّحابيّ:

هو عبد الرحمن بن ربيعة بن يزيد بن سَهْم بن عمرو بن ثَعْلَبَة بن غَنْم بن قُتَيْبَة بن مَعْن بن مالك بن أَعْصُر الباهِليّ، نسب إلى باهلة بنت صَعْب بن سَعْد بن قَيْس عَيْلان[3]، وهو أخو سلمان بن ربيعة الباهِليّ.

كان عبد الرحمن صحابياً جليلًا، إذ كانوا لا يؤمِّرون في الفتوح إلّا الصّحابة[4]، أدرك النبيّ ﷺ بسنِّه ولم يسمع منه ولا روى عنه[5].

والظّاهر أنه أسلم متأخراً، لذلك لم يشهد غزوات النبي ﷺ ولم يجاهد تحت لوائه، فنال شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت راية الرسول القائد صلوات الله وتسليمه عليه.

جهاده:

١ ـ كان العراق الميدان الأول لجهاد عبد الرحمن، فحين وجّه

---

(١) بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٨).

(٢) بلاد الخزر: هي بلاد الترك خلف مدينة باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٣٢).

(٣) انظر أسد الغابة (٣/ ٢٩٣) وجمهرة أنساب العرب (٢٤٤ ـ ٢٤٧).

(٤) الإصابة (١/ ٣٠٩) و(٣/ ٥٣) و(٤/ ١٥٩).

(٥) الاستيعاب (٢/ ٨٣٢) وأسد الغابة (٣/ ٢٩٣).

عمر بن الخطّاب سعد بن أبي وقاص إلى (القادِسِيَّة) جعل على قضاء الناس عبد الرحمن وجعله على قسمة الفيء أيضاً[1]، وذلك سنة أربع عشرة الهجرية (٦٣٥م)، مما يدلّ على تفقهه في الدين وعدله واستقامته وأمانته.

ولكن عبد الرحمن لم يقنع بواجبه الإداري، بل باشر القتال في (القادسية)، وطارد الهاربين من الفرس بعد انتصار المسلمين، وقتل أحد قادة الفرس الكبار[2]، على الرغم من واجباته الإدارية الأخرى التي تثقل كاهله، فبرز في هذه المعركة الحاسمة بطلًا لا يهاب الردى، كما برز في تحمل واجباته الإدارية أيضاً.

وشهد معارك الفتح الأخرى في العراق بعد (القادسية) تحت لواء سعد بن أبي وقّاص، فلما انساحت قوّات المسلمين في بلاد فارس، رافق عبد الرحمن هذه القوات، فكان على مقدمة سُراقة بن عمرو[3] في فتح (باب الأبواب)، ولما أطل عبد الرحمن على (باب الأبواب) والملك بها يومئذ شهريار، كاتبه شهريار واستأمنه على أن يأتيه، فأمنه عبد الرحمن والتقيا، فقال الملك:

«إنني بإزاء عدو كَلِب[4] وأمم مختلفة ليست لهم أحساب، ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعينهم على ذي الحسب، ولست من القَبَج[5] ولا الأرَمَن في شيء، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأُمتي، فأنا منكم ويدي من أيديكم وجزيتي إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون، فلا تسوموننا الجزية

(١) الطبري (٣/ ٩) وابن الأثير (٢/ ٤٥٣) والإصابة (٤/ ١٥٩) والاستيعاب (٢/ ٨٣٢).
(٢) ابن الأثير (٢/ ٤٨٣) وهو ابن الهربذ.
(٣) سراقة بن عمرو: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٠٩ - ٢١٣).
(٤) كلب: شديد، شرس، سفيه.
(٥) القبج: أمة من الأمم في جبل (القَبْق) أو (القَبْج).

فتوهنونا لعدوكم». فقال عبد الرحمن: «فوقي رجل قد أظلّك، فسر إليه»[1].

وسير عبد الرحمن الملك شهريار إلى سُراقة بن عمرو، فلقيه بمثل ذلك، وقبل منه سراقة ذلك وقال: «لا بدّ من الجزية ممن يقيم ولا يحارب العدو»، فأجابه الملك إلى ذلك، وكتب سراقة في ذلك إلى عمر بن الخطّاب، فأجازه عمر واستحسنه[2].

وقد كان عبد الرحمن أحد الشهود على العقد الذي عقده سراقة مع الملك شهريار كما كان أخوه سلمان شاهداً على ذلك العقد أيضاً[3].

وفي هذه الوثيقة وافق سراقة على وضع الجزية عن الذين يقاتلون أعداء المسلمين جنباً لجنب مع المسلمين، وأبقى الجزية على القاعدين من أهل البلاد[4].

٢ ـ ومات سُراقة ذو النور بن عمرو سنة اثنتين وعشرين الهجرية[5] (٦٤٢م) فاستخلف عبد الرحمن قبل موته، وحين بلغ عمر بن الخطّاب موت سراقة واستخلافه عبد الرحمن، أقرَّ عبدَ الرحمن على فَرْج[6] (الباب) وأمره بغزو الترك[7].

وخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع (الباب)، فقال له الملك شهريار:

---

(١) الطبري (٣/ ٢٣٦) وابن الأثير (٣/ ٢٨) وانظر ابن خلدون (٢/ ٩٨٣).
(٢) الطبري (٣/ ٢٣٦) وابن الأثير (٣/ ٢٨).
(٣) الطبري (٣/ ٢٣٧).
(٤) انظر التفاصيل في سيرة: سراقة بن عمرو في (قادة فتح بلاد فارس) ص(٢١٠) وهذا دليل على أنّ الجزية كانت ضريبة الدفاع عن المغلوبين أو هي (بدل نقدي) عن الخدمة العسكرية كما نطلق عليها اليوم في المصطلحات العسكرية الحديثة.
(٥) الطبري (٣/ ٢٣٧) وابن الأثير (٣/ ٢٨).
(٦) الفرج: الثغر المخوف. وفروج الأرض: نواحيها.
(٧) الطبري (٣/ ٢٣٧) وابن الأثير (٣/ ٢٩).

«ماذا تريد أن تصنع؟!» قال: «أريد (بَلَنْجَر) والترك». قال: «إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون (الباب)»!، قال عبد الرحمن: «لكنا لا نرضى منهم ذلك حتى نأتيهم في ديارهم. وتالله إنّ معنا لأقواماً لو يأذن أميرنا في الإمعان لبلغت فيهم (الرّدْمَ)[1]»، قال الملك: «وما هم؟!»، فأجابه عبد الرحمن: «أقوام صحبوا رسول الله ﷺ، ودخلوا في هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيِّرهم من يغلبهم، وحتى يلفتوا عن حالهم»[2].

وغزا عبد الرحمن (بَلَنْجر) غزاة في زمن عمر بن الخطّاب، فقال الترك: «ما اجترأ علينا إلّا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت»، فهرب منه الترك وتحّصنوا فرجع بالغنيمة والظفر، بعد أن بلغت خيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بَلَنْجَر)، وعادوا ولم يقتل منهم أحد[3].

ومن الواضح أنّ معنويات المسلمين كانت عالية جداً، لتتابع انتصاراتهم، ولتمسكهم بدينهم؛ كما أنّ معنويات الأمم التي حاربوها كانت منهارة، لأن المسلمين غلبوا الأمم التي قاتلوها. لذلك هرب الأتراك من المسلمين وتحصنوا، فلم يحدث قتال فعلي في هذه الغزوة، فلم يسقط من المسلمين شهيد.

وكثيراً ما تنتصر الجيوش بالرُّعب، كما كان يعبِّر عنه العرب الأقدمون، ومعناه: ارتفاع معنويات المنتصر، وانهيار معنويات المغلوب، فينتصر المنتصر بمعنوياته العالية، ويقهر المغلوب برعبه من عدوه المنتصر.

---

(١) في ابن الأثير (٣/ ٢٩): الرذم، وهذا تصحيف. والردم: يقصد به سد الصين. قال تعالى: ﴿قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾، والآية الكريمة من سورة الكهف (١٨: ٩٤).

(٢) الطبري (٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨) وابن الأثير (٣/ ٢٩ ـ ٣٠).

(٣) الطبري (٣/ ٢٣٨) وابن الأثير (٣/ ٣٠).

٣ ـ وغزا عبد الرحمن الترك غزوات في أيام عثمان بن عفان، كان النصر حليفه فيها، حتى إذا تبدّل أهل (الكوفة) ـ وجيش عبد الرحمن أغلبه من أهل الكوفة والعراق في خلافة عثمان، لاستعماله مَنْ كان ارتدّ استصلاحاً لهم، فلم يصلحهم ذلك وزادهم فساداً أن سادهم مَن طلبَ الدنيا؛ فغزاهم عبد الرحمن، وكان الترك قد اختفوا في الغياض[١]، وكانوا قد خافوا المسلمين، واعتقدوا أنّ السّلاح لا يعمل فيهم! واتّفق أنْ تركياً اختفى في غَيْضَة ورشق مسلماً بسهم فقتله، فنادى في قومه: «إنّ هؤلاء يموتون كما تموتون، فلِمَ تخافوهم؟!»[٢]، فاجترأ الترك على المسلمين وخرجوا عليهم من مكامنهم وأوقعوا بهم، واشتّد القتال، فثبت عبد الرحمن حتى استشهد، فأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة الباهلي وقاتل بها، ونادى منادٍ «صبراً آل سلمان!»، فقال سلمان: «أوَ ترى جَزَعاً!!» وخرج سلمان ومعه أبو هريرة الدوسي على (جِيْلان)[٣]، فقطعوها إلى (جُرْجَان)[٤] منسحباً من معركة خاسرة[٥] بعد أن دفن أخاه عبد الرحمن بنواحي (بلنجر)[٦]، وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان بقيّة باقية من جيش أخيه عبد الرحمن.

وفي رواية أخرى، أنّ عبد الرحمن حين استشهد انهزم الناس وافترقوا فرقتين فرقة اتّجهت نحو (الباب)، فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن،

---

(١) الغياض جمع غيضة، وهي الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٢) معجم البلدان (٢/ ٢٧٨) وانظر الطبري (٣/ ٢٣٨) وابن الأثير (٣/ ٣٠).

(٣) جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، وليس في جيلان مدينة كبيرة، إنما هي قرى في مروج بين جبال، والعجم يقولون: كيلان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٩٤).

(٤) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، وهي أكبر مدينة بنواحيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٧٥ ـ ٧٩).

(٥) الطبري (٣/ ٢٣٨) و(٣/ ٣٥٠) وابن الأثير (٣/ ٣٠) و(٣/ ١٣٢).

(٦) معجم البلدان (٢/ ٢٧٨).

وكان قد سيَّره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان بن عفان، فلما لقوه نجوا معه، وفرقة اتّجهت نحو (جيلان) و (جُرْجان)[1].

والروايتان الأولى والثانية متناقضتان، ونرجِّح الرواية الأولى، لأنّ الرواية الأولى تدل على (انسحاب) المسلمين من ميدان القتال بقيادة واحدة وسيطرة واحد باتجاه (جيلان) و (جُرْجان). أما الرواية الثانية فتدلّ على (هزيمة) المسلمين باتجاهين: اتِّجاه محور (الباب) وانجاه محور (جيلان) (جرجان)، وشتّان بين (الانسحاب) و (الهزيمة).

إنّ الانسحاب أشبه بقتال المسلمين يومئذ، وذلك في حالة اشتداد الضغط عليهم من العدو وتكبدهم خسائر فادحة بالأرواح. والانسحاب هو من أجل الانحياز إلى فئة[2] من المسلمين، ليعيدوا الكرة ثانية على عدوهم، وقد انسحب خالد ابن الوليد من معركة (مُؤتة) في أيام النبيّ ﷺ، فأنقذ المسلمين من معركة خاسرة.

أما الهزيمة، فلم يكن المسلمون يرضونها لأنفسهم حينذاك، لأنّ هدفهم من الجهاد هو إحدى الحسنين: الشهادة أو النصر، كما أنهم كانوا يعتبرون الهزيمة من الكبائر التي هي: التوليّ يوم الزحف.

كما أنّ سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن قد جاء مدداً لعبد الرحمن بأمر عثمان بن عفّان، فليس من المعقول أن يبقى ومدده في (الباب)، وليس من المعقول أن يتركه أخوه عبد الرحمن هناك وهو يخوض معركة قاسية شرسة، يكون فيها القائد بأمس الحاجة إلى الجندي الواحد، فكيف يترك عبد الرحمن جيشاً كاملًا على رأسه أخوه دون أن يستفيد منه في المعركة؟!

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١٣٢).

(٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

إنّ المؤرخين القدامى كانوا يستعملون تعبير: (الهزيمة)، وهم يريدون بها تعبير (الانسحاب)، ذلك لأن أكثرهم مدنيون لا يفرِّقون بين هذين التعبيرين: (الهزيمة) ترك ساحة القتال بدون نظام ولا قيادة فهي كارثة، و (الانسحاب) ترك ساحة القتال وفق خُطّة مرسومة بقيادة واحدة فهو - أي الانسحاب - صفحة من صفحات القتال، الهدف منه إعادة الكرة على العدو بعد إكمال متطلبات المعركة عَدداً وعُدداً.

وعسى ألّا يقع المؤرخون المحدثون في مثل هذا الخطأ في التعبير، فلا يفرِّقون بين (الهزيمة)، (والانسحاب)، لأنّ الفرق بين التعبيرين شاسع بعيد.

الإنسان:

كان عبد الرحمن على جانب عظيم من التقوى والخلق الكريم، وربما كان يصف نفسه بدون ادعاء ولا قصد حين قال لملك (الباب) عن المسلمين الأولين من المهاجرين والأنصار: «... كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم بعد إسلامهم...» وهذا وصف موجز، ولكنه وصف دقيق لخلق العرب المسلمين حينذاك.

والحق أنّ تصرف عبد الرحمن مع المغلوبين، كان له أكبر الأثر في استتباب الأمن واستقرار النظام وانتشار الإسلام، فقد كان وفياً غاية الوفاء، أميناً غاية الأمانة.

فقد أرسل ملك (الباب) رسولًا إلى ملك (الصين) مع هدايا - وذلك قبل أن يفتح المسلمون بلاده - فعاد رسوله من رحلته بعد فتح المسلمين لتلك البلاد. وكان مع الرسول العائد هدايا من ملك الصين، بينها ياقوتة حمراء ثمينة، وكان ملك (الباب) حين عودة رسوله في مجلس عبد الرحمن؛ فتناول الملك من رسوله تلك الياقوتة ثم ناولها عبد الرحمن، ولكنّ عبد الرحمن ردّها فوراً إلى الملك بعد أن نظر إليها، فهتف الملك متأثراً وقال: «لَهَذه - يعني الياقوتة - خير من هذا البلد - أي باب الأبواب -

وأيم الله لأنتم أحبّ إليّ حكاماً من آل كسرى، فلو كنتُ في سلطانهم، ثم بلغهم خبرها، لانتزعوها مني!!! وأيم الله، لا يقوم لكم شيء ما وفيتم وَوَفَى ملككم الأكبر»(١).

كان من حق ملك مدينة (الباب) وما حولها أن يعجب أشدّ العجب ويدهش أشّد الدهشة بأمانة القائد العربي المسلم ووفائه، فقد عاش هذا الملك عمره كلّه في دوامة عنيفة من الخيانة وفي جو مشحون بالغدر. فلما رأى أمانة المسلمين المثالية ووفاءهم المطلق، لم يتمالك نفسه أن نسى ملكه المضاع وملوكه الغابرين، فعبّر عن شعوره بكلمات خارجة من أعماق قلبه إعجاباً بما يرى ويسمع من أمانة ووفاء.

لقد كان عبد الرحمن يعلم، أنّ الاستيلاء على الياقوتة التي لا تقدّر بثمن ليس من حقه شخصياً ولا من حق بيت مال المسلمين، فكانت تلك الياقوتة والتراب عنده سيان.

وكان عبد الرحمن كريماً مضيافاً، شهماً غيوراً، ورعاً تقياً، متفقهاً في الدين نقياً، لا يملك شيئاً من حطام الدنيا ـ على الرغم من أنه قضى أكثر عمره غازياً وواليًا.

وفي منطقة (بلنجر) نام عبد الرحمن نومته الأبدية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد مضي ثمان سنين من خلافته(٢)، فيكون عبد الرحمن قد استشهد سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م)، لأنّ عثمان كان قد بويع بالخلافة سنة أربع وعشرين الهجرية(٣).

وقد بقي والياً على منطقة (الباب) من سنة اثنتين وعشرين الهجرية

---

(١) الطبري (٣/ ٢٣٩).

(٢) الإصابة (٤/ ١٥٩) والاستيعاب (٢/ ٨٣٢) وابن الأثير (٣/ ١٣٢)، وقد ذكر الطبري (٣/ ٣٥١) أنه استشهد سنة تسع من خلافة عثمان بن عفان، أي سنة ثلاث وثلاثين الهجرية.

(٣) الطبري (٣/ ٣٠٥) وابن الأثير (٣/ ٧٩).

(٦٤٢م) إلى سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م) في أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وكان موضع ثقتهما المطلقة.

القائد:

كان عبد الرحمن قائداً عَقَدِياً من الطراز الرفيع، وكان لتمسكه الشديد بعقيدته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء، بالإضافة إلى شجاعته وإقدامه وعلمه بأمور الدين. لذلك بقي قائداً لمنطقة (باب الأبواب) ووالياً عليها منذ وفاة سُراقة ابن عمرو حتى استشهد، لم يعزل من منصبه على الرغم من تبدّل الخلفاء وتغيّر الولاة والقادة في الكوفة مرجع عبد الرحمن المباشر.

وكان عبد الرحمن يؤمن بوسائل حرب الفروسية الشريفة، فلا يخون ولا يغدر ولا يضرب من الخلف.

وكان رفيقاً رحيماً حتى بأعدائه في ساحة القتال ـ وذلك بعد أن تنهار مقاومتهم فلا يبقى لهم حول ولا قوة.

وكان يكرم عزيز قوم ذل، فلا يدعه يشعر بالمهانة والمذلة، وحسبنا أن نذكر معاملته الكريمة لملك (باب الأبواب): يُحضره مجلسه، ويستشيره في أمره، ويعتمد عليه في حرب أعدائه، ويتركه طليقاً كامل الحرية يسرح ويمرح كما يشاء بين قوم من غير رقيب ولا حسيب!.

فمن يترك ملكاً خسر ملكه في الحرب في مملكته بالذات وبين قومه ورعيته، غير الذين يعتمدون على أنفسهم ويثقون بها ويراعون الجانب الخلقي في الحرب!!؟؟

تلك الأخلاق المحاربة التي كان يتحلىّ بها عبد الرحمن، جعلته موضع ثقة قادته وجنوده وحتى الشعوب والحكام الذين غلبهم في الحرب، مما سهّل عليه مهمته القيادية والإداريّة.

وكان سريع القرار صائبه، يحبّ رجاله ويحبّونه، ذا شخصية قوية وإرادة نافذة وشجاعة وحكمة، وكان له ماضٍ ناصع مشرف مجيد.

عبد الرحمن في التاريخ:

لقد كان لسيرة عبد الرحمن الحسنة في منطقة (باب الأبواب) وجنوب بحر الخزر وغربه أثر أيِّ أثر في استقرار الأمور واستتباب الأمن والنظام في تلك الربوع، فأصبحت تلك المناطق قاعدة أمامية لنشر الإِسلام والفتح شمالاً، فثبت الإِسلام في تلك الأصقاع النائية في وجه مختلف المحن والتيارات منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم.

يكفي أن يذكر له التاريخ تضحيته بروحه من أجل عقيدته، وفتحه مناطق شاسعة نائية لا تزال حتى اليوم تدين بالإِسلام.

رضي الله عن الصحابي الجليل، القاضي العادل، العامل الأمين، القائد الفاتح، الفارس الشهيد، عبد الرحمن ذي النور بن ربيعة الباهلي.

سلمان بن ربيعة الباهلي
فاتح شطر إزمينية

«ابعث إليهم رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه»

(عثمان بن عفان)

الصَّحابي:

هو أبو عبد الله سلمان بن ربيعة بن يزيد بن عمرو بن سَهْم بن نَضْلَةَ بن غَنْم ابن قُتَيْبَة بن مَعَن بن مالك بن أعْصُر بن سَعْد بن قَيْس عَيْلَان بن مُضَر بن نزار الباهليّ الكوفي[١].

كان صحابياً جليلاً[٢]، لأنهم لم يكونوا يؤمِّرون في الفتوح إلّا الصَّحابة[٣]، خاصة وأنه تولى قيادة الجيوش والقضاء على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، الذي كان يحرص غاية الحرص على تولية الصحابة مثل هذه المناصب الخطيرة.

ولكن لم يرد له ذكر في غزوات النبيّ ﷺ، مما يدل على أن إسلامه كان متأخراً، لذلك نال سلمان شرف الصحبة ولم ينال شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٨) القسم الأول، وانظر جمهرة أنساب العرب (٢٤٥ - ٢٤٧).

(٢) الإصابة (٣/ ١١٢) وأسد الغابة (٢/ ٣٢٧)، وقد ورد في أسد الغابة أيضاً: إنه أدرك النبي ﷺ وليست له صحبة، ولكن جاء في أسد الغابة أيضاً: إنه صحابي. ونرجِّح أنه صحابي لأنهم كانوا لا يؤمرون إلّا الصحابة، وانظر الاستيعاب (٢/ ٦٣٢).

(٣) الإصابة (٤/ ١٥٩).

جهاده:

١ - برز اسم سلمان في الجهاد لأول مرة في فتوح العراق، فقد ولّاه سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قيادة (المُجَرِّدَة)[١] في مسير الاقتراب إلى ميدان (القادسية)[٢] المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب العراق للمسلمين، وكان ذلك سنة أربع عشرة الهجرية (٦٣٥م).

وأبلى سلمان في معركة (القادسية) بلاء عظيماً، فلما انهزم الفرس لحق سلمان وأخوه عبد الرحمن بطائفة منهم قد نصبوا راية وقالوا: لا نبرح حتى نموت! فقتلهم سلمان ومَن معه[٣].

وكان سعد بن أبي وقّاص قد جعل على قسمة الغنائم سلمان، فجمع ما في القصر والأيوان[٤] والدور، وأحصى ما يأتيه به الطلب، وكان أهل (المدائن)[٥] قد نهبوها عند الهزيمة وهربوا في كلٍّ وجه، فما أُفلت أحدهم بشيء إلّا أدركه الطّلب فأخذوا ما معه[٦].

وقسمت الغنائم، وأصاب كلّ واحد من الفوارس تسعة آلاف درهم وتسع من الدواب. وقيل: إنّ الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف درهم، فقسّمها سلمان، وبعث سعد بن أبي وقّاص بالأخماس إلى عمر بن الخطاب، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجرية[٧] (٦٣٨م).

---

(١) المجردة: هي قوة عسكرية من الفرسان تتحرك أمام المقدمة لاستطلاع قوات العدو والحصول على المعلومات عنه وحماية المقدمة.

(٢) الطبري (٣/٩) وابن الأثير (٢/٤٥٢) وابن خلدون (٢/٩١٨).

(٣) ابن الأثير (٢/٤٨٣).

(٤) قصر كسرى وإيوان كسرى ولا تزال آثارهما باقية حتى الآن في سلمان باك (المدائن) قرب بغداد.

(٥) المدائن: عاصمة الفرس، مؤلفة من عدة مدن، تقع على نهر دجلة على بعد ستة فراسخ من بغداد، وفيها قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه، وآثارها باقية حتى اليوم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٤١٣ - ٤١٥).

(٦) ابن الأثير (٢/٥١٥) وابن خلدون (٢/٩٤١).

(٧) ابن الأثير (٢/٥٢٢).

٢ ـ حشد هرقل ملك الروم قوات كبيرة، من (الجزيرة) وغيرها براً ومن (الإِسكندرية) بحراً، فلما علم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بذلك حشد قوّات المسلمين في (حِمْص)، وكتب إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يعلمه بهذا الموقف العصيب، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنهما: «اندب الناس مع القعقاع بن عمرو[1]، وسرِّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى (حِمص)، فإنَّ أبا عبيدة قد أُحيط به، وتقدّم إليهم في الجد والحث»[2].

وكان عمر بن الخطّاب قد اتّخذ في كلِّ مصر خيولًا على قدرة من فضول أموال المسلمين عدة للطوارىء، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيِّم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي ونفر من أهل الكوفة[3].

وتحرّك القعقاع بن عمرو التميمي على رأس أربعة آلاف فارس من يومهم الذي أتاهم فيه كتاب عمر بن الخطّاب إلى (حمص)[4]، وكان سلمان مع هذه القوة.

وشهد سلمان معارك الإنقاذ من أرض الشام التي استحقت ثناء عمر فقال: «جزى الله أهل (الكوفة) خيراً: يكفون حوزتهم، ويمدّون أهل الأمصار»[5].

وقد بعثه أبو عبيدة بن الجرّاح إلى حمص: بـ(قُوْرُس)، فنسب إليه، فهو يعرف بحصن سلمان[6].

---

(١) القعقاع بن عمرو: انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٣١ ـ ٣٥٥).

(٢) الطبري (٣/ ١٥٤).

(٣) ابن الأثير (٢/ ٥٣٠).

(٤) حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلًا! إنه يكاد يكون مستحيلًا في أيامنا الحاضرة، وقد أنجزه المسلمون قبل أربعة عشر قرناً!!

(٥) الطبري (٣/ ١٥٠).

(٦) ابن الأثير (٢/ ٤٩٦)، وقورس: مدينة بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٨١).

وقد ورد لسلمان ذكر في فتوح الشّام[1]، وكان فتح (مَنْبِج) على يد سلمان[2].

وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨م) على الأغلب.

٣ ـ وعاد سلمان من أرض الشام ليتولى القضاء في الكوفة، ثم صُرف من القضاء[3] لينتقل إلى ميدان الجهاد في (أَذْرَبَيْجَان)[4] و(إِرْمِينِيَةَ)، فقد بعث عمر بن الخطّاب بسنة اثنتين وعشرين سُراقة بن عمرو الذي كان يدعى: (ذا النور) إلى (باب الأبواب)، وجعل عمر بن الخطاب سلمان في هذه الغزوة على المقاسم[5]، فشهد سلمان فتح (باب الأبواب) وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م).

ولما فرغ سُراقة بن عمرو من فتح (باب الأبواب)، أرسل قادته إلى المناطق المحيطة بها، وكان من أولئك القادة سلمان الذي ذهب إلى الجبال المحيطة بـ(إرمينية)، فلم يفتح أحد من أولئك القادة إلّا بكير بن عبد الله[6]، فإنه انتصر على أهل (مُوْقَان)[7] الذين فرضت عليهم الجزية عن كل حالم ديناراً[8].

٤ ـ وفي سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥م) كان الوليد بن عُقْبَة[9]

---

(١) الإصابة (٣/ ١١٢).

(٢) ابن خلدون (٢/ ٩٤٧).

(٣) الطبري (٣/ ٢٢٣).

(٤) أذربيجان: صقع جليل ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال. أشهر مدنها: تبريز وهي قصبتها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٥٩) والمسالك والممالك (١٠٨).

(٥) ابن الأثير (٣/ ٢٨).

(٦) بكير بن عبد الله: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٠٥ ـ ٢٠٨).

(٧) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي، فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمرّ بها القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٩٨).

(٨) ابن الأثير (٣/ ٢٩) وابن خلدون (٢/ ٩٨٣ ـ ٩٨٤).

(٩) الوليد بن عقبة: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٩٣ ـ ٥١٢).

على الكوفة لعثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولّاها الوليد[1]، وكان أهل (أذربيجان) قد نقضوا، فغزاهم الوليد في هذه السنة، وأغار على أهل (مُوْقان) و(بَرْزَنَد)[2] و(الطَّيْلسان)[3]، ففتح وغنم وسبي. لذلك طلب أهل كور (أذربيجان) الصلح، فصالحهم على صلح حُذَيْفَة بن اليمان[4]، وهو ثمانمائة ألف درهم، وقبض المال.

وبثّ الوليد سراياه، وبعث سلمان إلى أهل (إرمينية) في اثني عشر ألفاً، فسار في (إرمينية) يقتل ويسبي ويغنم، ثم انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد، فعاد الوليد وقد جعل طريقه على (الموصل)[5] فوصل إلى (الحَدِيثة)[6] ونزلها[7].

وفي (الحديثة) أتى الوليد كتاب عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي جاء فيه: «إنّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أنّ الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فابعث إليهم رجلًا له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه والسلام».

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٨٢).

(٢) برزند: وردت (الببر) في ابن الأثير (٣/ ٨٣)، وهذا خطأ، وقد وردت (برزند) في ابن خلدون (٢/ ١٠٠٠) وهو الصحيح، وهي بلد من نواحي تفليس من أعمال جرزان من إرمينية الأولى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٢٤).

(٣) الطيلسان: إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الديلم والخزر، انظر معجم البلدان (٦/ ٨٠).

(٤) حذيفة بن اليمان: انظر سيرته المفصلّة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ ـ ١١٧).

(٥) الموصل: مدينة كبيرة على دجلة شمالي بغداد، وقد كانت عربية قبل الإسلام ولا تزال، تبعد عن بغداد إلى الشمال (٣٩٧) ك م.

(٦) الحديثة: هي حديثة الموصل، وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٢٤)، وهي الآن خراب.

(٧) ابن الأثير (٣/ ٨٣) وابن خلدون (٢/ ١٠٠٠).

وقام الوليد في الناس، وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان، فانتدب معه ثمانية آلاف مضوا حتى دخلوا مع أهل الشام في أرض الروم، فشنّوا الغارات على أرض الروم، وأصاب الناس ما شاؤوا وافتتحوا حصوناً كثيرة.

وقيل: إن الذي أمدّ حبيب بن مَسْلَمَة بسلمان كان سعيد بن العاص(*)، وكان سبب ذلك، أنّ عثمان بن عفان رضي الله عنه كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يأمره أن يُغزي حبيب بن مَسْلَمَة في أهل الشام (إرمينية)، فوجّهه إليها.

وأتى حبيب (قاليْقَلا)(١)، فحصرها وضيّق على مَنْ بها، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية، فجلا كثير منهم ولحقوا ببلاد الروم، وأقام بها حبيب بن مَسْلَمة فيمن أقام معه أشهراً(٢)، لا يستطيع إدامة زخم الفتح لقلّة قوّاته.

ثم بلغ حبيب بن مسلمة أن بطريق (أرْميناقس)(٣) واسمه (الموريان) قد توجّه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم، فكتب إلى معاوية بن أبي سفيان - وهو على أرض الشام لعثمان بن عفان رضي الله عنه - فكتب معاوية إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى سعيد بن العاص يأمره بإمداد حبيب، فأمدّه بسلمان بن ربيعة الباهلي في ستة آلاف(٤).

(*) الصواب إن الذي بعث سلمان هو الوليد بن عقبة، لأن سعيد بن العاص تولى الكوفة سنة ثلاثين الهجرية، فهو وجه سلمان في الغزوة الثانية كما يأتي.

(١) قاليقلا: مدينة بأرمينية العظمى من نواحي خلاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٧)، وإنما سميت: (قاليقلا) لأن امرأة بطريق أرميناقس كان اسمها: (قالي) بنت هذه المدينة فسمتها (قالي قلة)، تعني: إحسان قالي، فعربتها العرب فقالت: قاليقلا، انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).

(٢) ابن الأثير (٣/ ٨٣ - ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠٠ - ١٠٠١).

(٣) أرميناقس: هي بلاد ملطية وسيواس وقونية وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية، انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).

(٤) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

وأجمع حبيب على تبييت[1] الروم، فنفّذ خطة هجومه الليلي بنجاح باهر، مما أدىّ إلى هزيمة الروم[2].

ولما انهزمت الروم عاد حبيب وسلمان إلى (قاليقلا)، ثم سار حبيب منها فنزل (مربالا)[3]، فأتاه بطريق (خلاط)[4] بكتاب عياض بن غَنْم الفِهْرِيّ[5] بأمانه، فأجراه عليه ويحمل إليه البطريق ما عليه من مال.

ونزل حبيب بن مسلمة (خِلاط)، ثم سار منها فلقيه صاحب (مُكس) وهي من (البُسْفُرْجان)[6]، فقاطعه على بلاده. ثم سار منها إلى (أرْدَشاط)[7]، وهي القرية التي يكون بها القرمز الذي يُصْبَغ به، فنزل على (دَبيل)[8] وسرّح الخيول إليها فحصرها، فتحصّن أهلها، فنصب عليهم منجنيقاً، فطلبوا الأمان فأجابهم إليه[9].

ووجّه حبيب سرية إلى (سِراج طَيْر)[10] و(بَغْرَوَنْد)[11]، فصالحه بطريقها على إتاوة.

---

(١) بيت: دبر ليلًا، ومعناه القيام بالهجوم الليلي على العدو.

(٢) انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٣) مربالا: ناحية بأرمينية قرب خلاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥).

(٤) عياض بن غنم: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩ - ٤٧٩).

(٥) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٦) البسفرجان: كورة بأرض أران ومدينتها النشوى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٨١).

(٧) أردشاط: وردت في ابن خلدون (٢/ ١٠٠١): اردستان، ووردت في ابن الأثير (٣/ ٨٥): أزدشاط، والصحيح هو: أردشاط: وهي قرية في منطقة البسفرجان، وهي قرية القرمز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٨٤).

(٨) دبيل: مدينة بأرمينية تتاخم أران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٥).

(٩) ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(١٠) سراج طير: هي كورة في إرمينية الثالثة وقيل الثانية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٥٨).

(١١) بغروند: بلد معدود من إرمينية الثالثة، انظر معجم البلدان (٢/ ٢٤٥).

وقدم حبيب على (البُسْفُرْجان)، فصالحه بطريقها على جميع بلاده. وأتى حبيب (السِيْسَجَان)[1] فحاربه أهلها، فغلبهم.

وسار إلى (جُرْزَان)[2]، فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح، فصالحه صاحب (شَرْوَان)[3] وسار ملوك الجبال وأهل (مسقط)[4] و(الشَابَران)[5] ومدينة (باب الأبواب) ثم امتنعت بعده[6].

وهكذا استعاد حبيب بن مَسْلَمَة بمعاونة سلمان فتح مناطق شاسعة من إرمينية، وفتحا مناطق شاسعة جديدة لأول مرة، وكان هذا الفتح في سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥م).

لقد كان التعاون وثيقاً بين حبيب وسلمان، فكان هذا الفتح العظيم من ثمرات هذا التعاون الوثيق في هذه الغزوة العظيمة في تلك المناطق النائية عن قواعد المسلمين الرئيسة والمتقدِّمة.

وكلّ تعاون واتفاق يأتي بخير، وكلّ تنابذ واختلاف يؤدي إلى شر.

٥ ـ وفي سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م)، استشهد عبد الرحمن بن ربيعة أخو سلمان بن ربيعة في (بَلَنْجَر)، فافترق الناس الذين كانوا بقيادته فرقتين: فرقة اتجهت نحو (الباب)[7]، فلقوا سلمان الذي

---

(١) السيسجان: مدينة بعد أُران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٩٦).

(٢) جرزان: اسم جامع لناحية بأَرمينية قصبتها تفليس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٨٣).

(٣) شروان: مدينة من نواحي (باب الأبواب) بينهما مائة فرسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٨٥).

(٤) مسقط: رستاق بساحل بحر الخزر دون (باب الأبواب) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٥٤).

(٥) الشابران: مدينة من أعمال (أرّان) بينهما وبين شيروان نحو عشرين فرسخاً، انظر معجم البلدان (٥/ ٢٠٥).

(٦) ابن الأثير (٣/ ٨٥ ـ ٨٦) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٧) الباب: هي باب الأبواب، واسمها اليوم: دربند، مدينة من المدن الإِيرانية المعروفة تقع على بحر الخزر.

كان قد سيّره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما لقوه نجو معه. وفرقة اتّجهت نحو (جِيْلَانَ) و(جُرْجان) فيهم سلمان الفارسيّ وأبو هريرة رضي الله عنهما، وهذه الفرقة قاتلت وتكبّدت خسائر فادحة بالأرواح[1].

وسار حبيب إلى (تَفْلِيْس)[2]، فصالحه أهلها، وفتح عدّة حصون ومدن تجاورها صلحاً[3].

لقد كان سلمان الساعدَ الأيمن لحبيب في فتح هذه البلاد الشّاسعة.

وبعث حبيبُ سلمانَ إلى (أرّان)[4]، ففتح (البَيْلَقَان) صلحاً بعد أن أمَّنَهُم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم، واشترط عليهم الجزية والخراج.

وأتى سلمان مدينة (بَرْذَعَة)، فعسكر على (الثُّرْثُور)[5] نهر بينه وبينها نحو فرسخ، فقاتله أهلها أياماً، وشنّ الغارات في قراها، فصالحوه على مثل صلح (البيلقان) ودخلها.

ووجّه سلمان خيله، ففتحت رساتيق[6] الولاية: ولاية (أرّان) ثم وجّه سرية إلى (شَمْكُور) ففتحوها.

---

(١) الطبري (٣/ ٣٥١) وابن الأثير (٣/ ١٣٢).

(٢) تفليس: مدينة بأرمينية الأولى، وبعض يقول: بأران، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٩).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١)، وانظر البلاذري (٢٠٠ ـ ٢٠٧).

(٤) أران: اسم لولاية كبيرة واسعة منها جنزة وبرذعة وبيلقان، وهي من أصقاع إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٧٠).

(٥) الثرثور: نهر بينه وبين برذعة نحو فرسخ واحد، انظر معجم البلدان (٣/ ١٠) وابن الأثير (٣/ ٨٣).

(٦) رساتيق: جمع رستاق، وهو كلّ موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، وهو أخصّ من الكورة والأستان، انظر معجم البلدان (١/ ٣٨).

وسار سلمان إلى مجمع (الرَسّ) و(الكُرّ)[1]، ففتح تلك المناطق، وصالحه أهلها.

وفي رواية أخرى، أنّ سلمان كان مع أخيه عبد الرحمن في (بلنجر) حين استشهد، فأخذ الراية وقاتل بها، ونادى منادٍ: «صبراً آل سلمان!»، فقال سلمان: «أوَتَرى جزعاً!!»، وخرج سلمان ومعه أبو هريرة على (جَيْلان)، فقطعوها إلى (جُرْجَان)، منسحباً من معركة خاسرة[2]، بعد أن دفن أخاه عبد الرحمن بنواحي (بلنجر)، وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان البقية الباقية من جيش أخيه عبد الرحمن.

وأرجح الرواية الثانية[3].

ولما أصيب عبد الرحمن بن ربيعة استعمل سعيد بن العاص سلمان على (الباب) واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حُذَيْفَة بن اليمان، وأمّدهم عثمان بن عفّان رضي الله عنه بأهل الشّام عليهم حَبِيْب بن مَسْلمة، وأراد سلمان أن يتأمّر على الجيش كلّه، فأبى حبيب بن مسلمة حتى قال أهل الشام: لقد هممنا بضرب سلمان، فقال الكوفيون: إذن والله نضرب حبيباً ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم.

قال أوس بن مغراء في ذلك:

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم وإن ترحلوا نحو ابن عفّان نرحل
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أمير في الكتائب مقبل

---

(١) مجمع الرس والكر: ملتقى النهرين الرَس والكر، والكر: نهر بين أرمينية وأرّان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٣٧). والرس: يمرّ بأرّان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٦٥٠).

(٢) الطبري (٣/ ٣٣٨) وابن الأثير (٣/ ١٣٢).

(٣) انظر أسباب هذا الترجيح في سيرة: عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي.

ونــحــن ولاة الأمــر كــنــا حــمــاتــه ... لــيــالــي نــرمــي كــلّ ثــغــر ونَــعْــكــل[1]

وأراد حبيب أن يتأمّر على صاحب (الباب) كما يتأمر أمر الجيش إذا جاء من (الكوفة)، فكان ذلك أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام[2].

وكان من ثمرات هذا الاختلاف، أنّ التاريخ لم يحدِّثنا عن فتح جديد على يد حبيب أو سلمان في هذه المدة الزمنية، بل حدّثنا عن استشهاد سلمان في تلك الأيام في (بلنجر) أيضاً، فكان أخوه عبد الرحمن السّابق في الشهادة، وكان سلمان اللّاحق في الاستشهاد.

ومن الإنصاف أن نذكر أنّ سلمان كان على حق حين أراد أن يتأمّر على جميع الجيش، لأنه أمير المنطقة ـ منطقة (الباب)، ولأنّ حبيباً جاءه مدداً وحلّ في منطقته، فسلمان هو الأصيل، وحبيب هو المدد، والأصل يتأمّر على المدد كما هو معلوم.

الإنسان:

كان سلمان أوَّلَ مَنْ قضى بالكوفة[3]، فقد بعثه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قاضياً بالكوفة قبل شُرَيْح[4]. فلما ولى سعد بن أبي وقاص الكوفة الولاية الثانية في أيام عثمان بن عفان استقضى سلمان أيضاً[5]، وقد شهد (القادسية) فقضى بها، ثم قضى بـ(المدائن)[6].

(١) عكل عليه الأمر: التبس. وعكل الشيء: جمعه بعد تفرقه. وعكل الدابة: ضم رسغ يدها إلى عضدها وربطهما معاً. وهي لغة من عقل. والمعنى: أنهم ولاة الأمر وحماته الذين يهاجمون الثغور ويستولون عليها، إشارة إلى أنهم ذوو بأس شديد، انظر ابن الأثير (٣/ ١٣٣). وقد ورد عجز البيت الثالث في الطبري (٣/ ٣٥٣): ليالي نرمي كل ثغر وننكل.

(٢) الطبري (٣/ ٣٥٣) وابن الأثير (٣/ ١٣٣) وانظر البداية والنهاية (٧/ ١٦٠).

(٣) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠) والمعارف (٤٣٣).

(٤) الاستيعاب (٢/ ٦٣٢) والإصابة (٣/ ١١٢).

(٥) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧).

(٦) المعارف (٤٣٣).

قال أبو وائل: «اختلفت إلى سلمان بن ربيعة حين قدم على قضاء الكوفة أربعين صباحاً لا أجد عنده فيها خصيماً»[١].

وليس كلّ إنسان يصلح للقضاء ـ خاصة في أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، أو يصلح لأهل الكوفة التي كانت حينذاك تعجّ برجالات العرب وكبار الصحابة من جهة، وبأخلاط شتى من أمم وأقوام وقبائل مختلفة من جهة أخرى، وهذا دليل على غزارة علم سلمان بالدين الحنيف واستقامته وعدله وتدينه، وتمتعه بعقلية راجحة متزنة، وشخصية قوية نافذة، مما جعله موضع ثقة الناس جميعاً.

كما أنه تولى المقاسم في فتح (المدائن) وفي غزوة (الباب) أيضاً، مما يدلّ على تمتّعه بالنزاهة المطلقة.

كان رجلًا صالحاً يحجّ كلّ سنة[٢]، روى عنه بعض كبار التابعين[٣]، وكان مثالًا نادراً للخلق القويم: كريماً مضيافاً شهماً غيوراً وفياً صادقاً محباً للخير، يحبّ للناس ما يحبه لنفسه، ولم يترك حين استشهد ديناراً ولا داراً، بعد أن عاش كلّ حياته مجاهداً وقاضياً وأميراً.

وأخيراً أكرمه الله بالشهادة سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م) أو سنة ثلاث وثلاثين الهجرية[٤] (٦٥٣م)، فقد كان أميراً على (باب الأبواب) سنة اثنتين وثلاثين الهجرية[٥].

---

(١) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) والاستيعاب (٢/ ٦٣٢).

(٢) الإصابة (٣/ ١١٢).

(٣) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣) والإصابة (٣/ ١١٢).

(٤) جاء في أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) والاستيعاب (٢/ ٦٣٣): أنه استشهد سنة ثمان وعشرين الهجرية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل سنة تسع وعشرين، وقيل سنة ثلاثين، وقيل سنة إحدى وثلاثين. كما جاء في الإصابة (٣/ ١١٢): أنه استشهد قبل الثلاثين أو بعدها.
أقول: إنه استشهد بعد سنة ثلاثين الهجرية، فقد تولى (باب الأبواب) بعد أخيه الذي استشهد سنة اثنتين وثلاثين الهجرية، انظر الطبري (٣/ ٣٥١)، فلا بد أنه استشهد في هذه السنة أو بعدها.

(٥) الطبري (٣/ ٣٥٠).

القائد:

لما بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه، كتاباً إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة، يأمره به أن يرسل نجدة من أهل الكوفة إلى أهل الشّام بقيادة رجل: «ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه»، لم يتردّد الوليد لحظة في اختيار سلمان لهذا الواجب البالغ الخطورة، فاختاره من بين عدد كبير من القادة أصحاب الفتوح والأيام الذين كانوا معه أو كانوا في الكوفة، ذلك لأنّ سلمان كان حقاً مثالاً رائعاً من أمثلة النجدة والبأس والشجاعة بالإضافة إلى ورعه وتقواه.

لقد كان شجاعاً مِقداماً سريعاً إلى النجدة خبيراً بفنون الحرب لممارسته الطويلة لها وله تجارب طويلة في قيادة الرجال، وكان: «أبصر بالمضارب من الجازر بمفاصل الجزور»[1]، مما يدلّ على أنه كان من الرماة الماهرين.

وكان ماهراً في الفروسية، خبيراً بالخيل، وكان يلي الخيل لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فكان يقال له: سلمان الخيل[2]، فقد كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قد أعدّ في كلِّ مصر من أمصار المسلمين خيلًا كثيرة معدّة للجهاد، وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فإذا داهم العدو الثغور الإسلامية، ركبها المسلمون المجاهدون وساروا مجدِّين لقتاله[3]، وكان سلمان يتولى الخيل بالكوفة[4].

وكان سلمان أوّل مَنْ فرّق بين العِتَاق والهُجُن[5]، فقد فرّق بينهما

---

(١) الطبري (٣/ ٣٥١) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠).

(٢) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧) والاستيعاب (٢/ ٦٣٢) والإصابة (٣/ ١١٢).

(٣) الطبري (٣/ ١٥٤).

(٤) أسد الغابة (٢/ ٣٢٧).

(٥) الإصابة (٣/ ١١٢) والمعارف (٤٣٣). والعتاق: جمع عتيق، وجواد عتيق: فرس رائع أصيل. والهجن: جمع هجين، والهجين: غير الأصيل، والهجنة في الناس والخيل إنما تكون من قبل الأم، فإذا كان الأب عتيقاً أي كريماً والأم ليست كذلك، كان الولد هجيناً.

بالأعناق، إذ دعا بطست من ماء، فوضعت بالأرض، ثم قدِّمت الخيل إليها واحداً واحداً، فما ثنى سُنْبُكَه[1] ثم شرب هجّنَه، وما شرب ولم يثنِ سنبكه جعله عتيقاً[2]، لأنّ أعناق الخيل العتاق طوال، فهي لا تثني سنبكها لطول أعناقها، ولأنّ أعناق الهجن قصار فهي لا تنال الماء إلا بثني سنبكها[3].

وكان شجاعاً في فروسية، قال سلمان: «قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم، كلهم يعبد غير الله، ما قتلت رجلًا منهم صبراً»[4].

إنه لا يقتل حتى عدوه الكافر بالله، الذي يعبد غير الله ـ لا يقتله في ساحة القتال صبراً، بل يُنذره ثم يصاوله مصاولة الأنداد، ويقتله عندما يجد فرصة لقتله، فلا يكون هذا القتل غدراً، ولا يكون صبراً.

وحمي الوطيس يوماً، واشتدّ الخطر وكثر القتل فنادى المنادي: «صبراً آل سلمان بن ربيعة»، فقال مستنكراً: «أَوَ ترى جزعاً!».

وكان شديد الضبط، يفرض سيطرته الكاملة على رجاله، ولا يسكت أبداً على مخالفة، وتلك مزية من أهم مزايا القائد الفذ: التمسك بالضبط المتين، وحمل المرؤوسين على الطاعة وفرض السيطرة التامة. قال أبو وائل: «غزونا مع سلمان بن ربيعة (بلنجر)، فحرّج علينا أن نحمل على دواب الغنيمة، ورخّص لنا في الغربال والحبل والمنخل[5]، فهو قائد مسيطر، يتوخى المصلحة العامة، ولا يفرط بها قيد أنملة.

وكان من القادة الذين يبيّتون عدوهم (يهاجمونه ليلًا)، والهجوم الليلي يحتاج إلى تمتع القطع المقاتلة بالضبط المتين والتدريب الجيد، وتمتع القائد بالسيطرة الكاملة والمقدرة الفائقة والكفاية العالية.

---

(١) السنبك: طرف الحافر.
(٢) حلية الفرسان وشعار الشجعان (٧٢) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٦/ ٢١٠).
(٤) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣) والمستلئم: الجندي الذي لبس عدّته وأصبح جاهزاً للقتال.
(٥) الاستيعاب (٢/ ٦٣٣).

كما أنّ الهجوم الليلي يؤمِّن مبدأ: (المباغتة)، أهم مبادىء الحرب على الإطلاق.

وكما يتميّز بإعطاء القرارت السريعة الصائبة، يستشير رجاله، ويحبهم ويحبونه، ويثق بهم ويثقون به، له شخصية قوية نافذة وإرادة صلبة.

وكان يقود رجاله من (الأمام)، يقول لهم: اتبعوني، ولا يقودهم من (الخلف)، يقول لهم: تقدّموا، ثم يبقى هو في الخلف.

لقد كان مثالاً للمجاهد الصّادق المحتسب، الذي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه، وأخيراً سقط مضرجاً بدمائه ولم يسقط السيف من يده.

إنه قدوة حسنة لكلِّ جندي ولكلِّ قائد في ماضيه المشرّف المجيد، وفي أعماله الفذة الخالدة[1].

سلمان في التاريخ:

يذكر التاريخ لسلمان أنه كان أول قاضٍ في العراق، قضى في (القادسية) و(المدائن) و(الكوفة).

ويذكر له أنه كان على القِسْمَة في (المدائن) و(باب الأبواب)، ويذكر له آثاراً جيدة في فتوح العراق وأرض الشّام.

ويذكر له فتوحاته في (أذربيجان) و(إرمينية) وبلاد (الخزر).

---

(1) جاء في المعارف (٤٣٣): ويقال إنّ عظامه عند أهل (بلنجر) في تابوت، إذا احتبس عليهم المطر أخرجوه فاستسقوا به، فسقوا. قال ابن جمانة الباهلي:

وإن لنا قبرين: قبر بلنجر ... وقبراً بأعلى الصين يالك من قبر
فهذا الذي بالصين عمّت فتوحه ... وهذا الذي بالترك يسقى به القطر

وأراد بالقبر الذي بالصين قبر قتيبة بن مسلم الباهلي.
أقول: وهذا دليل على مبلغ اعتزاز الناس بسلمان حياً وميتاً.

ويذكر له مسارعته في نجدة أهل الشّام عندما أحدق بهم خطر الروم من الشمال، فخشي المسلمون أن يستعيد منهم الروم (أرض الشّام).

ويذكر له أنه ضحّى بنفسه من أجل مبادئه، ولم يضح بمبادئه من أجل نفسه، فجاد بروحه مقبلًا غير مدبر، ونام نومه الأبدي في منطقة نائية من بلاده وأهله، ولكنه ظل قريباً من نفوسهم ونفوس العرب والمسلمين كافة.

رضي الله عن الفقيه المحدِّث، القاضي العادل، الأمين النزيه، الإداري الحازم، الفارس المغوار، البطل الشهيد، القائد الفاتح سلمان بن ربيعة الباهِلِيّ.

حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْرِيّ
فاتح شطر إرمينية وشطر بلاد الرّوم

إسلامه:

هو حبيب بن مَسْلَمَة بن مالك الأكبر بن وَهْب بن ثَعْلَبَة بن وائلة بن عَمْرو بن شَيْبَان بن مُحارب[1] بن فِهْر بن مالك القُرشِيّ الفِهْرِيّ، ويكنّى: أبا عبد الرحمن[2].

أتى النبيّ ﷺ وهو بالمدينة، فأدركه أبوه فقال: «يا رسول الله! يدي ورجلي»، فقال النبي ﷺ: «ارجع معه، فإنه يوشك أن يهلك»، فهلك أبوه في تلك السنة[3].

وفي رواية: أنّ حبيباً قدم على النبيّ ﷺ غازياً، وأنّ أباه أدركه بالمدينة، فقال: «يا نبيّ الله! إنه ليس لي ولد غيره يقوم في مالي وضيعتي وعلى أهل بيتي»، فردّه معه وقال: «لعلّك أن يخلو لك وجهك في عامك، فارجع يا حبيب مع أبيك»، فرجع حبيب ومات مَسْلمة في ذلك العام، وغزا حبيب فيه[4].

وكان حبيب مع النبيّ ﷺ في غزاة (تَبُوك) وهي آخر غزوة غزاها

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٧٨) وانظر كتاب الطبقات خليفة بن خياط (٦٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠٩) والإصابة (١/ ٣٢٣) وأسد الغابة (١/ ٣٧٤) والاستيعاب (١/ ٣٢٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٠٩) وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).

(٤) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).

النبي ﷺ[1]، وأنكر بعض العلماء أن يكون حبيب غزا مع النبيّ ﷺ، لأنّ النبي ﷺ قبض وحبيب ابن اثنين عشرة سنة[2].

وفي رواية: أنّ النبيّ ﷺ قبض وحبيب ابن اثنتين وعشرين[3]، وهذا ما أُرجِّحه، لأنّ حبيباً لا يمكن أن يأتي النبيّ ﷺ للغزو وهو ابن عشر سنين أو إحدى عشرة سنة، ولأنه لا يمكن أن يصرِّف أمور والده الإدارية في مثل هذه السن المبكرة، ولأن تولّى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة التي كانت سنة ثلاث عشرة الهجرية، ولا يمكن أن يتولى مثل هذه القيادة وهو ابن أربع عشرة سنة، لذلك فمن المعقول جداً أن يكون عمره حين قبض رسول الله ﷺ اثنتين وعشرين سنة.

والظّاهر أنه أسلم عام الفتح، وكان فتح مكّة سنة ثمان الهجرية، فأتى النبيّ ﷺ في تلك السنة ليشارك في الجهاد تحت لوائه، ولكنّ النبيّ ﷺ ردّه، فمات أبوه، فحضر غزوة (تبوك) التي كانت سنة تسع الهجرية، وهذا ما يتفق مع سير الحوادث والمنطق السليم.

لقد سمع حبيب من النبيّ ﷺ[4] وروى عنه حديثاً واحداً[5]، فهو صحابيّ جليل[6]، نال شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد، عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وكان من أصحاب الفتيا من الصحابة[7].

---

(1) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).
(2) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥) وانظر طبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠).
(3) المحبر (٢٩٤).
(4) أسد الغابة (١/ ٣٧٤).
(5) الإصابة (١/ ٣٢٣) والاستيعاب (١/ ٣٢١).
(6) أسد الغابة (١/ ٣٧٤) والإصابة (١/ ٣٢٣)، وقال الإمام البخاري: له صحبة.
(7) أصحاب الفتيا من الصحابة ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ـ (٣٢٢).

جهاده:

١ ـ شهد حبيب معركة (اليرموك) الحاسمة قائداً لأحد الكراديس[1]، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤م)، فأظهر في تلك المعركة بسالة فائقة.

وشهد في السنة نفسها فتح دمشق، فشارك في فتح (الغُوْطة)[2].

وشهد أكثر معارك فتح أرض الشام، وحين سار أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه من (حَلَب) إلى (إنْطَاكِيَة) ـ وقد تحصّن بها خلق كثير ـ صالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعضهم، وأقام بعض فآمنهم، ثم نقضوا فوجّه إليهم أبو عبيدة عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة، ففتحاها على الصلح الأول، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجرية[3] (٦٣٦م).

وبعث أبو عبيدة بن الجرّاح جيشاً مع حبيب إلى (قاصرين)[4]، فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض (الجزيرة) وقرية جسر (مَنْبِج)[5] واشترط عليهم أن يخبِّروا المسلمين بخبر الروم[6].

وسيّر أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه جيشاً مع حبيب إلى حصن

---

(١) الطبري (٥٩٣).

(٢) الغوطة: من الغائط وهو المطمئن من الأرض، وجمعه: غيطان وأغواط، والغوطة: هي الكورة التي منها دمشق، فيها عدّة أنهر تسقي بساتينها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١٤) وهي مُتنزه دمشق ومجمع بساتينها، ومكانها معروف اليوم. وانظر الطبري (٢/ ٦٠٢) حول هجوم حبيب على الغوطة.

(٣) ابن الأثير (٢/ ٤٩٥).

(٤) قاصرين: بلد كان بقرب بالس، انظر معجم البلدان (٧/ ١٣).

(٥) منبج: مدينة كبيرة بينها وبين حلب عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان (٨/ ١٦٩).

(٦) ابن الأثير (٢/ ٤٩٦)، ومعنى: أن يخبروا المسلمين خبرَ الروم: نقل المعلومات العسكرية عن نيات الروم وتحرّكاتهم.

(الحَدَث)[١] وإنما سُمي (الحَدَث) لأنّ المسلمين لقوا غلاماً عليه حدثاً فقاتلهم في أصحابه، فقيل: (درب الحَدَث). وقيل: لأنّ المسلمين أصيبوا به فقيل: (درب الحدث) وكانوا بنو أُميّة يسمونه: (درب السَّلامة) لهذا المعنى[٢]، ففتحه حبيب في أيام عمر بن الخطّاب[٣] رضي الله عنه سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م).

وأمدّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عِيَاض بن غَنم بحبيب، فقدم على عياض في (الجزيرة)، فقاتل حبيب تحت لواء عياض وفتح (شِمْشاط)[٤] و(مَلَطْيَة) عنوة[٥]، واستعمله عمر بن الخطّاب على عجم (الجزيرة) وحربها واستعمل الوليد بن عُقبة على عرب (الجزيرة) وحربها، فأقاما بـ(الجزيرة) على أعمالها[٦]، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨م)، ولكنّ أهل (مَلَطْيةُ) نقضوا الصّلح، فلما ولي معاوية بن أبي سفيان الشّام لعمر بن الخطّاب وجّه إليها حبيباً ورتّب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها[٧].

وصرف عمر بن الخطّاب حبيباً من (الجزيرة) إلى منطقة (باب الأبواب) مدداً لسُراقة بن عمرو، فشهد فتح (باب الأبواب)[٨]، وكان أحد

---

(١) حصن الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش من الثغور، ويقال لها: الحمراء، لأن تربتها جميعاً حمراء، وقلعتها على جبل يقال له: الأحيدب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٣١).

(٢) ابن الأثير (٢/ ٤٩٧) وانظر ابن خلدون (٢/ ٩٤٧).

(٣) معجم البلدان (٣/ ٢٣١).

(٤) شمشاط: مدينة في بلاد الروم على شاطئ الفرات: انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٩٣).

(٥) ابن الأثير (٢/ ٥٣٥).

(٦) الطبري (٣/ ١٥٧) وانظر ابن الأثير (٥٣٢).

(٧) ابن الأثير (٢/ ٥٣٥).

(٨) الطبري (٣/ ٢٣٦).

الشهود الذين وقّعوا على وثيقة الصلح بين سُراقة بن عمرو وملك (باب الأبواب)[1]، وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م).

وبعد أن اطمأن سُراقة في منطقة (باب الأبواب)، وجّه حبيباً إلى (تَفْلِيس) فلم يستطع حبيب فتحها[2] في هذه المرة، لأنّ قواته لم تكن كافية للنهوض بالفتح، فقد كانت قليلة بالنسبة إلى ضخامة قوات العدو.

٢ ـ وارتبكت أمور (إرمينية) في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان على الكوفة الوليد بن عُقبة، فكتب إليه عثمان: «إنّ معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني أنّ الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فابعث إليهم رجلًا له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه، والسلام»[3].

وقام الوليد بن عقبة في الناس وأعلمهم الحال، وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي، فانتدب معه ثمانية آلاف ومضوا حتى دخلوا مع أهل الشّام إلى أرض الروم، فشنُّوا الغارات على أرض الروم وأصاب الناس ما شاؤوا وافتتحوا حصوناً كثيرة[4].

وقيل: إنّ الذي أمدّ حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة الباهلي كان سعيد بن العاص[5]، والصواب أن الذي أمّد حبيباً بسلمان هو الوليد بن عقبة، لأن سعيداً تولى الكوفة سنة ثلاثين الهجرية والفتح جرى سنة خمس وعشرين الهجرية، كما سيرد ذكره وشيكاً، وكان سبب ذلك، أن عثمان بن

---

(١) الطبري (٣/ ٢٣٧) وابن الأثير (٣/ ٢٩) وابن خلدون (٢/ ٩٨٣ ـ ٩٨٤).

(٢) الطبري (٣/ ٣٧).

(٣) ابن الأثير (٣/ ٨٣).

(٤) ابن الأثير (٣/ ٨٣ ـ ٨٤).

(٥) الصواب أنّ الذي بعث سلمان هو الوليد بن عقبة، لأنّ سعيداً تولى الكوفة سنة ثلاثين الهجرية.

عفّان رضي الله عنه، كتب إلى معاوية بن أبي سفيان يأمره أن يغزي حبيب بن مسلمة في أهل الشام (إرمينية)، فوجّهه إليها، فأتى حبيب (قَالِيْقَلا) فحصرها وضيّق على مَن بها، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية، فجلا كثير منهم ولحقوا ببلاد الروم، وأقام فيها فيمن معه أشهراً[(١)]، لا يستطيع إدامة زخم الفتح لقلة قواته.

كما بلغه أنّ بطريق (أرْمِيْناقس) وهي بلاد (مَلَطْيَة) و(سيواس)[(٢)] و(قُونْية)[(٣)] وما والاها من البلاد إلى خليج (القسطنطينية) واسمه (المَوْريان) قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم[(٤)] فكتب إلى معاوية بن أبي سفيان - وهو على الشام لعثمان بن عفان رضي الله عنه - فكتب معاوية إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى الوليد بن عقبة يأمره بإمداد حبيب، فأمدّه بسلمان بن ربيعة الباهلي في ثمانية آلاف. وأجمع حبيب على تبييت الروم[(٥)]، فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية[(٦)] فقالت: «أين موعدك؟!»، فقال: «سرادق المَوريان». ثم بيّتهم حبيب، فقتل مَن وقف له، حتى أتى السرادق، فوجد امرأته قد سبقته إليه، فكانت أوّل امرأة ضرب عليها حجاب سرادق[(٧)].

ولما انهزمت الروم عاد حبيب إلى (قَالِيْقَلا)، ثم سار منها فنزل

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٨٤).

(٢) سيواس: بلدة كبيرة تبعد عن القسطنطينية (٤٤٠) ميلًا إلى شرق جنوبها الشرقي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٦٢)، وهي بلدة معروفة في تركيا.

(٣) قونية: من أكبر بلاد الروم، وهي مدينة كبيرة، انظر معجم البلدان (٧/ ١٨٦)، وهي قريبة من سيواس في تركيا.

(٤) ابن خلدون (٢/ ١٠٠١) وزاد ابن الأثير (٣/ ٨٤): ملطية وسيواس واقصرا... إلخ.

(٥) بيّت: دبَر ليلًا، ومعناه: القيام بالهجوم الليلي على العدو.

(٦) مات عنها حبيب فخلف عليها الضحّاك بن قيس، فهي أم ولده، انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤).

(٧) انظر ابن الأثير (٣/ ٨٤) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(مربالا)، فأتاه بطريق (خِلاط)[1] بكتاب عياض بن غَنْم بأمانه، فأجراه عليه، وحمل إليه البطريق ما عليه من مال[2].

ونزل حبيب (خِلاط)، ثم سار منها فلقيه صاحب (مُكْس) وهي من (البُسْفُرْجان)، فقاطعه على بلاده. ثم سار منها إلى (أَرْدَشاط) وهي القرية التي يكون بها القرمز الذي يُصبغ به، فنزل على (دَبِيل) وسرّح الخيول إليها فحصرها، فتحصّن أهلها، فنصب عليهم منجنيقاً، فطلبوا الأمان، فأجابهم إليه[3] ثم أتى حبيب (النَّشْوى)، ففتحها على مثل صلح (دَبِيْل).

ووجّه حبيب سرية إلى (سِرَاج طيْر) و(بَغْرَوَنْد)، فصالحه بطْريقها على إتاوة، وقدم على حبيب بطريق (البُسْفُرَّجان)، فصالحه على جميع بلاده.

وأتى حبيب (السِيْسَجان)، فحاربه أهلها فهزمهم وغلب على حصونهم.

وسار إلى (جُرْزَان)، فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح، فصالحه.

وسار إلى (تَفْلِيْس)، فصالحه أهلها، وفتح عدّة حصون ومدن تجاورها صلحاً[4].

وبعث حبيب سلمان بن ربيعة الباهلي إلى (أَرَّان)[5] ففتح (البَيْلَقَان)[6]

---

(١) خِلاط: قصبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة، وببردها في الشتاء يضرب المثل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٥٣).
(٢) ابن الأثير (٣/ ٨٤) وانظر ابن خلدون (٢/ ١٠٠١).
(٣) ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١) وانظر فتوح البلدان (٢٨٢) حول فتح النشوى.
(٤) ابن الأثير (٣/ ٨٥) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١) وانظر البلاذري (٢٠٠ ـ ٢٠٧).
(٥) أرّان: اسم لولاية كبيرة واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة وبرذعة وبيلقان، وهي من أصقاع إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٧٠).
(٦) البيلقان: مدينة قرب (باب الأبواب)، تعدّ من إرمينية الكبرى قريبة من شيروان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٤٠)، وهي من مدن أرّان.

صلحاً على أن آمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم، واشترط عليهم الجزية والخراج.

ثم أتى سلمان مدينة (بَرْذَعَة)[1]، فعسكر على (الثُّرْثُور)[2]، نهر بينه وبينها نحو فرسخ، فقاتله أهلها أياماً، وشنّ الغارات في قراها، فصالحوه على مثل صلح (البيلقان) ودخلها.

ووجّه سلمان خيله، ففتحت رساتيق[3] الولاية: ولاية (أرّان)، ثم وجّه سرية إلى (شَمْكُور)[4] ففتحوها، وسار سلمان إلى مجمع (أرس)[5] و(الكُرّ) ففتح تلك المناطق وصالحه صاحب (شَرْوَان) وسائر ملوك الجبال وأهل (مَسْقَط)[6] و(الشابَران) ومدينة (باب الأبواب) ثم امتنعت بعده[7].

وهكذا استعاد حبيب بمعاونة سلمان بن ربيعة الباهلي فتح مناطق شاسعة من إرمينية وفتحا مناطق شاسعة أخرى لأول مرة، وكان ذلك الفتح في سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥م).

وقيل: فتحت إرمينية على يد حبيب سنة إحدى وثلاثين الهجرية[8] (٦٥١م) والصواب هو ما ذكرناه سابقاً.

---

(١) برذعة: هي قصبة أرّان في إرمينية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١١٩ - ١٢٢).

(٢) الثرثور: نهر بينه وبين برذعة نحو فرسخ، انظر معجم البلدان(٣/ ١٠) وابن الأثير (٣/ ٨٥).

(٣) رساتيق: جمع رستاق، وهو كلّ موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، وهو أخصّ من الكورة والأستان، انظر معجم البلدان (١/ ٣٨).

(٤) شمكور: قلعة بنواحي أرّان، وهي مدينة قديمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٩٥).

(٥) مجمع (أرس) و(الكر): ملتقى النهرين أرس والكر، ولم أجد لأرس ذكراً، ووجدت الكر: نهر بين إرمينية وأرّان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٣٧).

(٦) مسقط: رستاق بساحل بحر الخزر دون (باب الأبواب) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٥٤).

(٧) انظر ابن الأثير (٣/ ٨٥ - ٨٦) وابن خلدون (٢/ ١٠٠١).

(٨) ابن الأثير (٣/ ١١٩).

٣ ـ وفي سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م)، كان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي على (باب الأبواب)، فخاض معارك قاسية استشهد في أحدها عبد الرحمن أخو سلمان[١]، فخلفه سلمان على (باب الأبواب).

فأمّده عثمان بن عفّان رضي الله عنه بأهل الشّام على رأسهم حبيب، وذلك سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م).

وأراد سلمان أن يتأمّر على الجيش كلّه، فأبى حبيب حتى قال أهل الشام: «لقد هممنا بضرب سلمان»، قال الكوفيون: «إذن والله نضرب حبيباً ونحبسه، وإن أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم»، فقال أوس بن مغراء في ذلك:

إن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم ... وإن ترحلوا نحو ابن عفّان نرحَل
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا ... وهذا أميرٌ في الكتائب مُقْبلُ
ونحن ولاة الأمر كنّا حماته ... لياليَ نرمي كلّ ثغر ونَعْكِلُ[٢]

وأراد حبيب أن يتأمر على الجيش كما يتأمر أمير الجيش إذا جاء من الكوفة، فكان ذلك أوّل اختلاف وقع بين أهل الكوفة والشام[٣].

ولم يكن الحق مع حبيب، لأنه جاء مدداً لسلمان، وهو الأصيل، وحبيب المدد، والأصيل يتأمّر على المدد.

---

(١) ابن الأثير (٣/ ١٣١).

(٢) عكل الشيء: جمعه بعد تفرقه، وهي لغة من عَقَلَ، أي أنهم يغلبون على الثغور ويحسنون ضبطها وإحكام أمرها، إشارة إلى قوّتهم ومنعتهم.
ابن الأثير (٣/ ١٣٣) وفي الطبري (٣/ ٣٥٣) ورد عجز البيت الثالث:
ليالي ترمي كل ثغر ونُنْكِل
وانظر البداية والنهاية (٧/ ١٦٠).

(٣) ابن الأثير (٣/ ١٣٣)، وفي الطبري (٣/ ٣٥٣)، وكان من ثمرات هذا الاختلاف أن توقّف الفتح فلم يستعيدا فتح منطقة نقضت ولم يفتحا (سلمان وحبيب) فتحاً جديداً، وقد ذكر التاريخ أنّ حذيفة بن اليمان كان معهما، فغزا بقواته ثلاث غزوات وقتل عثمان وهو في الغزوة الثالثة، انظر الطبري (٣/ ٣٥٣).

واستشهد سلمان بن ربيعة الباهلي في معركة (بَلَنْجر)، فهمّ عثمان أن يولي حبيباً جميع إرمينية، ثم رأى أن يجعله غازياً بثغور الشّام والجزيرة[١]، فأرسله إلى تلك المنطقة التي كان خبيراً بأرضها وبأساليب قتال الروم، حتى أطلق عليه: (حبيب الروم)، لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم[٢]، فولّاه (قِنَّسْرين)[٣] سنة خمس وثلاثين الهجرية[٤] (٦٥٥م)، ولكنه لم يكد يستقرّ في هذه المدينة حتى بعثه معاوية بن أبي سفيان على رأس جيش من أهل الشّام لنصرة عثمان بن عفّان رضي الله عنه[٥] فلما بلغ (وادي القُرى)[٦] لقيه الخبر بقتل عثمان، فعاد أدراجه إلى الشّام[٧].

الإنسان:

عاد حبيب إلى الشام، فوجدها تضطرم حماسة وغيظاً على قتلة عثمان رضي الله عنه.

ولم يزل في الشّام مع معاوية بن أبي سفيان في حروبه كُلها[٨]: كان معه في (صِفِّين)[٩]، على الميسرة[١٠]، وقد حمل بميسرته على ميمنة رجال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهزمهم وانكشف الناس من قِبَل الميمنة،

---

(١) البلاذري (٢٠٧).

(٢) أسد الغابة (١/ ٣٧٥) والاستيعاب (١/ ٣٢٠) وتهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).

(٣) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٦٨ - ١٧٠).

(٤) ابن الأثير (٣/ ١٨٦).

(٥) ابن الأثير (٣/ ١٦٠).

(٦) وادي القرى: وادٍ بين الشام والمدينة من أعمال المدينة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٧٥).

(٧) أسد الغابة (١/ ٣٧٥) والاستيعاب (١/ ٣٢١) وانظر ابن الأثير (٣/ ١٧٠).

(٨) طبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠) وأسد الغابة (١/ ٣٧٥).

(٩) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧٠).

(١٠) ابن الأثير (٣/ ٢٩٤).

حتى لم يبق منهم إلّا عبد الله بن بُدَيْل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء، قد أسند بعضهم إلى بعض، وانجفل الناس[١]. وحضر اجتماع الحكمَيْن مع كبار أنصار معاوية بن أبي سفيان[٢]. وقيل إنّ معاوية حضر الحَكَمَيْن، وإنه قام عشية في الناس فقال: «أما بعد! مَنْ كان متكلماً في هذا الأمر فليُطلْع لنا قرنه»، قال عبد الله ابن عمر: «فأطلقت حبوْتَي[٣]، فأردت أن أقول: يتكلم فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرّق الجماعة ويُسْفك فيها دم، وكان ما وعد الله فيه من الجنان أحبّ إليّ من ذلك. فلما انصرفت إلى المنزل جاءني حبيب بن مسلمة فقال: ما منعك أن تتكلّم حين سمعت هذا الرجل يتكلم؟! قلت: أردت ذلك ثم خشيت! فقال حبيب: وُفِّقْتَ وَعُصِمْتَ»[٤].

وكان من الذين يستشيرهم معاوية في الأمور العظيمة[٥]، وقد ردّ شبيب بن عامر الذي اجتاح أرض الشّام حتى وصل (بَعْلَبَكَ)[٦] ـ ردّه على أعقابه[٧]. وكان معاوية لا يردّ شفاعته[٨]، أثيراً عنده.

صحب النبيّ ﷺ، وروى عنه، وخرج إلى الشّام مجاهداً في حياة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم دخل دمشق، وكانت داره بها عند طاحونة السقفين مشرفة على نهر (بَرَدَى)[٩]، وكان شريفاً له ولد كثير في

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٢٩٨).

(٢) ابن الأثير (٢/ ٣٢١).

(٣) احتبى بالثوب: اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها، والاسم، الحَبوة ويضم.

(٤) ابن الأثير (٣/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤) وانظر الإصابة (١/ ٣٢٤).

(٥) ابن الأثير (٣/ ٣٥٤).

(٦) بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٢٦)، وهي مدينة في بلاد الشام معروفة، لا تزال آثارها قائمة، تابعة للبنان اليوم.

(٧) ابن الأثير (٣/ ٣٧٩).

(٨) ابن الأثير (٣/ ٤٨٤).

(٩) نهر بردى: نهر في دمشق، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١١٨).

(حوران)[1]، وهو من أشراف قريش[2]، وكان عظيم القدر[3] ذكياً من أصحاب الفتيا بين صحابَة النبيّ ﷺ وكان كالمشرف من دابة لطوله[4]، وكان جيد البدن: دخل على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فقال له: «إنك لجيد القَنَاة»، فقال: «إني جيد سنانها»، فأمر به عمر أن يدخل دار السِّلاح: فأُدخل وأخذ منها سلاح رجل[5]. وقدم على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حاجاً، فقال له عمر: «إنك لفي قناة رجل»، فقال: «إي والله وفي سنانه»، فقال: «افتحوا له الخزائن، فليأخذ ما شاء»، فأعرض حبيب عن الأموال وأخذ السِّلاح[6].

وكان أهل الشّام يثنون عليه[7]، قال شُرَيح بن الحارث فيه:

ألا كلّ مَنْ يُدْعى حبيباً ولو بدت ... مروءته يَفْدِي حبيبَ بني فِهْر
همامٌ يقود الخيل حتى كأنّما ... يطأن بِرَضْراض[8] الحصى جاحِمَ[9] الجمر

ويُروى أيضاً:

شهاب يقود الخيل حتى يُزيرَها ... حياضَ المنايا لا يثيب على وتر
تهبطن فاستصعدن حتى كأنما ... يطأن برضراض الحصى جاحم الجمر[10]

وكان معاوية بن أبي سفيان قد وجّهه في جيش لنصرة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فذكره حسّان بن ثابت شاعر النبيّ ﷺ فقال:

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٦).
(٢) أسد الغابة (١/٣٧٤).
(٣) المعارف (٦١٥).
(٤) المعارف (٥٩٢).
(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٦).
(٦) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧).
(٧) الاستيعاب (١/٣٢٠ ـ ٣٢١).
(٨) الرضراض: الحصى الصغار في مجاري المياه.
(٩) الجاحم: الجمر الشديد الاشتعال.
(١٠) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٦).

إلّا تـنـيـبـوا لأمـر الله تـعـتـرفـوا كتائباً عُصَباً من خلفها عُصَب[١]
فيهم (حبيب) شهاب الموت يقدمهم مشمِّراً قد بدا في وجهه الغضب[٢]

وقد أفرط محبوه فقالوا: إنه كان مستجاب الدعوة[٣]، قال شُرَيْح بن الحارث: «كان حبيب بن مسلمة فاضلًا مجاب الدعوة»[٤].

وفرَّط فيه مبغضوه حتى نسجوا حوله التهم المختلفة والقصص الملفَّقة، فقد ذكروا على لسان الحسن بن علي رضي الله عنه أنه عاتبه مرة فقال: «يا حبيب! رُبَّ مسير لك في غير طاعة الله»، فقال حبيب: «أما مسيري إلى أبيك فلا!»، قال: «بلى والله! ولقد طاوعت معاوية على دنياه، وسارعت في هواه؛ فلئن قام بك في دنياك، لقد قعد بك في دينك؛ فليتك إذ أسأت الفعل أحسنت القول، فيكون كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[٥]، ولكنك كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[٦][٧].

ومن الواضح أنَّ الذي أدار هذا الحوار جعله على لسان الحسن بن علي رضي الله عنه، وهو من هو مكانة وقدراً في قلوب المسلمين وعقولهم، ليصم حبيباً وصمة لا ينهض من كبوتها بعدها أبداً.

ولكن الذين يدقق في الحوار يجد أنه مختلق للحط من شأن حبيب، وفي الوقت الذي يقود هذا الحوار الحسن بن علي رضي الله عنه في بعض المصادر، يقوده في مصادر أُخرى ولد شرحبيل بن السِّمْط[٨]، دون ذكر

---

(١) ديوان حسّان (١/ ١٢٠)، تحقيق د. عرفات.
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٦)، وانظر ديوان حسّان (١/ ١٢٠).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٨).
(٤) الاستيعاب (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).
(٥) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩: ١٠٢).
(٦) ران عليه: غلبه وغطّاه.
(٧) الآية الكريمة من سورة المطفِّفين (٨٣: ١٤)، وانظر ما جاء عن هذا الحوار في الاستيعاب (١/ ٣٢١) وانظر أيضاً البيان والتبيين (٢/ ٩٩).
(٨) شرحبيل بن السمط، صحابي جليل، انظر التفاصيل في أسد الغابة (٢/ ٢٩١).

اسم هذا الولد ـ وكان لشرحبيل عدة أولاد[1]، وجاء الحوار مع ولد شرحبيل: أن حبيباً حضر جنازة شرحبيل بن السمط، فقال له ولد شرحبيل: «رب مسير لك في غير طاعة الله... إلخ» مع اختلاف في بعض ما جاء في الحوارين الأول والثاني في اللفظ دون المعنى!

وليس من المعقول أن يحضر المرء جنازة أب من الآباء، فيقابله أولاده بمثل هذا الحوار العنيف!

ثم إنَّ شرحبيل بن السمط كان من رجال معاوية بن أبي سفيان[2]، فكيف يقف أحد أولاده هذا الموقف من حبيب وهو وأبوه من رجال معاوية أيضاً؟!

ومَنْ أدار هذا الحوار وقاده؟ أهو الحسن بن علي رضي الله عنه، أم هو أحد أولاد شرحبيل؟؟ وأي ولد من أولاد شرحبيل أدار هذه النّقاش؟!

ومتى وأين واجه الحسن بن علي رضي الله عنه حبيباً؟

إنَّ الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فتحت الباب على مصراعيه للذين يريدون الانتقاص من رجالات العرب والمسلمين، والغنم كلُّه لأعداء العرب والمسلمين.

ولاّهُ عمر بن الخطّاب على (الجزيرة)[3] سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨م)، وكان على عجم (الجزيرة)، ثم ضمّ إليه (إرمينية) و(أذْرَبِيجان)[4] وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م).

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٤٢٦).
(٢) أسد الغابة (٢/٢٩٢).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧).
(٤) أذربيجان: حدّها من برذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً ويتصل من جهة الشمال ببلاد الديلم والجبل والطَرْم، وهو إقليم واسع من مدائنها تبريز والمراغة وَخُوى وسلاس وأُرمية ومرند وغير ذلك، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٥٩ ـ ١٦١). وانظر تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧) حول توليه إرمنية وأذربيجان.

وبقي على (إرمينية) في أيام عثمان بن عفّان رضي الله عنه حتى سنة خمس وثلاثين الهجرية (٦٥٥م)، فولّاه (قِنّسرين)، وكان عليها حين استشهد عثمان رضي الله عنه.

وشغلته الفتنة الكبرى بعد ذلك، حتى ولّاه معاوية بن أبي سفيان (إرمينية) سنة إحدى وأربعين الهجرية، (٦٦١م) فمات فيها[١].

ولد قبل الهجرة باثنتي عشرة سنة (٦١٠م)، لأنّ النبيّ ﷺ قبض وحبيب ابن اثنتين و عشرين[٢]، إذ لا يمكن أن يكون مع الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام في غزوة (تبوك) وهي آخر غزوة غزاها النبيّ ﷺ وهو ابن إحدى عشرة سنة[٣]، كما لا يمكن أن يكون قائداً لكردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن ثلاث عشرة سنة على اعتبار أن النبي ﷺ توفي وهو ابن اثنتي عشرة سنة[٤] وأنه ولد قبل سنتين من الهجرة[٥] (٦٢٠م) كما يدّعي بعض المؤرخين.

وتوفي سنة اثنتين وأربعين الهجرية[٦] (٦٦٢م)، فكان عمره يوم توفي أربعاً وخمسين سنة قمرية، وكانت حياته قليلة في تعداد السنوات، كثيرة في تعداد جلائل الأعمال، قصيرة في عمر الزمن، باقية آثارها على الزمن.

وكان سبب وفاته أنه دخل الحمام فأطال المكث فيه، فبدت علّته

---

(١) أسد الغابة (١/ ٣٧٥) والإصابة (١/ ٣٢٣) وطبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠) والاستيعاب (١/ ٣٢١) وابن الأثير (٣/ ٤٢٤)، وفي المحبر (٢٩٤): أنّ معاوية وجّهه إلى المدينة فمات فيها، وليس بشيء.
(٢) المحبر (٢٩٤).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥) وطبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠).
(٥) تهذيب ابن عساكر (٤/ ٣٥).
(٦) أسد الغابة (١/ ٣٧٥) والإصابة (١/ ٣٢٣) وطبقات ابن سعد (٧/ ٤١٠) والاستيعاب (١/ ٣٢١) وابن الأثير (٣/ ٤٢٤) وابن خلدون (٣/ ٢٨٨).

التي مات بسببها[١] فربما أصيب بالبرد من جرّاء ذلك فأثر في رئته فمات بذات الرئة، أو أنه مات بمرض من أمراض جهاز التنفس.

القائد:

ليس هناك شك في كفاية حبيب قائداً متميزاً، فقد كان على صغر سنّه يتنقل من ساحة عمليات إلى ساحة عمليات أخرى، فاتحاً مرة، ومدداً مرة أخرى، وكان النصر حليفه في كلّ معركة خاضها.

قدم على النبيّ ﷺ وهو بالمدينة غازياً، وكان يومئذاً صغيراً، وشهد غزوة (تبوك) تحت لواء الرسول عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وبهذه الغزوة بدأ جهاده الأصغر وهو يناهز العشرين من عمره القصير[٢].

وحين رآه عمر بن الخطّاب صلب العود قويّ البدن، جرّبه تجربة عملية ليرى أيّ نوع من الرجال هو، فعرض عليه خزائن المال وخزائن السلاح، فاختار السلاح وعفّ عن المال.

وتفضيل السّلاح على المال من مزايا القائد الذي يغلغل حبّ الجندية في أعماق نفسه.

وقد تولّى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنة، مما يدلّ على ظهور سماته القيادية مبكراً وهو في ريعان الشباب.

وولّاه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عجم (الجزيرة) إدارياً وقائداً، وليس من السهل أن يوليّ عمر كلّ إنسان مثل هذا المنصب الرفيع، لأنّ عمر كان يلتزم بصفات معينة في القائد قل أن تتوفّر في الرجال.

وأخيراً ولاه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه (إرمينية) و(أذربيجان)،

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٣٨/٤).

(٢) كان عمر حبيب يوم تولّى منصب قيادة منطقة عرب الجزيرة وإدارتها (٢٨) سنة.

وهي مناطق شاسعة وقيادة مهمة للغاية، نظراً لشدّة شكيمة أهلها ولبعدها عن قواعد المسلمين الرئيسية والمتقدِّمة[1].

ومارس القيادة والإدارة معاً بعد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، حتى توفّاه الله وهو قائد أخطر منطقة في حدود الدولة الإسلامية الشمالية: إرمينية.

ولقد كان شجاعاً غاية الشجاعة، مقداماً غاية الإِقدام: لما توجّه لقتال (الموريان) كان في ستة آلاف، وكان (الموريان) في سبعين ألفاً، فقال حبيب لمن معه: «إن يصبروا وتصبروا، فأنتم أولى بالله منهم؛ وإن يصبروا وتجزعوا فإنّ الله مع الصابرين»، ولقيهم ليلًا، فقال: «اللّهم أجْل لنا قمرها، واحبس عنّا مطرها، واحقن دماء أصحابي، واكتبهم شهداء»، ففتح الله له[2]؛ فكان من أسباب انتصاره على عدوه بالإضافة إلى عامل الإيمان هو الهجوم الليلي الذي باغت به العدو وجعل معنوياته تنهار ثم يولي الأدبار.

وكان مثالًا شخصياً حياً لرجاله في الشجاعة والإقدام، فقد كان يقود رجاله من الأمام. يقول لهم: اتبعوني، ولا يبقى في الخطوط الخلفية مؤثراً السلامة والعافية.

وحين عزم أن يُبيِّت (الموريان) سمعته امرأته يذكر ذلك، فقالت له: «وأين الموعد؟»، فقال: «سرادق موريان أو الجنة». وبَيّت حبيب عدوّه وقتل مَنْ صادفه في طريقه؛ فلما أتى السرادق، وجد امرأته قد سبقته إليها[3]؛ فلم يكن وحده بطلًا يضرب لرجاله بأعماله البطولية أروع الأمثال، بل كانت امرأته أيضاً بطلة يقتفي الأبطال آثارها في التضحية والفداء.

---

(١) كان عمر حبيب حين تولى (إرمينية) و(أذربيجان) ثلاثاً وثلاثين سنة.

(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧)

(٣) الطبري (٣/٣٠٩) والبلاذري (٣٠٩)، وكم نحن بحاجة اليوم إلى قادة يتقدمون جيوشهم ولا يأخرون عنها.

وكان يستشير رجاله ويتقبّل مشورتهم، وكان لا يستأثر بالرأي دونهم، بل كان يتصنّت ليتلقّف آراء رجاله، ويطبّق ما يراه حسناً، وينفّذ ما يجده صواباً، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات الشورى قبل المعارك وفي أثنائها وبعدها.

سمع يوماً أحد رجاله يقول: «لو كنت ممن يسمع حبيب مشورته، لأشرت عليه بأمر يجعلُ الله فيه لنا وله نصراً وفرجاً إن شاء الله»، واستمع حبيب لقوله، فقال أصحابه: وما مشورتك؟ فقال: «أُشير عليه أن ينادي بالخيول فيقدمها، ثم يرتحل بعسكره فيتبع خيله، وتوافيه الخيل في جوف الليل وينشب القتال، ويأتيهم حبيب بسواد عسكره مع الفجر، فيظنون أنّ المدد قد جاءهم، فيرعبهم الله، فيهزمهم بالرُّعب»[1].

ونادى حبيب بالخيول، فوجّهها بليلة مقمرة مطيرة، ثم ارتحل وراء خيوله، ولكنه عاد إلى عدوّه في السحر، فحمل وحمل أصحابه، فانهزم العدوّ وأصابوا غنائم كثيرة[2].

فهو حين بعث بخيوله ليلاً ثم سار على أثر الخيل مبتعداً عن ساحة المعركة، ظنّ العدوّ أنّ قوات حبيب قد انسحبت بعيداً عنهم، لذلك لجأوا إلى الراحة والاطمئنان واستمتعوا بالأمن والدعة.

ولكنهم لم يكادوا يستقرون، إلّا وفاجأهم حبيب بهجومه الليلي: قاتلت خيوله أولًا، ثم دخلت قواته الأخرى المعركة كأنها مدد جديد، مما فتّ في عضد عدوّه، واضطره على الفرار.

وتلك خطة عسكرية بارعة، تيسّر فيها مبدأ: (المباغتة)، وهو أهمّ مبدأ من مبادىء الحرب على الإطلاق.

وكان حبيب صاحب كيد[3]: يفكِّر ويُقدِّر ثم يستشير رجاله ويستطلع

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧).
(٣) الطبري (٣/٣٠٩).

ساحة القتال ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدو، ثم يبني من بعد ذلك خطته العسكرية على هدى وبصيرة.

غزا حبيب الروم في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وكان على جماعة من المسلمين، فاهتمّ عمر بأمرهم، فلما بلغه خروج حبيب ومَن معه، خرّ لله ساجداً[1].

ومن الواضح أنّ جيش المسلمين يومذاك كان في خطر داهم، لذلك اهتّم عمر بمصيرهم وأهمّه أمرهم.

ولكن قيادة حبيب الواعية الحكيمة، أدّت إلى خروج جيش المسلمين من المأزق الذي كان فيه ونجاته من الخطر الذي كان يُحدق به.

إنّ أعمال حبيب العسكرية خطط مدبَّرة، ولم تكن خططاً ارتجالية، لذلك رافق النصر أعلامه في أخطر ساحات القتال في الفتح.

وبالإضافة إلى تلك المزايا أو قبلها، كان حبيب مؤمناً حقاً صادق الإيمان.

وكان إذا لقي عدواً أو ناهض حصناً يحبّ أن يقول: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم»[2].

وكان قد أُمِّرَ على جيش، فلما لقي العدو قال للناس: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمِّن بعضهم - أو قال سائرهم - إلّا أجابهم الله. ثم إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اللّهم احقن دماءنا واجعل أجورنا أُجور الشهداء»[3].

وكان ذكياً ألمعيّ الذكاء، خبيراً بالحروب لطول ممارسته لها، يطبق

---

(1) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٧).

(2) تهذيب ابن عساكر (٤/٣).

(3) تهذيب ابن عساكر (٤/٣٨).

أكثر مبادىء الحرب أهمية، وكان صحيح القرار سريعه، يثق برجاله ويثقون به ثقة لا مزيد عليها، وكان يحبّهم ويحبّونه حباً لا مزيد عليه؛ فقد اختلف هو وسلمان بن ربيعة الباهلي، فتواعد بعضهم بعضاً، فقال أهل الشّام لأهل العراق: لقد هممنا بضرب سلمان[1]، وذلك لشدة حبهم لقائدهم حبيب وحرصهم على سنده ودعمه.

وكان ذا شخصية قوية نافذة، وقابلية بدنية متفوقة[2]، ونفسية رصينة لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار.

لقد كان حبيب قائداً فذّاً، جمع مزايا القائد الفذّ: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية.

حبيب في التاريخ:

فتح حبيب المناطق التي كان يسكنها غير العرب من (الجزيرة) وقد كانت (الجزيرة) تسكن من العرب ومن غيرهم قبل الفتح الإسلامي، ولا تزال كذلك حتى اليوم.

وفتح معظم (أرمينية) واستعاد فتحها أكثر من مرة، حتى بلغ قريباً من ساحل البحر الأسود.

وهذه الفتوح لسرعة إنجازها، وسعة رقعتها، وقلّة تكاليفها المادية والمعنوية، تعتبر من الأعمال العسكرية الباهرة.

إنّ حبيب بن مسلمة، أسدى للفتح الإسلامي - قائداً وإدارياً - خدمات لا تُنسى، فهو بدون شك من ألمع قادة العرب والمسلمين، ومن ألمع إداريّيهم أيضاً.

رضي الله عن الصحابي الجليل، الإداريّ الحازم، السياسيّ المحنّك، القائد الفاتح، حبيب بن مَسْلمة الفِهْري.

---

(١) الطبري (٣/ ٣٥٣) وانظر الاستيعاب (١/ ٣٢٠).

(٢) الإصابة (١/ ٣٢٣).

مُحمَّد بن مَرْوان بن الحَكَم
فاتح شطر بلاد الرُّوم ومُستعيد فتح شطر إِرمينيَة

نسبه وإيّامه الأولى:

هو محمد بن مَرْوان بن الحَكم بن أبي العاص بن أُمَيَّة بن عبد شَمْس بن عبد مَنَاف بن قُصَيّ القُرَشِيّ الأُمَوِيّ[1].

أبوه: أمير المؤمنين مَرْوان بن الحَكَم، وأمّه من أُمّهات الأولاد[2]، ويريدون بتعبير: (أُمّهات الأولاد)، الجواري والإِماء اللَّواتي ولَدَنَ لمواليهنّ ذكراناً.

نشأ محمد وترعرع في ظروف قاسية شديدة أيام أبيه مروان، لكثرة الفتن والقلاقل التي عمّت أرجاء الدولة، فقاتل أبوه ليستعيد الأمن والاستقرار ويقضي على الفتن والقلاقل، فمات قبل أن يحقِّق جميع أهدافه. وتولّى الخلافة بعده عبد الملك بن مروان أخو محمد، فواصل الكفاح الدائب لاستعادة الوحدة الشّاملة إلى الدولة الإسلامية، حتى تحقّق له ما أراد سنة ثلاث وسبعين الهجرية[3] (٦٩٢م)، وكان لمحمد نصيب في كفاح أبيه مَرْوان وأخيه عبد الملك في القضاء على الفوضى واستعادة النِّظام وإقرار الوحدة الشّاملة كما سيرد ذكره وشيكاً.

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/٣١).

(٢) جهرة أنساب العرب (٨٧).

(٣) انظر التفاصيل في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٢/١١٣ ـ ١١٤).

وكانت ظروف والده القاسية وظروف أخيه عبد الملك الصعبة حتى سنة الوحدة الشّاملة، تُعِيْن على التعلّم النظريّ والتدريب العملي بالنسبة لمحمد الذي عايش تلك الأحداث وعاناها واكتوى بها.

وتربّى تربية أبناء الخلفاء، فوالده مَرْوان خليفة، وأخوه عبد الملك بن مروان خليفة، فلا بدّ أنه تلقّى علوم القرآن الكريم والحديث الشّريف وعلوم الدِّين والتّاريخ واللّغة والأدب على جهابذة العلماء في أيامه، كما تلقّى العلوم العسكرية النّظريّة والعمليّة على المبرزين في تلك العلوم.

كما مارس الأعمال الإِدارية والسياسيّة عن كثب، وشهد كيف تعالج أمور الدولة المختلفة وتُعطى القرارات وتصدر الأوامر ويجري تنفيذها في محيط الخلفاء والأُمراء والقادة في أعلى المستويات السياسيّة والعسكريّة والإِدارية.

ومن الواضح أنه أصبح موضع ثقة والده، فسيّره إلى جزيرة ابن عمر قبل موته سنة خمس وستين الهجرية[١] (٦٨٤م)، قبل مسير مَرْوان إلى مِصر[٢]، وكانت الجزيرة حينذاك تحت حكم عبد الله بن الزبير[٣]، فنجح محمد في مهمته نجاحاً محدوداً في السيطرة على الجزيرة، وأصبحت بعد حين تحت حكم الدولة الأُمويّة، وهذا دليل على أنه أصبح من أبرز أبناء مروان بن الحكم، وأنّ العلوم النظريّة والعمليّة والتدريب النظريّ والعمليّ التي تعلّمها وتدرّب عليها في أيامه الأولى أثرت كفاياته، فأصبح قادراً على تحمّل المسؤوليات السياسيّة والإِدارية والعسكرية وهو في ريعان الشباب.

لقد كانت أيامه الأولى تعليماً وتدريباً وتجارب عمليّة تشابه أنداده من

---

(١) العبر (١/ ٧١).

(٢) الطبري (٥/ ٦٢٢).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٣٦ ـ ٩٢).

إخوته: عبد الملك بن مروان[1]، وعبد العزيز بن مروان[2] وإخوته الآخرين.

في توطيد الأمن الدَّاخِليّ:

١ - في إخماد ثورة ابن الزُّبير:

صفا الشّام سنة إحدى وسبعين الهجريّة (٩٦٠م) لعبد الملك بن مروان بعد قتل عمرو بن سعيد الأَشْدق سنة تسع وستين الهجريّة[3] (٦٨٨م) فوضع عبد الملك السيّف وقتل مَنْ خالفه. فلما لم يبق مخالف في الشّام، أجمع المسير إلى مُصَعْب بن الزبير في العراق، وكان مُصعب على العراق لأخيه عبد الله بن الزبير. واستشار عبد الملك في مسيره إلى العراق أصحابه، فأشار عمّه يحيىَ بن الحكم: بأن يقنع بالشّام ويترك ابن الزبير والعراق، وقال بعضهم: إنّ العام جدب، وقد غزوتَ سنتين فلم تظفر، فأَقِمْ عامكَ هذا، فقال عبد الملك: «الشّام بلدٌ قليل المال، ولا آمنُ نفاده، وقد كتب كثير من أشراق العراق يدعونني إليهم». وقال أخوه محمد بن مروان: «الرأي أن تطلب حقَّك وتسير إلى العراق، فإني أرجو أنّ الله ينصرك».

وسار عبد الملك إلى العراق، وعلى مقدَّمته أخوه محمد بن مروان وخالد بن عبد الله بن خالد بن أَسِيْد، فنزلوا بِقَرْقِيْسياء[4]، فصالح أميرها الذي بعث ابنه مع عبد الملك.

وسار عبد الملك حتى نزل (مَسْكِن)[5] قريباً من مُعَسْكر مصعب، وكان بين المعسكرين ثلاثة فراسخ ويقال فرسخان.

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥ - ١٥٢).

(٢) انظر سيرته في الولاة وكتاب القضاة (٤٢ - ٥٨) والنجوم الزاهرة (١/ ١٧١ - ٢١٠).

(٣) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٤/ ٢٩٧ - ٣٠٣).

(٤) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور (خابور الفرات) عند مصب الخابور بالفرات، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٥٩ - ٦٠).

(٥) مسكن: موضع على نهر دجيل عند دير الجاثليق.

وكتب عبد الملك إلى أهل العراق مَن كاتبه ومَن لم يُكاتبه، وأغراهم بالمناصب والأموال، فعزم كثير منهم على الغدر بمصعب بن الزبير.

وتدانى العسكران، فقدّم عبد الملك أخاه محمداً، وقدّم مصعب إبراهيم بن الأشتر. والتقيا فتناوش الفريقان، فقُتل صاحب لواء محمد، وجعل مصعب يمدّ إبراهيم، فأزال محمداً عن موقفه، ولكنه استعاد مواضعه ثانية.

واشتدّ القتال، فقُتل مُسْلِم بن عمرو الباهِليّ والد قُتَيْبَة بن مُسْلم[1]، وهو من أصحاب مصعب.

وأمدّ مصعبُ إبراهيمَ بن الأشتر بعتّاب بن وَرْقاء، فساء ذلك إبراهيم وقال: «قد قلتُ له لا تمدّني بعتّاب وضربائه، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون!»، فانهزم عتّاب بالناس، وكان قد كاتب عبد الملك وبايعه، فلما انهزم صبر إبراهيم بن الأشتر، فقُتل وحُمل رأسه إلى عبد الملك.

وتقدّم أهل الشّام، فقاتلهم مصعب، ولكن رجاله خذوله، فكان يقول لقادته واحداً بعد واحد: تقدّم يا فلان! فلا ينفّذ أمره ويعتذر عن التقدّم بأعذار واهية.

ودنا محمد بن مروان من مُصعب وناداه: «أنا ابن عمِّك محمد بن مروان، فاقْبَلْ أمانَ أمير المؤمنين»، فأجابه مصعب: «أمير المؤمنين بمكّة»، يعني أخاه عبد الله بن الزّبير. فقال محمد: «إنّ القوم خاذلوك»، فأبى مصعب ما عرض عليه.

ونادى محمدُ بن مروان عيسى بن مصعب بن الزُّبير، فقال مصعب لابنه: «انظر ما يريد منك»، فدنا منه، فقال له: «إني لك ولأبيك ناصح، ولكما الأمان»، فرجع إلى أبيه فأخبره، فقال: «إني أظنّ القوم يفون لك،

---

(١) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلاميّ.

فإن أحببتَ أن تأتيهم فافعل»، فقال: «لا تتحدّث نساء قريش أني خذلتُك ورغبت بنفسي عنك!»، فقال: «فاذهب إلى عمِّك بمكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودَعْني فإني مقتول»، فقال: «لا أُخبر عنك قريشاً أبداً، ولكن يا أبَهْ! الحقْ بالبصرة فإنّهم على الطّاعة أو الحقْ بأمير المؤمنين»، فقال مصعب: «لا تتحدّث قريش أنّي فررتُ».

ولم يبق مع مصعب ممن معه يطيع أمره وينفِّذه، فقال لابنه عيسى: «تقدّم إذن احْتَسِبُكَ»، فتقدّم ومعه ناس، فقُتل وقُتِلوا. وجاء رجل من أهل الشّام ليحتزّ رأس عيسى، فحمل عليه مصعب وقتله، ثمّ شدّ على النّاس فانفرجوا له، ثمّ عاد ثانية فانفرجوا له.

وبذل عبد الملك لمصعب الأمان قائلًا: «إنّه يعزّ عليّ أن تُقْتل، فاقبل أماني، ولك حكمك في المال والعمل»، فأبى، وجعل يضارب، فقال عبد الملك: «هذا والله كما قال القائل:

ومُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَه ... لا مُمْعِناً هَرَباً ولا مُسْتَسْلِما»

ودخل مصعبُ سُرادقَة، فتحنّط وخرج، فقاتل.

وترك الناس مصعباً وخذلوه، حتى بقي في سبعة نفر.

وأُثخن مصعب بالرّمي، وكثرت الجراحات فيه، ولكنه بقي يقاتل حتى قُتل[1] بطلًا عليه رحمة الله.

وكان قتل مصعب بدَير الجاثَليق عند نهر (دُجَيْل) سنة اثنتين وسبعين الهجرّية[2] (٦٩١م).

لقد كانت معركة هائلة، خان مصعباً بعضُ جيشه، والتحق قسم من

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ١٥١ ـ ١٦٢) وابن الأثير (٤/ ٣٢٣ ـ ٣٣٦) وانظر المعارف (٢٢٤).

(٢) العبر (١/ ٨٠ ـ ٨١).

قادته بعبد الملك بن مروان لأنه كتب إليهم يَعِدُهم ويَمُنِّيْهم حتى أفسدهم[1]، وكان ذلك هو سبب انتصار عبد الملك على مصعب.

وتكبدّ الجانبان في هذه المعركة الهائلة آلاف القتلى والجرحى من العرب المسلمين الفاتحين الذين كانت سيوفهم على عدوِّهم المشترك من المشركين والكفار في البلاد المفتوحة، فأصبحت سيوفهم عليهم في قلب البلاد العربية وفي قواعدها الرئيسة التي ينطلق منها الفاتحون ويعودون إليها ثانية بفتح جديد.

وكان من نتيجة هذا الاقتتال بين الأخوة، أنّ الرّوم انتهزوا هذه الفرصة السّانحة، فوثبوا على المسلمين، فصالح عبدُ الملك ملكَ الرُّوم على أن يؤدي إليه كلّ جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين[2].

وهكذا أصبح الطّالبُ مطلوباً، والرئيس مرءوساً، والسيد عبداً، نتيجة للاقتتال وتفرّق الكلمة وغياب الوحدة، وخسر المسلمون كثيراً من قادة الفتح وجنوده.

وكان محمد بن مروان الرجل الثاني في هذه المعركة بعد عبد الملك بن مروان، وكان له فضل كبير في إحراز النصر.

٢ ـ في إخماد ثورة ابن الأشعث:

كان من أهمِّ واجبات الحجّاج بن يُوسف الثَّقَفِيْ بعد أن تولّى (العِرَاقَيْن): العراق والمشرق الإسلاميّ سنة خمس وسبعين الهجريّة[3] (٦٩٤م)، هو القضاء على الفتن الداخليّة في العراق وبلاد المشرق الإسلاميّ المفتوحة، واستعادة البلاد التي انتفضت على الدولة، وفتح بلاد جديدة.

ومضى الحجّاج ينفذ هذه الواجبات بحزم وعزم وإقدام وإصرار، وكان

---

(١) العبر (١/ ٨٠).
(٢) العبر (١/ ٧٨).
(٣) العبر (١/ ٨٥) وشذرات الذهب (١/ ٨٣).

(رَتْبِيْل) مصالحاً، يؤدي الخراج وربما امتنع منه[1]، فأراد الحجّاج أن يصفي الحساب جذرياً بين الدولة وبين (رُتْبِيْل)، فأمر والي (سِجْستَان)[2] سنة تسع وسبعين الهجريّة (٦٩٨م) أن يناجزه، ولكنه اندحر أمام قوّات (رُتبِيل) متكبداً خسائر فادحة في الأموال والأرواح[3].

ولم يكن الحجّاج من القادة الذين يسكتون على اندحار قوّة من قوّاته في إحدى جبهات القتال، لذلك قرّر أن يلقِّن (رُتبيل) في عقر داره درساً لا ينساه أبداً، فاستأذن عبد الملك بن مروان في تسيير الجيوش إلى (رُتبيل)، فأذن له.

وعكف الحجّاج على تجهيز الجيش، فجعل على أهل (الكُوفَة) عشرين ألفاً، وعلى أهل (البَصْرَة) عشرين ألفاً، وجدّ في ذلك جداً لا هوادة فيه، وأعطى النّاس أعطياتهم كاملة، وأنفق فيهم ألفي ألف سوى أعطياتهم، وأنجدهم بالخيل الرائقة والسِّلاح الكامل، وأعطى كل رجل يُوْصَف بشجاعة وغَناء، وأمّر على الجيش بعد الفراغ من إعداده عبد الرحمن بن محمد بن الأَشْعَث[4].

وسار عبد الرحمن على رأس جيشه، وأحرز نصراً مؤزراً على (رُتبيل)، فكتب إلى الحجّاج بما فتح الله على المسلمين وبما يريد أن يفعل[5].

---

(١) انظر ابن الأثير (٤/ ٤٥٠).

(٢) سجستان: اسم منطقة واسعة، بينها وبين (هراة) عشرة أيام أو ثمانون فرسخاً، وهي جنوبي هراة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧) والمسالك والممالك للإصطخري (١٣٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٠١).

(٣) الطبري (٦/ ٣٢٢) وابن الأثير (٤/ ٤٥٠).

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معديكرب الكنديّ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٥)، وهو من أبطال العرب وأشرافهم وقادتهم وولاتهم.

(٥) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٣٢٦ ـ ٣٢٩) وابن الأثير (٤/ ٤٥٤ ـ ٤٥٦).

وهناك روايات أخرى عن إرسال عبد الرحمن، لا مكان لها هنا، لأنها خارجة عن نطاق سيرة محمد بن مروان.

وكان عبد الرحمن يرى أن يتريّث المسلمون التوغّلَ في بلاد (رُتبيل) حتى يعرفوا طريقها ويجبوا خراجها، وكتب بمجمل خطته هذه إلى الحّجاج.

ولكنّ الحجّاج رفض خطّة ابن الأشعث، وأمره بالوغول في بلاد (رُتبيل) وهدم حصونهم وقتل مقاتليهم وسبى ذراريّهم.

ودعا ابن الأَشعث النّاس وقال لهم: «أيها النّاس! إني لكم ناصح ولصلاحكم محبّ ولكم في كلِّ ما يحيط بكم نفعه ناظر؛ وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوّي بما رضيه ذوو أحلامكم وأولو التجربة منكم. وكتبتُ بذلك إلى أميركم الحجّاج، فأتاني كتابه يُعجِّزني ويضعِّفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم إلى أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم».

وثار إليه النّاس وقالوا: بل نأبى على عدوِّ الله ولا نسمع له ولا نطيع!!

ووثب الناس إلى ابن الأشعث فبايعوه على خلع الحجّاج ونفيه من أرض العراق وعلى النُّصْرَة له، ولم يُذْكر عبد الملك بن مروان بشيء[1].

وعاد عبد الرحمن بن الأشعث إلى العراق بمن معه، فلما بلغ (فارس)[2] اجتمع النّاس بعضهم إلى بعض وقالوا: إذا خلعنا الحجّاج عامل عبد الملك، فقد خلعنا عبد الملك.

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/٣٢٦ ـ ٣٢٩) وابن الأثير (٤/٤٥٤ ـ ٤٥٦).

(٢) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح، أوّل حدودها من جهة العراق (أرجان)، ومن جهة كرمان (السيرجان)، ومن جهة ساحل بحر الهند (سيراف)، ومن جهة السِّند (مكران)، وقصبتها (شيراز). وفي هذه الولاية من أمّهات المدن المشهورة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٢٤) وتقويم البلدان (٣٢١ ـ ٣٣١) والمسالك=

واجتمعوا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وخلعوا عبد الملك بن مروان إلّا قليلًا منهم، وبايعوا عبد الرحمن، وكانت نصّ البيعة: «نبايع على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وعلى جهاد أهل الضّلالة وخلعهم وجهاد المُحِلِّيْن».

ولما بلغ الحجّاج خلعُه، كتب إلى عبد الملك بخبر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ويسأله أن يُعَجِّل بعثه الجنود إليه، ثم سار الحجّاج حتى نزل (البَصْرَة).

وجهّز عبد الملك الجند إلى الحجّاج، فسار الحجّاج من (البصرة) إلى (تُسْتَر)[1]، وقدّم بين يديه مقدَّمة إلى (دُجَيْل)[2]، فلقي عنده خيلًا لعبد الرحمن، فانهزم أصحاب الحجّاج بعد قتال شديد، وكان ذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين الهجريّة (٧٠٠م).

فلما أتى خبرُ الهزيمة الحجّاجَ، رجع إلى (البصرة)، ثمّ أقبل حتى نزل (الزَّاوِيَة)[3] وأخلى البصرة لأهل العراق، وفرّق في النّاس مئة وخمسين ألف ألف درهم.

وأقبل عبد الرحمن حتى نزل البصرة، فبايعه جميع أهلها: قرَّاؤها وكهولها على قتال الحجّاج ومَن معه من أهل الشّام[4].

وخسر عبد الرحمن معركة (الزَّاوية)، فقصد (الكوفة) واستقرّ فيها، فاجتمع إليه الناس، وقصده أهل البصرة.

= والممالك للإصطخري (٦٧ ـ ٨٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبّة (٤١ و٤٣) ومختصر كتاب البلدان (١٩٥ ـ ٢٠٥) والأعلاق النفيسة (١٠٦) وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (٤٢٠ ـ ٤٥٩) وكتاب صورة الأرض (٣٣٤ ـ ٣٧٣).

(١) تستر: أعظم مدينة بخوزستان، وهي تعريب: شوشتر، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخري (٦٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٧٠) ومعجم البلدان (٢/ ٣٨٦).

(٢) دجيل: نهر بالأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) الزاوية: موضع بالقرب من البصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٧١).

(٤) ابن الأثير (٤/ ٤٦٥).

وسار الحجّاج من البصرة إلى الكوفة لقتال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فنزل (دَيْر قُرَّة)[1]، وخرج عبد الرحمن من الكوفة، فنزل (دَيْرَ الجَمَاجِم)[2].

وتفاقم أمر عبد الرحمن واسْتَشْرَى خطره، فقال عبد الملك بن مروان وأهل الشّام: «إن كان يُرضي أهل العراق نزع الحجّاج عنهم نزعناه، فإنّ عزله أيْسَرُ من حربهم، ونحقن بذلك الدماء»، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله[3] وأخاه محمد بن مروان بن الحكم، وكان محمد بأرض (المَوْصِل)، إلى الحجّاج في جند كثيف، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجّاج وأن يُجْرِيا عليهم أعطياتهم كما تُجرى على أهل الشّام، وأن ينزل عبد الرحمن أيّ بلد شاء من بلد العراق، فإذا نزله كان واليه ما دام حيّاً وعبد الملك خليفة، فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك عزلا الحجّاج عنها وصار محمد بن مروان أمير العراق، وإن أبى أهل العراق قبول ذلك، فالحجّاج أمير الجماعة ووالي القتال، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته.

وحاول الحجّاج عبثاً أن يعيد عبد الملك بن مروان النظر ثانية في عزله، فأبى عبد الملك إلّا عرض عزل الحجّاج على أهل العراق!

وخرج عبد الله بن عبد الملك إلى جموع أهل العراق وعلى رأسهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقال: «يا أهل العراق! أنا ابن أمير المؤمنين، وهو يعطيكم كذا وكذا».

---

(١) ديرقُرَّة: دير بإزاء دير الجماجم، وهو ملاصق لطرف البر، ودير الجماجم مما يلي الكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٦٢).

(٢) دير الجماجم: دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها، على طرف البر السّالك إلى البصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٣١ ـ ١٣٢).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد الرُّوم، وانظر مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد (٢)، جمادى الأولى ١٤٠٠هـ، نيسان ١٩٨٠م بغداد ـ ١٤٠٠هـ.

وخرج محمد بن مروان فقال: «أنا رسول أمير المؤمنين، وهو يعرض عليكم كذا وكذا. . . . ».

فقال أهل العراق: نرجع العشيّة!

واجتمع أهل العراق عند ابن الأشعث، فقال لهم: «قد أُعطيتم أمراً، انتهازكم اليوم إياه فرصة، وإنكم اليوم على النّصَف، فإن كانوا اعتدّوا عليكم يوم (الزَّاوِيَة)، فأنتم تَعْتَدُّون عليهم بيوم (تُسْتَر)، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزّاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون، فوالله لا زلتم عليهم جُرَآء وعندهم أعزّاء أبداً ما بقيتم إن قَبِلتم».

ووثب الناس من كلّ جانب، فقالوا: إنّ اللَّهَ قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقِلّة والذلّة، ونحن ذوو العدد الكثير والسِّعر الرّخيص والمادّة القريبة، لا والله لا نَقْبل!!

وأعاد أهل العراق خلع عبد الملك ثانية، فقال عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان للحجّاج: «شأنك بعسكرك وجندك، واعمل برأيك، فإنّا قد أُمِرنا أن نسمع لك ونطيع». فقال: «قد قلتُ إنه لا يُراد بهذا الأمر غيركم»، فكانا يسلّمان عليه بالأمرة ويسلِّم عليهما بالإمرة أيضاً.

وجعل كلّ من الحجّاج وابن الأشعث قوّاته على تعبئة: ميمنة، وميسرة، ومقدِّمة، ومؤخِّرة، وساقة، وجعلا على كلّ تشكيل من تشكيلات القتال قائداً مسؤولًا، وجعل ابن الأشعث على القُرّاء ـ وهم علماء المسلمين قادة الفكر الإِسلامي والفقهاء والمحدِّثون ـ قائداً.

وأخذ الجانبان يتزاحفان كلّ يوم ويقتتلان، وأهل العراق تأتيهم موادّهم التموينيّة من الكوفة وسوادها، وهم في خصب؛ وأهل الشّام في ضنك شديد، قد غلت عليهم الأسعار، وفُقِدَ عندهم اللّحم، كأنّهم في حصار.

وكان القُرّاء أشدّ النّاس ثباتاً واستبسالًا من أصحاب ابن الأشعث، وكانوا قد شكّلوا كتيبة منهم هي: كتيبة القُرّاء، فعَبأ الحجّاج لكتيبة القُرّاء

ثلاث كتائب، فحملوا على كتيبة القُرّاء ثلاث حملات متعاقبة، كلّ كتيبة حملت حملةً واحدة، فلم يبرحوا مواضعهم وصبروا[١] وصابروا وثبتوا، وحملوا على كتائب الحجّاج الثلاث حتى أزالوها وفرّقوها، ثم تقدّموا حتى واقعوا صفوفهم فأزالوها.

واستمر الاقتتال بين الأخوة مئة وثلاثة أيام، فقد كان نزول عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (دير الجماجم) لثلاث مَضَيْنَ من ربيع الأول، وكانت الهزيمة لأربع عشرة مضين من جمادى الآخرة، حيث انتصر الحجّاج على ابن الأشعث بعد اقتتال مديد مرير[٢].

وعاد محمد بن مروان إلى الموصل، وعاد عبد الله بن عبد الملك الشّام، ورجع الحجّاج إلى الكوفة.

وأتى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث البصرةَ، فاجتمع إليه من المنهزمين جمع كثير، وبايعه خلق كثير على الموت، فاجتمعوا بـ(مَسْكَن)[٣]، ولكنّ قوّاته انهزمت أمام قوات الحجّاج[٤].

وبدأت مطاردة قوّات الحجّاج لفلول ابن الأشعث، فقاتلت قوّات ابن الأشعث في انسحابها بمواضع متعاقبة كثيرة، حتى وصل ابن الأشعث (رُتبيل)[٥]، وأخيراً مات أو قُتل في اختلاف كثير بالروايات، فانتهت حروب

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٣٤٢ ـ ٣٥٠) وابن الأثير (٤/ ٤٦٧ ـ ٤٧٢)، وانظر ابن خلدون (٣/ ١١٠) والبدء والتاريخ (٦/ ٣٦) والتنبيه والأشراف (٢٧٢).

(٢) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٣٤٢ ـ ٣٥٠) وابن الأثير (٤/ ٤٦٧ ـ ٤٧٢).

(٣) مسكن: موضع قريب من (أوانا) على نهر (دُجَيْل) عند (دير الجاثليق) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٥٤). وأوانا: ببلدة من نواحي (دُجَيْل) بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٦٦). أقول: وهي بالقرب من (سُمَيْكَة) التي أصبح اسمها: (الدُّجيل) الحالية، والمكان معروف.

(٤) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٣٦٦ ـ ٣٦٩) وابن الأثير (٤/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

(٥) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٣٦٧ ـ ٣٨٣) وابن الأثير (٤/ ٤٨٤ ـ ٤٩٤).

داخليّة طاحنة، تكبدّ فيها الجانبان خسائر لا تُعَدّ ولا تُحصى[١].

وقضى ابن الأشعث نحبه سنة خمس وثمانين الهجريّة[٢] (٧٠٤م).

وكانت عودة محمد بن مروان بن الحكم إلى مدينة الموصل بعد انتصار الحجّاج على ابن الأشعث في معركة (دير الجماجم) الحاسمة سنة ثلاث وثمانين الهجريّة (٧٠٢م)، وكان قد قَدِم العراق سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧٠١م).

وقد أردتُ من إبراز أهم معالم هذه الثورة، إظهار أثر محمد بن مروان فيها وتأثيرها فيه.

وهدفي من تسليط الأضواء على أبرز معالم الاقتتال بين الأَخوة في هذه الثورة، هو إظهار أهميّة الواجب الذي حمله محمد بن مروان في تلك الأيام العصيبة التي كادت تعصف بالدولة عصفاً.

إنّ محمداً لم يكن قائداً في المعارك التي خاضها الحجّاج، ولكنّ الحجّاج لم يكن يغفل محمداً في مجال الرأي ورسم الخطط ودعم قوّات الحجّاج مادياً ومعنوياً.

أما الدّعم الماديّ، فيمن الواضح أن عبد الملك حشد كلّ طاقاته الماديّة لِإحراز النّصر، وقد كان للمال ـ وهو عصب الحرب ـ أثر حاسم في إحراز هذا النّصر، لأنّ أكثر المقتتلين من الجانبين كان يهتمّ بجيبه أكثر مما كان يهتمّ بقلبه.

أما الدّعم المعنوي، فوجود أخ الخليفة وابنه بين المقتتلين يؤثّر في المعنويات تأثيراً كبيراً: يرفع معنويّات الحجّاج وقوّاته، ويزعزع معنويّات ابن الأشعث ورجاله.

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٣٨٩ ـ ٣٩٣) وابن الأثير (٤/ ٥٠١ ـ ٥٠٢).

(٢) الطبري (٦/ ٣٨٩) وابن الأثير (٤/ ٥٠١)..

وكما أثر محمد بن مروان في المعارك ونتائجها، فقد أثّرت فيه شخصياً: أغنت تجاربه في القيادة وإدارة القتال، وفي معرفة الطبيعة البشريّة للمقاتلين في أثناء القتال، وفي معرفة طاقاتهم وكفاياتهم، كما وضعت معلوماته العسكريّة في محكّ التطبيق العمليّ، فجعلته يعيش في جوّ المعارك بما فيها من صعوبات ومشاقٍ ومآسٍ، وهو ما نطلق عليه اليوم في المصطلحات العسكريّة الحديثة: تطعيم المعركة.

في ميدان الجِّهاد:

لما كانت ثورة عبد الله بن الزبير، انتقضت إِرْمِيْنِيَة[1]، لأنّ الأخوة الفاتحين شغلوا بالاقتتال بينهم، فانتفضت أكثر البلاد المفتوحة.

وفي سنة ثلاث وسبعين الهجريّة (٦٩٢م)، استعمل عبد الملك بن مروان أخاه محمداً على الجزيرة (جزيرة ابن عمر) وإرمينية، فغزا منها وأثخنَ في العدو[2]، وهزم الروم[3]، وقتل وسبى وغلب على البلاد[4].

وفي سنة أربع وسبعين الهجرّية (٦٩٣م) غزا الصائفة الرّوم فبلغ (أندولية)[5] وعاد منها منتصراً.

وفي سنة خمس وسبعين الهجريّة (٦٩٤م)، غزا الصّائفة الروم، فخرجت الروم في جمادى الأولى من هذه السنة من قِبَل (مَرْعَش) إلى الأعماق[6]، فالتقى المسلمون بعَمْق مَرْعش بالروم، فاقتتلوا قتالًا شديداً،

---

(١) فتوح البلدان (٢٨٩).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٣٦١).

(٣) الطبري (٦/ ١٩٤) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٦٧).

(٤) فتوح البلدان (٢٨٩).

(٥) وردت في ابن الأثير (٤/ ٣٧٣) كذلك، ووردت في تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٦٨): أندرلية، وفي معجم البلدان (١/ ٣٤٥): أَنْدَرِيْن، وهي قرية من قرى الجزيرة.

(٦) الأعماق: جمع عَمْق، وهي كورة قرب دابق بين حلب وأنطاكية.
انظر معجم البلدان (١/ ٢٩٢).

فهزمت الرّوم وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون[1].

وفي سنة ست وسبعين الهجريّة (٦٩٥م)، غزا الروم من ناحية (مَلَطْيَة)[2].

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧٠١م)، غزا إرمينية فهزمهم، ولكنهم قتلوا وكيله عليها غدراً بعد أن صالحهم محمد[3].

وفي سنة خمس وثمانين الهجريّة (٧٠٤م)، غزا إرمينية، فصاف فيها وشتى[4].

وهكذا نهض محمد في أكثر سنيّ حكمه للجزيرة وإرمينية بالغزو ومصاولة الرّوم وأهل إرمينية، فاستعاد فتح إرمينية وشطراً من بلاد الرُّوم، ونجح في قيادته.

الإنسان:

بدأ محمد حياته العمليّة سنة خمس وستين الهجريّة (٦٨٤م)، إذ سيّره أبوه مروان بن الحكم إلى (الجزيرة) التي كانت تحت سيطرة عبد الله بن الزبير، كما ذكرنا سابقاً، فبدأ حياته بمهمة صعبة للغاية، فلم يتردّد في تحمل مسؤولتيه كاملة، وبذل قصارى جهوده من أجل إنجاحها.

ويبدو أنه أصبح بعد وفاة أبيه مروان بن الحكم، أحد أعضاء مجلس الشورى لأخيه عبد الملك بن مروان، وكان عضواً فاعلًا مؤثراً في هذا المجلس، يستشار فيُشير فيعمل بمشورته، فقد أشار على عبد الملك بالمسير إلى مصعب بن الزبير في العراق، وأشار غيره بخلاف ذلك، فعمل عبد الملك بمشورة أخيه محمد، وغضّ الطّرف عن مشورة غيره.

---

(١) فتوح البلدان (٢٦٦) وانظر ابن الأثير (٤/ ٣٩١).
(٢) ابن الأثير (٤/ ٤١٨) وانظر تاريخ خليفة ابن خياط (١/ ٢٧٣).
(٣) ابن الأثير (٤/ ٤٧٦).
(٤) ابن الأثير (٤/ ٥١٤).

وقد استعمله أخوه عبد الملك على الجزيرة وإرمينية سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢م)، وبقي على عمله طيلة حياة أخيه عبد الملك الذي توفي سنة خمس وثمانين الهجريّة[١] (٧٠٤م) وشطراً من حياة الوليد بن عبد الملك الذي عزله سنة إحدى وتسعين الهجرية[٢] (٧٠٩م)، بعد أن أمضى في ولايته ثماني عشرة سنة أعاد فيها سيطرة الدولة على الجزيرة وإرمينية واستعاد فتح الأجزاء التي انتقضت منهما.

وكان محمد يتمتّع بشخصيّة قويّة نافذة، وكان شجاعاً قويّاً، وكان أخوه عبد الملك يغبطه على سجاياه المتميِّزة، فلما انتظمت الأمور لعبد الملك أظهر ما في نفسه لمحمد، فتجهّز محمد ليسير إلى إرمينية. وجاء محمد ليودِّع أخاه عبد الملك قبل رحيله، فسأله عبد الملك عن سبب مسيره فأنشد:

وإنـــك لا تـــرى طـــرداً لـــحُـــرٍ كـإلـصـاقٍ بـه بـعـض الـهـوان
فـلـو كـنّـا بـمـنـزلـة جـمـيـعـاً جـريـتُ وأنـت مـضـطـرب الـعـنـان

فقال له عبد الملك: «أقسمتُ عليك لتقيمنّ، فوالله، لا رأيتَ مني ما تكره»، ثمّ صَلُح له[٣].

ويبدو أنّ عبد الملك بعد أن تيقن من إصرار أخيه محمد على السّير إلى إرمينية، استعمله عليها تداركاً للموقف ومنعاً للانشقاق في العائلة الواحدة وبين الأخوة منها.

ولما أراد الوليد بن عبد الملك عزل محمد عن الجزيرة وإرمينية، طلب مَن يسدّ مكانه، فلم يقدم عليه أحد إلّا مَسْلَمة بن عبد الملك[٤]، وهذا دليل آخر على قوّة شخصية محمد بن مروان.

---

(١) العبر (١٠٢/١).
(٢) تاريخ خليفة ابن خياط (٣٠٧/١) وابن الأثير (٥٥٥/٤).
(٣) ابن الأثير (٧٠/٥).
(٤) ابن الأثير (٧٠/٥).

ويظهر أنّ الوليد عزل عمّه محمداً، لأنه توقّف عن الغزو لمدة ست سنوات، فقد كانت آخر غزوة له في المنطقة سنة خمس وثمانين الهجريّة كما أسلفا، ولم يغز بعدها حتى عُزل سنة إحدى وتسعين الهجريّة، مع أنّ المنطقة بحاجة ماسّة إلى استمراريّة الغزو دفاعاً عن الحدود الشمالية والشمالية الشرقية بالهجوم، والهجوم أنجع وسائل الدفاع كما هو معروف.

كما أنّ إرمينية بخاصة انتقضت أكثر أجزائها، فكان لا بدّ من غزو المناطق المنتقضة لاستعادة فتحها مرة أخرى، بينما بقي محمد مُسْتَكِنّاً بلا حركة.

ولعلّ له عذراً سكت عنه المؤرخون، وقد يكون عذره أنه شاخ لتقدّمه في العمر أو مرض، فآثر السكون على الحركة، في وقت تكاثرت فيه الاضطرابات في إرمينية من جهة وتزايد نشاط الرُّوم من جهة ثانية، لهذا بادر مَسْلَمَة بن عبد الملك[1] بالغزو واستعاد فتح إرمينية ودوّخ الرُّوم بعد استعماله على إرمينية وأذربيجان مباشرة.

وقد كان لمحمد فضل كبير في انتصار أخيه عبد الملك في ثورتي ابن الزبير وابن الأشعث في العراق، كما فصّلناه في الحديث عن: توطيد الأمن الداخلي، من هذا البحث.

وكانت لمحمد همّة عالية في البناء والتعمير، ففي سنة خمس وثمانين الهجرية أمر ببناء مدينتي: (أَرْدَبيل) التي هي من أشهر مدن أذربيجان، و(بَرْذَعَة) التي تعتبر من إرمينية الأولى على رأي قسم من الجغرافيين القدامى[2].

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد الروم، وفي فصل: استعادة الفتح، من هذا الكتاب.

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٢٢)، وانظر العبر (١/١٠٥) حول بناء هاتين المدينتين، وانظر فتوح البلدان (٢٨٨).

كما أنه بنى سور مدينة الموصل سنة ثمانين الهجريّة[1].

وقد كان يهتم بالقضايا الاقتصادية، فحوى بحيرة (الطِّرّيْخ) في صيدها وباعه، وكان يستغلّ هذه البحيرة ثم صارت لولده مروان بن محمد بن مروان[2] من بعده، وكانت منذ فتحها حبيب بن مَسْلَمة الفِهْريّ مباحة[3].

وبحيرة (الطِّرِيْخ) سميت باسم السمك الذي يعيش فيها، وهو نوع من السّمك الصغار الذي يعالج بالملح فيؤكل، يبلغ طول الواحدة منه حوالي شبر واحد، ويكثر في موسم صيده ويصطاد بالأيدي والآلات المصنوعة، ويصدر إلى أرمينية وخارجها بعد تمليحه، ويشبه سمك (الشبُّوط) ولا يزال يصطاد بكثرة في هذه البحيرة حتى اليوم.

وهذه البحيرة هي بحيرة (أَرْجِيْش)، ويطلق عليها الجغرافيون العرب اسم بحيرة (خلاط) وذلك لقربها من هذه المدينة، وتسمى بحيرة (وان) حالياً، وتقع إلى الجنوب من مدن (خِلاط) و(أَرْجِيْش) وشرقي مدينة (خِلاط) على مسافة يوم منها[4].

ولم يفكِّر الفاتحون الأولون باستغلال ثروات هذه البحيرة من الأسماك وغيرها، ولم يفرضوا ضريبة مالية على الصيادين، لأنهم اعتبروها من الثروات الطبيعيّة المشاعة بين الناس كافة تطبيقاً لتعاليم الإِسلام في أمثالها من الثروات، لذلك اعتبر المؤرخون استغلال محمد لأسماك البحيرة هو لمصلحته الشخصية نوعاً من الاحتكار غير المشروع، فقالوا: «وكانت بحيرة (الطِّرّيخ) التي بأرض إرمينية مباحة لم يعرض لها أحد، بل يأخذ منها مَنْ شاء، فمنع محمد بن مروان من صيدها، وجعل عليها مَنْ يأخذه ويبيعه ويأخذ ثمنه، ثمّ صارت بعده لابنه مروان، ثمّ أُخذت منه لما انتقلت الدولة

---

(١) تاريخ الموصل (٢٥).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد الرّوم.

(٣) فتوح البلدان (٢٨١) وابن الأثير (٤/ ٣٦١) والنجوم الزاهرة (١/ ١٩٠).

(٤) تقويم البلدان (٤٢).

عنهم، وهي إلى الآن على هذه الحال من الحَجْر، ومَنْ سَنَّ سُنَّة سيِّئة كان عليها وَزْرُها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[١].

ومن حقِّ المؤرخين وغيرهم أن يلوموا محمداً على استئثاره بالثروة السمكية واحتكاره لها، فما كان ينبغي له أن ينحرف عن سنن من سبقه من القادة الفاتحين.

وكان مروان بن الحكم قد ولد: عبد الملك، ومعاوية، وأم عمرو، وعُبَيد الله، وأَباناً، وداود، وعبد العزيز، وعبد الرحمن، وأُمّ عثمان، وعَمْراً، وأُمّ عمرو، وبشراً، ومحمداً[٢]، فهو عاشر إخوته الذكور.

وأُمُّ محمد أم ولدٍ[٣] وقد خلف محمد: مروان أمير المؤمنين، ويزيد الذي كان من الفضلاء والنسَّاك، ومنصور، وعبد العزيز، وعبد الرحمن[٤].

ولا نعرف متى وُلد محمد بن مروان، لأن المصادر التي بين أيدينا واطّلعنا عليها أغفلت ذلك.

ولكن يمكن استنتاج سنة مولده دون القطع بأنّ استنتاجنا مصيب، وإنما هو محاولة حسب.

فقد ولد ابنه البكر مروان بن محمد سنة ست وسبعين الهجرية[٥] (٦٩٥م).

كما أنّ محمد بن مروان تولى أول منصب له سنة خمس وستين الهجرية (٦٨٤م)، وكانوا يولون ذوي الكفاءات العالية من أبناء الخلفاء وإخوتهم في سن العشرين بشكل عام، ينقص قليلًا أو يزيد قليلًا.

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٣٦١) والنجوم الزاهرة (١/ ١٩٠).
(٢) المعارف (٣٥٤) وانظر جمهرة أنساب العرب (٨٧ ـ ٨٨).
(٣) جمهرة أنساب العرب (٨٧).
(٤) انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (١٠٧ ـ ١١٠).
(٥) ابن الأثير (٤/ ٤١٨).

ويمكن أن نستنتج أن محمد بن مروان ولد سنة خمس وأربعين الهجرية (٦٦٥م)، قبل ذلك بسنوات أو بعد ذلك بسنوات.

وقد تُوفي محمد بن مروان سنة إحدى ومئة الهجرية[١] (٧١٩م).

لقد كان إدارياً حازماً، قويّ الشخصيّة، ألمعيّ الذّكاء، حريصاً على جمع هذا المال، رجل دولة في تفكيره وتنفيذه، خدم الدولة في ميداني الإدارة والقيادة.

القائد:

كان محمد بن مروان على مقدّمة أخيه عبد الملك في المعركة التي دارت بين عبد الملك ومصعب بن الزبير في العراق[٢].

ومن المعروف أنّ قائد المقدَّمة يتميّز بصفات قيادية كثيرة، منها: سرعة الحركة، والاندفاع السريع الأمين، وإعطاء القرارات الفوريّة السَّليمة، والذكاء الخارق، وسبق النظر، واليقظة التامة، والحذر الشديد، وذلك لحماية الجيش من كمائن العدو، وحرمان العدو من التصدي للجيش وعرقلة مسيرته، ومنع العدو من الحصول على المعلومات عن قوّاته المتقدمة: تعدادها، وتسليحها وقيادتها ونياتها، ومواطن الضعف فيها.

ومن الصعب أن ينتصر جيش من الجيوش على عدوّه، إذا كانت مقدَّمته ضعيفة في قيادتها، لذلك يحرص القادة المتميّزون أعظم الحرص على اختيار قادة مقدَّمات جيوشهم، ليكون حسن اختيارهم لهم أول ضمانات النّصر.

إنّ اختيار عبد الملك أخاه محمداً ليقود مقدِّمته في حرب قد يؤدي الاندحار فيها إلى انهيار الدولة الأموية وإلى نتائج خطيرة، دليل قاطع على

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٧٠) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٢٢) والعبر (١/ ١٢١).

(٢) الطبري (٦/ ١٥٦) والمعارف (٢٢٤).

ثقة عبد الملك الكاملة بكفاية محمد القياديّة، وتمتعه بمزايا قائد المقدَّمة المعروفة.

وقد كان محمد أشدّ بني مروان، وهو قاتل إبراهيم بن الأشتر ومُصعب بن الزبير[1]، وهذا دليل على تميُّزه بالشجاعة والإقدام وتحلِّيه بالضبط المتين، وثقته الكاملة بنفسه، وقوّة شخصيّته.

ولعلّ هذه الصفات القياديّة هي التي جعلت أباه مروان بن الحكم يوليه قيادة مستقلّة في (الجزيرة) من بين سائر إخوته، وهذا دليل على تميّزه عليهم في كفاياته القياديّة، ولولا أنه كان أصغرهم سنّاً، وأمه أم ولد ـ ولم يكونوا يولّون أمثاله الخلافة حينذاك، لكان له شأن في تولي الخلافة.

وقد ذكرنا أنّ أخاه عبد الملك بن مروان وهو مَن هو كفاية وعلماً واقتداراً، كان يغبطه على كفاياته المتميّزة العالية، فآثر محمد أن يرحل عن دمشق بعيداً عن العاصمة، حتى لا يؤدي غبطة عبد الملك له إلى احتكاك محتمل لا مسوِّغ له، فولّاه أخوه عبد الملك الجزيرة وإرمينية بعد أن وضعت الحرب أوزاها، واستقرت أمور الخلافة وعادت الوحدة الشّاملة إلى أرجاء شبه الجزيرة العربيّة بخاصة وأنحاء الدولة الإسلامية بعامة؛ أما قبل القضاء على الفتن والقلاقل والاضطرابات الداخلية، فقد استأثر عبد الملك بأخيه محمد، وأبقاه معه، وكلّفه بأصعب الأمور وأعقدها، للاستفادة من كفاياته المتميِّزة العالية.

لقد تهيّأ له الطبع الموهوب، وهي السجيّة الأولى في القيادة: في ذكائه الخارق، وسرعة بديهته، وثقته بنفسه، وشخصيّته القويّة المؤثِّرة، وشجاعته وإقدامه، وتمتّعه نتيجة لكل ذلك بالمعنويات العالية.

وتهيَّأ له العلم المكتسب، وهي السجيّة الثانية في القيادة: في تعلّمه الفنون العسكرية نظريّاً وعمليّاً، وتفوّقه على أضرابه في تعلّم هذه الفنون،

---

(١) المعارف (٣٥٥).

وتلقّي أساليب التطبيق العملي لها في محيط أعلى مستويات القيادة العسكريّة والإداريّة والسياسيّة، باعتباره من بيت الخلافة واتّصاله المباشر بتلك المستويات القيادية الرفيعة.

وعلى أهميّة الطبع الموهوب، فإنَّ العلم المكتسب يهذّب هذا الطبع ويصقله، ويجعله يُؤتي ثمراته المرجوّة على أفضل الوجوه.

وتهيَّأت له التجربة العملية، من سنة ثلاث وستين الهجرية إلى سنة خمس وثمانين الهجرية في ساحات الجزيرة والعراق وإرمينية، فأغنى طبعه الموهوب وعلمه المكتسب بالتجربة العملية التي امتدّت اثنتين وعشرين سنة، قائداً مستقلّاً في الجزيرة، وقائداً مرءوساً للخليفة مباشرةً وهو القائد الأعلى للدولة في العراق، وقائداً ووالياً في الجزيرة وإرمينية، وبذلك أفنى زهرة شبابه وكهولته في التجربة العمليّة، التي بدونها يكون القائد نظريّاً لا عمليّاً، وقادراً على إزجاء النظريات حسب لا على التطبيق العملي.

ولم تقتصر مهمّته التطبيقيّة على القيادة في ميادين القتال، بل شملت إعطاء المشورة للخليفة باعتبار محمد أحد أعضاء مجلس شورى الخليفة البارزين، إن لم يكن أبرز أعضاء هذا المجلس وأكثرهم أثراً وتأثيراً في الخليفة عبد الملك بن مروان والخلفاء الذين تعاقبوا على تولي الخلافة من بعد عبد الملك بن مروان، حتى انقضى أجله ففارق الحياة.

كما لم تقتصر تجربته العملية على حرب مُصعب بن الزبير وعبد الرحمن بن الأشعث الكندي في العراق لتوطيد الأمن الداخلي، وعلى حرب الرّوم في الجزيرة وبلاد الرُّوم وعلى حرب الخَزَر والتُّرْك وغيرهم من الملل والنِّحل في إرمينية، بل شملت كثيراً من قمع الاضطرابات المذهبيّة في أرجاء ولايته الشّاسعة: الجزيرة وإرمينية.

وكمثال واحد على ما عاناه من تجارب عملية في ميدان الاقتتال المذهبي، هو ثورة صالح بن مُسَرِّح التَميميّ أحد بني امرىء القيس بن زيد

مَناة من تَمِيْم الذي كان يرى رأي الصُّفْرِية من الخوارج، وهو أوّل مَنْ خرج فيهم[1].

وكان صالح بن مُسَرِّح التَّميميّ رجلًا ناسكاً مصفّر الوجه صاحب عبادة، وكان بـ(دارا) وأرض الموصل والجزيرة، وله أصحاب يقرأ بهم القرآن والفقه ويقصّ عليهم، فدعاهم إلى الخروج وإنكار الظلم وجهاد المخالفين لهم، فأجابوه وراسل صالح أصحابه بذلك، فتلاقوا به، كما التحق به شبيب الخارجيّ وأتباعه، فتعاظم خطره على الأمن.

وبثّ صالح رسله، وواعد أصحابه الخروج إلى ذلك هلال صَفَر سنة ست وسبعين الهجريّة (٦٩٥م)، فاجتمعوا عنده تلك اللّيلة.

ووعظ صالح أصحابه وأمرهم بأمره وقال لهم: «إنّ أكثركم رَجَّالة، وهذه دواب لمحمد بن مروان، فابدأوا بها، فاحملوا عليها رجالكم، وتقوّوا بها على عدوّكم».

وخرج صالح على رأس أصحابه تلك اللّيلة، فأخذوا الدَّواب واحتملوا عليها، وأقاموا بأرض (دارا) ثلاث عشرة ليلة. وتحصّن منهم أهلها وأهل (نَصِيْبين) و(سِنْجار)[2].

وبلغ محمداً مخرجُهم، فبعث إليهم جيشاً بقيادة عَدِيّ بن عَدِيَ الكِنَدِيّ، فهزمهم صالح، فبعث إليهم جيشين آخرين، كل جيش منهما تعداده ألف وخمسمائة، فكبدهما صالح خسائر فادحة، ولكنه آثر الانسحاب من المنطقة، لأنّ رجاله كانوا مئة وعشرين رجلًا!!

---

(١) الطبري (٦/ ٢١٥) وابن الأثير (٤/ ٣٩١).

(٢) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينهما وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عالٍ يسمى: جبل سنجار، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٤٤ - ١٤٦).

ودخل صالح منطقة (الدَّسْكَرَة)[1] وهي ضمن ولاية الحجّاج بن يوسف الثَّقَفِيّ وخارج ولاية محمد بن مروان، فتولّى الحجّاج معالجة الموقف[2].

وهكذا تخلّص محمد بن مروان من ثورة الخوارج، وأعاد الأمن والاستقرار إلى أرجاء ولايته.

لقد اجتمعت في محمد بن مروان السجّايا الثلاث للقائد المتميِّز: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العمليّة، وهذه السجايا الثلاث قد لا تجتمع في قائد واحد إلّا نادراً.

وكانت لمحمد عقليّة تنظيميّة واضحة، فقد سأل عبد الملك بن مروان تجنيد الجزيرة، فوافق عبد الملك على اقتراح محمد، وكانت الجزيرة تابعة إلى (قِنَّسْرِين) قبل تجنيدها. وقد اختلفوا في تسمية الأجناد، فقال بعضهم: سمي المسلمون فِلَسْطِيْن جُنْداً لأنه جمع كُوَراً، وكذلك دِمشق والأُرْدُنّ وحِمْص وقِنَّسْرِين، وقال بعضهم: سُمِّيَتْ كلُّ ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جُنْداً[3]، والرأيان سديدان.

وهكذا أصبحت الجزيرة جنداً مستقلّاً عن قِنَّسْرِين، فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خراجها[4]، وبذلك ضمن محمد السيطرة الكاملة في ولايته على رجاله المقاتلين.

وعند تطبيق مبادىء الحرب على مزايا محمد القياديّة، نجد أنّه كان قائداً (تعرّضيّاً)، يطبّق الحرب السيّارة، ويدافع عن الحدود والثغور،

---

(١) الدَّسْكَرَة: قرية كبيرة بنواحي نهر الملك غربيّ بغداد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٦٠).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٢١٦ ـ ٢٢٣) وابن الأثير (٤/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦).

(٣) فتوح البلدان (١٨٠).

(٤) فتوح البلدان (١٨٠).

بالتعرّض لا بالدفاع المُسْتَكِن، ويرى بحق أنّ الهجوم أفضلُ أساليب الدِّفاع.

وبالأسلوب التّعرّضي، حمى محمد الحدود الشمالية والشمالية الشرقيّة للدولة، ونقل القتال من مواضع المسلمين إلى مواضع الرُّوم وأهل إرمينية، وجنّب بلاد المسلمين خسائر القتال، واستعاد فتح شطر من بلاد الرُّوم وإرمينية.

وكان يطبِّق مبدأ (التّحشّد) في غزواته، فيحشد القوّة المناسبة للعمل المناسب في المكان والزمان المناسبين، كما يحشد القوات المناسبة في القواعد الأماميّة، للدفاع عنها في حالة تعرضها لهجوم مفاجىء غير متوقّع زماناً أو مكاناً.

وكان يطبِّق مبدأ (الأمن) في مسير الاقتراب، وفي صفحة الاشتباك بالعدو، كما كان يضع الحاميات في الأماكن الحسّاسة ويحصِّنها تحصيناً متميّزاً - كما فعل في تحصين (أَرْدَبِيْل) و(بَرْذَعة) و(الموصل)، فأمّن الدفاع عنها بسهولة ويسر، وجعلها قواعد أماميّة متقدِّمة أمينة لحمايتها أولاً، وللانطلاق منها للفتح ثانياً، وللاستناد عليها لاستعادة فتح البلاد المنتقضة.

وبهذه التدابير الأمنيّة صان البلاد وأهلها من مباغته العدو لها ولهم في مختلف صفحات القتال التي خاضها وفي أيام ولايته أيضاً، فلم ينكب المسلمون على عهده الطويل نسبياً أبداً.

والحق أنه برز في قيادة المقدَّمة، مما يدلّ على أنه قائد يطبق مبدأ (الأمن) نصاً وروحاً.

وكان يطبِّق مبدأ (اختيار المقصد وإدامته)، فقد كان دائماً يعرف ما يريد، ويحاول أن يتوصّل إليه من أقرب الطرق وأنجع الوسائل، ولا يتخلّى عما يريده ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وكان يطبِّق مبدأ (المباغتة)، ولعّل مشورته لعبد الملك بمبادرة مُصعب بن الزبير على جناح السّرعة، كان مباغتة كاملة لمصعب لم يكن

يتوقّعها، فهي مباغتة بالزمان، كما أنّ اندفاعه في مقدّمته للاقتتال واندفاعه إلى الصفوف الأمامية من المقدَّمة لمراقبة الموقف الرّاهن شخصياً مباغتة بالزمان والمكان أيضاً.

وكان يطبّق مبدأ (الاقتصاد بالمجهود)، فيضع القوات المناسبة بالمكان المناسب دون زيادة ولا نقصان.

وكان يطبّق مبدأ (المرونة)، فليست خططه العسكريّة قوالب جامدة، بل هي قابلة للتحوير حسب الموقف الرّاهن.

وكان يطبّق مبدأ (التعاون)، فقد ساد هذا المبدأ بين المقدَّمة والقسم الأكبر من الجيش في حرب مصعب بن الزبير، ولولا هذا التعاون الوثيق لما كتب النّصر لعبد الملك في ذلك الاقتتال أبداً.

كما أنّ هذا المبدأ ساد سيادة مطلقة بين قواته التي بإمرته في الجزيرة وإرمينية، فهي تعمل بتعاون وانسجام، كما ساد هذا المبدأ بين قوّاته كافة وقوّات الدولة في جميع الظروف والأحوال.

كما كان يطبّق مبدأ (إدامة المعنويات)، لأنّه يعلم أهميّة المعنويات العالية في إحراز النصر، فلا يغفل عن إدامتها في حالتي السِّلم والحرب.

وكان يطبّق مبدأ (الأمور الإداريّة)، فأشاع البناء والتعمير، وفرض الاستقلال المالي على جنوده، فجعل الجزيرة جنداً يتقاضى مرتباته من بيت المال الذي يسيطر عليه، ولم يتركهم خاضعين لبيت مال لا يسيطر عليه.

لقد عاش محمد بن مروان في أيام اضطراب الدولة وفي أيام استقرارها، ولكنّ الدولة حتى في أيام استقرارها كانت كالمريض الذي شفي من مرضه القاسي المرير، ولكنه في مدة النّقاهة لا في مدّة الشفاء الكامل، ولولا تلك الظروف وهو مَن هو في مزايا القياديّة، لكان له شأن آخر في الفتوح واستعادة الفتوح ولترك بصماته الظاهرة الباقية في الفتوح ومصير الدولة في حاضرها ومستقبلها.

وحسبه أنه بذل غاية جهوده في خدمة الدولة قائداً وإدارياً، ولكنّ الظروف الراهنة التي عايشها حرمته ليس من النجاح بل من التميُّز في النجاح.

محمد بن مروان في التاريخ:

يذكر التّاريخ لمحمّد بن مروان، أنه كان من ألمع إخوته إن لم يكن ألمعهم ذكاء وشجاعة وكفاية واقتداراً.

ويذكر له، أنه أعان الدولة على التخّلص من أخطر ثورتين عارمتين هدّدت الدولة بالزوال: ثورة ابن الزُّبير وثورة ابن الأشعث.

ويذكر له، أنه كان رجل دولة بكل ما يعنيه هذا التعبير قائداً وإدارياً.

ويذكر له، أنه استعاد فتح شطر بلاد الرُّوم وشطر إرمينية، وحمى الحدود الشمالية والشمالية الشرقيّة من الرُّوم وغيرهم من الأمم.

ويذكر له، أنه كان قائداً فذاً، لو ساعدته الظروف لكان له شأن أيّ شأن.

يرحمه الله جزاء ما قدّم للدولة وللمسلمين من جهد وجهاد.

مسلمة بن عبد الملك بن مروان
فاتح شطر الأنضول[1] ومحاصر القُسطَنطِينِيَة[2]

نسبه وأيامه الأولى:

هو مَسْلَمَةَ بن عبد الملك بن مَرْوَان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُمَيّة بن عَبْدِ شَمْس بن عبد مَنَاف بن قُصَيّ القُرَشِيّ الأمَوِي[3].

أبوه: أمير المؤمنين عبد الملك بن مَرْوان[4]، وأمه من أمّهات الأولاد[5]، ويريدون بكلمة أمّهات الأولاد: الجواري والإِماء اللّواتي ولدن لمواليهنّ ذكراناً.

---

(١) الأنضول أو الأنطول، لفظة يونانية، معناها: المشرق، اسم لشبه جزيرة كبيرة، هي عبارة عن آسيا الصغرى كما نطلق عليها اليوم. يحدها من الشمال الغربي الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود، ومن الشرق جبال إرمينية وفروعها الجنوبية الغربية إلى الإسكندرونة، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب الأرخبيل اليوناني، وهي ما نسميه: تركيا، عدا القسم الأوروبي منها، انظر التفاصيل في منجم العمران (٢/ ٦٣ ـ ٦٥) والجغرافية العمومية (١٨١ ـ ١٨٥).

(٢) القسطنطينية: مدينة شهيرة جداً، كانت عاصمة الأمبراطورية البيزنطية الشرقية، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م)، وهي مسوّرة بسور حصين، ارتفاعه ما بين أربعة عشر قدماً وعشرين قدماً، ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلاً، انظر التفاصيل في منجم العمران (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠١).

(٣) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/ ٣١) وقادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥).

(٤) انظر سيرته المفصلة في: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥ ـ ١٥٢).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٥١٩) وابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٩٢) ـ تاريخ ـ (٢٢/ ٤٨٩) وانظر الطبري (٦/ ٤٢٠).

وقد ذكر الإمام ابن حَزْم الأندلسي[1] في رسالته: (أسماء الخلفاء والولاة وذكر مُدَدِهم) ما نصّه: «وفي أيامه - يريد أيّام سليمان بن عبد الملك - حوصرت (القُسْطَنْطِينة) وحاصرها أخوه مَسْلمة، وسنُّ مَسْلَمَة أربع وعشرون سنة»[2]، وكان حصار القسطَنطينية سنة ثمان وتسعين الهجرية[3] (٧١٧م).

ومعنى ذلك أنّ مسلمة ولد سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣م).

ولست مع الإمام ابن حزم الأندلسي فيما ذهب إليه، لأنّ أوّل قيادة تولّاها مسلمة كانت سنة ست وثمانين الهجرية[4]، وليس من المعقول أن يتولى مسلمة قيادة جيش من جيوش المسلمين، في أخطر جبهة من جبهات القتال بالنسبة للدولة الأموية، وهي جبهة مقاتلة الروم في عقر دارهم، وهو في سن الثانية عشرة!!

والمعقول أن يكون عمره حينذاك عشرين سنة على الأقل، أي أنّ ولادة مسلمة كانت حوالي سنة ست وستين الهجرية (٦٨٥م) لا سنة أربع وسبعين الهجرية.

ومهما يكن من أمر تاريخ مولد مسلمة الذي أغفله المؤرخون، فإن أبناء الخلفاء لم يكونوا يتولون القيادة ويشهدون المعارك الطاحنة قبل أن يبلغوا السّادسة عشرة من سنيّ حياتهم، ولكنهم لا يتأخّرون عن العشرين إلّا نادراً، خاصة إذا كانوا من ذوي الكفايات القيادية العالية التي تظهر عليهم مبكراً - كما هو الحال في مسلمة وأمثاله من بني أميّة ومن الذين تولوا

---

(١) الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤هـ - ٤٥٦هـ).

(٢) أسماء الخلفاء والولادة وذكر مددهم (٣٦٢) - ملحق بكتاب جوامع السيرة.

(٣) ابن الأثير (٥/٢٧) وابن خلدون (٣/١٥٥) وفتح القسطنطينية (٣٨) والأمبراطورية البيزنطية (٣٦٦).

(٤) ابن الأثير (٤/٥٢٤) والعبر (١/١٠١).

القيادات العسكرية في عهدهم كمحمد بن القاسم الثقفي[1] الذي تولى القيادة وعمره سبع عشرة سنة كما هو معروف.

نشأ مسلمة وترعرع في ظروف ملائمة لاستكمال متطلبات شخصيته فكرياً وإدارياً وسياسياً وعسكرياً، فهو من بيت السُّلطة والملك - بني أميّة، وأهله أمراء وقادة وخلفاء، وظروفهم الإِدارية والعسكرية والسياسية لا تخلو من مشاكل وصعوبات تعين على التعلّم والتدريب، وكان التعليم لاستيعاب الثقافة المتيسِّرة حينذاك ميسوراً لبني أميّة ولغيرهم من الناس، لذلك نشأ في دمشق عاصمة الخلافة لِيتعلّم القرآن ويروي الحديث ويحْفظ الأخبار ويتقن علوم اللُّغة وفنون الأدب شعراً ونثراً، ثم ليمارس القضايا الإِدارية والسياسية عن كثب، ويرى كيف تُصرّف الأمور وتُعطى القرارات. كما تدرّب على ركوب الخيل والفروسيّة والسباحة والرمي بالنبال والضرب بالسيف والطعن بالسنان، حتى أضحى في الميادين الثقافية والإدارية والسياسية والعسكرية ذا مرتبة سامية ومكانة مرموقة ومنزلة رفيعة.

ولعلّ مما زاد في فرص تعليم مسلمة وتدريبه، أنه تلقّى علومه وتدريبه في كنف والده أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بعد استقرار ملكه في الدولة الإِسلامية واستعادة (الوحدة) سنة ثلاث وسبعين الهجرية، إذ قضى على الخوارج في (البحرين) وأعاد بناء (الكعبة) بمكّة المكرّمة على ما كانت عليه قبل عبد الله بن الزبير، فانطلقت الجيوش الإِسلامية للفتح واسترداد المناطق التي سُيْطِر عليها في إيران وبلاد الروم وإفْرِيقيّة، وكان من ثمرات استعادة (الوحدة) أن أعادت الدولة الإِسلامية بقيادة عبد الملك بعد ما عاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهلية ومشاكل خارجية، كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون، بعدما كان عبد الملك يدفع الأتاوة لأَمبراطور القسطنطينيّة منذ توليّه الخلافة حتى

(١) انظر سيرته في مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد السادس عشر (١٢٧ - ٢٤٨) - بغداد - ١٣٨٨هـ.

وهو ضمن القادة الذين يشملهم كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

استعاد (الوحدة)، وكان يدفعها له أيام الفتن الداخلية والحروب الأهليّة[1].

وتربّى مسلمة في كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) للدولة الإسلامية بجوٍ كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمي وإداري وسياسي وعسكري، في بداية العصر الذهبي لحكم بني أميّة، برعاية والده الحصيف العالم الداهية الذي يُعَدُّ بحق أبرز خلفاء بني أميّة في الشّام علماً وعملًا ومقدرةٍ وذكاءً، فأفاد مسلمة من رعاية والده في وقت تفرّغ فيه عبد الملك لرعاية شئونه الخاصة أكثر من السّابق - يوم كان في دوامة الفتن والقلاقل والاضطرابات، وبقي يحظى بالرعاية الأبوية والعائلية الكاملة، حتى توفي عبد الملك سنة ست وثمانين الهجرية[2] (٧٠٥م)، فأرسى عبد الملك أسس شخصية ابنه مسلمة، وبدت ملامحها واضحة جليّة في وقت مبكّر من عمره، تلك الأسس التي كانت عبارة عن: الدين والتفقه فيه والتمسك بتعاليمه، والعربية واتقان علومها، والسياسة وممارسة قضاياها، والإدارة وحلّ مشاكلها، والعسكرية والتدريب على متطلباتها، فكان مسلمة بحق نسخة طبق الأصل من والده عبد الملك وأشبه الناس به عدا الخلافة التي حرم منها، لأنّ أمّه من أمّهات الأولاد، وكان لا يتولى الخلافة إلّا أُمويٌّ أمه عربية حرة، بالرغم من: «إنه كان أحق بالملك من سائر إخوته»[3].

وحين اشتدّ مرض عبد الملك جمع بنيه وهو على فراش الموت وأوصاهم قائلًا: «أوصيكم بتقوى الله، فإنها أزين حِلية وأحصن كهف. ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حقّ الكبير؛ وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم[4] الذي عنه تفترون، ومَجنكم[5] الذي

---

(١) انظر التفاصيل في: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ١١٣ - ١١٤) وانظر ابن خلدون (٣/ ١٥٢).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٩١) وتاريخ الخميس (٢/ ٣١١).

(٣) دول الإسلام (١/ ٦٢) وانظر الأعلام (٨/ ١٢٢) ومسلمة بن عبد الملك (٤٥).

(٤) الناب: السن في جانب الرباعية، وللإنسان نابان في كل فك. وناب القوم: سيدهم.

(٥) المجن: الترس، وفلان مجنكم: حاميكم.

عنه ترمون؛ فأكرموا الحجّاج فإنه الذي وطّأ لكم المنابر، ودوّخ لكم البلاد، وأذلّ الأعداء. وكونوا بني أم بُرْدة لا تدبّ بينكم العقارب، وكونوا في الحرب أمراراً، فإنّ القتال لا يقرِّب ميتة؛ وكونوا للمعروف مناراً، فإنّ المعروف يبقى أجره وذكره[1]؛ وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب، فإنهم أصون له وأشكر لما يُؤْتَى إليهم منه، وتمغدوا[2] ذنوب أهل الذنوب، فإن استقالوا فأقيلوا، وإن عادوا فانتقموا[3]».

لم يذكر الخليفة الداهية عبد الملك بن مروان، في وصيته لبنيه وهو يحتضر، تلك الوصية التي تعتبر خلاصة تجاربه في الحياة، صاغها بكلمات معدودات لم يذكر غير مسلمة من بين أولاده، وقد ذكره بالثناء العاطر والتقدير البالغ، مما يدلّ على مبلغ ثقته به واعتماده عليه.

وليس من السهل على أحد أن يستحوذ على ثقة شخصية فذّة واعية كعبد الملك، ولولا أنّ مسلمة كان حَرّياً بالثقة الكاملة والاعتماد المطلق، لما أشاد به أبوه - وهو على فراش الموت - هذه الإشادة النادرة.

لقد تهيّأ لمسلمة الطبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية، فنال ما نال من تقدير والده بخاصة وأهل بيته بعامة والمؤرخين من بعده، فكان الرجل المناسب للمناصب المناسبة التي تولّاها سياسياً وإدارياً وعسكرياً.

جهاده:

١ - في أرض الروم:

أ - في سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) غزا مسلمة أرض الروم[4]،

---

(١) في رواية: ذخره.

(٢) تمغد الشيء: امتصه، استوعبه.

(٣) ابن الأثير (٤/١١٧ - ١١٨).

(٤) الطبري (٦/٤٢٦) وابن الأثير (٤/٥٢٤) وابن خلدون (٣/١٥٣)، والنجوم الزاهرة=

وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦م) غزا الروم فأثخن فيهم بناحية (المَصِّيْصَة)[١] وفتح حصوناً كثيرة منها: حصن (بُوْلَق) و (والأَخْرم)[٢] و(بُوْلُس) و(قَمْقِيْم)[٣] وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم[٤].

ب - وفي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) غزا مسلمة والعبّاس بن الوليد بن عبد الملك بلاد الروم، وكان الوليد بن عبد الملك قد كتب إلى صاحب (إرْمِيْنِيَة) يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يُعَرِّفه أنّ (الخَزَر) وغيرهم من ملوك جبال (إرمينية) قد أجمعوا على قصد بلاده، ففعل ذلك؛ وأكثر الوليد من قواته القاصدة أرض الروم، فساروا نحو (جزيرة ابن عمر) ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم. واصطدم الطرفان، فانهزم الروم، ثم أعادوا الكرّة فانهزم المسلمون، ولكنّ العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس (السّاقة) صارخاً: «أين أهل القرآن الذين يريدون الجنّة؟!»، فقيل له:

= وفيه: افتتح مسلمة بن عبد الملك حصن بولق وحصن الأخرم، وانظر العبر (١/ ١٩١) وفيه: افتتح مسلمة حصنين في بلاد الروم، وفي تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٣٠٢): وأول ما ولي غزو الروم في آخر دولة أبيه، فافتتح ثلاثة حصون، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٢٩٣).

(١) المصيصة: مدينة على شاطىء نهر (جيحان) من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم وتقارب طرطوس، وكانت ذات سور وخمسة أبواب، انظر معجم البلدان (٨/ ٨٠) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤)، وكانت تسمى: (Mopsuestia).

(٢) انظر الطبري (٦/ ٤٢٩) وابن الأثير (٤/ ٥٢٨)، وفي ابن خلدون (٣/ ١٥٥): الأخزم، وهو حصن في منطقة المصيصة لا ذكر له في الكتب الجغرافية التي بين أيدينا.

(٣) قمقيم: وردت كذا في ابن خلدون (٣/ ١٥٤)، ووردت في الطبري (٦/ ٤٢٩) وابن الأثير (٤/ ٥٢٨): قمقم.

(٤) ابن خلدون (٣/ ١٥٥)، وانظر الطبري (٦/ ٤٢٩) وابن الأثير (٤/ ٥٢٨)، وحصون بولق والأخرم وبولس وقمقم، ولا ذكر لها في الكتب الجغرافية القديمة التي بين أيدينا، ومن الواضح أنها حصون صغيرة في المنطقة الجبلية المحيطة بالمصيصة.

نادهم يأتوك، فنادى: «يا أهل القرآن!» فأقبلوا جميعاً، فهزم الله الروم حتى دخلوا (طُوَانة)[1]، وحاصرهم المسلمون في هذه المدينة، وفتحوها في جمادى الأولى من هذه السنة وشتوا فيها[2]، كما فتح مسلمة في هذه السنة (حرثومة)[3]، وفي هذه السنة غزا مسلمة الروم أيضاً ففتح ثلاثة حصون: أحدها حصن (قُسْطَنْطِيْن) و(غزالة) و(والأخْرَم) وقتل من المستعربة نحواً من ألف وأخذ الأموال[4].

وقد تكرر فتح حصن (الأخْرَم) سنة سبع وثمانين وثمان وثمانين الهجريتين، ومن المحتمل أنّ الروم استعادوه فعاد إليه مسلمة وفتحه ثانية.

جـ ـ وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م)، غزا مسلمة والعبّاس بن الوليد بن عبد الملك الروم، فافتتح مسلمة حصن (عَمُّورِيّة)[5] ولقي من الروم جمعاً فهزمهم. وقيل: إنّ مسلمة قصد (عَمْورِيَّة)، فلقي جمعاً من الروم كثيراً، وافتتح (هِرَقَلة)[6] و(قَمُوْنِيّة)[7].

(١) طوانة: بلد بثغور المصيصة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٦٥) والعبر (١/ ١٩٣) وفي المعارف (٣٥٩): «وفي سنة ثمان وثمانين فتحت الطوانة»، وكانت تسمى: (tyana).

(٢) الطبري (٦/ ٤٣٤) وابن الأثير (٤/ ٥٣١) والعبر (١/ ١٠٣)، وفي الطبري (٦/ ٤٣٤): إنّه فتح طوانة كان في جمادى الآخرة.

(٣) العبر (١/ ١٠٣) والظاهر أنها قرية أو بليدة في منطقة طوانة لا ذكر لها في الكتب الجغرافية القديمة التي بين أيدينا.

(٤) في الطبري (٦/ ٤٣٦): حصن قسطنطينية، وانظر ابن الاثير (٤/ ٥٣٢).

(٥) عمورية: بلد من الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)، وكان اسمها: (Ammorium).

(٦) هرقلة: مدينة ببلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤)، كانت تسمى (Meraelia).

(٧) الطبري (٦/ ٤٣٥): وفيه: قمودية وابن الأثير (٤/ ٤٣٤) وفي ابن خلدون (٣/ ١٥٤) قمولية: ولم أجد لقمونية ذكراً في الكتب الجغرافية التي بين أيدينا في منطقة بلاد الروم، بل ذكرها في إفريقية، انظر معجم البلدان (٧/ ١٦٢).

وفي هذه السنة أيضاً، غزا مسلمة الترك حتى بلغ (الباب) من ناحية أَذَرِبِيْجان)[1]، ففتح حصوناً ومدائن هناك[2].

د ـ وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩م)، غزا مسلمة أرض الروم، ففتح الحصون الخمسة التي بـ(سُوْرِيَّة)[3]، ومن تدقيق سير الفتح الذي نهض به

---

(١) أذربيجان: كلمة أذربيجان في الفارسية معناها: أرض النار أو معابد النار، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك. وأذربيجان: صقع جليل ومملكة عظيمة، والغالب عليها الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ١٥٩) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤).

(٢) الطبري (٦/ ٤٤١) وابن الأثير (٤/ ٤٤٩) وابن خلدون (٣/ ١٤٤). وفي فتوح البلدان (٢١٨)، ولما كانت سنة (٨٩) اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم، وأتاهم قوم من الروم من قبل ـ الاسكندرونة ورودس، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة بن عبد الملك، فأناخ عليهم في خلق من الخلق، فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير، وعلى عيالاتهم القوت والقمح والزيت، وهو مديان من قمح، وقسطان من زيت، وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم على ترك النصرانية، على أن يلبسوا لباس المسلمين، ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينقلوا أسلاب من يقتلون مبارزة، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين، فأخرب مدينتهم ونزلوا مناطق (حمص)، ونزل بطريق الجُرْجُومة، في جماعة معه أنطاكية، ثم هرب إلى بلاد الروم... انتهى.
وفي معجم البلدان (٣/ ٨٠): الجرجومة: مدينة يقال لأهلها الجراجمة، كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقة قرب إنطاكية. والجراجمة: جيل... انتهى.
أقول: وهؤلاء كانوا يسكنون ما يسمى: جبل لبنان في الوقت الحاضر مع امتداده إلى إنطاكية، وكانوا نصارى وما يزالون، ولكن من الصعب تصديق: أن مسلمة نهض بالقضاء على هذه الفتنة الداخلية سنة (٨٩)هـ، لأنه كان مشغولاً في تلك الأيام بغزوتين كبيرتين، ومن المحتمل أنه قضى عليها في فرصة سنحت له قبل خوضه لتلك الغزوتين أو بعدهما.
وفي تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢): غزا مسلمة (عمورية) والتقى بالمشركين فهزمهم.

(٣) الطبري (٦/ ٤٤٢) وابن الأثير (٤/ ٥٤٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢١) والعبر (١/ ١٠٤). وسورية: موضع بالشام بين خناصرة وسلمية والعامة=

مسلمة في تلك الأيام، يتضّح أنّ الحصون الخمسة تقع شمالي (جزيرة ابن عمر) متاخمة لمدينة (ديار بكر) من الشمال.

هـ - وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م) غزا عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الصَّائفة[١]، وكان على ذلك الجيش مسلمة. وفيها عزل الوليد بن عبد الملك عَمّه محمد بن مروان بن الحكم عن (الجزيرة) و(إرمينية) واستعمل عليها أخاه مسلمة، فغزا مسلمة الترك من ناحية (أذْرَبيْجَان) حتى بلغ (الباب)، وفتح مدائن وحصوناً ونصب عليها المجانيق[٢].

و - وفي سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠م) غزا مسلمة أرض الروم، ففتح حصوناً ثلاثة، وجلا أهل (سُوْسَنة) إلى بلاد الروم[٣].

ز - وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) غزا مسلمة الروم، فافتتح (ماسة) وحصن (الحديد) و(غزالة) و(بَرْجَمة)[٤] من ناحية

= تسميها: سوية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧١)، ومن الواضح أن الحصون الخمسة التي فتحها في سورية هي التي تقع في الإقليم المتاخم لجزيرة ابن عمر من الشمال، أي شمالي مدينة ديار بكر الحالية الواقعة في الجمهورية التركية، وانظر تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/ ٣٠٦).

(١) الصائفة: الغزوة في الصيف، وبها سميت غزوة الروم، لأنهم كانوا يغزون صيفاً إتقاء البرد والثلج.

(٢) الطبري (٦/ ٤٥٤) وابن الأثير (٤/ ٥٥٥) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٢) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢).

(٣) الطبري (٦/ ٤٦٨) وابن الأثير (٤/ ٥٦٩) وابن خلدون (٣/ ١٤٥) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢)، وسوسنة حصن من حصون الروم، وهو أكبر الحصون التي فتحها مسلمة في تلك الغزوة، وفي النجوم الزاهرة (١/ ٢٢٥) نص علي: ويقال إنه بلغ الخليج، والخليج بحر دون القسطنطينية، انظر معجم البلدان (٣/ ٤٦٠)، ومعنى هذا أن سوسنة تقع في المنطقة الجنوبية لمدينة القسطنطينية وأحد الحصون المنيعة للدفاع عنها من الجنوب.

(٤) برجمة: حصن للروم، ورد ذكره في شعر جرير، انظر معجم البلدان (٢/ ١١٢).

(مَلَطْيَة)[1]، وكان مسلمة قد فتح حصن (الغزالة) سنة ثمان وثمانين الهجرية كما ذكرنا سابقاً، والظاهر أنّ الروم استردوها من المسلمين، فاستعادها مسلمة ثانية.

ح - وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م)، غزا مسلمة أرض الروم، فافتتح (سَنْدَرَة)[2]، وهي حصن من حصون الروم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم (القسطنطينية) من الجنوب، ومن الغزو مباشرة عاد مسلمة إلى الديار المقدسة، فحجّ بالناس في هذه السنة[3].

ط - وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م)، غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) وفتحها وخرّبها ثم بناها بعد ذلك[4] بعشر سنين[5] أو تسع سنين[6]، وكانت هذه المدينة للمسلمين من قبل، وقد انتقض أهلها فأعادها مسلمة للمسلمين.

ي - وفي سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) غزا مسلمة الصَّائفة[7] في بلاد الروم.

---

(١) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم بلاد الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٥٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٧)، والبلدان (٢٥) لابن الفقيه وتقويم البلدان (٣٨٤)، وانظر ما جاء عن هذه الغزوة في الطبري (٦/ ٤٦٩) وابن الأثير (٤/ ٥٧٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٦) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٠٩).

(٢) العبر (١/ ١٠٩)، ولا ذكر لسندرة هذه في الكتب الجغرافية القديمة.

(٣) الطبري (٦/ ٤٩١) وابن الأثير (٤/ ٥٨٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/ ١٣٠).

(٤) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٩) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٥) البداية والنهاية (٩/ ١١٧)، والصحيح بتسع سنين لأنه بناها سنة ثلاث عشرة الهجرية، انظر المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣١١).

(٦) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٧) البداية والنهاية (٩/ ١٤٢) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٣٣) وتاريخ ابن خياط (١/ ٣١٨).

ك ـ وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م)، غزا مسلمة أرض (الوضّاحيّة)، ففتح الحصن الذي فتح الوضاح[١]. وفيها أيضاً غزا مسلمة (بَرْجَمَة) وحصن (ابن عوف) وافتتح أيضاً حصن (الحديد) و(سَرُوْرَا)[٢]، وشتى بأرض الروم[٣]، وكان مسلمة قد فتح حصن (الحديد) وحصن (برجمة) سنة ثلاث وتسعين الهجرية، والظاهر أنّ هذين الحصنين انتقضا، فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية.

٢ ـ حصار القُسْطَنطِينِيَة:

أ ـ أدرك المسلمون أنّ حدودهم الشمالية الغربية مهددّة بالروم، وأنّ فتح القسطنطينية يزيح عن كاهل الفاتحين أعباء الدفاع عن تلك الحدود، ويجعلها حدوداً مستقرّة آمنة.

كما أنّ أرض الشام: فلسطين والأردن وسورية ولبنان من جهة، ومصر والمغرب العربي من جهة أخرى، كانت من أملاك الأمبراطورية البيزنطية الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية، وقد عانى المسلمون ما عانوا من أهوال ومصاعب في فتحها والحفاظ عليها، وما دامت القسطنطينية بيد الروم، فهذه الأصقاع الواسعة معرضة للغزو، كلّما ضعف المسلمون أو تفرّق شملهم، وقوي الروم واشتدّ ساعدهم، لذلك، جرت عدّة محاولات لفتح هذه المدينة، لأنها القاعدة الرئيسة للروم.

أول تلك المحاولات جرت سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٠م) في عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وكانت هذه الحملة بقيادة

---

(١) الوضاح: قائد من قادة مسلمة، انظر ابن الأثير (٥/ ٨١ ـ ٨٢)، والظاهر أنه من القادة المرءوسين غير المشهورين، وانظر ابن الأثير (٥/ ٢٦) حول هذا الفتح.

(٢) برجمة وحصن ابن عوف وحصن الحديد وسرورا، حصون في منطقة (ملطية)، انظر الطبري (٦/ ٤٦٩) وابن الأثير (٥٧٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٤).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٧٠) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥)، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣١٩).

معاوية بن أبي سفيان أمير الشام آنذاك[١].

والمحاولة الثانية جرت في أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة خمسين الهجرية (٦٦٣م)، وكانت هذه الحملة بقيادة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[٢].

ولكنّ هاتين الحملتين لم يكتب لهما النجاح[٣].

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) بدأ سليمان بن عبد الملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية[٤] بعد أشهر معدودات من توليه الخلافة، فقد توفي سلفه الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين الهجرية (أواخر شباط ـ فبراير ـ ٧١٥م)، فاقتفى سليمان خطّة سلفه بضرب عاصمة الروم ضربة كبيرة بقوة جسيمة[٥]، تلك الخطة التي لم

---

(١) العبر (١/ ٣٢).

(٢) العبر (١/ ٥٦)، وشارك في هذه الحملة عدد من كبار الصحابة، منهم: الحسين بن عليّ رضي الله عنهما، وأبو أيوب الأنصاري الذي توفي في أثناء الحصار ودفن قرب القسطنطينية حيث يوجد قبره الآن، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

(٣) بعد حصار القسطنطينية سنة خمسين الهجرية وإخفاق هذا الحصار، عسكر المسلمون في ميناء كيزيكوس (Cyzicos) واتخذوه قاعدة أمامية لأعمالهم العسكرية في سبع سنوات، وإلى ذلك يشير ابن الأثير في حوادث سنة أربع وخمسين الهجرية: «وفيها كان مشتى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمي، وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جنادة بن أبي أمية جزيرة (أرواد) قرب القسطنطينية، فأقاموا بها سبع سنين، وكان معهم مجاهد بن جبر، فلما مات معاوية وولي ابنه يزيد أمرهم بالعود فعادوا». انظر ابن الأثير (٣/ ٤٩٧)، ومما يفهم منه أنّ المراد بجزيرة (أرواد) وهي جزيرة (كيزكوس).

(٤) النجوم الزاهرة (١/ ٢٣٥) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) والبداية والنهاية (٩/ ١٦٩) وأبو الفدا (١/ ٢٠٠)، وانظر الطبري (٦/ ٥٢٣)، وانظر: سمط النجوم العوالي (٣/ ١٨٧).

(٥) ولهاوزن ـ الدولة العربية وسقوطها (٢٠٩)، والواقع أن المسلمين كانوا يستهدفون فتح القسطنطينية، فقد ذكر (فازلييف) في تاريخه الكبير للدولة البيزنطية: «أن العرب=

يستطع سلفه تحقيقها في أيامه لانشغال جيوشه في حمل مهمة الفتح في جبهات مختلفة شرقاً وغرباً وشمالاً، بالرغم من أنه مهدّ لفتح القسطنطينية بتعرضه المستمر طيلة أيام حكمه بالجبهة الرومية على حدود دولته من الشمال ففتح كثيراً من بلاد الروم وأضعف جبهتهم، ولولا هذا التمهيد لما استطاع سليمان أن يفعل شيئاً.

ب ـ وكان حرص سليمان على فتح القسطنطينية عظيماً، حتى كأنه لم يتول الملك أو لم يخلق، إلّا لتحقيق هذا الحلم الذي راود الخلفاء من أيام عثمان بن عفّان رضي الله عنه إلى أيامه. والواقع هو أنّ الخلفاء جميعاً الذين واتتهم ظروفهم الداخلية والخارجية فكّروا في فتح القسطنطينية، والسبب أنّ البيزنطيين لم ينسوا أبداً البلاد الشاسعة الغنية التي كانت تابعة لهم وفتحها المسلمون، وأنهم بذلوا قصارى جهدهم لاستردادها، وأنّ هذه البلاد لا تكون آمنة من غزو الروم واستردادها ما بقيت للروم دولة عاصمتها القسطنطينية، وهي البلدة الحصينة التي يسهل الدفاع عنها براً وبحراً، وهي القاعدة الرئيسة لعملياتهم العسكرية.

وكانت الخطة السّوْقية(1) للمسلمين تتلخّص في مهاجمة الروم في عقر دارهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، لأنّ الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع.

= بعد أن أخفقوا في الاستيلاء على القسطنطينية سنة (٦٧٠م) في عهد قسطنطين الرابع (٦٦٨ ـ ٦٨٢) بسبب استعمال الروم للنار الأغريقية التي اخترعها إذ ذاك رجل سوري يدعى (جالينيكوس): ظلوا يترددون على القسطنطينية كلّ عام حتى سنة (٦٧٧م)، وقد مني الأسطول العربي بكارثة كبيرة، إذ هبت عليه عاصفة عنيفة، فتحطمت معظم سفنه على الشاطيء الشمالي لآسيا الصغرى. وفي نفس الوقت أخفقت كل المحاولات البرية التي قام بها العرب إذا ذاك، فاضطر الخليفة إلى استرجاع جنده وعقد معاهدة مع الدولة البيزنطية تعهدت الدولة بمقتضاها أن تدفع له ضريبة سنوية». انظر: (Vasiliev: Hist, de L'E mpire Byzntin, I,pp, 293 - 284).

(1) السوقية: الاستراتيجية (Strategy)، انظر المعجم العسكري الموحّد (٨٤٢) ـ (إنكليزي ـ عربي).

وأمضى سليمان سنة سبع وتسعين الهجرية في إعداد قواته الضّاربة مادياً ومعنوياً، لتكون قادرة على النهوض بواجب فتح القسطنطينية[١].

واستشار سليمان القادة المجربين، ومنهم موسى بن نُصَير اللّخمي[٢] عن الخطة المناسبة لفتح القسطنطينية، فأشار عليه موسى بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق والحصون، حتى يبلغ المدينة، فلا يأتيهم إلّا وقد هدمت حصونها، ووهنت قوتها، وقال موسى: «فإذا فعلت ذلك، لم يبق بينك وبينها مانع، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد»[٣].

ثم استشار أخاه مسلمة، فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عَنْوة، فمتى ما فتحت فإنَّ باقي ما دونها من البلاد والحصون تصبح بيد المسلمين، فقال سليمان: «هذا هو الرأي»[٤].

وأمضى الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة يعمل بكل جد ونشاط وعزم لإنجاز استحضارات قواته وإعدادها للقتال، وكان الخليفة حين يعتزم أمراً خطيراً له ما بعده في مجال الإعداد العسكري تطبيقاً لخطّة سَوْقِيّة حاسمة، يكتب إلى أمرائه على الأمصار ليعدّ كلّ أمير أو والٍ الجيش

---

(١) ورد في تاريخ: العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٤): «وقيل إنّ سليمان لما ولي الخلافة حدثه جماعة من العلماء، أنّ الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي، ولم يكن من ملوك بني أمية من اسمه اسم نبي غيره، فطمع فيها، فاستعد لذلك، ولم يشك أنه الذي يلي ذلك»، وليس لذلك سند تاريخي أو علمي، وقد حاصر القسطنطينية قبل أيام سليمان المسلمون في عهد عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان، واسماهما ليسا اسم نبي!!

(٢) انظر سيرته في: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).

(٣) انظر البداية والنهاية (٩/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

(٤) انظر البداية والنهاية (٩/ ١٧٥)، العنوة: أخذ الشيء بالغلبة، وهو ضد الصلح، انظر معجم البلدان (١/ ٤٠).

المناسب للعمل العسكري المناسب، وهذا ما فعله سليمان سنة سبع وثمانين الهجرية، واتخذ من مدينة (دَابِق)[1] بعيداً عن عاصمته (دمشق) مقراً له، لئلا يشغل بأمور الدولة الأخرى، وليكون كل وقته من أجل إعداد القوات العسكرية القادرة على الفتح، إذ تفرّغ لهذا الهدف الحيوي تفرغاً كاملاً، وبذل كلّ طاقاته المادية والمعنوية لتحقيقه.

وحَسْب سليمان أنه قضى مدّة خلافته بـ(دابق)، من أجل إنجاز استحضارات قوّات فتح (القسطنطينية) قبل الحملة، ومن أجل الإشراف على سير القتال في أثنائها، حتى توّفاه الله هناك، فدفن فيها شهيداً بحق، من شهداء فتح عاصمة الروم.

لم يبق أمام سليمان بعد إكمال استحضارات قواته وحشدها غير اختيار القائد المناسب لمثل هذه المهمة الحيوية، فاختار أخاه مسلمة.

ج ـ وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م ـ ٧١٧م)، ولّى سليمان أخاه مسلمة قائداً عاماً على القوات الغازية للقسطنطينية[2]، فسار مسلمة على رأس جيشه اللّجب المؤلّف من مائة وعشرين ألفاً[3] في رواية، ومن مائة وعشرين ألفاً في البر ومائة وعشرين ألفاً في البحر[4]، في رواية ثانية يؤيد

---

(١) دابق: قرية بقرب حلب من أعمال (عزاز)، بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ، عندها مرج معشب كان ينزله بنو مروان، إذا غزوا الصائفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣).

(٢) الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٥/ ٢٧) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٤) وأبو الفدا (١/ ٢٠٠) والعبر (١/ ١١٦) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) ومختصر تاريخ الدول لابن العبري (١١٤)، وفي تاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ٣٠٢): «قال زيد بن الحباب: أنبأ الوليد بن المغيرة عن عبيد الله بن بشر الغنوي عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها)، قال: فدعاني مسلمة فحدثته بهذا الحديث، فغزاهم»، رواه أبو كريب وأحمد بن الفرات عن زيد.

(٣) دولة الإسلام (١/ ٥٨) ومختصر تاريخ الدول (١١٥) والبدء والتاريخ (٦/ ٤٣).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٧٥) وانظر خطط الشام (١/ ١٢٣) وفوات الوفيات (١/ ٣٦١).

ذلك المصادر غير العربية[1]، وأرجح الرواية الأولى، لصعوبة حشد مثل هذه القوات الجسيمة بالنسبة لذلك الوقت في جبهة واحدة، ولصعوبة نقل مائة وعشرين ألفاً في البحر، وعدم تيسّر السفن الكافية لنقلهم.

كما أنّ المصادر الأجنبية تبالغ في تعداد قوات المسلمين ـ خاصة البحرية منها ـ لتبرز أهمية النصر على تلك القوات وردِّها خائبة عن فتح القسطنطينية دون أن تحقق أهدافها المرسومة.

لقد زعمت بعض تلك المصادر الأجنبية، أنّ المسلمين حملوا قواتهم البحرية التي تعدادها مائة وعشرون ألف مقاتل على ألف وثمانمائة سفينة[2]، وهذا العدد الضخم من السُّفن لا يتيسر للمسلمين حينذاك.

ومع هذا، فقد كان جيش مسلمة المؤلّف من مائة وعشرين ألفاً، برياً في أكثره وبحرياً منقولاً بالسفن في أقلّه، حتى يستطيع فرض الحصار براً وبحراً في آن واحد على القسطنطينية كما سنجد ذلك في خطّة مسلمة في الحصار حسب مجرى الحوادث للمعركة.

وكانت مدينة (دابق) هي القاعدة المتقدِّمة لحشد جيش مسلمة، فقد سار مسلمة حتى نزل (دابق) وجاءته الأجناد من كل ناحية[3]: من الشام والجزيرة[4]، فسار إلى أرض الروم وانضم إليه فيها جيش المسلمين الذين كانوا هناك[5]، وسلك طريق (مَرْعَش)[6] فافتتح مدينة

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٨): «تعلم المسلمون من حصارهم تجربة الحصار الأول، أن ليس في استطاعتهم خرق الأسوار المنيعة، لذلك بنوا خطتهم هذه المرة على إنزال بحري، ويقال: إنهم أعدوا لذلك ألفاً وثمانمائة سفينة تنقل مائة وعشرين ألف محارب جاهزين للإنزال».

(٢) فتح القسطنطينية (٣٨).

(٣) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٧٥).

(٥) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٦) مرعش: مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان=

(الصَّقَالِبَة)[1]. وهجم الشتاء، فانحرف مسلمة بجيشه إلى مدينة (أفِيق)[2] وشتى بها، وهي ليست القريبة من (حوران) في طريق (الغور) وهو غور (الأرْدُن) المعروف، إذ ليس من المعقول أن يعود إلى (الأردن) ليقضي الشتاء فيه، والظاهر أنّ (أفيق) تقع في منطقة (عمورية) في السهل الواقع شمالي جبال (طوروس)، وهذا السهل أقل برداً في الشتاء من جبال (طوروس) التي تغطيها الثلوج شتاءً وفي أكثر شهور الربيع أيضاً.

ولما خرج الشتاء، سار مسلمة إلى (القسطنطينية) حتى نزل (عمورية)، وبَطْرِيْقها[3] (لِيُون) بن قُسْطَنْطين المَرْعَشِيّ، فوادعه مسلمة وأعطاه رَهْناً وأخذَ منه مثل ذلك، على أن يناصحه ويظاهره على أهل (القسطنطينية) ويكون عوناً له، وملك القسطنطينية يومئذ (تيودوس) وهو (ثيودوسيوس الثالث) الذي حكم من سنة (٧١٥م) إلى سنة (٧١٧م) وهو من أسرة (هِرَقل)[4] المشهورة.

وكان (ليون) أو (ليو) هذا، نصرانياً من سكان مدينة (مَرْعش) وله بها

= (٨/ ٢٥) وهي مدينة صغيرة، انظر تقويم البلدان (٢٦٢) بينها وبين مدينة (الحدث) وهي من الثغور خمسة فراسخ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦)، وهي مدينة رومانية كان اسمها (مراسيون Merasion).

(١) الصقالبة: جيل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٧٢) والقاموس المحيط (١/ ٩٣) ولسان العرب (٢/ ١٤)، وهم السلاف (Slaves) أو الجنس السلافي، وجبال الروم هي: جبال طوروس، ومدينة الصقالبة: مدينة تقع بين (دابق) و(عمورية) في جبال طوروس.

(٢) أفيق: قرية من حوران في طريق الغور (الأردن)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٠٧).

(٣) البطريق: رتبة عسكرية في جيش الروم، وهو قائد فرقة، والفرقة في جيش الروم تتألف من عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق، ويشابه البطريق في التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء، انظر كتابنا عقبة بن نافع الفهري (٥٨) ـ الطبعة الرابعة.

(٤) انظر: الأمبراطورية البيزنطية (٤٠١ ـ ٤٠٣).

كنيسة مشهورة تنسب إليه، أتى القسطنطينية في أيام الفتن التي كانت بها، فصار مشهوراً ببيع الخمر، وكان فصيحاً بالعربية والروميّة. ثم إنه انخرط في سلك الجندية وشهد المعارك الدائرة بين المسلمين والروم وأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة، فقدّمه الروم، ولم يزل ينتقل في المنزلة إلى أن صار بطريق مدينة (عمورية) وقيل إنه لما جاء إلى عمورية بكتاب الملك على أنه (بَطَرِيْق) ردّوه وقالوا له: مثلك لا يلينا، لأنك نبطي من أنباط العرب. فقال لهم: «إني لا أتولى عليكم إلّا بأمركم، وقد بلغكم حالي ورُجلتي وغَنائي، وحالكم مختلط، ومُلككم مضطرب، والفتن كثيرة، وهذا مسلمة بن عبد الملك قد شارف بلادكم، وهو يُوقِع بكم، فأدخلوني وفوِّضوا إليَّ أمركم، فأن قمتُ فيه كما تُؤْثِرون وإلّا فأخْرجوني واصنعوا بي ما أردتم»، فقالوا: صدق، فأدخلوه إليهم وولّوه أمرهم، فنزل به مسلمة وهو يريد (القسطنطنية)(١).

ولا تختلف هذه الرواية العربية كثيراً عن الرواية الأجنبية التي جاء فيها: أنّ (ليو) نشأ فلاحاً ثم أصبح جندياً مرتزقاً، وتقدّم في الجندية لشجاعته في القتال، حتى توصّل إلى القِمّة بفضل مقدرته وحدها، وكان لا يزال شاباً(٢).

ولكن كيف اتّصل مسلمة بليون، هل اتصل به مباشرة كما ذكرنا، باعتبار أنّ مسلمة كان قد فتح (عموريّة) سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) فهو يعرف مداخلها ومخارجها وأهلها(٣)؟

هناك رواية تذكر: أنّ (ليون) أتى الخليفة سليمان بن عبد الملك من

---

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٣٦ ـ ٣٧)، وانظر: سني ملوك الأرض والأنبياء (٦٩).

(٢) فتح القسطنطينية (٣٨ ـ ٣٩)، وفي تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٢١): أن مسلمة شتى بضواحي الروم.

(٣) جاء في البداية والنهاية (٩/ ١٧٤): «ثم إنّ مسلمة داخل رجلًا من النصارى يقال له: إليون وواطأه في الباطن ليأخذ له بلاد الروم»، وانظر أيضاً البدء والتاريخ (٦/ ٤٣ ـ ٤٤).

(أَذْرَبِيْجَان) وضمن له فتح الروم، فوجّه مسلمة معه، فسارا إلى (القسطنطينية)[1].

وأرجّح أنّ مسلمة اتّصل مباشرة بليون، الذي كان المسؤول عن المنطقة الأمامية للدفاع عن (القسطنطينية) بصفته بطريق (عموريّة)، لذلك لم يذكر المؤرخون أنّ مسلمة صادف مقاومة تذكر في صفحة مسير الاقتراب أثناء تقدمه من (عموريّة) حتى (القسطنطينية)، مما يدلّ على نجاح مسلمة في استمالة (ليون) إلى جانبه، ومن الواضح أنّ (ليون) كان طموحاً جداً، وكان يتطلّع إلى أن يكون امبراطور الروم، فوادع مسلمة كمرحلة من مراحل خطّته لتولي السلطة تحقيقاً لمطامعه ـ خاصة بعد وفاة امبراطور الروم السابق (ثيودوسيوس الثالث) آخر أباطرة أسرة (هرقل).

واستصحب مسلمة (ليون) ليدلّه على الطريق والعورات، وأخذ عهوده ومواثيقه على الوفاء والمناصحة[2]، وكان (ثيودوسيوس) ضعيف الرأي، سيء التدبير عاجزاً فيما تقلّده من أمر الروم، وكان أمر الروم مضطرباً وأيامهم أيام هرج ومرج[3].

أما جيش المسلمين بقيادة مسلمة، فقد كان موضع اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك، أخرج لهم الأعطية، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة، وأعلمهم بغزو (القسطنطينية) والإقامة إلى أن يفتحوها. ثم سار سليمان من (بيت المقدس) إلى (دمشق) وقد اجتمعت له العساكر، فأمّر عليهم أخاه مسلمة ثم قال: «سيروا على بركة الله، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف». ثم سار سليمان حتى نزل (مُرْج دابِق)، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة والمحتسبين أجورهم على الله، فاجتمع له جند عظيم لم يُرَ مثله[4].

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٢٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) وانظر الطبري (٦/ ٥٣١) الذي ذكر أن (ليون) قدم من (إرمينية).

(٢) البدء والتاريخ (٦/ ٤٤).

(٣) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٣٦).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٧٥).

وانطلق مسلمة بهذا الجيش، فلما دنا من (القسطنطينية)، أمر كلّ فارس أن يحمل معه مُدَّيْن[١] من طعام إلى عجز فرسه إلى (القسطنطينية) ففعلوا، فلما أتاها أمر بالطعام فألقي أمثال الجبال، وقال مسلمة للمسلمين: «لا تأكلوا منه شيئاً، وأغيروا في أرضهم وازرعوا»، وعمل بيوتاً من خشب، فشتى فيها وصاف، وزرع الناس وبقي الطعام في الصحراء أرزاقاً احتياطيّة، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات ومن الزّرع[٢]، ولا يأكلون من أرزاقهم الاحتياطيّة.

هكذا كان جيش مسلمة من الناحية الإدارية منظماً تنظيماً جيداً، وكانت خطته الإدارية خطة جيدة أيضاً، وللخطة الإدارية الجيدة أثر بالغ في إحراز النصر، لأن الجندي يمشي على بطنه كما يقول المثل العسكري المشهور ولكنّ أرزاق جيش مسلمة لم تقتصر على ذلك، بل جاءته العُلُوفَة والأطعمة ونقلت إليه من الضواحي ومن رساتيق الروم وجاءته في المراكب[٣] أيضاً، كما كدّس لجيشه السِّلاح، فجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك[٤]. وهكذا استكمل مسلمة قضاياه

---

(١) المد: من المكاييل الإسلامية، يختلف من قطر إسلامي إلى آخر، والمد السوري يساوي (٨٤ ر٢) كغم، انظر التفاصيل في هنز (Walther Hinz) - المكاييل والأوزان الإسلامية - (٧٤ - ٧٧) - منشورات الجامعة الأردنية - ترجمة الدكتور كامل العسلي - عمان - ١٩٧٠ وانظر ترتيب القاموس المحيط (٤/ ١٩٢) ومعجم متن اللغة (٥/ ٢٦)، وتنفيذاً لأمر مسلمة يحمل كل فارس مدين، أي يحمل ما يساوي (٦٨ ر٥) كغم، وحمل مثل هذه الكمية القليلة غير معقول ولا يؤدي إلى الغرض المطلوب، وهو تكديس كميات نافية من الطعام لغرض حصار مديد وأرى أن مسلمة في قوله: يحمل كل فارس مدين، لا يريد المعنى الحرفي، بل يريد: أن يحمل كل فارس ما يستطيع من أرزاق، والمقدار الذي يحمله الفارس هو عشرون كيلوغراماً كمعدل، وهذه نتيجة لخبرتي الشخصية باعتباري ضابطاً في صنف الخيالة (سلاح الفرسان).

(٢) الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٥/ ٢٧)، وفي التنبيه والإشراف (٢٩٠): وكان مسلمة بن عبد الملك لما بنى مدينته التي على خليج القسطنطينية سماها: مدينة (القهر).

(٣) العيون والحدائق في إخبار الحقائق (٢٤).

(٤) العيون والحدائق في إخبار الحقائق (٢٦).

الإدارية تسليحاً وتجهيزاً وأرزاقاً وعلفاً وإسكاناً، فأعدَّ بخطته الإدارية هذه متطلّبات النصر إدارياً.

تلك هي مجمل خطة مسلمة الإدارية، فما هي خطته العسكرية في الحصار؟

هـ - تحتل مدينة (القسطنطينية) موقعاً سَوْقياً فريداً، حبته الطبيعة بأهم عوامل الدفاع الطبيعية التي تساعد المدافعين عنها عن الثبات. تحوطها من الشرق مياه البسفور، وتحدّها من الغرب والجنوب مياه (المرمرة)، ويقسمها (القرن الذهبي) إلى قسمين عظيمين هما؛ (بيرا) وهو القسم الشمالي الشرقي، و(إستانبول)[1] وهو المدينة البيزنطية الحقيقية. وتحتل (استانبول) مثلثاً عظيماً من المرتفعات الصخريّة، تشرف قاعدته على (المرمرة) وضلعه الأيمن على مياه (القرن الذهبي) والميناء، وكان كل من هذين الجانبين يحرسها سور واحد. أما الضلع الثالث وطوله ستة أميال، فهو الجانب المتّصل بالقارة الأوروبية، يحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة، وخندق واحد مزدوج، وفيه عدة أبواب، وفي كل زاوية من زوايا المثلّث الثلاث قلعة منيعة، وكانت مياه (القرن الذهبي) الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور (غَلَطة) وسور (إستانبول).

وهكذا تهيأت أسباب الدفاع المديد لهذه المدينة: أسباب طبيعية، وأسباب صناعية، مما جعلها موقعاً حصيناً وقلعة آمنة، من الصعب على الغزاة احتلالها[2].

---

(١) استانبول: يسمي المسلمون (Constan Tinople) بالقسطنطينية، أما فيما يتصل باسمها البيزنطي الذي يقال إن منه اشتق لفظ (استانبول) وهو الاسم التركي الحديث، فإن المسعودي في النصف الأول من المئة الرابعة الهجرية والعاشرة الميلادية كتب في كتابه: (التنبيه) ص (١٣٨): «إنّ الروم في أيامه كانوا يسمون عاصمتهم: (بولن) - (Bulin) أي (Polin). ومعناها: المدينة وإذا أرادوا أنها دار الملك لعظمها قالوا: (استن بولن)، ولا يدعونها القسطنطينية، وإنما المسلمون تعبر عنها بذلك»، واستن معناها: دار الملك أو العاصمة، واستن بولن معناها مدينة دار الملك، المدينة العاصمة. و(استن بولن) هي: (استانبول). وسماها المسلمون بعد فتحها: (إسلام بول).

(٢) بين العقيدة والقيادة (٣٥٥ - ٣٥٦)، وانظر مواقف حاسمة (١٧٥).

وكان بنو أميّة دولة وجيشاً، يهتمون كثيراً بجمع المعلومات المفصّلة الدقيقة عن أعدائهم، وكان وسائلهم وأساليبهم للحصول على هذه المعلومات كثيرة ومتعددة، كالعيون والأسرى والتجار والمرابطين والمجاهدين ونحوهم، فكانت القيادتان السياسية والعسكرية لبني أميّة في الشّام تعمل لتحقيق أهدافها الحيوية وهي على بصيرة من أمرها، فهي تعمل مفتوحة العينين في النور لا مغمضة العينين في الظلام.

لقد كانت مخابرات المسلمين تعرف كلّ شيء عن الروم: قواتهم، وقياداتها، وتنظيمها، وتسليحها، وتدريبها، وما تعانيه من ثغرات، وطبيعة بلادها، ومواردها التموينية، ومشاكلها الداخلية والخارجية، وغيرها من المعلُومات المفصّلة الدقيقة.

وبعد أن جعل مسلمة من (عمورية) قاعدة متقدِّمة، اتّجَهَ شمالاً نحو (القسطنطينية)، فلاقى مقاومة في طريقه[1] تغلّب عليها بسهولة حتى وصل إلى (الخليج) وهو المضيق الذي يصل بين بحر (بُنْطُس)[2]، وهو البحر الذي نطلق عليه اليوم (البحر الأسود)، ويقع بين (القسطنطينية) والبحر الأبيض المتوسط، فقطع (الخليج) حتى نزل (القسطنطينية)، وعبر من موضع يقال له (أبِدُس)[3] وهناك يكون عرض (الخليج) غلوة[4] سهم - مقدار ثلاث مئة إلى أربع مئة - وهو الخليج الذي يدعى بحر (بُنْطُس) يقبل من (إرْمِينِيّة)

---

(١) انظر M - A Cheira (La Lutte Entra Arabes Et Byzantins) (١٨٠ - ١٨١) وفيه: قامت الحملة بأعمال ضد نيقيا وُبْرغَر وساردوس.

(٢) بحر بنطس: بحر يعرف بهذا الاسم عند اليونانيين، وهو البحر الذي يتفرع منه خليج القسطنطينية أوله في أطراف بلاد الترك في الشمال ويمتد إلى ناحية المغرب والجنوب حتى يتصل ببحر الشام، وقبل اتصاله ببحر الشام يسمى: بنطس، انظر معجم البلدان (٢/ ٦٦) و(٢/ ٢٩٣)، وهو البحر الأسود كما يطلق عليه اليوم.

(٣) لم أجد لها ذكراً في المصادر الجغرافية العربية القديمة التي بين أيدينا، والموجود هو (اندس: مدينة على غرب خليج القسطنطينية، وهي (Abydo).

(٤) الغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدر بثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة.

حتى إذا صار إلى (القسطنطينية) افترق من وجهين: شمالاً وشرقاً، فإذا بلغ (أبِدُس) ضاق حتى يصير مقدار غلوة بين جبلين وبين (أبدُس) والقسطنطينية مئة ميل (الميل العربي = كيلومتران)[1] في مستوى من الأرض وسهولة[2].

ومن الواضح أنّ مسلمة عبر من غربي القسطنطينية، فمدينة (أبِدُس) تقع بعد القسطنطينية بالنسبة للبحر الأسود استناداً إلى نص ما جاء من العبور: «وورد مسلمة الخليج وقطعه حتى عزل (القسطنطينية)، وعبر من موضع يقال له: أبِدس، يكون عرض الخليج هناك غَلْوَة سهم، وهو الخليج الذي يدعى: بحر بنطس، يُقبل من (إرمينية) حتى إذا صار إلى القسطنطينية (يريد البحر الأسود) افترق من وجهين: شمالاً وشرقاً، فإذا بلغ (أبِدُس) ضاق... إلخ»، فهو ـ أي مسلمة قد عبر من المضيق الغربي للقسطنطينية، كما أنه لا مضايق شمالي هذه المدينة يمكن عبورها بسهولة ويسر. ثم إن (أبِدُس) التي ورد ذكرها في هذا النص هي مدينة (أنْدُس)، وهي مدينة على غربي خليج القسطنطينية بين جبلين، بينهما وبين القسطنطينية ميل في مستوى من الأرض[3].

ولا أتصوّر أنّ هناك مسوِّغاً لعبور مسلمة على بعد مئتي كيلومتر (مئة ميل عربي) من القسطنطينية، فهذه مسافة شاسعة جداً من ناحية، ولا وجود لمضيق على بعد مئتي كيلومتر من القسطنطينية شمالاً أو جنوباً يمكن عبوره بجيش ضخم مع تجهيزاته العسكرية ووسائل تنقله البرية وموارده الإعاشية ونحوها، والظاهر أنه عبر من مسافة ميل عربيّ واحد (كيلومترين) من غربي القسطنطينية، لأنه عبر من (أندُس)، وهذه المسافة مناسبة حقاً، والموقع بين

---

(١) الميل: أربعة آلاف ذراع شرعي، انظر معجم البلدان (١/ ٣٥) وهو كيلو مترين، انظر المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري (٩٥).

(٢) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٦) وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤).

(٣) انظر معجم البلدان (١/ ٣٤٧)، ومن المحتمل أن تكون مدينة (أبدس) قد حرفت إلى (أندس).

جبلين يخفي العبور عن رصد العدو، وقد استفاد مسلمة من السفن التي رافقت حملته في العبور، والظاهر أنه لم يلق مقاومة تذكر في عبوره.

وبذلك أنهى مسلمة مرحلة (مسير الاقتراب)[١] من خطته التي رسمها لفتح القسطنطينية، وبدأ مرحلة جديدة، وهي مرحلة: (فرض الحصار) في سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب - أغسطس ٧١٦م)[٢].

طوّق مسلمة بقواته البرية والبحرية مدينة (القسطنطينية)، فقد طوّقت قواته البرية هذه المدينة بالقرب من الخندق الذي يحيطها من جوانبها البريّة يجري الماء فيه[٣]. كما سدّت هذه القوات المنافذ البحرية من الشمال، بوضع مراكز مراقبة بريّة قوية على الساحل مزوّدة بالمنجنيقات، ومن المحتمل جداً أن تستفيد هذه المراكز من السفن المحلية التي يعمل فيها المسلمون أو المرتزقة للمعاونة في سدّ المنافذ البحرية للقسطنطينية من الشمال، ولكن هذه المراكز لم تكن كافية، وهي ثغرة في خطة الحصار، لأنّ تلك المنافذ البحرية يجب أن تغطّى بمراكز مراقبة بحرية قويّة لا مراكز بريّة قويّة وقوات بحرية كافية.

أما البحرية الإسلامية التي جاءت من سورية ومصر، فقد قاتلت أسطول الروم في (رودس) وأسرت بعض سفنه ودمّرت أخرى، وكان بحّارة الأسطول الرومي في عصيان حينذاك، ينقصهم الضبط والنظام، كما هاجمت البحرية الإسلامية سواحل آسيا الصغرى حتى وصلت إلى قرب القسطنطينية، فسدّت المنافذ الجنوبيّة البحرية لهذه المدينة استكمالاً لخطة تطويقها.

وعند حلول موسم الشتاء أمر مسلمة أن يبني رجاله بيوتاً من الخشب[٤]، لتقيهم المطر والثلج والبرد، وأمر الناس بالزراعة، فصاف وشتى

---

(١) مسير الاقتراب: تقدم الجيش من قواعده الرئيسة أو قواعده الأمامية أو المتقدمة إلى ساحة القتال حتى التماس بالعدو.

(٢) (La Lutte entre arabes E7 Byzantin. s) انظر التفاصيل ص (١٨٠ - ١٨٥).

(٣) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٧).

(٤) الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٥/ ٢٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

وهم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوه مُدَّخراً[1].

وكان هدف مسلمة من خطته الإدارية وخطته للعمليات، هو ما ذكره علناً لرجاله: «إنّا لا نرجع عن هذا البلد إلّا أن نفتحها إن شاء الله»[2]، وكان سبيله لتحقيق هدفه: فرض الحصار المديد، لكي يستسلم المحاصَرون جوعاً.

ومنذ فرض الحصار على القسطنطينية حتى انسحب المسلمون عنها إلى قواعدهم، جرت حوادث القتال في صفحات ثلاث.

الصفحة الأولى من تاريخ فرض الحصار في أواخر صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب ـ أغسطس ٧١٦م) حتى تولى ليون الثالث عرش القسطنطينية في سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ ـ مارت ـ مارس ـ ٧١٧م)[3]، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم: صفحة (المبادرة).

وبالرغم من أنّ المصادر التاريخية العربيّة وغير العربية لا تذكر معلومات وافية عن أعمال الجيوش الإسلامية والرومية خلال هذه المدة، إلا أننا نستطيع أن نذكر أنّ مسلمة في هذه الصفحة هاجم أسوار القسطنطينية مرتين: الأول بحشد أربعة آلاف مقاتل، وكان اتجاه هجومه منطقة (باب الذهب)، والثانية بحشد ثلاثة آلاف مقاتل، وكان اتِّجاه هجومه هو نفس اتِّجاه هجومه الأول ولكنه لم ينجح في هذين الهجومين[4].

واستطاع المسلمون أن يؤثروا في الروم المحاصرين تأثيراً شديداً،

---

(١) ابن خلدون (٣/ ١٥٥) وانظر الطبري (٦/ ٥٣٠) وابن الأثير (٥/ ٢٧) والبداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤).

(٣) البحر الزاخر (٢/ ٣٦٧).

(٤) انظر التفاصيل في (La Lutte entre arabes Et Byzantine) (١٨٠ ـ ١٨٥).

فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كلّ رأس ديناراً ليرحل عنهم، فلم يقبل مسلمة[١] بهذا العرض، وأصرّ على فتح المدينة.

وأقام مسلمة محاصراً القسطنطينية قاهراً لأهلها[٢]، مانعاً لهم من كل مرفق براً وبحراً[٣]، وكان معتمداً على جيش المسلمين وعلى جماعة من الروم على رأسهم ليون، الذي عاون مسلمة في هذه الصفحة حتى استحوذ على ثقته التامة.

وبعث مسلمة ليون إلى أهل القسطنطينية في رسالة، فلما دخل عليهم ليون قالوا له: ردّه عنا ونحن نملكك علينا[٤]، فاستوثق منهم وتولّى عرشهم[٥]، وبذلك تكللّت جهود ليون التي بذلها لتولي العرش بالنجاح.

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٢٧) وابن خلدون (٣/ ١٥٩).

(٢) الطبري (٦/ ٥٣٠).

(٣) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٧)..

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٧٤)، وفي ابن الأثير (٥/ ٢٧): فقالت الروم لليون: إن صرفت عنا المسلمين ملكناك.

(٥) ابن الأثير (٥/ ٢٧) والبدء والتاريخ (٦/ ٤٤)، وقد جاء في ابن الأثير (٥/ ٢٧): أتى ليون مسلمة فقال له: «إنّ الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال، وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم»، فأمر به فأحرق، فقوي الروم وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون. وقيل: إنما خدع ليون مسلمة بأن سأله أن يدخل الطعام إلى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوه بأن أمره وأمر مسلمة واحد، وأنهم في أمان من السبي والخروج من بلادهم، فأذن له، وكان ليون قد أعدّ السفن والرجال، فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا في تلك الحظائر إلّا ما لا يذكر، وأصبح ليون محارباً، وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها». وفي ابن خلدون (٣/ ١٥٥): قال ليون لمسلمة: «لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدتهم بالقتال، فتأخذهم باليد، وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم»، فأحرق الزرع، فقوي الروم، وغدر ليون، فأصبح محارباً وجاء في الطبري (٦/ ٥٣١) ما جاء في ابن الأثير (٥/ ٢٧ ـ ٢٨)، ومن المعلوم أنّ ابن الأثير نقل نصّ ما جاء في الطبري. وفي البداية والنهاية (٩/ ١٧٤): قال ليون لمسلمة: «إنهم ـ أي أهل القسطنطينية ـ ما داموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم في القتال، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم، وسلّموا إليك البلد سريعاً»، فأمر مسلمة=

لقد كان بإمكان مسلمة أن يحقِّق إنجازات عسكرية رائعة في هذه الصفحة أكثر مما حقّقه عملياً فيها، لولا ثقته بليون الذي منّاه بفتح القسطنطينية بالمكر والخداع، فاستنام مسلمة لتلك الأمانيّ العذاب، وأخيراً ظهر له أنّ ليون لم يكن حريّاً بكلّ هذه الثقة، فقد كان يعمل لنفسه مسَخِّراً مسلمة لتحقيق مصالحه الذاتية.

والمهم هو أن نذكر أنّ قسماً من المؤرخين صوّروا أنّ مسلمة كان ضحية لمكيدة من مكايد ليون، جعلته يحرق أكداس الأرزاق والعلف لجيش

= بالطعام فأحرق، ثم انشمر ليون بالسفن، فأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش في الليل، وأصبح في البلد هو محارب المسلمين» وفي البدء والتاريخ (٥/ ٤٤): قال ليون لمسلمة: «لا يفتحون ما لم يتنح عنهم»، فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق، فدخل ليون ولبس التاج وقعد على سرير الملك وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج، فملأوا الأهراء وشحنوا المطامير». وفي العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٨): أن مسلمة أرسل ليون مع جماعة من أهل ثقاته إلى أهل القسطنطينية يقول لهم: لست أرحل عنكم حتى تملكوا مولاي ليون ويسلم إليه ملككم ثم أرحل عنكم وادعكم وبلادكم ودينكم وكنائسكم..

وأرى أن هذه الروايات أشبه بالأساطير منها بالحقائق التاريخية، فليس هناك قائد يحرق مواد جيشه الغذائية، وليس هناك قائد يفسح المجال لعدوه بأخذ مواد جيشه التموينية، وليس هناك قائد يتخلى عن الحصار ويذهب بعيداً تاركاً غلّات جيشه نهباً للعدو. كما أن الحجج التي قدمها ليون لمسلمة لا تقنع عاقلًا، إذ كيف يستسلم العدو لجيش إذا أحرقت المواد التموينية لذلك الجيش؟! بينما المعقول أن يستسلم العدو إذا وجد خصمه قد كدّس الأرزاق الكافية لإدامة حصار طويل، وكلّ محاصر يستسلم غالباً من الجوع، ولا نعرف أحداً استسلم من الشبع!! وليس إجماع المؤرخين حجّة دامغة على صحتها، فالخلف ينقل عن السلف، وقد اتهم بنو أمية بكثير من التهم خاصة وأنّ تاريخهم سُجِّل بعد زوال ملكهم وتولي أعدائهم من بعدهم، فلا يستبعد أن يفتري مفتر، فيروي ما سمعه المؤرخ، فيأتي من بعده من المؤرخين فينقلون تلك الفرية، وقد كان مسلمة معروفاً بالدهاء، فكيف تجوز عليه خدعة لا تجوز على أي إنسان حتى لو كان من أغبى الأغبياء!

ثم إنّ المواد التموينيّة لا يمكن أن تبقى بدون حماية قوية وحراسة شديدة، فكيف يستطيع ليون أن ينهبها، فيخسرها المسلمون بهذه السهولة، ويربحها أعداؤهم، لتكون قوّة لهم على المسلمين؟؟!!

المسلمين، وهذه مكيدة لا يقع بها عاقل كمسلمة، بل لا يقع بها أي عاقل، كما أنّ اختلاف الروايات لمختلف المؤرخين، يؤدي إلى زعزعة الثقة بتلك الروايات، هذا بالإضافة إلى أنها روايات متهافتة لا يصدِّقها عاقل، فهي أقرب إلى حكايات الأخباريين منها إلى حقائق المؤرخين.

ولعلّ مصدر تلك الروايات أعداء الأمويين، وما أكثرهم عدداً وما أشدّ عدواتهم وأعظمهم لدداً. تلك هي الصفحة الأولى من صفحات حصار القسطنطينية، وهي صفحة (المبادرة)، وهي المبادرة التي لم يستفد منها مسلمة كما ينبغي، لتحقيق نصر عسكري حاسم للمسلمين على الرّوم.

ثانياً: أما الصفحة الثانية فتبدأ بتولي (ليون الثالث)(1) عرش

---

(١) ليون الثالث: ليون المرعشي، انظر البدء والتاريخ (٦/٤٣ ـ ٤٤) وهو ليون بن قسطنطين المرعشي، انظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥)، نشأ فلاحاً ثم أصبح جندياً مرتزقاً وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال، ووصل إلى القمة بفضل مقدرته وحدها، وكان ما يزال شاباً، انظر فتح القسطنطينية (٣٨ ـ ٣٩). وفي ٢٥ مارت (مارس) سنة ٧١٧م جلس ليون الثالث على عرش الامبراطورية البيزنطية الشرقية وأسّس عائلة جديدة عرفت بالعائلة (الايسوريانية)، وكان من أهل (ايسوريا) واسمه الأصلي كونون، وقد قدح فيه المؤرخون الذين من عادتهم القدح والذم، ووصفوه بأن كان طوافاً على حمار له في الأمصار يبيع الفراخ، وإن أباه هاجر من آسيا الصغرى وأقام في نواحي (ثراسة) وعمل في بيع الحشيش. عمل ليون جندياً وترقى بالتدريج واشتهر اسمه وعلا قدره في الحرب، فعينه نسطاس قائداً للفرق الأنضولية حتى اختير امبراطوراً، انظر البحر الزاخر (٣/٣٦٧)، وكان نصرانياً من سكان (مرعش)، فأتى (القسطنطينية) في أيام الفتن التي كانت بها وصار مشهوراً ببيع الخمر، وكان فصيحاً بالعربية والرومية، وقد حضر الحرب الدائرة بين المسلمين والروم، فأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة، فقدّموه ولم يزل ينتقل في المنزلة إلى أن صار (بطريق) عمورية. وقيل: إنه لما جاء إلى عمورية بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردّوه وقالوا له: مثلك لا يلينا، لأنك نبطي من أنباط العرب. فقال لهم: «إني لا أتولى عليكم إلّا بأمركم، وقد بلغكم حالي ورجلتي وغنائي، وحالكم مختلط، وملككم مضطرب، والفتن كثيرة، وهذا مسلمة بن عبد الملك شارف بلادكم، وهو يوقع بكم، فأدخلوني وفوضوا إليّ أمركم، فإن قمت به كما تؤثرون وإلّا فأخرجوني واصنعوا بي ما أردتم»، فولّوه أمرهم، انظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥ ـ ٢٦). =

القسطنطينية في سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ مارت ـ مارس ـ ٧١٧م) إلى حلول شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (كانون الأول ـ ديسمبر ٧١٧م)، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم: صفحة (المصابرة).

ومهما اختلفت الروايات في حقيقة علاقة (ليو الثالث) بمسلمة بن عبد الملك والطريقة التي اعتلى بها عرش القسطنطينية وتاريخ حياته قبل اعتلاء العرش وبعده، إلّا أنه كان امبراطوراً عظيماً وقائداً متميزاً محنكاً، وكان حاذقاً في وضع الخطط العسكرية[1].

= وبدأ سلطنته بالمدافعة والمحافظة الكبيرة على القسطنطينية، ولما خلص المملكة وأنقذها من العرب عكف على إحياء رسومها وتقويتها، فنتج من إدخال القوانين والأنظمة الجديدة فيها عصر جديد في سعادة المملكة وفلاحها، واستتبّ السلم والأمن فيها، وقد حكم البلاد أربعاً وعشرين سنة، وبعد موته خلفه ابنه قسطنطين الخامس وتولى العرش في (١ حزيران ٧٤١م) سنة ثلاث وعشرين ومائة الهجرية، انظر البحر الزاخر (٣/ ٣٦٧)، وانظر أيضاً تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (٦٩) وابن الأثير (١/ ٣٣٥)، وليو الثالث هو (Leo the Isaurian) وظل المؤرخون يعتبرون أسرة (ليو الثالث) إيسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولكن في سنة ١٨٩٦م كتب العالم الألماني (شينك) في مجلة الأبحاث البيزنطية في مؤسس هذه الأسرة، فجعله سورياً لا إيسورياً، انظر ما جاء حول ذلك في:

.(Schenk, k, Kaiser Leones, 111, Byz, v,296 FF)

ثم جاء بعده من أيده، انظر:

(Jorg, N., Origines de L'Iconoclasme Bulletin Acad, Roumaine X1. (1924), 147.

وجاء بعده ما عارضه، انظر: (Kulakovsky, JA, Hist, of Byzantium, 111'319)) والسبب في هذا الاختلاف أن (ثيوفاس) المرجع الرئيس في سيرة (ليو) قال عنه إنه من أبناء مرعش (جرمانيكية) ومن أصل أسوري انظر: (Theophanes, Chronographia, ed, Boor, 391) وكان انسطاسيوس الذي نقل كتاب ثيوفانس إلى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته: إن ليو كان من أبناء جرمانيكية، وإنه كان سوري المولد، انظر ما جاء حول ذلك في: (Chronographia Tripertila, eb. Boor, 251).

والواقع أن اسطفانوس الأصغر يؤيد القول بالأصل السوري، ويوافقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب: العيون والحدائق (٢٥)، انظر كتاب: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩١).

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ ـ ٣٩).

فقد قدّر أن الروم سيواجهون حصاراً طويلًا، لذلك بذل جهده في تكديس المواد التموينية، ولما كان هناك خطر الموت جوعاً عند نجاح الحصار البحري الذي فرضه المسلمون على القسطنطينية، عمل جهده لتقوية سفنه ـ وكان عددها قليلًا جداً بالنسبة لأسطول المسلمين، فهي ليست قادرة على النهوض بمهاجمة الأسطول الإسلامي، لذلك أمّن حمايتها بسلسلة حديدية هائلة أقامها لسد مدخل المرفأ، فمنع أي سفينة قادمة من الخارج من دخوله، وكانت هذه السلسلة هي: (السد البحري)[1] الذي تعلّمه منه المدافعون عن القسطنطينية من بعده حتى فتحت على يد محمد الفاتح. وكان لهذا السد دور كبير في الدفاع عن المدينة المحاصرة، وأثّر في منع الأسطول الإسلامي من التغلغل في المياه القريبة من هذه المدينة، وفي حماية السفن البيزنطية التي تجمّعت وراءه من غارات أسطول المسلمين.

ولكنّ تكديس المواد التموينية وإقامة السد البحري، مع الاحتماء بأسوار حصينة منيعة، والاستفادة من موقع القسطنطينية الحصين المساعد على الدفاع، غير كافية لترجيح كفّة الروم على المسلمين وأخذ (المبادرة) نهائياً منهم، لأنّ كلّ هذه العوامل ـ على أهميتها ـ عوامل دفاعية وليست تعرضيّة، لذلك ركّز (ليون الثالث) طاقاته لابتكار سلاح جديد تعرضي، فتهيأ له سلاح سرى فتّاك هو: (النار اليونانية)، ذلك السلاح الذي نقل (المبادرة) من أيدي المسلمين إلى أيدي الروم، وأثر في مصير المعركة كلّها تأثيراً حاسماً.

والمظنون أنّ رجلًا من أهل الشام اسمه (كالنيكوس) هو الذي نقل

(١) السد البحري: هو سد لإغلاق ممر القرن الذهبي: يبدأ من شمالي المدينة، وينتهي عند حي (غلطة)، وبالطبع استعملنا الأسماء الجغرافية الحديثة التي ما تزال مستعملة حتى اليوم، لا مكان إيضاح موضع هذا السد البحري بالنسبة للدارسين المحدثين، انظر الخريطة المرفقة.

هذا السِّلاح إلى الروم، في وقت كان الروم فيه بأمسِّ الحاجة إلى هذا السلاح[1].

والمعتقد أنّ: (النار اليونانيّة) خليط من النفط والكبريت والقار، ولكنّ نسب التركيب كانت سرية، فكانت أَلْسِنَةُ القائمين بإعداد هذا الخليط تقطع لأغراض الأمن والكتمان، وكان هذا سراً خاصاً بالقسطنطينية فقط، احتفظت به طيلة أربع مئة عام[2].

وقد أفادت هذه النار المدافعين مادياً ومعنوياً، فاستفادوا منها لفتح ثغرات برية وبحرية بين صفوف المسلمين المحاصِرين للقسطنطينية تسرّبت منها المواد التموينية للمحاصَرين من الروم، كما رفعت معنويات الروم التي كانت منهارة.

كما أضرّت هذه النار بالمسلمين مادياً ومعنوياً أيضاً، فكبّدتهم خسائر فادحة بالأرواح والمواد والسفن، مما أدى إلى زعزعة معنوياتهم التي كانت عالية في الصفحة الأولى من الحصار: صفحة المبادرة.

لقد أصبح موقف الجانب المدافع بقيادة الأمبراطور الجديد الذي أعاد تنظيم قواته، وادّخر لهم ما يكفيهم من مواد تموينية، مستفيداً من أسوار قوية ودفاعات منيعة تحيطهم من كلِّ جانب، ومن سفن جيدة في مرفأ محمي حماية قوية، توافرت لهم النار اليونانيّة المؤثِّرة.

أما موقف المسلمين، فلم يكن ميؤساً منه، فكانت الإمدادات تصلهم بانتظام، ولكنها لم تكن بشكل تجعل التفوق التمويني إلى جانبهم، وكان

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي (١/ ١٧٩).

(٢) فتح القسطنطينية (٣٩)، وفي تاريخ التمدن الإسلامي (١/ ١٨٠): أنّ هذه النار مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والأدهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة، كانوا يشدونها إلى مقدم السفينة، فيقذفون منها السائل مشتعلًا، أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المتلوث بالنفط، فيقع على السفن أو البيوت فيحرقها.

أملهم باستعادة المبادرة كبيراً، فقاوموا وصبروا وصابروا انتظاراً لقوات ضاربة متفوقة تصلهم من القاعدة المتقدمة (دابق) التي يرابط فيها سليمان بن عبد الملك ليشرف على الإمدادات بنفسه.

ثالثاً ـ أما الصفحة الثالثة وهي صفحة: (المكابرة)، فتبدأ من شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (كانون الثاني ـ يناير ٧١٨م) إلى انسحاب المسلمين من حصار القسطنطينية في بداية حكم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

كان موقف الروم في هذه الصفحة أفضل من موقف المسلمين بكثير، وكان عامل الوقت بجانب الروم على المسلمين، فكلما تقدم الوقت ازداد الروم قوة وازداد المسلمون ضعفاً.

فقد أدى شتاء عام تسع وتسعين الهجرية (٧١٨م) القارس البرد بثلوجه وأمطاره الغزيرة، إلى موت آلاف المسلمين، لأنهم تعوّدوا الطقس الحار الدافىء، كما شلّت الرياح الهوج العاتية والتيارات البحرية الجارفة في (البسفور) سفنهم عن العمل[١].

ونفدت المواد التموينية للمسلمين ولم يبق منها إلّا أقلّ القليل، فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشّجر وكلّ شيء غير التراب[٢].

كما انهارت معنوياتهم، حتى كان الرجل منهم يخاف أن يخرج من العسكر وحده[٣].

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك ما يزال مقيماً في (دابق)، فلم يقدر أن يمدّ المسلمين بشيء من الأزواد لكثرة البرد والثلوج[٤].

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩).

(٢) الطبري (٦/ ٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٥)، وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤).

(٣) الطبري (٦/ ٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨).

(٤) العيون والحدائق (٣٣) وانظر الطبري (٦/ ٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٥).

لقد كانت الظروف قاسية بالنسبة للمسلمين في صفحة (المكابرة) بقدر ما كانت مؤاتية بالنسبة للروم.

ولعل الشتاء القارس[١] كان من أقوى حلفاء الروم على المسلمين، ولكنّ المسلمين تحملوا وصبروا إلى درجة (المكابرة)، حتى ضاق بهم الأمر، فكان لا بدّ لهم من التخلي عن الحصار والانسحاب إلى قواعدهم.

ولكن لم تكن هذه العوامل وحدها هي التي جعلت كفّة الروم ترجح على كفة المسلمين في ميدان القسطنطينية بالرغم من أهميتها، إذ كان لتشبثات (ليو الثالث) التعبوية والإدارية أثر ملموس في رجحان كفّة الروم في ذلك الميدان.

فقد كان من ترتيبات (ليو) التعبوية قصف تجمعات المسلمين بالنار اليونانيّة، فأدىّ ذلك إلى ابتعاد قواتهم عن الأسوار، وأصبح موقفها موقف المراقب، ولم يعد لها تأثير مباشر في المدينة المحاصرة[٢].

---

(١) كان شتاء سنة ١٩٤١ قارساً في روسيا، فكان من أهم عوامل إخفاق المحور في هجومهم على الاتحاد السوفياتي.

(٢) يبدو أنّ (ليو الثالث) حرض الصقالبة على المسلمين الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية، لكي يخفف ضغط الحصار عن المدينة المحاصرة.
فقد جاء في البداية والنهاية (٩/٣٢٨): أنّ مسلمة غزا القسطنطينية فحاصرها، وافتتح مدينة الصقالبة وكسر ملكهم البرجان، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية... انتهى.
وفي معجم البلدان (٥/٣٧٢): الصقالبة بلاد بين بلغار وقسطنطينية... انتهى.
أقول: ليس من المستبعد أن يستعين (ليو الثالث) بجيرانه الغربيين لمحاربة المسلمين المحاصرين للقسطنطينية، ليشغل قواتهم ويكبدها الخسائر تخفيفاً لضغطها على مدينته، فأجبر مسلمة على تخصيص قوة مناسبة من قواته لمحاربتهم مع إبقاء قواته الضاربة محاصرة للقسطنطينية. والمصادر الأجنبية تؤكد أنّ (ليو الثالث) تلقّى مساعدات حربية من الصقالبة، وهذا من جملة محاولات (ليو الثالث) لكسب المعركة وجعل المسلمين يخفقون في مهمة فتح القسطنطينية.
والصقالبة هم ما يسمون: (Sulaves).
والمصادر الأجنبية تؤكد معاونة البلغار لليو الثالث، ولكنها تبالغ كثيراً في جدوى تلك المعاونة، فتدّعي أن البلغار فاجأوا جيش مسلمة من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً، انظر التفاصيل في (The Ophanes, Chron' 395 - 399). =

كما أنّ (ليو) دأب على شنِّ الغارات اللَّيلية على قوات المسلمين، كما دأب على وضع الكمائن لهم، وهذا أدىّ إلى تردي معنويات المسلمين كما ذكرنا، كما حرّض (ليو) البلغار فهاجموا جيش المسلمين، ولكنهم هزموا!

كما بذل جهداً في وضع الكمائن لضرب مؤخرة قوّات المسلمين وطُرق تموينهم، مما أدّى إلى حرمانهم من المواد التموينيّة في وقت هم بأمس الحاجة إليها.

وعندما حلّ الربيع، كانت قوّات المسلمين قد ضعفت كثيراً، ولكنهم كانوا يأملون في استعادة (المبادرة) إلى أيديهم بالاستفادة من تفوقهم في البحر، فأعدوا خطة هجومية من اتجاه البحر. وكان (ليو) ينتظر هذا الهجوم لإنزال ضربته الكبرى بالبحر الإسلامية[1].

فقد سدّت السلسلة الضخمة المرفأ طيلة الشتاء، فقام ليو بفتحها، لإغراء المسلمين بتنفيذ خطتهم الهجومية المرسومة. ولما اقتربت سفن المسلمين من المرفأ كانت سفن (ليو) بانتظارها، فغمرتها بالنار اليونانية، وكانت النتيجة دماراً كاملًا للسفن المهاجمة فقد انهالت عليها النار اليونانية من كلِّ جهة: من السفن، ومن أسوار المدينة، ومن البر. وفي الارتباك الذي نتج عندما حاولت سفن المسلمين الانسحاب طلباً للنجاة، أخذت تصطدم الواحدة بالأخرى، فقفز الرجال إلى البحر وغرقوا فيه، وتحطّمت هياكل السُّفن، وهوت الصواري، وضاعت المجاذيف، وفي تيار البسفور القوي، انقلبت سفن كثيرة وغرقت، وعندما انتهت المعركة، لم تبق سفينة

= فكم كان عدد البلغار المهاجمين حتى يقتلوا عشرين ألفاً من المسلمين! وكيف استطاع البلغار أن يفاجئوا جيش مسلمة من الوراء! وهل كان جيش المسلمين نائماً!.

إن المصادر الأجنبية التي ذكرت هذا الخبر لا تخلو من مبالغات غير منطقية ولا تستقيم مع الفكر العسكري.

(١) الطبري (٦/ ٥٣٢).

من سفن المسلمين في مدى النظر سالمة، ويقال: إنّ خمس سفن منها فقط نجت وعادت إلى سورية لتروي القصة. وكانت القصة هي قصة النار اليونانية التي تصبّ على سفن المسلمين من قدور كبيرة موضوعة على دكاك، أو تقذف بكرات متوهجة حمراء من الحجارة أو الحديد، أو ترمي بالأسهم أو الرماح المغمورة بالسائل الملتهب، أو تنفخ في أنابيب طويلة من النحاس مثبتة في مقدم السفن، فتحدث دخاناً أسود ثم انفجاراً يصمّ الآذان، ومن ثمَّ ينتشر لهيب لا يمكن إيقافه ويسير حتى على الماء[١].

لقد كانت هذه المحاولة الهجومية آخر سهم في جُعْبَة مسلمة، استعمله لاستعادة (المبادرة)[٢] من الروم، ولكن لم يكتب لمحاولته النجاح.

ز ـ ولم يكن مسلمة بدرجة من الغفلة بحيث لا يدري ما حلّ بجيشه مادياً ومعنوياً، وبخاصة بعد نجاح (ليو) في تكديس الأرزاق الكافية لقواته، وكان مسلمة يعلم أنّ المسلك الوحيد المفتوح أمامه هو: الانسحاب.

ولكن أمر هذا الانسحاب لم يكن بيده، بل كان بيد الخليفة سليمان الذي كان مرابطاً في (دابق)، معنياً بفتح القسطنطينية أشدّ العناية، ولا يرضى بالانسحاب ولا يوافق عليه.

ومات سليمان بن عبد الملك بدابق لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية[٣]، فتولى الخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فوجّه إلى مسلمة وهو محاصر للقسطنطينية وأمره بالقفول منها بمن معه

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩ ـ ٤٠).

(٢) تشبه هذه المحاولة ما فعله الجيش الألماني سنة ١٩٤٤ في الهجوم على قوات الحلفاء المتفوقة في الجبهة الغربية، وأطلق على عملياته هذه اسم: تعرض الأردين، انظر التفاصيل في كتابنا: المشير فون ونشتد (٢٧٠ ـ ٢٨٨).

(٣) الطبري (٦/٥٤٦) وابن الأثير (٥/٣٧) والعبر (١/١١٨) والمسعودي (٣/١٨٢)، وفي شذرات الذهب (١/١١٦) والعيون والحدائق (٣٣)، أن سليمان توفي لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية، وكذلك في التنبيه والأشراف (٢٧٥).

من المسلمين[١]، ووجّه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً، وحثّ الناس على معونتهم، وكان عدد الخيل التي وجّهها لمسلمة خمس مئة فرس[٢]، لأنه كان قد أصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك[٣].

وكان قرار عمر بن عبد العزيز بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً، لا لأنّ عمر غير ميال إلى حروب الفتح والاستيلاء[٤]، بل لأنّ موقف المسلمين المحاصِرين للقسطنطينية كان ميؤساً منه، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم، بعد أن بلغ بهم الجهد[٥]، إذ لم يغفل عمر أبداً عن غزو الروم دفاعاً عن حدود

---

(١) تبالغ المصادر الأجنبية في خسائر مسلمة، ومجمل ما ذكرته تلك المصادر: جاء شتاء سنة ٧١٧م ـ ٧١٨م بثلج دام ثلاثة أشهر، فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار، وفي ربيع سنة ٧١٨م، وصل أسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرطوس. واحتل هذا الجيش شاطىء البسفور الأسيوي، ورسا الأسطول في مياهه، فتسلّلت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصري فأحرقته، ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغتته ومزقته إرباً. وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة، ثم فاجأه البلغاريون من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً، فتراجع عن عاصمة الروم بعد أن فقد معظم جيشه، وتعرّض الباقي من أسطوله لعاصفة في بحر إيجة، فلم يعد إلى شواطىء الشام سوى خمس سفن فقط، انظر التفاصيل في (Canrd, M., Expé Tions Arbaes, Journa, L Asiatique 1929, 102 - 80).
والمبالغة واضحة للغاية، إذ كيف تسلّلت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصري فأحرقته!! أكان هذا الأسطول في سبات عميق؟! ألم يدافع عن نفسه؟!
وكيف فاجأ البلغاريون جيش مسلمة من الوراء!! ألم يتخذ مسلمة تدابير الحماية! ألم يكن له دوريات وأرصاد! ثم كيف يمكن أن يتسلّل البلغاريون من وراء جيش مسلمة ومن أين! تلك مبالغات لا تستحق الرد عليها، لأنها لا يمكن أن تحدث في الحرب فعلاً.

(٢) الطبري (٦/٥٥٣) وانظر ابن الأثير (٥/٤٣) والعيون والحدائق (٣٩) وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) وانظر المعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٩/٣٢٨) وتاريخ خليفة ابن خياط (١/٣٢٦).

(٣) العيون والحدائق (٣٩)، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢).

(٤) يوليوس ولهاوزن ـ الدولة العربية وسقوطها (٢١٨).

(٥) خطط الشام (١/٥٥٢).

أرض الشّام الشمالية الغربية. وليس صحيحاً أنه لو طال أجله لأجلى المسلمين عن الأندلس، لأنه رأى مقامهم فيها غير طبيعي، لإحاطة الأعداء بهم[1]، لأنّ (ناربون) من أعمال الأندلس فتحت في أيامه وحصّنت[2]، كما سمح بامتلاك الفاتحين للأرض في الأندلس، مستهدفاً تعلق المسلمين بأرضهم عن طريق امتلاك الأرض، وقيل: إنه اتّخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثالاً له فيما عمله بالهند، فلو لم يعط عمر بن الخطاب المحاربين الأرض في الهند، لكان الدفاع عن هذا القطر مستحيلاً[3]. وبالطبع لم تفتح الهند في أيام عمر بن الخطاب، والمقصود بالهند المناطق المتاخمة لها من بلاد فارس والضفة للخليج العربيّ الذي كان يطلق عليه قسم من المؤرخين والجغرافيين اسم: الهند.

أما سبب رد جيوش المسلمين من الشرق، ومنعهم من التوغل فيه قائلًا: «يكفي ما فتح الله على المسلمين من فتوح»[4]، فسببه المباشر تردي الأوضاع العسكرية في تلك المناطق.

والواقع أنّ عمر بن عبد العزيز، ورث تركة مثقلة بالفوضى، فكان همه الأول موجهاً إلى السياسة الداخلية، فأحدث تغييراً فيها[5]، إذ ليس من المعقول أن تعجّ بلاده بالفوضى وهي قاعدة الفتح ومرتكزه، ثم يصرف همه إلى الفتح الخارجي، فيكون كالذي يشيد قصراً على جرف هارٍ.

كما أنّ مدّ الفتح الإسلامي كان قد بلغ أوجه، وفقد الدّافع الأول لاستمراره، وهو الجهاد في سبيل الله، فغيّر الناس ما بأنفسهم، وأصبح أكثرهم يشهد الفتوحات للغنائم.

ج ـ لقد أحسن سليمان بن عبد الملك في الإعداد والإمداد، فقد

---

(١) خطط الشام (١/ ٥٥٢).

(٢) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨).

(٣) Dozy, Recherches, (1881,), 1,76.

(٤) خطط الشام (١/ ٥٥٢).

(٥) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨).

وضع مهمة فتح القسطنطينية فوق كلّ مهماته العسكرية والإدارية، وجعل لها الأسبقية الأولى على كلِّ أعماله الأخرى، وقضى أيام خلافته كلها في (دابق)، وأرسل ولده داءود إلى القسطنطينية مع مسلمة[1]، دليلًا على شدّة حرصه على فتحها، وأمر مسلمة أن يقيم على القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره[2]، فلم يأمره بالانسحاب حتى توفاه الله دليلًا على إصراره البالغ على تحقيق الفتح.

كما أحسن مسلمة في قيادته، فبقي محاصراً للقسطنطينية ثلاثين شهراً، حتى أكل عسكره الميتة والعظم وقُتِل منهم خلق كثير[3]، فما وهن ولا توانى ولا ضعف عن النهوض بواجبه.

---

(١) العيون والحدائق (٣٨) وبقي مع مسلمة إلى نهاية الحملة.

(٢) العيون والحدائق (٣٢) ومختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (١/ ٢٠٠).

(٣) البدء والتاريخ (٦/ ٤٤)، وقد بدأ الحصار في ١٥ آب (أغسطس) ٧١٦م وانتهى في ١٥ آب (أغسطس) ٧١٨م كما تنص على ذلك المصادر الأجنبية وبذلك يكون حصار المسلمين للقسطنطينية عامين لا ثلاثين شهراً.
أما المصادر العربية فتنص على أن الانسحاب جرى في أيام عمر بن عبد العزيز أي تشرين الأول (اكتوبر) سنة ٧١٨م، أي أنّ حصار المسلمين للقسطنطينية سنتان وشهران.
وأرى أن المسلمين لا يمكن سحبهم بعد استلام أمر الانسحاب مباشرة، أي بعد تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة مباشرة، فلا بدّ من اتخاذ تدابير الانسحاب حسب خطة مرسومة حتى لا ينقلب الانسحاب إلى هزيمة، وهذا يستغرق ما لا يقل عن أربعة أشهر، لإمكان ترقيق الجبهة والانسحاب تدريجياً، وبذلك يكون ما جاء في البدء والتاريخ، من أن حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلاثين شهراً صحيح وأقرب إلى المنطق العسكري، وانظر أيضاً مختصر تاريخ الدول (١١٤) حول حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلاثين شهراً.
وفي البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨): فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم بالبريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام، فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية، فبنوا له جامعاً ومنارة، فهو بها إلى الآن يُصَلّي فيه المسلمون الجمعة والجماعة.. انتهى.
أقول: لا نستبعد أن الروم بالرغم من رجحان كفتهم في الأشهر الأخيرة من حصار=

كما أحسن عمر بن عبد العزيز في قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية، لأنّ الموقف العسكري كان يتطلّب إصدار مثل هذا القرار، ولو كانت كفّة المسلمين راجحة في حينه، لكان من المستحيل عليه الأمر بانسحاب المسلمين، ولكن هناك مسوِّغ للادعاء بأنّ عمر بن عبد العزيز غير ميّال لحروب الفتح، دون تمحيص للموقف العسكري الراهن.

إنّ عمر بن عبد العزيز، مظلوم بهذا الادعاء الذي صدر عن مؤرخين غير عسكريين ذوي اختصاص بالقضايا العسكرية، ومثل هذا الحكم خارج عن نطاق اختصاص المدنيين، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولم يكن عمر بن عبد العزيز وشهرته كلها في حرصه على تطبيق تعاليم الدين الحنيف، ليجمِّد فرض الجهاد، وهو روح الإسلام أو هو الإسلام الحركيّ وبدونه يبقى الإسلام جثة هامدة بدون روح ولا حراك.

ولم يستطع المسلمون الذين كانوا بقيادة مسلمة فتح القسطنطينية من جراء أخطاء سَوْقِية أو تعبوية ارتكبتها قيادتهم القادرة، ولا من جراء تهاون قواتهم وضعفها، ولكنهم أخفقوا في فتحها لأسباب عسكريّة قاهرة: منها مناعتها الطبيعيّة والاصطناعية التي سهّلت أمر الدفاع عنها، ولرصانة أسوارها وخنادقها المحيطة بها قوّة ومتانة، ولأنّ الحصار من جراء ذلك طال أمده

= القسطنطينية، إلّا أنهم كانوا يتمنّون انسحاب المسلمين عنهم، لطول بقائهم محاصرين، ولخوفهم من قدوم إمدادات جديدة من الرجال والأرزاق ترجِّح كفّة المسلمين عليهم، لذلك رضخوا لشرط مسلمة وبنوا جامعاً، ومما يدل على ضعف قوة الروم في أيام انسحاب مسلمة، عدم قيام الروم بمطاردة المسلمين في أثناء انسحاب المسلمين.

لقد كانت قوات الروم قادرة على تحمل أعباء حرب دفاعية، ولكنها لم تكن قادرة على تحمل أعباء حرب تعرضية، لذلك لم يستطيعوا مطاردة المسلمين بعد انسحابهم.

وفي حوادث سنة خمس وخمسين وأربع مئة أنّ ملك الروم عَمرَ جامع مسلمة في القسطنطينية إرضاءاً لطغرلبك، وعلّق فيه القناديل، وجعل في محرابه قوساً ونشابة، انظر ابن الأثير (٢٨/١).

كثيراً فاستغرق ثلاثين شهراً، والعرب في طبيعتهم لا يصبرون على حصار طويل الأمد، ولأنّ برد شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (٨١٨م) كان قارساً شديداً بصورة غير اعتيادية[1]، والعرب لا يتحملون البرد القارس الشديد، وهذا البرد غير الاعتيادي حرمهم من الإمدادات العسكرية والتموينيّة، والجندي لا يقوى على البرد وهو جائع، وأخيراً وليس آخراً مقاومتهم بسلاح جديد لا علم لهم بأسلوب الوقاية منه وليس لديهم سلاح يقاومه، وهو النار اليونانية التي فتّ استعمال الروم لها بعضد العرب وأثّر في معنوياتهم وكبّدهم خسائر فادحة بالأرواح والسُّفن والمعدّات.

وتاريخ الحرب في جميع العصور، يقرّر أنّ من أهم أسباب عوامل النصر هو استعمال سلاح فتّاك جديد لا يتوقعه الخصم، أو استعمال أسلوب قتاليّ جديد لا يتوقّعه الخصم، أو استعمالهما معاً في الزمان والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم، وكلّ ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخططها المرسومة، والمباغتة كما هو معروف هي أهم مبادىء الحرب على الإطلاق.

ومن الإنصاف أن نضيف إلى عوامل انتصار الروم في الدفاع عن القسطنطينية عاملًا آخر هو: كفاية (ليو الثالث) المتميزة في القيادة، وتشبعه بمزية إرادة القتال.

وإذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة في معركة حصار القسطنطينية، فهو عدم استفادته كما ينبغي من الصحفة الأولى من صفحات حصار (القسطنطينيّة) وهي صفحة: (المبادرة)، في التركيز بالهجوم على المدينة المحاصَرة وإدامة زخم الهجوم عليها أولًا، وثقته غير المحدودة بحليفه (ليو)، لأنّ الذي يخون بلاده وقومه أولى به أن يخون غير بلاده وغير قومه، فكانت هذه الثقة العمياء في هذا العميل لا مسوّغ لها ثانياً، فالحرب من القضايا المصيرية، ولا بدّ من إدخال أسوأ الاحتمالات في

---

(١) العيون والحدائق (٣٢).

كلِّ ما يؤثر في نتائجها من قريب أو بعيد(١).

إنّ حصار القسطنطينية(٢) كان ملحمة من ملاحم تاريخ الحرب المهمّة، ولكنها لم تكن معركة حاسمة من معارك تاريخ الحرب، على الرغم من محاولات المؤرخين الأجانب اعتبارها معركة حاسمة، بادعائهم أنّ المسلمين لو فتحوها لأصبحت أوروبا قادرة إسلامية(٣).

---

(١) ورد في كتاب: فتح القسطنطينية ص (٤٠) ما نصه: «لو سقطت القسطنطينية عام (٧١٧م)، لما عاشت المسيحية، ولذلك فالعالم المسيحي مدين إلى (ليو الثالث) بالحفاظ على المدينة والمسيحية لمدة (٥٠٠) سنة أخرى، ولولاه لكان من المحتمل جداً أن يتبدل مجرى التاريخ، فلو نجح المسلمون سنة (٧١٧م)، لكان من المحتمل أن يكون عالمنا إسلامياً بحتاً».

أقول: وهذا الادعاء لا يخلو من مبالغة، والمبالغة فيه من أجل تضخيم انتصار الروم وجعله من الانتصارات الحاسمة في التاريخ، وقد فتحت القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح، فما أصبحت أوروبا إسلاميّة بحتة، وبقي المسيحيون على دينهم، وفي تلك المدينة وفي البلاد التي فتحها العثمانيون، وقد فتح المسلمون أرض الشام والعراق ومصر في الصدر الأول للإسلام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما يزال المسيحيون في تلك البلاد حتى اليوم!

(٢) أفاض (بروكس B. W. Brooks) في سرد غزوات المسلمين في آسيا الصغرى. مستقياً معلوماته مع التعليق عليها في بحثه المرسوم: العرب في آسيا الصغرى من سنة (٦٤١م) إلى سنة (٧٥٠م) وعنوانه The Arabs in Asia Minor, 641 To 750 ص ٢٢ المنشور في مجلة الدراسات الهلينة Journal of Hillenis Studies المجلد (١٨) سنة (١٨٩٨م).

وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم في أيام خلافة سليمان بن عبد الملك في مقال نشره في مجلة الدراسات الهلنية أيضاً (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩م) بعنوان: «حملة سنة (٧١٦م إلى سنة ٧١٨م) بحسب المراجع العربية»:

The Campain of 716 to 718 from Arabes Sources وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ (بوري J. B Bury) في كتابه (The History of the Later Roman Empire) المجلد الثاني ص (٤٠١).

وهناك دراسات في هذا الموضوع كثيرة، ترجم بعضها إلى العربية، وكلها تجعل حصار القسطنطينية معركة حاسمة، وهي ليست كذلك بحال من الأحوال.

(٣) انظر مثلًا ما جاء في كتاب: فتح القسطنطينية ـ برناردين كيلتي Bernardine Kielty ص (٤٠)، وقد ذكرنا نص ما جاء في هذا الكتاب سابقاً.

والواقع أنها كانت معركة تعبوية، ولو فتحها المسلمون حينذاك، لأصبحت حدود الدولة الشمالية الغربية أكثر أمناً واستقراراً، وربما امتدت الفتوح إلى قسم من البلاد التي تقع في شرقي أوروبا، لأنّ أوضاع الدولة الإسلامية داخلياً، لم تكن مستقرّة في تلك الأيام، بل كانت مضطربة تسودها الفوضى والفتن والقلاقل والاضطرابات، فكانت الدولة في شغل شاغل لإقرار الأمن الداخلي، ولم تكن في موقف يسمح لها بالانطلاق في مجالات الفتوح.

وقد استفاد الرُوم من دروس حصار القسطنطينية استفادة كبيرة، فكانوا يطبقونها في الدفاع عن مدينتهم منذ انسحبَ المسلمون عنها بقيادة مسلمة، لصدِّ محاولات غيره من القادة المسلمين من بعده لفتحها، وفي دفاعهم عنها حتى أيام السلطان محمد الفاتح[1]، وهذا مكسب عظيم للرّوم.

لقد كان حصار القسطنطينية ملحمة رائعة بالنسبة للمسلمين والرّوم على حد سواء.

٣ ـ توطيد الأمن الداخلي:

أ ـ القضاء على حركة شَوْذب الخارجيّ:

في سنة مئة الهجرية (٧١٨م)، خرج شَوْذَب الخارجيّ، وهو بِسْطام من بني (يَشْكُر)[2] في (جُوْخي)[3]، وكان في ثمانين رجلًا.

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: بين العقيدة والقيادة ـ ص(٣٥١ ـ ٤٦٦)، وانظر ما جاء فيه حول غلق القرن الذهبي بسلسلة حديدية هائلة في ص(٢٥٦) من هذا الكتاب، وهو درس عسكري استفاده في ذلك الزمن المتأخر امبراطور الروم حينذاك من (ليو الثالث) الذي كان أول من استعمل مثل هذه السلسلة في أيام حصار القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك.
ومن المعلوم أن السلطان محمداً الفاتح فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٧٥هـ ـ ٢٩ مايس ـ مايو ـ ١٤٥٣م)، انظر ص (٤٠٦) من كتابنا: بين العقيدة والقيادة.

(٢) هو يشكر بن بكر بن وائل، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٠٨).

(٣) جوخي: وردت في معجم البلدان (٣/ ١٦١): جوخا: اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد، ولم تكن بغداد مثل كورة جوخا.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله بالكوفة، ألّا يُحَرِّكهم حتى يُسْفِكوا دماء ويُفسدوا في الأرض، فإن فعلوا وجِّه إليهم رجلًا صليباً حازماً في جُند.

وبعث عبدُ الحميد والي الكوفة محمد بن جَرير بن عبد الله البَجَلِيّ[١] في ألفين، وأمره بما كتب عمر بن عبد العزيز إليه، كما كتب عمر إلى بِسْطام الخارجيّ، يسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر إلى بِسْطام وقد قدم عليه محمد بن جَرير، فقام بإزائه لا يتحرّك.

وكان في كتاب عمر بن عبد العزيز إلى بِسْطام: «بلغني أنك خرجَت غضباً لله ولرسوله، ولستَ أولى بذلك مني، فهلمّ إليّ أُناظرك، فإن كان الحق بأيدينا، دخلتَ فيما دخل الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك».

وكتب بِسْطام إلى عمر: «قد أنصفتَ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك».

ووصل الرّجلان إلى عمر، وناظراه فاقتنعا بوجهة نظره[٢].

ومات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة إحدى ومئة الهجرية[٣] (٧١٩م) ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعّرض إليهم ولا يتعّرضون إليه، كلّ منهم ينتظر عودة الرُّسل من عند عمر بن عبد العزيز، فتوفي عمر والأمر على ذلك[٤].

وتولّى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعهد من أخيه سليمان

(١) انظر سيرة والده: جرير بن عبد الله البجلي في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ - ٣٧١).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٥٥) وابنْ الأثير (٥/ ٤٥ - ٤٨).

(٣) الطبري (٦/ ٥٦٥) وابن الأثير (٥/ ٥٨) والعبر (١/ ١٢٠) وشذرات الذهب (١/ ١١٩).

(٤) ابن الأثير (٥/ ٤٨).

بعد عمر بن عبد العزيز[1]، فأحبّ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب أمير الكوفة أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك، فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شَوْذب.

ولما رأى الخوارج محمداً يستعدّ للحرب، قالوا: «ما فعل هؤلاء هذا إلّا وقد مات الرجل الصالح»، يريدون عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ونشب القتال بين الطرفين، فأُصيب من الخوارج نفر، وقتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا، وجرح محمد بن جرير فدخل الكوفة، وتبعهم الخوارج حتى بلغوا الكوفة، ثم رجعوا إلى مكانهم.

ووجّه يزيد بن عبد الملك تميم بن الحُباب في ألفين، فحاربه الخوارج وقتلوا أصحابه، ولجأت فلول جيشه إلى الكوفة وإلى يزيد بن عبد الملك هاربين.

وأرسل يزيد قوّة بقيادة نَجْدَة بن الحَكَم الأزديّ فقتلوه وهزموا أصحابه، فوّجه يزيدُ السَجّاح[2] بن وَداع في ألفين، فقتلوه وهزموا أصحابه أيضاً.

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شوذب، فأرسل إليه مسلمة سعيدَ بن عمرو الحَرَشيّ، وكان فارساً في عشرة الآف، وأتاه وهو بمكانه، فرأى شَوْذب وأصحابه ما لا قِبَل لهم به، فقال لأصحابه: «مَن كان يريد الشهادة فقد جاءتَه، ومَن كان يريد الدنيا فقد ذهبت». وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً، حتى خاف سعيد الفضيحة، فوبّخ أصحابه وقال: «من هذه الشرذمة لا أب لكم تفرّون! يا أهل الشام! يوماً

(١) ابن الأثير (٥/ ٦٧).
(٢) في الطبري (٦/ ٥٧٦): الشحاج، وفي ابن الأثير (٥/ ٦٩): السجاح.

كأيامكم!»، وحمل أصحاب سعيد على الخوارج، فطحنوهم طحناً، وقتلوا بِسطاماً ـ وهو شوذب ـ وأصحابه[1].

وهكذا قضى مسلمة على حركة من حركات الخوارج، استعصت على الآخرين، وكان يمكن أن تتطوّر فتصبح خطراً داهماً يهدِّد أمن الدولة واستقرارها.

ب ـ القضاء على فتنة يزيد بن المُهَلّب:

في سنة مئة الهجرية (٧١٨م)، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عَدِيّ بن أرْطَاة والي البصرة لعمر[2]، يأمره بإنفاذ يزيد بن المُهَلب إلى دمشق موثقاً. وكان عمر قد كتب إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه، فاستخلف مَخْلَداً ابنه وقدم من (خُراسان)[3] ونزل (واسِطاً)[4]، ثم ركب السُّفن يريد (البَصْرَة)، فبعث عَدِيّ بن أبي أرْطَاة موسى بن الوَجِيه الحِمْيَرِيّ، فلحقه في نهر (مَعْقِل)[5] عند الجسر، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٥ ـ ٥٧٨) وابن الأثير (٥/ ٦٨ ـ ٧٠).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٢٥٦).

(٣) خراسان: بلاد واسعة يتاخمها العراق من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها، وتمتد من الشمال إلى أقصى تخوم إيران. من أمهات مدنها: نيسابور وهراة ومرو وبلخ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للأصطخري (١٤٥ ـ ١٦٠) ومعجم البلدان (٣/ ٤٠٧).

(٤) واسط: مدينة كبيرة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي، وسميت واسطاً لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٧٨ ـ ٣٨٧)، وقد أطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث، وهي محافظة الكوت على نهر دجلة.

(٥) نهر معقل: منسوب إلى معقل بن يسار المزني، صحب النبي ﷺ، وهو نهر معروف بالبصرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦)، وفيه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أبا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل ابن يسار المزني، فنسب إليه.
أقول: ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم وعليه ضاحية (المعقل) التي هي من ضواحي البصرة حالياً في شمالي البصرة وبالقرب منها، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر، يقصدها السائحون خاصة في الشتاء، وفيها مناظر خلابة جميلة.

ودعا به عمر، وكان يبغض يزيد وأهل بيته ويقول: «هؤلاء جبابرة، ولا أُحبّ مثلهم»، وكان يزيد يبغض عمر ويقول: «إنه مُراء»، فلما ولي عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء. ولما دعا عمرُ يزيد، سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: «كنت من سليمان بالمكان الذي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: «كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت، وإنما كتبتُ إلى سليمان لأسمعَ الناس به، وقد علمتُ أنّ سليمان لم يكن ليأخذني به!»، فقال عمر: «لا أجد في أمرك إلّا حبسك، فاتّقِ الله وأدِّ ما قِبَلك، فإنها حقوق المسلمين، ولا يسعني تركُها».

وحبسه بحصن (حلب)، وبعث إلى الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ فسرّحه إلى (خُراسان) أميراً عليها، فبقي يزيد في محبسه حتى بلغه مرض عمر[1].

ولما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، خاف يزيد بن المهلّب من يزيد بن عبد الملك[2]، فأرسل إلى مواليه يخبرهم بعزمه على الهرب من السجن، فأعدّوا إبلًا له وخيلًا. وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه، وبعث إلى عامل (حلب) مالًا وإلى الحرس الذين يحفظونه وقال: «إنّ أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء، وإنْ ولي يزيد بن عبد الملك يسفك دمي»، فأخرجوه، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه، وركب هناك الدّواب وقصد (البَصْرَة). وكتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول فيه: «إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرّ قتلة»، فورد الكتاب وبه رمق، فقال: «اللهّم إن كان يريد بالمسلمين

---

(١) الطبري (٦/٥٥٦ ـ ٥٥٨) وابن الأثير (٥/٤٨ ـ ٥٠) وانظر كتاب الوزراء والكتاب (٣١).

(٢) كانت بين اليزيدين عداوة شخصية قبل أن يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، وقد توعّد كل منهما صاحبه، انظر ابن الأثير (٥/٥٧).

سوءاً فألْحِقْه به وهِضْهُ فقد هاضني»، وكان هروب يزيد ابن المهلب سنة إحدى ومئة الهجرية[1] (٧١٩م).

وكتب يزيد بن عبد الملك بعد توليه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة وإلى عديّ بن أَرْطَاة عامله على البصرة يأمرهما بالتحرّز من يزيد ويعرِّفهما هربه، وأمر عَدِياً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلّب، فأخذهم وحبسهم.

وأقبل يزيد حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة)[2]، وبعث عبد الحميد جنداً إليهم عليهم هشام بن مُساحِق العامِريّ القُرشِيّ ـ عامر بني لؤيّ، فساروا حتى نزلوا (العُذَيْب)[3]. ومرّ يزيد قريباً منهم، فلم يقدموا عليه. ومضى يزيد نحو (البصرة) وقد جمع عَديّ بن أرطاة أهل البصرة وخندق عليها، وبعث على خيل البصرة المُغِيرة بن عبد الله بن أبي عَقِيل الثقفيّ.

وبعث عَدِيّ على كل من أخماس البصرة رجلًا: خُمس الأزْد، وخمس تَمِيْم، وخمس بَكْر بن وائل، وخمس عبد القَيْس، وعلى خمس العالية من قُريش كِنانة والأَزْد وبَجِيْلة وخَثْعَم وقيس عَيْلان كلّها ومُزَيْنَة، فأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلّا تنحّوا له عن طريقه حتى نزل داره.

واختلف إلى يزيد الناس، فأرسل إلى عَدِيّ: «أن ابعث إليّ إخوتي وإني أُصالحك على البصرة وأخليك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد ما أُحبّ»، فلم يقبل منه.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥) وابن الأثير (٥/ ٥٧ ـ ٥٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٦).

(٢) القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٥).

(٣) العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٣١)، والمغيثة منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ١٠٦).

وسار حُمَيْدُ بن عبد الملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ بأمان يزيد بن المهلّب وأهله.

وأخذ يزيد بن المهلّب يُعْطي من أتاه قطع الذهب والفضة، فمال الناس إليه. وكان عَدِيّ لا يُعْطي إلّا دِرْهَمْين درهمينِ ويقول: «لا يَحِلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلّا بأمر يزيد بن عبد الملك، ولكن تَبَلّغوا بهذه حتى يأتي الأمر بذلك»، وفي ذلك يقول الفرزدق:

أظُنُّ رجال الِدْرَهَمَيْنِ تقودهم ... إلى الموت آجال لهم ومَصَارع
وأكيَسُهم مَن قرّ في قعر بيته ... وأيقنَ أنّ الموتَ لا بُدّ واقعُ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عديّ، فنزلوا (المِرْبَد)[1]، فبعث إليهم يزيد بن المهلب مولى له يقال له: دارِس، فحمل عليهم، فهزمهم.

وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع الناس له، حتى نزل جبانة بني يَشْكر وهي النصف فيما بينه وبين قصر الأمارة في البصرة، فلقيه قيس وتميم وأهل الشّام واقتتلوا هنيهة، ثم حمل عليهم أصحاب يزيد فانهزموا. وتبعهم ابن المهلب حتى دنا من القصر، فخرج إليهم عَديّ بنفسه، ولكن أصحابه انهزموا بعد قتال تكبدوا فيه خسائر كبيرة.

وجاء يزيد بن المهلّب حتى نزل داراً إلى جنب القصر، وأتى بالسلالم وفتح القصر. وأُتي بعَديّ بن أرطاة فحبسه وقال له: «لولا حبسك إخوتي لما حبستك».

فلما ظهر يزيد، هرب رؤوس أهل البصرة من تميم وقيس وغيرهما،

---

(١) المربد: مربد البصرة من أشهر محالها، وكان يكون فيه سوق الأبل قديماً، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء، انظر التفصيل في معجم البلدان (٨/ ١١ ـ ١٣).

فلحقوا بالكوفة، ولحق بعضهم بالشام. وخرج المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ نحو الشام، فلقي خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ ومعهما حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب قد أقبلوا بأمان يزيد بن المهلّب وكلّ شيء أراده، فسألاه عن الخبر فخلا بهما سراً من حُمَيْد وأخبرهما: بأنّ يزيد بن المهلّب قد ظهر على البصرة، وقتل القتلى، وحبس عَدِياً، فارجعا؛ فرجعا وأخذا حُمَيْداً معهما.

وأصبح الموقف خطيراً للغاية، فأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئاً من المال ومَنَّى أهلَها الزيادة، وجهّز أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في سَبعين ألف مقاتل من أهل الشام وجزيرة ابن عمر، وقيل: كانوا ثمانين ألفاً، فساروا إلى العراق. وقدما الكوفة ونزلا (النُخَيْلة)[1].

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك، فبلغ ابن المهلّب، فخطب الناس يشجّعهم ويهوّن من أمر أهل الشام. وكان الحسن البصريّ يسمع، فرفع صوته يقول: «والله لقد رأيناك والياً ومُولّى عليك، فما ينبغي لك ذلك!»، فوثبت أصحابه وأخذوا بفمه وأجلسوه، وكان النَضْر بن أنس بن مالك يثبّط أهل البصرة كما يثبّطهم الحسنُ البصريّ منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن.

وسار يزيد من البصرة، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب، وأتى (واسِطاً) فلما نزل (واسِطاً) أقام بها أياماً. وخرجت سنة إحدى ومئة الهجرية[2]، ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠م)، فسار يزيد من (واسط) واستخلف عليها ابنه معاوية وجعل معه بيت المال والأسرى،

---

(١) النخيلة: موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٨ ـ ٥٨٩) وابن الأثير (٥/ ٧١ ـ ٧٧) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٩) وانظر خلاصة الذهب المسبوك ص(٢٦).

وسار على فم (النيل)[1] حتى نزل (العَقْر)[2]. وقَدّم أخاه عبد الملك بن المهلّب نحو الكوفة، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبد الملك في (سُوْرَا)[3]، فاقتتلوا قتالًا شديداً، كانت الجولة الأولى منه لآل المهلب، ولكن تغيرت المعركة لصالح العباس بن الوليد، فانكشف جيش ابن المهلب، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلّب. وأقبل مسلمة يسير على شاطىء الفرات إلى (الأنبْار)[4]، فعقد عليها الجسر وعبَر، ثم سار حتى نزل على ابن المهلّب.

وأتى إلى ابن المهلّب ناس من أهل (الكوفة) كثير ومن الثغور، فقسّمهم أقساماً وجعل على كل قسم منهم قائداً، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربية الأزْد ومَذْحِج وأَسَد وكِنْدة وربيعة وتَمِيمْ وهَمْدان، وجعل أمر كلّ تلك الأقسام إلى المُفَضّل، وأحصى ديوان يزيد بن المهلّب مئة ألف وعشرين ألفاً، فقال: «لوَدِدْت أنّ لي بهم مَنْ بِخُرَاسان من قومي»، ثم قام في أصحابه وحرّضهم على القتال.

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن قد عسكر بالنُّخَيْلة، وشقّ المياه، وجعل على أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا إلى ابن المهلّب، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع سَبْرَة بن عبد الرحمن بن مِخْنَف؛ ولكنّ مسلمة عزل عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة بن أبي المُعَيْط، وهو ذو الشّامة.

ومن الواضح أن عبد الرحمن لم يكن مسيطراً على الكوفة، لذلك

---

(١) النيل: بليدة في سواد الكوفة قرب (حلة) بني مزيد، يخرقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير، انظر معجم البلدان (٨/ ٣٦٠).

(٢) العقر: عقر بابل، قرب كربلاء من الكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٣) سوراً: موضع أرض بابل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٨/٥).

(٤) الأنبار: مدينة على الفرات في غربي بغداد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢) وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم.

تسرّب أكثر أهلها إلى ابن المهلّب، كما لم يكن ذا كفاية قيادية ولا يتحلّى بمزية المبادرة، وكان ضعيفاً متردداً، لذلك عزله مسلمة وولّي قائداً متميزاً، ليضمن قاعدته الأمامية: الكوفة.

وجمع يزيد بن المهلّب رؤوس أصحابه فقال: «قد رأيتُ أن أجمع اثني عشر ألفاً، فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلّب حتى يبيِّتوا مسلمة، ويحملوا معهم البراذع والأكف والزبُل لدفن خندقهم، فيقاتلهم على خندقهم بقية ليلته، وأُمِدّه بالرجال حتى أُصبح، فإذا أصبحتُ نهضتُ إليهم في الناس فأناجزهم، فإني أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم»، فأجابه أحد أصحابه[1] قائلًا: «إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا»، فثنّى على قوله آخر[2] قائلًا: «صدق! هكذا ينبغي»، فقال يزيد: «ويحكم!.... إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم، فلا يسبقوكم إليه! إني لقيت بني مروان، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد من هذه الجرادة الصفراء»، يعني مسلمة، فقالوا: «لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا».

وكان مروان بن المهلّب بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشّام، والحسن البصري يثبِّطهم، فهدّد مروان الحسنَ بالعقوبة الصارمة وتوعّده، فقال الحسن: «والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه»[3]، فقال ناس من أصحابه: «لو أرادك ثم شئتَ لمنعناك»، قال لهم: «فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه! آمركم ألّا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دوني!».

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومَسْلَمَة بن عبد الملك ثمانية أيام، فلما

---

(١) اسمه: السميذع.
(٢) هو أبو رؤبة رأس الطائفة المرجئة، ومعه أصحاب له.
(٣) يريد بعقوبته وتوعده.

كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر، بعث مسلمة من يحرق الجسر.

وخرج مسلمة معبئاً[1] أهل الشام، ثم قرب من ابن المهلّب، ثم عبأ العباس بن الوليد رجاله، وكان مسلمة على الناس قائداً عاماً، وعبّأ يزيد بن المهلب رجاله أيضاً.

ولما أُحرق الجسر، سطع دخانه، وقد أقبل الناس. ونشبت الحرب ولم يشتد القتال، فلما رأى الناس الذين مع ابن المهلب الدخان، وقيل لهم: أُحرق الجسر، انهزموا! فقيل ليزيد: قد انهزم الناس! فقال: «ممّ انهزموا؟! هل كان قتال يُنْهَزَمُ من مثله؟!»، فقيل له: أحرق الجسر فلم يثبت أحد! فقال: «قَبحَهم الله! بَقٌّ دُخِّنَ عليه فَطار!».

وخرج يزيد مع أصحابه المقربين إليه في محاولة لردِّ المنهزمين من جيشه، ولكنه أخفق في محاولته.

ونزل يزيد يقاتل، فجاءه مَنْ ينعى إليه أخاه حبيباً الذي قتل في المعركة، فقال يزيد: «لا خير في العيش بعده، قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة، وقد ازددت لها بغضاً، امضوا قُدُماً»، فعلموا أنه قد استقتل، لذلك تسلّل عنه من يَكره القتال، وبقي معه جماعة حسنة، وهو يتقدّم، فكلما مرّ بخيلٍ كشفها، أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه.

وأقبل يزيد نحو مسلمة لا يريد غيره، فلما دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب، فعطفت على يزيد خيول أهل الشام وعلى أصحابه، فقتل يزيد ومحمد بن المهلّب.

وكان المُفَضَّل بن المهلب يقاتل أهل الشام وما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة الناس، وكان كلّما حمل على الناس انكشفوا. ولكنّ أصحابه تخلّوا

---

(١) كانت التعبئة حينذاك: ميمنة وميسرة وقلباً ومقدمة ومؤخرة.

عنه هاربين، فقيل له: ما تصنع ها هنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل؟!

ولما تفرّق الناس عنه، مضى إلى (واسِط)، ولم يكن في العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة للحرب ولا أغشى للناس منه.

وأسرَ مسلمة نحو ثلاث مئة أسير، فسرّحهم إلى الكوفة، فحبسوا بها. وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة والي الكوفة يأمره بضرب رقاب الأسرى، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى، فجاء رسول بكتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى، ثم أقبل مسلمة حتى نزل (الحِيْرَة)(١).

ولما أتت هزيمة يزيد إلى (واسِط)، غادرها آل المهلّب إلى البصرة، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ثم لجّوا في البحر، فلما كانوا بجبال (كَرْمَان)(٢) خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدّواب، وكان المقدَّم عليهم المُفَضّل بن المهلّب.

وكان بكرمان فلول كثيرة اجتمعوا إلى المفضّل، فبعث مسلمة قوات من أصحابه، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأرواح.

ومضى آل المهلّب ومَنْ معهم إلى (قَنْدابِيْل)(٣)، فطاردهم أصحاب مسلمة، فتفرق الناس على آل المهلّب، ولكن آل المهلّب تقدّموا بأسيافهم فقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم، منهم: المفضّل، وعبد الملك، وزياد،

---

(١) الحيرة: مدينة كانت على ثلاث أميال من الكوفة، على موضع يقال له النجف، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٨٦)، والنجف اليوم قريبة من الكوفة، وفيها مرقد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتقع في الصحراء.

(٢) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة في إيران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٤١) والمسالك والممالك للإصطخري (٩٧ ـ ١٠٠).

(٣) قندابيل: مدينة بالسند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٦٧).

ومروان بنو المهلّب وثلاثة من أبنائهم، فبعث مسلمة برؤوسهم إلى يزيد بن عبد الملك.

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك خبر مقتل يزيد بن المهلّب وكثير من آل المهلّب سرّه هذا النصر سروراً عظيماً[(١)].

وهكذا انتصر مسلمة على يزيد بن المهلّب وآل بيته، فخدم الدولة خدمة لا تقدّر، بقضائه على ثورة يزيد الذي خلع يزيد بن عبد الملك وقاد أخطر ثورة هدّدت كيان الأمويين.

ومن الإنصاف أن نذكر أنّ يزيد بن المهلّب كان قائداً فذاً وإدارياً حازماً، ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلّب، لأنه قاد جيشاً لا يثق به ولا يعتمد عليه، أفراده مرتزقة، كل همهم كسب المال، لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته ولم يكن يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة، وأدرك في أول المعركة بأنه خسرها، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه، ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام.

وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثرهم من المرتزقة، ولكنهم كانوا ملتزمين بدولة قائمة، لأن مصيرهم مرتبط بيزيد شخصياً، أما جيش يزيد بن المهلّب فكان من المرتزقة غير الملتزمين، لذلك كان جيش مسلمة يتحلى بإرادة القتال فانتصر، وكان جيش يزيد لا يتحلى بهذه المزيّة فانهزم.

وقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد بن المهلّب وبني المهلب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وولاتها، وهي خسارة كبيرة بلا مراء[(٢)].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٩٠ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٧٧ ـ ٨٩) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٧٢) وانظر المسعودي (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ ـ ١٦) والمعارف (٤٠٠).

(٢) في العبر (١/ ١٢٤): أنّ يزيد بن المهلّب كان ممدّحاً كثير الغزو والفتوح، وانظر أيضاً شذرات الذهب (١/ ١٢٤) وفي يزيد وآل المهلب يقول الشاعر: =

وأدهى من ذلك وأَمَرّ، أنّ الاقتتال الذي نشب بين الأخوة أدّى إلى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية في العراق قاعدة الفتح الإسلامي الرئيسة في المشرق الإسلامي، وفي فارس قاعدة الفتح الإسلامي المتقدمة، مما أدّى إلى انصراف الفاتحين عن الفتح إلى الاقتتال فيما بينهم، فأصبحت طاقاتهم موجّهة إلى أنفسهم بدلًا من توجيهها إلى أعدائهم، فانحسر مدّ الفتح وتقلّص نفوذ الدولة في العراق وفارس وفي السند والأفغان وفيما وراء النهر.

وانتهز هذه الفرصة السّانحة العباسيّون للقضاء على الأمويين، وأصبح دعاة بني العباس يسرحون ويمرحون في بلاد فارس بخاصة بحرّية كاملة دون رقيب فعال وحسيب مؤثّر.

لذلك كان انتصار مسلمة في هذا الاقتتال تعبوياً، ولكنه كان هزيمة سَوْقِيّة (استراتيجيّة) على المدى البعيد.

والانتصار التعبوي لا قيمة له بالنسبة للهزيمة السّوْقِيّة كما هو معروف.

ج ـ ترصين الجبهة الشرقيّة:

لما فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلّب، جمع له أخوه يزيد بن عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وخُراسان وذلك سنة اثنتين ومئة الهجرية[1].

= نـزلـت عـلـى آل الـمـهـلـب شـاتـيـاً غريباً عن الأوطان في زمن المـحـل
فـمـا زال بـي إحـسـانـهـم وافـتـقـادهـم وبـرّهـم حـتـى حـسـبـتـهـم أهـلـي

انظر مختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)، وفي النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٩)، قال الفرزدق:

إنّ الـمـهـالـبـة الـكـرام تـحـمـلـوا دفـع الـمـكـاره عـن ذوي الـمـكـروه
زانـوا قـديـمـهـم بـحـسـن حـديـثـهـم وكـريـم أخـلاق بـحـسـن وجـوه

(١) الطبري (٦/ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٨٩) وانظر المعارف (٥٧١) وفيه أن مسلمة كان بين أول من جمع له المصران: الكوفة والبصرة وانظر التنبيه والأشراف (٢٧٧ ـ ٢٧٨).

كانت مهمة مسلمة صعبة، لتناحر القبائل ونشب العداوة بينها، وضياع الأمن والاستقرار، مما أدّى إلى تَوقّف الفتح وتهديد مصير الفاتحين في البلاد المفتوحة في بلاد فارس والسند وما وراء النهر.

لذلك عمل مسلمة على اختيار الرجال الذين يثق بهم ويعتمد على كفاياتهم، لغرض معاونته في ترصين الجبهة الشرقية للدولة، فأقرّ محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط على الكوفة لأنه سيطر على الكوفة في أيام نشوب القتال بين مسلمة ويزيد بن المهلب سيطرة كاملة، وأمدّ مسلمة بالرجال والمواد التموينيّة، وحمى خطوط مواصلاته، وجعل من الكوفة قاعدة متقدمة لقوات مسلمة المقاتلة.

وكان قد قام بأمر البصرة بعد آل المهلّب شبيب بن الحارث التميمي، فبعث عليها مسلمةُ عبد الرحمن بن سليمان الكلبيّ، وعلى شرطتها وأحداثها عمرو بن يزيد التميمي[1].

والظاهر أنّ عبد الرحمن بن سليمان الكلبيّ كان والياً ناقماً منتقماً، لأنه أراد استعراض أهل البصرة ليقتلهم انتقاماً منهم لميلهم إلى آل المهلّب وعطفهم عليهم ومعاونتهم لهم مادياً ومعنوياً، فنهاه عمرو بن يزيد التميميّ، وكتب إلى مسلمة بالخبر، فعزله وولّى البصرة عبدَ الملك بن بشر بن مروان بن الحكم، وأقرّ عمرو بن يزيد التميميّ على الشُّرَط والأحداث[2].

لقد كان مسلمة بعيد النظر حقاً، لذلك كان يحاول تضميد الجروح لا تعميقها، فلم يرض عن أسلوب عامله على البصرة باتجاهه إلى الصرامة والانتقام، فقد كانت الجروح غائرة وهي ليست بحاجة إلى تعميق، فعزل عامله فوراً وبعث مكانه عاملًا جديداً.

واستعمل مسلمة على خُراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن

---

(١) في ابن الأثير (٥/٨٩): ورد اسمه عمرو، وفي الطبري (٦/٦٠٤) ورد اسمه عمر.

(٢) الطبري (٦/٦٠٤ ـ ٦١٦) وابن الأثير (٥/٨٩).

الحكم بن أبي العاص بن أُميّة وهو الذي يقال له: سعيد خُذَيْنَة[1]، وكان سعيد زوج ابنة مسلمة. وقد غزا سعيد الترك وعبر النهر وغزا (الصُّغْدَ)[2]، وأراد السيطرة على تلك المناطق وترصين قواعد الفتح المتقدمة، ولكن نجاحه كان محدوداً، لأنّ كفايته لم تكن بالمستوى المطلوب[3].

ولم يكد مسلمة يمضي بضعة أشهر على العراق وخُراسان[4]، حتى عزله أخوه يزيد بن عبد الملك سنة اثنتين ومئة الهجرية.

وكان سبب عزله أنه ولي العراق وخراسان، فلم يرفع من الخراج شيئاً إلى يزيد بن عبد الملك. واستحيا يزيد أن يطالبه أو يحاسبه، كما استحيا أن يعزله، فكتب إليه: «استخلف على عملك وأقْبِل».

ولم يلبث مسلمة حتى أتاه عزله بعمر بن هُبَيْرَة الفزاريّ الذي تولّى مكانه العراق وخراسان، فعزل عمّاله واستعمل الغلظة عليهم، فقال الفرزدق:

راحت بمسلمة البغال عشيّة ... فارعَيْ فَزارة لا هَنَاكِ المرتعُ
عُزِلَ ابنُ بِشْر وابن عمروٍ قبله ... وأخو هَراة لمثلها يتوقّعُ

يعني بابن بشر: عبد الملك بن بِشْر بن مروان بن الحكم، وبابن عمرو محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط ذا الشّامة، وبأخي

---

(1) خذينة بالفارسية هي الدهقانة ربة البيت، انظر ابن الأثير (٥/ ٩٠)، وهو من أبناء عمومة مسلمة يلتقي نسبهما بالحكم والد مروان بن الحكم، انظر انساب الأشراف (١/ ١٦١) وفتوح البلدان (٦٠٠).

(2) الصغد: كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل هما صغدان: صغد سمرقند وصغد بخارى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦٢).

(3) الطبري (٦١٦ ـ ٦١٥) وابن الأثير (٥/ ٩٠ ـ ٩٧)، وفي أنساب الأشراف (٣/ ١٦٢) إن أهل خراسان شكوا خذينة فعزله.

(4) المعارف (٣٥٨)، وفي العيون والحدائق (٧٥): إنه بقي ثمانية أشهر، وقيل ستة أشهر.

(هَراة) سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أُمية[١]، وهم عمال مسلمة.

والذي يبدو أنّ يزيد بن عبد الملك عزل أخاه مسلمة، لأنه لا يستطيع السيطرة عليه في تصرفه بالأموال، وفي توجيهه سياسة الدولة في تلك البلاد الشاسعة الغنية، فأراد أن يولّي مَنْ يستطيع السيطرة عليه ويوجِّهه كما يريد[٢].

كما أنّ خراج العراق وفارس كان مصدراً غنياً من مصادر تمويل الدولة، فلا يمكن السكوت عمن يتصرف به كما يشاء دون قيد أو شرط.

ولم يكن مسلمة ممن يَضَعُ أموال المسلمين في غير مواضعها، فمن المحتمل أن يكون الخراج في تلك السنة قد تأثر بظروف الحرب في العراق وظروف التسيّب في خراسان، مما أدى إلى ضعفه وقلّة موارده، خاصة وأنّ جبايته في تلك الظروف مع تغيير الولاة، من موالين لبني المهلّب إلى موالين لبني أميّة، وقتل قسم من أولئك الولاة، ضيّع المسؤولية وأدى إلى ذهاب الأموال بدداً.

فلما تولّى مسلمة، كان عليه أن ينفق ما جباه في التعمير وتأليف القلوب وتقوية جيشه، لذلك لم يبق في يديه ما يبعث به إلى الخليفة في الشام، ولو بقي منه شيء لفعل.

---

(١) الطبري (٦/ ٦١٥) وابن الأثير (٥/ ٩٧ ـ ٩٨)، وفيهما رواية أخرى عن سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان لا تتفق مع المنطق ولا يصدقها العقل، وانظر المعارف (٣٦٤) عن تولية عمر ابن هبيرة العراقيين، وانظر أنساب الأشراف (٣/ ١٨١) حول عزل عبد الملك بن بشر بن مروان ابن الحكم وشعر الفرزدق.

(٢) في العيون والحدائق (٧٥): قدح فيه عند يزيد، وقالوا: إنه غير مأمون على الخراج فعزله. . . انتهى.
يقصد: قدح في مسلمة عند الخليفة يزيد بن عبد الملك.

لقد استفاد يزيد بن عبد الملك من أخيه مسلمة في أيام الشدة والحرب، وبعد أن استقرت الأمور أو كادت تخلّى عنه في أيام الرخاء والسلّم.

ولم يكن بمقدور أحد من رجال يزيد، أن ينهض بمهمة القضاء على ثورَة يزيد بن المهلّب، وهي ثورة عارمة هدّدت الدولة تهديداً خطيراً جداً، ولو كان بجعبة يزيد بن عبد الملك من يستطيع النهوض بمثل هذه المهمّة الصعبة، لرمى به ابن المهلّب دون تردّد.

ولم يكن بمقدور كل قائد أن يسدّ ثغرة في قلب الدولة أيام الحرب كما فعل مسلمة، فبمجرّد قدومه على رأس جيشه إلى العراق، جعل معنويات جيش ابن المهلّب تنهار ويتخلّى عنه رجاله، كما جعل معنويات رجاله ترتفع، وازداد الإقبال عليه.

ولكن بمقدور كثير من الولاة أن يحلّوا محلّ مسلمة في أيام السّلام.

إنّ مسلمة خلق ليكون غازياً، ولم يخلق ليكون والياً.

ويظهر أنّ يزيد بن عبد الملك تخلى عن مسلمة والياً، ولكنه لم يتخل عنه ناصحاً ومستشاراً، فاستبقاه إلى جانبه في (دمشق) يستنصحه ويستشيره في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها، فكان له نعم الناصح المخلص والمستشار الأمين.

ومما يدلّ على ثقة يزيد بن عبد الملك بمسلمة، أنه بايع لهشام بن عبد الملك ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك باستشارة مسلمة[1].

---

(١) ابن الأثير (٥/٩١) وابن خلدون (٣/ ١٧٤) والأغاني (٧/ ٢).

وحين عزل يزيد عبد الرحمن بن الضحّاك عن المدينة ومكة لغضبه عليه، لم يجد ملجأ يلجأ إليه غير مسلمة الذي أجاره وكلم أخاه يزيد بن عبد الملك ليعفو عنه[١].

وكان يزيد بن عبد الملك يحبّ جارية اسمها: (حَبَابة)، فلما توفيت وجد عليها وجداً شديداً، وخرج مشيعاً جنازتها ومعه أخوه مسلمة ليسليه ويعزيه. وقيل إن يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشي، فأمر مسلمة أن يصلي عليها، وقيل: منعه مسلمة من الصلاة عليها لئلا يرى الناس منه ما يعيبونه به[٢] ومكث يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس، أشار عليه مسلمة بذلك، وخاف أن يظهر منه ما يسفهه عندهم[٣].

ولما مات يزيد سنة خمس ومئة الهجرية، صلّى عليه مسلمة[٤]، وهذا يدلّ على أنه كان أقرب المقربين إلى يزيد حتى توفاه الله[٥].

لقد استأثر يزيد بمسلمة لرجاحة عقله واتزانه وإخلاصه له وللدولة، ولم يعزله عن العراق لأنه كان يخشاه ويتوقّع منه شراً، إذ ليس من شأن مسلمة ولا من سماته إشعال نار الفتن، وضرب إخوته وأهل بيته من الخلف، وتفريق صفوف المسلمين.

---

(١) ابن الأثير (٥/١١٦) وابن خلدون (٣/١٨٢)، وقد أجار أيضاً عمر بن هبيرة على يزيد، فقبل شفاعته، انظر العيون والحدائق (٨٥).

(٢) ابن الأثير (٥/١٢٠) والعيون والحدائق (٧٨).

(٣) ابن الأثير (٥/١٢١) وتاريخ الموصل (٢٠).

(٤) ابن الأثير (٥/١٢٠).

(٥) لقد ذكرت هذه الحوادث لأفند ما زعمه أحد المؤلفين في كتابه: مسلمة بن عبد الملك (٥٦) ونصه: «ويبدو أن يزيد بن عبد الملك، كان يخشى مسلمة ويتوقع منه شراً، إذ وجدناه يعزله عن العراقين، ومما يدل على خوف يزيد من مسلمة وحذره الشديد منه، أنه لم يستعمل مسلمة على ولاية طيلة خلافته...» ولا سند لهذا الادعاء ولا دليل عليه، فلم يعرف عن مسلمة أنه كان يريد أن يشق عصا الطاعة ولا أن يفرق جمع المسلمين.

٤ ـ في إرمِينِيَة[١] وأَذْرَبِيجَان[٢]:

وفي سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥)، استعمل هشامُ بن عبد الملك أخاه مسلمة على إرْمِينِيَة وأَذْرَبِيجان خلفاً للجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ، فاستعمل مسلمة الحارثَ بن عمرو الطائي، فافتتح رستاقاً[٣]

---

(١) إرمينية: بكسر أوله ويفتح، وسكون ثانيه، وكسر الميم، وياء ساكنة، وكسر النون، وياء خفيفة، مفتوحة، اسم صقع عظيم واسع، وقيل: هما إرمينيتان: الكبرى والصغرى، وحدهما من برذعة إلى باب الأبواب (دربند) من الجهة الأخرى، إلى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب السرير. وقيل: إرمينية الكبرى خلاط ونواحيها وإرمينية الصغرى تفليس ونواحيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٠٣ ـ ٣٠٦) والمسالك والممالك للأصطخري (١٠٨) وتقويم البلدان (٣٨٧) ومختصر كتاب البلدان (٢٨٦ ـ ٣٠١) والمسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٢ ـ ١٢٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤) وكتاب الأقاليم (٧٩) والبلدان لليعقوبي (١٠٦) والأعلاق النفسية (١٠٦). وإرمينية اليوم في الجزء المتاخم لإيران ـ تركيا ـ الاتحاد السوفياتي، وهي في هذه البلاد جميعاً وأهلها أرمن.

(٢) أذربيجان: كلمة أذربيجان في الفارسية معناها أرض النار أو معابد النار، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك. وإذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة، والغالب عليها الجبال. وأشهر مدنها تبريز وهي قصبتها، وأكبر مدينة فيها أردبيل، ومن مدنها: المراغة وأرمية وخوي وسلماس ومرند وموقا... إلخ. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٥٩ ـ ١٦١) والمسالك والممالك للأصطخري (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤ ـ ٣٧٨) وكتاب الأقاليم (٧٩ ـ ٨٥) والأعلاق النفسية (١٠٦) والبلدان لليعقوبي (١٠٦) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (١١٨ ـ ١٢١) وتقويم البلدان (٣٨٦ ـ ٤٠٧) ومختصر تاريخ البلدان (٢٨٤ ـ ٢٨٦)، وأذربيجان اليوم في إيران والإتحاد السوفياتي، بينهما الحدود التي تفصل بين البلدين، وإحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي هي: جمهورية أذربيجان، وهي القسم الذي ضمن حدوده من هذه البلاد الشاسعة.

(٣) الرستاق: كلّ موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخصّ من الكورة والإستان، انظرمعجم البلدان (١/٣٧)، والكورة: اسم فارسي بحت يقع على قسم من أقسام الأستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها إسماً للأستان، فالكورة والأستان واحد. والكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة=

وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً[١].

ومن المعروف أنّ تلك المناطق قد فتحها عُتْبَة بن فَرْقد السُلَمي[٢] وبُكَيْر ابن عبد الله اللّيْثيّ[٣] وسُراقة بن عمرو ذو النور[٤] في أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فيكون دور مسلمة وقائده في هذا المجال هو: القضاء على اضطرابات داخلية، وتوطيد أركان الأمن، في منطقة من المناطق المفتوحة.

وفي سنة ثمان ومئة الهجرية (٧٢٦م)، غزا مسلمة الرُّوم مما يلي (الجزيرة[٥]، ففتح (قَيْسَارِيّة)[٦] وهي مدينة مشهورة[٧]، كما بعث الحارث بن عمرو الطائي إلى (وَرْثان) فاستعان فتحها[٨] وفي سنة تسع ومئة الهجرية (٧٢٧م)، غزا مسلمة الترك[٩] من ناحية (أَذْرَبِيْجان)، فغنم

= أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة، لقولهم دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته: كورة دارا بجرد، ونحو ذلك نهر الملك، فإنه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصب في دجلة عليه نحو ثلاث مئة قرية، ويقال لذلك: جميعه: كورة نهر الملك، انظر معجم البلدان (١/ ٣٦). وأما الاستان والكورة واحد، انظر معجم البلدان (١/ ٣٧).

(١) ابن الأثير (٥/ ١٣٧ - ١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب (١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥)، وانظر سيرة الحارث بن عمرو الطائي في تهذيب ابن عساكر (٣/ ٤٥٦) وتاريخ ابن خليفة (٢/ ٣٥٠).

(٢) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤١٥ - ٤٢٢).

(٣) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح فارس (٢٠٥ - ٢٠٨).

(٤) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح فارس (٢٠٩ - ٢١٣).

(٥) الجزيرة: هي جزيرة ابن عمر.

(٦) قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم تقع مدينة سيواس في شرقيها وينتقل منها إلى قونية، انظر معجم البلدان (٧/ ١٩٥) وتقويم البلدان (٣٨٢ - ٣٨٣) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٦٤ - ٣٦٥).

(٧) ابن الأثير (٥/ ١٤٠)، وفي العبر (١/ ١٣١) وشذرات الذهب (١/ ١٣٤): أن قيسارية فتحها مسلمة سنة سبع ومئة الهجرية في رمضان عنوة، وكذلك في تاريخ الموصل (٢٦) وانظر النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٢).

(٨) تهذيب ابن عساكر (٣/ ٤٥٦).

(٩) في تاريخ الموصل (٢٩): أنه غزا الخزر لا الترك، والخزر أصلهم من الترك، فلا خلاف بين الروايتين.

وسبى وعاد سالماً[1].

وهذه غزوة أخرى من غزوات توطيد سيطرة الدولة في البلاد المفتوحة وإشاعة الأمن والاستقرار في (أَذْرِبِيْجان) الجبلية ذات البرد القارس.

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨م)، غزا مسلمة الترك من باب (اللّان)، فلقي (خاقان)[2] في مجموعة، فاقتتلوا قريباً من شهر، وأصابهم مطر شديد، فانهزم خاقان، ورجع مسلمة على مسلك (ذي القَرْنَيْن)[3] منتصراً[4]. وهذه الغزوة تسمى غزوة (الطِّين)، وكانت ملحمة عظيمة في سابع جُمادى الآخرة من هذه السنة[5]، ويبدو أنها سميت غزوة (الطِّين) لهطول أمطار غزيرة جعلت ساحة المعركة أوحالًا من الطِّين.

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م) استعمل هشام بن عبد الملك، الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ على إرمينيّة وعزل أخاه مسلمة[6]، فدخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية (تَفْلِيس)، ففتح مدينتهم (البيضاء) وانصرف سالماً، فجمعت الخزر وحشدت وسارت إلى بلاد الإسلام، وكان ذلك سبب استشهاد الجرّاح[7] سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م)، وكان

(١) ابن الأثير (٥/ ١٤٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٢).

(٢) خاقان: لقب ملك الترك، ومعناه: الملك.

(٣) ذو القرنين: أحد الفاتحين العظام، ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف، واختلف المؤرخون في اسمه الحقيقي وتاريخ حياته، وهو الذي بنى سد الصين المشهور، ويسمى سد يأجوج ومأجوج، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٦٢ ـ ١٦٤).

(٤) ابن الأثير (٥/ ١٥٥).

(٥) النجوم الزاهرة (١/ ٢٦٧) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢).

(٦) ابن الأثير (٥/ ١٥٨) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٠) وابن خلدون (٣/ ٢٩٩) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٣).

(٧) ابن الأثير (٥/ ١٥٨) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٠).

الجرّاح خيرّاً فاضلًا من عمال عمر بن عبد العزيز، ورثاه كثير من الشعراء[1].

ولا يذكر المؤرخون سبباً لعزل مسلمة، ويبدو أنّ مسلمة كان في (دمشق) سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية، فلم يَغْزُ في تلك السنة، كما أنّ الترك سارت إلى (أذربيجان) فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم[2]، مما يدلّ على أنّ مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال، فقاد المعركة قائد من قادته الذين يعملون بإمرته، وهذا يدلَ على أنّ مسلمة كان في (دمشق) لأسباب قاهرة، وقد يكون مريضاً، لأنّ هشام بن عبد الملك لا يمكن أن يستغني عن مسلمة وهو يده اليمنى في تلك المناطق النائية، كما لا يمكن أن يعزله بدون رغبته إلّا لأسباب قاهرة.

ولو أنّ هشام بن عبد الملك عزله لريبة أو لأنه قصّر بواجبه، لما أعاده إلى منصبه سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م) والياً على (إرْمينْية) و(أذربيجان)، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاء (الباب)[3] في آثارهم[4].

وثبت مسلمة لمدينة (الباب) ففتحها، وكان في قلعتها ألف رجل من بيوتات الخزر، فحاصرهم ورماهم بالحجارة، ثم رماهم بقنابل من الحجارة، ولكنه لم ينتفع بذلك، فعمد إلى العين التي يجري منها الماء إلى صهريجهم، فذبح البقر والغنم وألقى فيه الفرث والمواد الأخرى التي لا

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٥٩) وابن خلدون (٣/ ٢٩٩) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧١) وتاريخ الموصل (٢٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٤).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٥٨).

(٣) الباب: وهي باب الأبواب (دربند)، ميناء على بحر الخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٩) وتقويم البلدان (٤٠٤ ـ ٤١٦).

(٤) ابن الأثير (٥/ ١٦٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٧).

ينتفع بها الناس، فلم يمكث ماؤهم إلّا ليلة حتى دوّد وأنتن وفسد، فلما جنّ عليهم اللّيل هربوا وأخلوا القلعة. وأسكن مدينة (الباب) أربعين ألفاً من أهل الشّام على العَطاء، وبنى هُرْياً للطعام وهُرْياً للشعير وخزانة للسّلاح، وأمر بكبس الصهريج ورمّ المدينة[1].

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م)، فرّق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان، ففتحت مدائن وحصون على يديه، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق، ودان له من وراء جبال (بَلَنْجَر)، وقتل ابن خاقان[2]؛ فاجتمعت تلك الأمم جميعها: الخزر وغيرهم عليه في جمع لا يعلم عددهم إلّا الله، وقد جاوز مسلمة (بلنجر)، فلما بلغه خبرهم، أمر أصحابه، فأوقدوا النيران، ثم ترك خيامهم وأثقالهم، وعاد وعسكره وأبقى جريدة، وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان، وطووا المراحل كلّ مرحلتين في مرحلة، حتى وصل إلى (الباب) في آخر رمق[3]، فأكمل بناء (الباب)[4] وحصنّها.

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣١م) استعمل هشام بن عبد الملك، مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على (الجزيرة) و(أذربيجان) و(إرمينية) وعزل مسلمة[5]، فأقبل بعدما هزم خاقان وأحكم ما هناك وبنى (الباب)[6].

فما هو سبب عزله؟

---

(١) فتوح البلدان (٢٩١).

(٢) في المعارف (٣٦٥): أنه قتل خاقان ملك الترك.

(٣) ابن الأثير (٥/ ١٧٣ - ١٧٤).

(٤) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٩).

(٥) ابن الأثير (٥/ ١٧٧) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٣) وتاريخ الموصل (٣٤) والعبر (١/ ١٤١) وشذرات الذهب (١/ ١٤٧) وابن خلدون (٣/ ٣٠٠).

(٦) ابن الأثير (٥/ ١٧٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٩).

لقد كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم - وهو آخر خلفاء بني أميّة - مع عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر، فلما عاد مسلمة إلى (الباب) سار مروان إلى هشام بن عبد الملك، فلم يشعر به حتى دخل عليه، فسأله عن سب قدومه، فقال: «ضِقْتُ ذرعاً بما أذكره، ولم أر مَنْ يحمله غيري!» قال: «وما هو؟»، قال مروان: «قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الإسلام وقتْل الجرّاح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين، ثمّ رأى أمير المؤمنين أن يوجِّه أخاه مسلمة بن عبد الملك إليهم، فوالله ما وطىء من بلادهم إلّا أدناها، ثمّ إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك، فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعدّ القوم وحشدوا، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية، وكان قصاراه السّلامة، وقد أردتُ أن تأذن لي في غزوة أُذهب فيها عنّا العار وأنتقم من العدو». قال هشام: «قد أذنتُ لك»، قال: «وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل؟»، قال: «قد فعلتُ»، قال: «وتكتم هذا الأمر عن كل واحد؟»، قال: «قد فعلتُ، واستعملتك على إرمينية»[1].

وقد خرج مروان مختفياً عن مسلمة إلى هشام[2]، أي أنه عاد إلى الشام من الجبهة الأمامية دون إذن مسلمة ودون علمه!!!

وفي رواية أخرى: لما أقبل مسلمة، زحفت إليه الخزر، فلم يشعر مسلمة حتى طلعوا عليه، فقاتلهم وحال بينهم اللّيل، وبات المسلمون يحيون، وانصرف الخزر وقفل مسلمة واستخلف مروان بن محمد، وذلك كلّه سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية[3].

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٧٧)، وابن خلدون (٣/ ١٩٧).
(٢) ابن خلدون (٣/ ١٩٧).
(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٩).

والتناقض بين الروايتين واضح، فإنّ مسلمة عاد بعد أن قتل خاقان وأحكم ما هناك[1]، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً. كما أنّ مسلمة تغلغل في بلاد الخزر، فكيف لم يطأ من بلادهم إلّا أدناها!

أما أنه كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر، حتى استعد الخزر وحشدوا، فليس ذلك معقولًا، إذ لا يمكن أن يتصّرف أي قائد هذا التصرّف، فينذر عدوّه بالحرب، ويفسح له المجال للاستعداد، ثم يتراخى عن العدو ثلاثة أشهر!!

أما أنّ مسلمة لم تكن له نكاية بالخزر، فهذا ما يدحضه سير القتال، وما أنجزه مسلمة في الحرب.

يبقى ما ورد عن خروج مروان بن محمد مختفياً من مسلمة إلى هشام بن عبد الملك، فلو كان مروان مبيتاً الوشاية بابن عمه مسلمة، لاستأذنه في القفول إلى دمشق لسبب من الأسباب ثم يعود أدراجه إلى دمشق، إذ ليس من المعقول أن يعود من (الباب) إلى دمشق، وهو قريب القربى من مسلمة، فيبقى أمر عودته سراً مكتوماً على مسلمة ولا يعرف مسلمة عن رحيله شيئاً!!

كما أنّ العلاقة الوثيقة بين مسلمة ومروان من جهة، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومسلمة من جهة أخرى، تجعل من الصعب على مروان أن يشي بمسلمة، وتجعل من الصّعب على هشام أن يصدِّق وشاية مروان، خاصة وأنها تناقض الحقائق الناصعة ولا يصدقها عاقل.

كلّ ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثانية، وهي أنّ مسلمة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام، قفل راجعاً إلى دمشق، واستخلف مروان على ولايته.

---

(١) ابن الأثير (١٧٩/٥).

ويبدو أنّ مسلمة بعد عودته، اقترح على هشام أن يولي مروان مكانه، فاستجاب هشام لاقتراح مسلمة.

ولم يكن هشام ليعزل مَسْلمة الذي كان الرجل الثاني في الدولة الأموية، وليس من المعقول أن يعزل مسلمة لعدم كفايته لأنّ كفايته فوق الشبهات ولأنّ هشام بن عبد الملك ولّاه لكفايته حتى يعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية.

ومما يلفت النظر أنّ مسلمة لم يُغْزُ ولم يتول ولاية منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجرية، حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجريّة أو سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية.

وغيابه عن تحمل أعباء الجهاد، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً عن النهوض بهذا الفرض - ليس طبيعياً، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثالة من القادة الأفذاذ.

وإذا كان بالإمكان أن يتخلى عن تولي المناصب الإدارية، فليس بالإمكان أن يتخّلى عن تولي المناصب القيادية، وهو الذي حمل السيف قائداً ولم يتجاوز العشرين من عمره وقضى كلّ سني حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية، فمن المعقول أنه تخلى عن المناصب القيادية لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته.

والذي يبدو أن تخليه عن القيادة مكرهاً، كان لاعتلال صحته وإصابته بالمرض، ومن المعروف أنّ من مزايا القائد المتميِّز تمتعه بالقابلية البدنية المتميزة، ليستطيع تحمل مشاق التنقّل وأعباء الجهاد، وإلا فليس هناك ما يسوِّغ ابتعاده عن ساحات الوغى غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش.

وعلى كل حال، فقد أدى ما عليه من واجبات قياديّة وإدارية بما فيه

الكفاية، وخدم الدولة في ميداني القيادة والإدارة على حد سواء بشرف وأمانة وإخلاص وقوة.

الإنسان:

١ ـ ظهرت مزايا مسلمة وألمعيّته مبكِّراً وهو صغير السن، فركّز أبوه عبد الملك بن مروان عليه بخاصة في وصيته أبناءه وبنيه وهو على فراش الموت، فقال فيه: «.... وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي عنه تفترون، ومِجَنّكم الذي عنه ترمون[١]»، فهو قائد من قادة الفكر، وقائد من قادة الجهاد، بالنسبة لبني أُميّة، لا يخالفون له رأياً، ولا يعصون له أمراً، ويلجأون إليه في أيام المحن والحروب.

لقد كان من رجال بني أُميّة[٢] المعدودين، موصوفاً بالشّجاعة والإقدام، والرأي والدهاء[٣]، وصفه يزيد بن المُهَلّب بن أبي صُفْرَة فقال: «.... إني لقيتُ بني مَرْوان، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غَدْراً من مَسْلمة[٤]»؛ فهو داهية من الدُّهاة، بعيد الغور، شديد الذكاء.

تولّى العِراقَيْن مرة واحدة، وتولى (إرمينية) و(أذربيجان) و(الجزيرة) ثلاث مرات، في أحرج الظّروف وأصعب الأيام، فوطد الأمن فيها وأعاد الاستقرار إليها، وفرض عليها سيطرة الدولة وهيبة الحكم؛ فكان إدارياً حازماً، ورجل دولة من الطّراز الأول، وقائداً متميِّزاً، ومن أقواله التي تشير إلى هذه المزايا: «مُروءتان ظاهرتان: الرياسة والفصاحة»[٥].

فلا عجب أن يهتم أبوه به حيّاً، ويوصي به وهو يحتضر، ويفرض

---

(١) ابن الأثير (٤/١١٧ ـ ١١٨).
(٢) تهذيب التهذيب (١٠/١٤٤) والبداية والنهاية (٩/٣٢٨) ونسب قريش (١٦٥).
(٣) العبر (١/١٥٤) وشذرات الذهب (١/١٥٩).
(٤) الطبري (٦/٥٩٣) وفيه: أبعد (غوراً) لا أبعد (غدراً)، وانظر ابن الأثير (٥/٨٠).
(٥) عيون الأخبار (١/٢٥٦).

شخصيته على من تولى الخلافة بعد أبيه وعلى بني أُمية كافة، وجميع الحكّام والمحكومين على حد سواء.

بل إنه فرض شخصيته على أعدائه أيضاً، داخل حدودها وخارجها، فكانوا يحسبون له ألف حساب.

فقد أسر الروم عبد الله بن كُلَيب من بني عامر بن صَعْصَعة، وكان مع مسلمة في غزوة من غزواته الكثيرة، فأراد قيصر ملك الروم قتله، فقال له عبد الله: «والله لئن قتلتني لا تبقى بَيْعَة في بلاد الإسلام إلّا هُدمت»[1]، فخشي قيصر مغبة قتله، لأنه من رجال مسلمة الذي يدافع عن رجاله ويحميهم، ولا يتخلّى عنهم حتى ولو كانوا أسرى بيد الأعداء، وينتقم لهم إذا ما أُصيب أحدهم بسوء ظلماً.

٢ ـ لقد كان مسلمة ذا شخصية قوية رصينة، تستند على أسس ثابتة رصينة هي: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العلمية.

أما عن الطبع الموهوب، فقد كان ذكياً ألمعيّ الذكاء، ومن أحضر الناس جواباً. فقد مرّ مسلمة وكان من أجمل الناس بمُوَسْوِسٍ على مَزْبلة، فقال له الموسوس: «لو رآك أبوك آدم، لقَرّت عينُه بك»، فقال مسلمة: «لو رآك أبوك آدم لأذهبت سَخنةُ عينه بك قُرّة عينه بي»[2].

وكان بعيد النظر، لا يكاد يترك شاردة ولا واردة إلّا ويمعن فيها الفكر بعمق وشمول، فقد قدّر أنّ ثورة يزيد بن المهلّب ليست هيِّنة، وربما تعصف بالدولة، فخاف الحرب النفسية بالإشاعات، ومنها الادعاء بوفاة الخليفة يزيد بن عبد الملك، فيفت ذلك في عضد الجيش، لذلك اقترح أن يولّي هشام بن عبد الملك من بعده، لكي يكون مسؤولًا عن تولّي الخلافة،

---

(١) المعارف (٥٥٦).

(٢) العقد الفريد (٤/ ٤١).

فيدير الدولة، ولا تبقى عرضة للهزّات، فبايع يزيد لأخيه هشام، وبعده لابنه الوليد بن يزيد[1].

٣ ـ أما عن العلم المكتسب، فقد كان مسلمة محدِّثاً، روى الحديث عن عمر بن عبد العزيز وروى عنه أبو واقد صالح بن محمد الليثي وعبد الملك بن أبي عثمان وعبيد الله بن قزعة وعَيَيْنَة والد سفيان بن عيينة وعتبة بن أبي عِمْران الهلالي ويحيى بن يحيى الغسّاني، وذكره ابن سميع في الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام[2].

وكان شاعراً مُقِلّا كما يبدو، ومن شعره:

أرقتُ وصحراء الطَوانة بيننا ... لبرق تَلَالَا نحو غَمرة يلمحُ
أزاول أمراً لم يكن ليطيقه ... من القوم إلّا اللّوْذَعِيّ الصَّمَحْمَحُ[3]

وقد كتب بها إلى الوليد بن عبد الملك من القسطنطينية[4] فإذا صحّ أنّ هذين البيتين من شعر مسلمة، فلا يصحّ أنه كتب بها إلى الوليد بن عبد الملك، لأنّ مسلمة لم يكن في القسطنطينية أيام الوليد، بل كان فيها أيام سليمان بن عبد الملك كما هو معروف، وكما ذكرنا في الحديث عن: حصار القسطنطينية.

وقال:

إني إذا الأصوات في القوم عَلَتْ ... في موطن تخشى به القوم العَنَتْ[5]
مُوَطِّنٌ نفسي على ما خَيّلتْ[6] ... بالصبر حتى تنجلي عما انْجلَتْ[7]

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٩٥) وابن خلدون (٣/ ١٧٤) وانظر الأغاني (٧/ ٢).
(٢) تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤) وانظر البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) والعبر (١/ ١٥٤) وشذرات الذهب (١/ ١٥٩).
(٣) الصمحمح: الرجل الشديد المجتمع الألواح، انظر ترتيب القاموس المحيط (٢/ ٧٨٢).
(٤) معجم الشعراء (٢٧٨).
(٥) العنت: المشقة والشدة، انظر المعجم الوسيط (٢/ ٦٣٠).
(٦) خيلت: شبهت. وعلى ما خيلت: أي على كل حال.
(٧) الحيوان للجاحظ (٥/ ٦٠٢).

وشعره على قلّة ما وصل إلينا منه، يجعله من الشعراء الفرسان، أو من شعراء الفروسية، ولا يمكن وضعه في مكانه اللائق به بين الشعراء استناداً على هذا الشعر القليل، كما لا يمكن تقدير قابليته الشعرية للسبب نفسه.

ولكنه كان يحب الشِّعر، ويقدِّر الشعراء، ويعرف قابلياتهم الشِّعرية، ويثمِّن إنتاجهم الشعري، ويكرم وفادتهم ويثيبهم على شعرهم ويحميهم من السلطان.

ومن أقواله في تقويم الشعراء: «ثلاثة لا أَسألُ عنهم، أنا أعلم العرب بهم: الأخطل والفرزدق وجرير. فأما الأخطل فيجيء سابقاً أبداً، وأما الفرزدق فيجيء مرة سابقاً، ومرة ثانياً، وأما جرير فيجيء سابقاً مرة وثانياً مرة وَسُكيتاً مرة»[(١)].

ومن أمثلة إكرامه للشعراء، ما حكاه كُثَير[(٢)]، قال: «شخصتُ أنا والأحْوَص[(٣)] ونُصَيْب[(٤)] إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وكل واحدنا يُدِلّ عليه بسابقة له وإخاء، ونحن لا نشك أنه يشركنا في خلافته، فلما رفعت لنا أعلام خُناصرة[(٥)]، لقينا مسلمة بن عبد الملك جائياً من عنده، وهو يومئذٍ فتى العرب، فسلّمنا عليه، فردَ علينا السلام، ثم قال: أما بلغكم

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٣٩٣).

(٢) كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة، من خزاعة.

(٣) الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٨٢)، وقد جاء نسبه في كتاب: الشعر والشعراء: الأحوص بن مالك بن جعفر بن كلاب، وقد زاد اسم مالك في نسبه، انظر الشعر والشعراء (١/ ٢٥٣)، والأول أصح.

(٤) نصيب بن رباح أبو محجن الشاعر، انظر خلاصة الذهب المسبوك (٣٤)، وكان عبداً أسود لرجل من أهل وادي القرى، انظر الشعر والشعراء (١/ ٣٢٢).

(٥) خناصرة: بليدة من أعمال حلب، انظر معجم البلدان (٣/ ٤٦٧) وترتيب القاموس المحيط (٢/ ١١٢).

أن إمامكم لا يقبل الشعر! قلنا: ما وضح لنا خبر حتى انتهينا إليك. ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا، فقال: إنّ يكُ ذو دِيْنِ بني مروانَ وليَ وخشيتم حرمانه، فإنّ ذا دنياها قد بقي، ولكم عندي ما تحبّون، وما ألبثُ حتى أرجع إليكم، فأمنحكم ما أنتم أهله. فلما قدم كان رحالنا عنده، بأكرم منزل وأفضل منزول به، فأقمنا عنده أربعة أشهر، يطلب لنا الإذن هو وغيره، فلم يُؤذن لنا، إلى أن قلتُ في جمعة من تلك الجُمع: لو أني دنوت من عمر، فسمعتُ كلامه فحفظته كان ذلك رأياً، ففعلت، فكان مما حفظت من قوله، لكل سفر زاد لا محالة، فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه وعقابه، فترغّبوا وترهّبوا، ولا يطولنّ عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم... في كلام كثير.... ثم قال: أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي وتظهرِ عَيْلتي[1] وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلّا الحقُ والصدق... ثم بكى حتى ظننا أنه قاضٍ نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل. وانصرفتُ إلى صاحبيّ، فقلت لهما: خذا في شرح[2] من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه، فإنّ الرجل أُخرويّ ليس بدنيويّ. إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة، فأذنَ لنا بعدما أذن للعامة، فلما دخلتُ عليه سلمتُ، ثم قلت: يا أمير المؤمنين! طال الثواء، وقلّت الفائدة وتحدّثت بجفائك إيانا وفود العرب، فقال: يا كثير! ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[3]، أفي واحدٍ من هؤلاء أنت؟ فقلت: ابن سبيل منقطع به، وأنا ضاحك، قال: أو لستَ ضيف أبي سعيد[4]، قلت: بلى!

---

(١) العيلة: الفقر والحاجة، انظر المعجم الوسيط (٢/ ٦٤٠).

(٢) شرح: الضرب واللون، وقد جاء في الشعر والشعراء (١/ ٤١٢): شرج، وهو تصحيف.

(٣) الآية الكريمة في سورة التوبة: ٦٠.

(٤) أبو سعيد: مسلمة بن عبد الملك، وهذه كنيته، انظر تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤).

قال: ما أرى من كان ضيفه منقطعاً به[1]».

ومن أمثلة إكرامه للشعراء، أنه قال يوماً لنُصَيْب الشّاعر: «سَلْني!»، قال: «لا!»، قال: «ولِمَ؟»، قال: «لأنّ كَفّك بالجزيل أكثر من مسألتي باللّسان!»، فأعطاه ألف دينار[2].

ومن أمثلة حمايته للشعراء، أنّ الكُمَيْت بن زيد[3] كان يمدح بني هاشم ويُعَرِّض ببني أُميّة، فطلبه هِشام بن عبد الملك، فهرب منه عشرين سنة، لا يستقرّ به القَرار من خوف هشام. وكان مسلمة بن عبد الملك له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له ولا يردّ فيها. فلما خرج مسلمة بن عبد الملك يوماً إلى بعض صُيوده، أتى الناس يُسَلِّمون عليه، وأتاه الكُمَيت بن زيد فيمن أتى، فقال: «السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته. أما بعد:

قِفْ بالديار وُقوفَ زائِرْ ... وتأنّ إنك غير صاغِرْ

حتى انتهى إلى قوله:

يا مَسْلم بن أبي الوَليد ... لميِّتٍ إن شِئْتَ ناشِرْ
عَلِقَتْ حِبالي في حِبَا ... لك ذِمّة الجار المُجاوِزْ
فالآن صرتُ إلى أُمَيَّة ... والأمور إلى المصايِرْ
والآن كنتُ به المُصِيـ ... ـبَ كَمُهْتَدٍ بالأمسِ حائرْ»

فقال مسلمة: «سبحان الله! من هذا الهِنِدكي[4] الجِلْحَاب[5] الذي أقبلَ من أُخريات الناس، فبدأ بالسّلام، ثمّ أما بعد، ثم الشعر؟»، قيل له: هذا

---

(١) الشعر والشعراء (١/٤١١ ـ ٤١٢) والعقد الفريد (٢/٧٦ ـ ٨٨)، والنص منقول عن الشعر والشعراء.

(٢) البداية والنهاية (١٠/٣٢٩) وتاريخ الإسلام (٤/٣٠٣).

(٣) الكميت بن زيد، من بني أسد، وكان معلماً، انظر الشعر والشعراء (٢/ ٤٨٥).

(٤) الهندكي: (بكسر الهاء والدال): الرجل من أهل الهند.

(٥) الجلحاب: الشيخ الكبير.

الكُميت بن زيد، فأعجب به لفصاحته وبلاغته؛ فسأله مسلمة عن خبَره، وما كان فيه طولَ غيبته، فذكر له سُخط أمير المؤمنين عليه، فضمن له مسلمة أمانه، وتوجّه به حتى أدخله على هِشام، وهشام لا يعرفه. فقال الكميت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. الحمد لله!» فقال هشام: «نعم! الحمد لله يا هذا!». وتكلَم الكميت مستعطفاً، فرضي عنه هشام وأمر له بجائزة[1]، إكراماً لمسلمة.

لقد كان مسلمة شاعراً، يعرف للشعراء مكانتهم، ويقدِّرهم حق قدرهم.

٤ ـ وقد مدحه الشعراء، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الشاعر أبو نُخَيْلة التميمي فيه:

أَمَسْلمُ إني يا ابنَ خير خليفةٍ ... ويا فارس الدنيا ويا جَبَلَ الأرض
شكرتك إنَّ الشُّكر حَبْل من التُّقى ... وما كل مَنْ أوليتَه نعمةً يَقضي
وألقيتَ ـ لما جئتُ بابك زائراً ـ ... رواقاً مديداً سامق الطول والعرض
وأنبهتَ لي ذكري وما كان خاملًا ... ولكنّ بعض الذكر أنبه من بعض[2]

ومدحه العجّاج بقصيدة طويلة من بحر الرّجز في أربعة وسبعين بيتاً نقتطف منها[3]:

مَسْلَم، لا أَنْسَاكَ ما بَقِيْتُ
فَضْلَكَ والعَهْدَ الذي رضِيْتُ
لو أَشْرَبُ السُّلْوانَ ما سَلِيْتُ
ما بِيْ غِنىً عنكَ وإنْ غَنِيْتُ
لو أنني صَمِمْتُ أو عَمِيْتُ

وكان لا يلحن كاتباً وشاعراً وخطيباً، ومن أقواله في اللَّحن: «اللَّحن

(١) العقد الفريد (٢/١٨٣ ـ ١٨٥) وفيه تفاصيل استعطاف الكميت.
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز (٦٤).
(٣) ديوان العجاج (٤٦٤ ـ ٤٧١).

في الكلام، أقبح من التّفتيق في الثوب النفيس»[1]، وكان فصيحاً[2]، ومن أقواله: «ما قرأت كتاباً قط لأحد إلّا عرفت عقله منه»[3].

فلا عجب أن يوصي بثلث ماله لأهل الأدب قائلًا: «إنها صنعة حجفِ[4] أهلها»[5].

وكان كريماً[6] غاية الكرم، ومن الأمثلة على كرمه أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في المَرْضَة التي مات فيها، فقال: «يا أمير المؤمنين! إنك فطمت أولاد ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة، ولا بد لهم من شيء يُصْلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نُظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله». فقال عمر: «أجلسوني»، فأجلسوه، فقال: «الحمد لله! أبالفقر تخوِّفني يا مسلمة! أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم. وأما ما سألتَ من الوَصاة إليك أو إلى نُظرائك من أهل بيتي، فإنّ وصيّتي بهم إلى الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين. وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتّقى الله، فجعل الله له من أمره يُسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيّر وفجر، فلا يكون عمر أوّلَ من أعانه على ارتكابه! ادعوا إليّ بَنيَّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً، فجعل يُصَعِّد بصره فيهم ويصوِّبه حتى اغرورقت عيناه بالدَّمع، ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم. يا بنيّ! إني قد تركتكم من الله بخير، لأنكم لا تمرون على مُسلم ولا مُعاهد، إلّا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله. يا بَنيّ! مَثّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل

---

(١) عيون الأخبار (٢/١٥٨).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩).

(٣) العقد الفريد (٢/ ٢٥١).

(٤) جحف الشيء برجله: رفسه حتى يرمي به جانباً. وجحف أهلها: غبنهم.

(٥) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩).

(٦) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩)، وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٣).

أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دُخول أبيكم يوماً واحداً في النار. قوموا يا بَنِيّ، عَصمكم الله ورزقكم»، قال: فما احتاج أحدٌ من أولاد عمر ولا افتقر[١].

وأهدى إلى الحسن البصري رضي الله عنه خَمِيصة[٢] لها أعلام، وكان الحسن يُصلّي فيها[٣].

وكان إذا كثر عليه أصحاب الحوائج، وخاف أن يضجر، قال لآذنه: «إيذن لجلسائي» فيأذن لهم، فيفتن ويفتنوا في محاسن الناس، فيضطرب لها ويهتاج، ويصيبه ما يصيب صاحب الشَراب، فيقول لآذنه: «إيذن لأصحاب الحوائج»، فلا يبقى أحد إلّا قضيت حاجته[٤].

٥ ـ وكان سمحاً يفتح بابه وقلبه لكل غادٍ ورائح، فيقضي حاجة المحتاج، ويأخذ بيد المضطر، ويغيث الملهوف، ويجير مَنْ يستجير به حتى على الخلفاء.

فقد غضب هشام بن عبد الملك على عمر بن هُبيرة، فأُتي به إلى خالد بن عبد الله القَسْرِيّ وهو والي العراق، مغلولاً مُقَيّداً في مِدْرَعة[٥]، فلما صار بين يَدَي خالد أَلقته الرجال إلى الأرض، فقال: «أيها الأمير! إنَّ القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة، قد أنعموا بها عليّ من قَبْلك؛ فأنْشُدك الله أن تَسْتَنَّ فيَّ بسُنّة يَسْتَنّ بها فيك مَنْ بعدك»، فأمر به إلى الحبس. وأمر ابن هُبيرة غلمانه، فحفروا له تحت الأرض سِرْداباً، حتى خرج الحَفْر تحت سريره، ثمّ خرج منه ليلاً، وقد أُعِدَّت له أفراس يُدَاولها، حتى أتى مسلمة بن عبد الملك، فاستجار به، فأجاره. واستَوْهبه مسلمة من

---

(١) العقد الفريد (٤/٤٣٩).

(٢) الخميصة: كساء أسود أو أحمر له أعلام.

(٣) العقد الفريد (١/٢٧٤).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ـ نسخة دار الكتب برقم ٤٩٢ ـ ج٣٢.

(٥) المدرعة (كمكنسة): ثوب ولا يكون إلا من صوف.

هِشام بن عبد الملك، فوهبه إيّاه، فلما قدم خالد بن عبد الله القَسْريّ على هشام، وجد عنده ابن هُبَيْرَة، فقال له: «إباقُ[١] العبد أبِقْتَ!»، قال له «حين: نمتَ نومة الأمَة»[٢].

ولعلّ من المفيد إيراد قصة لجوء عمر بن هُبَيْرة إلى مسلمة، لأنها تبرز مزايا جديدة لمسلمة، منها قوة شخصيته وشهامته ومروءته، إذ لا يمكن لأيِّ إنسان أن يجير على الخليفة إلّا إذا كان ندّاً له مقرباً إليه موثوقاً به مُعْتَمداً عليه، ومنها ورعه وتقواه، ومنها إكرامه للضيف والاهتمام براحته والسّهر على رعايته حتى ولو كان من المغضوب عليهم من الخليفة بالذات.

فقد روى خادم مسلمة الذي كان يشرف على وَضوئه[٣] تلك القصة الطريفة فقال: «كان مَسْلَمة بن عبد الملك يقوم من اللّيل فيتوضأ ويَتَنَفّل[٤] حتى يُصبح فيدخل على أمير المؤمنين، فإني لأصبّ الماء على يديه من آخر اللّيل وهو يتوضأ، إذ صاح صائح من وراء الرُّواق: أنا بالله وبالأمير! فقال مسلمة: صوت ابن هبيرة، اخرُج إليه، فخرجت إليه ورجعتُ فأخبرته، فقال: أَدْخِله، فدخل، فإذا رجل يَمِيد نُعاساً، فقال: أنا بالله وبالأمير، فقال: أنا بالله وأنت بالله، ثم قال: أنا بالله وبالأمير! قال: أنا بالله وأنت بالله حتى قالها ثلاثاً. ثم قال: أنا بالله! فسكت عنه، ثم قال لي: انطلق به فوضِّئه وليُصَلِّ، ثم اعرِض عليه أحبَ الطعام إليه فأْتِه وافرش له في تلك الصُّفّة[٥] ـ لصُفّة بين يدي بُيوت النساء، ولا تُوقِظه حتى يقوم متى قام.

---

(١) أبق أبقاً وإباقاً: هرب، فهو آبق وأبوق، وأبق: أبق.

(٢) العقد الفريد (٢/ ١٨٥) وانظر العيون والحدائق (٨٤ و٨٥).

(٣) الوضوء (بفتح الواو): الماء يتوضأ به.

(٤) تنفل المصلى: صلى النوافل. والنفل: ما شرع زيادة على الفريضة والواجب. والنافلة: ما زاد على الفرض، يقال: هو يصلي النافلة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾، جمعها: نوافل.

(٥) الصفة: البهو الواسع العالي السقف.

فانطلقت به فتوضّأ وصلّى، وعرضتُ عليه الطعام، فقال: شَرْبَة سَويق[1]، فشرب. وفرشت له ونام، فجئتُ إلى مسلمة فأعلمتُه، فغدا إلى هشام، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه، قال: يا أمير المؤمنين! إليَّ حاجة، قال: قُضِيَت إلّا أن تكون في ابن هُبيرة، قال: رَضِيْتُ يا أمير المؤمنين؟! ثم قام منصرفاً، حتى إذا كاد أن يخرج من الإيوان رجع، فقال: يا أمير المؤمنين! عوّدتني ألّا تَسْتَثني في حاجة من حوائجي؟ وإني أكره أن يتحدّث الناس أنك أحدثتَ عليّ الاستثناء! قال: لا أستثني عليك، قال: فهو ابن هبيرة، فعفا عنه[2]».

٦ ـ وما دمنا قد ذكرنا النوافل التي يؤديها مسلمة ليلًا، وهي سمة من سمات الصالحين، فمن المستحسن أن نركِّز على الورع في مسلمة بن عبد الملك.

قال مسلمة: «لو رأيتني أنا وعمر بن عبد العزيز، ننتهي إلى الزّرع، فيقحم عمر فرسه، وأكفّ فرسي[3]»، والذي يبدو أنّ مسلمة يتحدّث عن عمر قبل توليه الخلافة، يوم كان كأمثاله من الشباب.

ومن الواضح أنّ مسلمة، كان يعتبر عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة، المثل الأعلى له في الورع، ويحاول أن يتعلّم منه ويقتدي به.

أمر عمر بن عبد العزيز مسلمةَ أن يبكِّر عليه، وأمر بطبيخ ثريد عدسٍ وبألوان من لحم، فلما غدا عليه مسلمة أقام عنده حتى تعالى النهار ووجد الجوعَ، فقام ليذهب، فحبسه عمر وقال له: «اجلس». ثم أقام حتى انتصف النهار، ثمّ قام، فقال له عمر: «اجلس»، حتى إذا بلغ من مسلمة الجوع فيما يُرى عمر، دعا بطعامه، فقربت ثريدة العدس، فأقبل عليها مسلمة،

(١) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، يسمى بذلك لإنسياقه في الحلق.
(٢) العقد الفريد (٢/١٨٦ ـ ١٨٧).
(٣) تاريخ الإسلام (٤/٣٠٣) وكتاب المعرفة والتاريخ (٢/٢٢٦).

فأكل أكل مجهود قد بلغ منه الجوع، ولم يأل حتى تَملَّأ، فأمر عمر أن يرفع، ودعا له بطعام طيّب، فقال له: «كُلْ»، فقال: «قد شبعتُ، ما فيَّ فضل»، قال له: «فكيف بالسَّرف في الطعام، والتَقَحُّم في النار، وهذا يُجْزِي عنه!!». وأراد عمر رحمه الله عظته وتأديبه، فقصر بعد ذلك مسلمة عما كان يكون عليه[1].

وقال مسلمة: «دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه فلا يدخل عليه أحد، فجاءت جارية بطبق تمر صبحانيّ - وكان يعجبه التمر فرفع بكفيَّه منه فقال: يا مسلمة! أتُرى رجلًا لو أكل هذا، ثم شرب عليه الماء، فإنّ الماء على التمر يطيب، أكان إلى الليل يجزيه؟ فقلت: لا أدري! فرفع أكثر منه فقال: فهذا؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى ما يبالي أن لا يذوق طعاماً غيره. قال: فعلامَ ندخل النار؟ قال مسلمة: فما وقعت مني موعظة ما وقعت مني هذه[2]».

وكما كان مسلمة يثق بورع عمر بن عبد العزيز، فقد كان عمر يثق بورع مسلمة. دخل مسلمة على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه، فأوصاه عمر أن يحضر موته، وأن يلي غسله وتكفينه، وأن يمشي معه إلى قبره، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده. ثم نظر إلى مسلمة، فقال: «انظر يا مسلمة بأيِّ منزل تتركني، وعلى أيِّ حال أسلَمْتَني إليه الدنيا!»، فقال له مسلمة: «فأوصِ يا أمير المؤمنين»، قال: «ما لي من مالٍ فأوصي فيه!»، قال مسلمة: «هذه مئة ألف دينار، فأوصِ بها بما أحببتَ»، قال: «أو خير من ذلك يا مسلمة؟... أن تردّها من حيث أخذتها»، قال: مسلمة: «جزاك الله عنّا خيراً يا أمير المؤمنين! والله لقد ألنتَ لنا قلوباً قاسية، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين»[3].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (٤٣ - ٤٤).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز (١٣٤).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز (١٠٥) وانظر العقد الفريد (٤/٤٣٩).

ومن المعلوم أنّ المرء لا يوصي أحداً بأن يحضر موته، ويلي غسله وتكفينه، ويمشي معه إلى قبره، ويدخله في لحده، إلّا إذا كان يثق بورعه وتديُّنه.

وقال مسلمة: «دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده، فإذا هو على فراش من ليف، وتحته وسادة من أديم مسجّى بشملة، ذابل الشّفة، كاسف اللّون، وعليه قميص وسخ، فقلت لأختي فاطمة وهي امرأته: اغسلوا ثياب أمير المؤمنين! فقالت: نفعل. ثم عدتُ فوجدت القميص على حاله، فقلت: ألم آمركم أن تغسلوا قميصه؟! فقالت: والله ماله غيره!! فسبّحتُ الله وبكيت، فقلت: يرحمك الله! لقد خوّفتنا بالله عزّ وجلّ، وأبقيت لنا ذكراً في الصالحين[1]».

وقال مسلمة: «رحم الله عمي - يريد عمر بن عبد العزيز - والله لقد هلك وما بلغ ما ناله قط شرف العطاء، إنه والله عضّ على مقدَم قميصه، ثم شقى في الدنيا حتى خرج منها»، ثم قال رافعاً صوته: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

وقال خالد بن صَفْوان: «لقيت مسلمة بن عبد الملك بالحيرة بعد هلاك ابن المهلب، فقال: يا خالد! أخبرني عن حَسَنِ أهل البصرة - يريد الحسن البصريّ رضي الله عنه - قلت: أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في حلقته وحديثه، وأعلم مَنْ قِبَلي به: كان أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولًا بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام بأمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيءٍ كان أترك الناس له؛ وجدته مستغنياً عن الناس، ووجدت الناس محتاجين إليه»، قال مسلمة: «حَسْبُك حَسْبُك!

---

(١) مختصر تاريخ الدول (١١٥) وانظر كتاب المعرفة والتاريخ (١/ ٦٠٠).
(٢) الآية الكريمة من سورة القصص (٨٣)، وقوله من كتاب المعرفة والتاريخ (١/ ٥٧٩).

كيف ضلّ قوم كان هذا فيهم؟![1]»، يعني كيف اتبعوا يزيد بن المهلّب؟

ودخل مسلمة على يزيد بن عبد الملك صاحب (حبابة) و(سلّامة)، وكان قد ترك لشغله باللهو الظهور للناس وشهادة الجمعة، فقال له مسلمة أخوه: «يا أمير المؤمنين! قد تركت الأمور، وأضعت المسلمين، وقعدت في منزلك مع هاتين الأمَتَيْن، فارعوى قليلًا وظهر للناس[2]»، وهذا يدلّ على أمره بالاستقامة والمعروف ونهيه عن الانحراف والمنكر، كما أنه يدلّ على أنه كان رجل دولة من الطراز الرفيع، يعرف واجب الحاكم تجاه المحكومين، ولا يرضى للحاكم أن يغمط حقوق المحكومين.

وحاصر مسلمة حصناً، فندب الناس إلى نَقْب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرْض الجيش، فدخله، ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة: «أين صاحب النَّقْب؟!»، فما جاءه أحد! فنادى: إني قد أمرتُ الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلّا جاءَ! فجاء رجل فقال: «استأذنْ لي على الأمير»، فقال له: أنت صاحب النَّقْب؟ قال: «أنا أخبركم عنه!»، فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: «إنّ صاحب النَّقْب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألّا تسوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيءٍ، ولا تسألوه: ممن هو؟»، قال مسلمة: «فذاك له»، قال: «أنا هو»، فكان مسلمة لا يصلّي بعدها صلاة إلّا قال: «اللّهم اجعلني مع صاحب النَّقْب»[3].

ومن أقواله في الزّهد: «إنّ أَقلّ الناس همّاً في الدنيا، أقلّهم همّاً في الآخرة»[4]، يريد الهم الذي يورثه التكالب على جمع المال وإدارته وتنميته، والهم الذي يعقب ارتكاب ما حرم الله ورسوله، والهم الذي يورثه

---

(١) كتاب المعرفة والتاريخ (٢/ ٥١ ـ ٥٢)، وأوردها أبو نعيم عن طريق محمد بن ذكوان أيضاً، انظر حلية الأولياء (٢/ ١٤٧ ـ ١٤٨).

(٢) الشعر والشعراء (١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

(٣) عيون الأخبار (١/ ١٧٢).

(٤) تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٣) وكتاب المعرفة وتاريخ (٢/ ٢٢٦).

ارتكاب المعاصي والآثام، والهم الذي يعانيه مرتكب الظلم والعدوان، والهم الذي يشقى به المرء من جراء ترك الفرائض والسنن، والهم الذي يؤرِّق المتخلِّف عن الجهاد، والهم الذي يشعر به المتولي يوم الزحف: ونحو ذلك.

ومن أقواله التي تدل على عمق إيمانه بالطهر المطلق للأنبياء: «الأنبياء لا يتنابّون[1]، كما يتنابّ الناس! ما ناب نبيٌّ قط[2]»، أي أنّ الأنبياء بدرجة من السمو الخلقي بحيث لا ينتقد بعضهم بعضاً ولا يغتابون أحداً من البشر، فذلك ليس من شأنهم ولا من صفاتهم، كسائر الناس الذين ينتقدون ويغتابون ويتنكرون للجميل وينسون المعروف ويجفون العَشِير، تبعاً للواعج نفوسهم الأمّارة بالسوء، وانصياعاً لأهوائهم الشخصية وعواطفهم المتأرجحة دوماً بين الخير والشر.

وكان يؤدي فريضة الحج، ويقصد بيت الله في مكة المكرمة مُحْرِماً ويشدّ الرِّحال إلى مسجد النبي ﷺ إذا وجد إلى ذلك سبيلًا، وقد تولى إمارة الحج سنة أربع وتسعين الهجرية في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك[3].

وكان كريماً لا يقتصر كرمه على الشعراء والأدباء، وذوي القربى والأصدقاء والمحتاجين والفقراء، بل يشمل الأعداء أيضاً، وحسبك بذلك كرماً أصيلًا.

فقد أعطى ألف دينار إلى محمد بن علي العباسي[4] جد الخلفاء

---

(١) نبب الشيء: عضه بنابه. يتنابون: يعض بعضهم بعضاً.

(٢) البداية والنهاية (٩/٣٢٩).

(٣) الطبري (٦/٤٩١) وابن الأثير (٤/٥٩١)، البداية والنهاية (٩/٣٢٨) والمحبر (٢٦) وتاريخ ابن خياط (١/٣١٦).

(٤) هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، انظر جمرة أنساب العرب (٢٠).

العباسيين، وهو يعلم أنه يعمل بنشاط على الأمويين، وفي رواية أنه أعطاه أربعة آلاف دينار[١].

ولم تذهب هذه الأريحية سدى، ففي سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية، تجهز الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي العباسي لغزو الرّوم، فخرج وعسكر بـ(البَردَان)[٢]، وجمع الأجناد من (خُراسان) وغيرها. ثم سار عنها، بعد أن استخلف على (بغداد) ابنه موسى الهادي، وسار على (الموصل) و(الجزيرة). ولما حاذى قصرَ مَسلمة بن عبد الملك، قال العبّاس بن محمد بن علي للمهدي: «إنّ لمسلمة في أعناقنا مِنّة»، وكان محمد بن علي مرّ به، فأعطاه أربعة آلاف دينار، وقال له: «إذا نفدت، فلا تحتشمنا»، فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه، وأمر لهم بعشرين ألف دينار، وأجرى عليهم الأرزاق[٣].

وكان أرض (بَغراس)[٤] ملكاً لمسلمة، فوقفها في سبيل البر[٥]، وهذا يدلّ على كرمه وتديُّنه معاً.

٧ ـ أما التجربة العمليّة لمسلمة فكانت غنية إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبد الملك بن مروان ومع إخوته من بعده، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشاراً، يتعلّمون منه أكثر مما يتعلم منهم، إلّا إذا حزبهم أمر يهدد

---

(١) ابن خلدون (٣/ ٤٤٧) وابن الأثير (٦/ ٦٠).

(٢) البردان: قرية من قرى بغداد على سبع فراسخ منها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١١٣ ـ ١١٦).

(٣) ابن الأثير (٦/ ٦٠).

(٤) بغراس: مدينة بلحف جبل اللكام بينها وبين إنطاكية أربعة فراسخ على عين القاصد إلى إنطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٤٥).

(٥) فتوح البلدان (٢٠٣).

أمن الدولة ومصيرها تهديداً خطيراً، فيبعثونه ليقضي على الثورات، وليقمع الاضطرابات، وليعيد الأمن والاستقرار.

وبالإضافة إلى ذلك، ومن أجل ذلك، كان تجاربه العملية طويلة مستفيضة في اتجاهين: الاتجاه الإِداري، والاتجاه العسكري.

وتجربته في الاتجاه العسكري مكان الحديث عنها في مجال الحديث عن قيادته الذي سيأتي وشيكاً.

أما الاتجاه الإداري، فقد ذكرنا أنه تولى (الجزيرة) و(إرمينية) و(أذربيجان) ثلاث مرّات في أعقاب اضطرابات مريرة، وهذه البلاد الشاسعة التي تشل (جزيرة ابن عمر) وشمالي إيران وتمتدّ شمالاً متغلغلة في الاتحاد السوفياتي حتى (بُخارى) و(سَمَرْقند) وتضمّ عدّة جمهوريات من جمهوريات الاتحاد السوفياتي، أهمها جمهورية (أذربيجان) و(تركستان)، هي القسم الشمالي الشرقي من الدولة الإسلاميّة حينذاك.

كما أنه تولّى مرة (العراقَيْن) وهي (العراق) و(خُراسان)، وتضم ولايته (الأفغان) و(السِّند) بالإضافة إلى (إيران) الجنوبي والعراق، وهي القسم الشرقي من الدولة الإسلاميّة حتى حدود (الصِّين). وتولى هذه الأصقاع في أيام ثورات عارمة واضطرابات قاسية، فأثبت وجوده بالحزم والحكمة والكفاية، فكان بحق إدارياً حازماً، ورجل دولة من الطراز الرفيع.

وبإمعان النظر في أسلوب إدارته، نجده يأخذ بالحزم والشدّة، حتى تستقيم له الأمور كما يريد، فإذا استقامت الأمور، عالج المشاكل بالحكمة والتّسامح والبناء والتعمير، فيعيد بذلك القلوب النافرة إلى الصفاء، والنفوس المتغيِّرة إلى الرضى، ويبني الرجال ولا يحطِّمهم، ويسترضي الأعداء بالعفو والحسنى.

هدم (باب الأبواب) ليقضي على عصيانها، فلما استعاد فتحها أعاد

بناءها وزاد في عمارها، وحصّن أسوارها[1]، فأصبحت أكثر عمراناً وأقوى تحصيناً.

وما يقال عن (باب الأبواب)، يقال عن سائر المدن الأخرى.

أما عن بناء الرجال واستمالة قلوبهم، فمن الأمثلة على ذلك، أنّ مسلمة أقسم أن يبيع ذرية آل المهلّب إذا انتصر عليهم في حرب يزيد بن المهلّب. وانتصر مسلمة وأراد أن يبرّ بقسمه، فقال له الجَراح بن عبد الله الحكَميّ: «فأنا أشتريهم»، فاشتراهم منه الجرَاح بمئة ألف وخلّى سبيلهم، ولم يأخذ مسلمة من الجرّاح شيئاً[2].

ومن الواضح أنّ مسلمة أراد أن يفت في عضد آل المهلّب وهو يُقْسم أن يبيع ذراريهم ويؤثر في معنوياتهم، وهذه هي جزء من الحرب النفسية التي مارسها مسلمة ضد يزيد بن المهلب وآل بيته في محاولة لإجبارهم على الاستسلام.

ولكنه حين انتصر، أراد أن يتحلّل من قسمه، فباع ذريَة آل المهلّب بيعاً صورياً، لرجل من أخلص الرجال وأنبلهم وأكثرهم مروءة وشهامة، لكي يخلي سبيلهم ليصبحوا أحراراً، ومن المؤكد أنّ الذي اشتراهم أخلى سبيلهم برغبة مسلمة وموافقته، والدليل على ذلك أنّ مسلمة لم يأخذ ثمنهم ممن اشتراهم، وليس بمقدور مَن اشتراهم أن يخالف أوامر مسلمة أو يحقق غير رغباته.

وكما كان للخلفاء كتّاب وهيئة من الإداريين، كان لمسلمة كتابه وهيئته الإدارية، كأي رجل دولة أمين حصيف.

فقد كان يكتب لمسلمة سميع مولاه، وعلى ديوان الرّسائل اللَّيث بن

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٢) الطبري (٦/ ٦٠٢) وابن الأثير (٥/ ٨٦).

أبي رُقَيَّة مولى أم الحكم بنت أبي سُفْيان بن حرب، وعلى ديوان الخراج سليمان بن سعد الخَشَنيّ، وعلى ديوان الخاتَم نُعَيْم بن سلامة مولىً لأهل اليمن من (فِلَسْطِيْن)، وقيل: بل رجاء بن حَيْوَة كان يتقلد الخاتَم[1].

ولا نكاد نعرف شيئاً عن الأسماء التي ذكرناها، عدا رجاء بن حَيْوَة الذي هو أشهر من أن يُعَرَّف، وحسبنا أن نذكر عنه أنه كان من أبرز فقهاء عصره وأكثرهم ورعاً واستقامة، وكان عالماً عاملًا محافظاً على كرامة العلماء، لذلك كان المستشار الأول لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه والموجِّه الأول لسياسته الشرعيّة، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك أن يستخلف من بعده عمر بن عبد العزيز، فكان له ما أراد[2]، وقف موقفاً حاسماً مشرِّفاً بعد موت سليمان لكي يبايع بنو أميّة عمر بن عبد العزيز منعاً للفتنة وحقناً للدماء، فكان بحق رجل الساعة في ذلك اليوم العصيب[3]. وكان مسلمة بن عبد الملك يقول في رجاء: «في كِنْدة ثلاثة رجال، إنّ الله لينزل الغيث بهم وينصرهم على الأعداء: رجاء بن حيوة، وعبادة بن نسيء، وعَديّ بن عدَي»[4].

فإذا عرفنا سيرة رجاء بن حيوة وجهلنا سير زملائه في الهيئة الإدارية لمسلمة، فقد يكون ما عرفناه عن رجاء مؤشراً واضحاً لأسلوب مسلمة في اختيار زملاء رجاء العاملين مع مسلمة والمتعاونين مع رجاء، وهو أسلوب اختيار الصفوة كفاية وأمانة وقدراً وجلالًا.

٨ ـ وكانت همته عالية في استصلاح الأرض لتكون صالحة للزراعة،

---

(١) الطبري (٦/ ١٨١).
(٢) ابن الأثير (٥/ ٣٩).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٥٠ ـ ٥٥٣) وابن الأثير (٥/ ٣٩ ـ ٤٠) وابن خلدون (٢/ ١٦١ ـ ١٦٢)، وانظر ما جاء عن رجاء في: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٩٠) والبداية والنهاية (٩/ ٣٠٤).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٩٠).

فقد انبثقت البُثُوق[1] أيام الحجّاج بن يوسف الثقفيّ، فكتب الحجّاج إلى الوليد بن عبد الملك يُعْلمه أنه قدّر لسدِّها ثلاثة آلاف ألف درهم، فاستكثرها الوليد، فقال مسلمة: «أنا أُنفق عليها، على أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق ثلاث آلاف ألف درهم، يتولّى إنفاقها ثقتك ونصيحك الحجّاج»، فأجابه إلى ذلك، فحصلت له أرضون من طساسيج[2] متّصلة، فحفر السَّيْبَيْن[3] وتألّف الأكَره[4] والمزراعين، وعمر تلك الأرضين، وألجأ إليها ضياعاً كثيرة للتعزز[5] به[6].

والأرض التي استصلحها مسلمة بعدما كانت مستنقعات، هي في سواد مدينة (الكوفة) على نهر الفرات الأوسط، فأنجز بذلك مشروعاً زراعياً كبيراً على حسابه الخاص، بعد أن استكثرت الدولة الإنفاق عليه، وتلك هِمَة عالية في إعمار الأرض واستصلاحها يندر أن نجد لها مثيلًا.

ولما توجّه مسلمة غازياً للروم باتجاه الثغور الجزريّة، عسكر في (بالس)[7]، فأتاه أهلها وأهل (نُوِيلس)[8] و(قاصرين) و(عابِدِيْن)[9]،

---

(١) البثوق: جمع البثق، وهي موضع انبثاق الماء من نهر أو نحوه.

(٢) الطساسيج: جمع الطسوج (بوزن قدوس): جزء من أجزاء الكورة. والكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى.

(٣) السيب: مفرد السيبين، كورة من سواد الكوفة، وهما سيبان الأعلى والأسفل، انظر معجم البلدان (٥/ ١٩٠).

(٤) الأكرة: جمع الأكار، والأكار الحرّاث أو الفلّاح.

(٥) عززه: شده وقواه. واعتز به: تشرف وعدّ نفسه عزيزاً به. وتعزز فلان: عز، وتعزز به: اعتز.

(٦) فتوح البلدان (٤١٣).

(٧) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٤٦).

(٨) نويلس: كذا في فتوح البلدان (٢٠٥)، أما في معجم البلدان (٢/ ٤٦) فقد جاءت (بويلس)، وهي قرية من قرى بالس، انظر فتوح البلدان (٢٠٥)، ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان.

(٩) عابدين: قرية من قرى بالس، انظر فتوح البلدان (٢٠٥)، ولم يرد لها ذكر في معجم البلدان.

و(صِفِّيْن)[1]، وهي قرى منسوبة إلى (بالس)، فأتاه أهل الحد الأعلى، فسألوه جميعاً أن يحفر لهم نهراً من (الفُرات) يسقي أرضهم، على أن يجعلوا له الثّلث من غلّاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه، فحفر لهم النهر المعروف بنهر (مسلمة)، ووفوا له، ورمَّ سور (بالس) وأحكمه. ويقال: بل كان ابتداء العرض من مسلمة، وأنه دعاهم إلى هذه المعاملة، فلما مات مسلمة صارت (بالس) وقراها لورثته، فلم تزل في أيديهم حتى جاءت الدولة العباسية، فقبض عبد الله بن علي بن عبد الله بن العبّاس أموال بني أُميّة، فدخلت فيها[2].

ولعلّ من أسباب نجاحه إدارياً، قوة شخصيته ومزاياه الرفيعة بالإضافة إلى قرابته القريبة من الخلفاء والأمراء.

ففي سنة إحدى ومئة الهجرية تُوفي محمد بن مروان بن الحَكَم أخو عبد الملك بن مروان، وكان قد ولي (الجزيرة) و(إرمينية) و(أذربيجان) وغزا الرُّوم وأهل (إرمينية) عدّة دفعات، وكان شجاعاً قوياً، وكان عبد الملك يغبطه لذلك. ولما انتظمت الأمورُ لعبد الملك، أظهر ما في نفسه له، فتجهّز محمد ليسير إلى (إرمينية)، فلما ودَع عبد الملك، سأله عن سبب مسيره، فأنشد:

وإنك لا ترى طرداً لحر ... كإلصاقٍ به بعضَ الهوان
فلو كنّا بمنزلة جميعاً ... جريتُ وأنت مضطرب العِنان

فقال له عبد الملك: «أقسمتُ عليك لتقيمنّ، فوالله لا رأيتَ مني ما

---

(١) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، انظر معجم البلدان (٥/ ٣٧٠)، وهي قرية من قرى بالس، انظر فتوح البلدان (٢٠٥).

(٢) فتوح البلدان (٢٠٥ ـ ٢٠٦) ومعجم البلدان (٢/ ٤٦).

تكره»، ثم صلح له. ولما أراد الوليد عزله، طلب مَنْ يسدّ مكانه، فلم يقدم أحد عليه إلّا مسلمة بن عبد الملك[1].

ذلك هو مبلغ شخصية مسلمة قوّةً ونفوذاً، فلا عجب أن يحظى بكل هذا النجاح إدارياً وقائداً.

٩ ـ وما دام مسلمة أحرز كلّ هذا النجاح بكفايته ومزاياه الأخرى، حتى أصبح محطّ أنظار الناس حكاماً ومحكومين، وأصبحت له شعبية كاسحة ونفوذ عظيماً، فلماذا وثق به الخلفاء بخاصة والناس بعامة، والحكام يخشون مَنْ نال مثل حظوته وشعبيته ومزاياه.

إنّ المتبع لسيرته يجد أنه كان مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية، ويدين بالولاء المطلق للخلفاء، ولم يكن يطمح بتولِي الخلافة لأنّ بني أُمية لم يكونوا يبايعون لبني أمهات الأولاد، ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابن أَسَدَّ رأياً، ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمح نفساً، ولا أسخى كفاً من مسلمة، وإنما تركوه لهذا المعنى[2]!

وكانت بنو أُميّة لا تستخلف بني الإماء، وقالوا: لا تصلُحُ لهم العرب. وقد سابق عبد الملك بن مروان بين ولديه: سليمان ومسلمة، فسبق سليمانُ مسلمة، فقال عبد الملك:

ألم أنهكم أن تحملوا هُجَناءكم ... على خَيْلكم يوم الرُّهان فتُدْرِكُ
وما يستوى المرآن، هذا ابن حُرَّة ... وهذا ابن أُخرى ظهرها مُتشرّك
وتضعف عضداه ويَقْصُر سوطُه ... وتَقْصُر رجْلاه فلا يَتَحرَّكُ
وأدركنه خالاته فنزعنه ... ألا إنَّ عِرْقَ السّوء لا بُدَّ يُدْرَكُ

ثم أقبل عبد الملك على مَصْقَلة بن هُبَيْرَة الشّيباني فقال: «أتدري مَنْ

(١) ابن الأثير (٥/ ٧٠).
(٢) العقد الفريد (٦/ ١٣١).

يقول هذا؟»، قال: «لا أدري!». قال: «يقوله الشَّنّيّ»[1]. قال مسلمة: «يا أمير المؤمنين! ما هكذا قال حاتم الطائيّ!»، قال عبد الملك: «ماذا قال حاتم؟!»، قال مسلمة، قال حاتم:

«وما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خَطَبناها بأسيافنا قَسْرا
فما زادها فينا السِّباءُ مَذَلَّةً ... ولا كُلِّفت خبزاً ولا طَبخت قِدْراً
ولكنْ خلَطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضاً وجوهُهُم زُهراً
وكائن ترى فينا من ابن سَبِيّةٍ ... إذا لَقِيَ الأبطالَ يَطْعنهم شَزْرا
ويأخذ رايات الطِّعان بكفِّهِ ... فيُوردها بيضاً ويُصدرها حُمرا
أغرُّ إذا اغبَرَّ اللئامُ رأيتَهُ ... إذا ما سَرَى ليلَ الدُّجَى قمراً بدراً»

فقال عبد الملك كالمُستحي:

«وما شَرُّ الثلاثة أمَّ عمرو ... بصاحبك الذي لا تَصْبَحينا[2]»

ومهما يقال في صحة هذه المحاورة أو عدمها، فهي تدّل على اتجاه بني أُميّة المعروف، وهو عدم استخلاف بني الإماء.

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد بايع لابنيه الحَكَم وعُثْمان، وهو أوّل مَن بايع لابن سُرّيّةٍ أَمَةٍ، ولم يكونوا يفعلون ذلك[3].

ولم يكن لمسلمة أمل في تولي الخلافة، مع أنه كما يقول الذَّهَبِيّ: «كان أحقَّ بالملك من سائر إخوته»، وكان ذا عقل راجح ورأى سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان بحق من أكثر الناس حرصاً على رصِّ الصفوف والوحدة، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمة لا (غاية) من أجل أطماع شخصيّة وأمجاد أنانيّة، وهو بحق أيضاً خدم الأمة أجل الخدمات، وبذلك حَقَّق (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية).

---

(١) في المرزباني (٢٤٠): أن الشعر لعمرو بن مبردة العبدي.
(٢) الأغاني (٦/ ١٣٠ ـ ١٣١).
(٣) الأغاني (٧/ ٧١).

ويخيَّل إليّ أنه كان مخلصاً لأبعد الحدود إلى أقربائه وأصحابه وأصدقائه وأترابه، الأحياء منهم والأموات، ولعلَ هذه الأبيات من شعره تدلّ على هذا الإخلاص.

قال مسلمة:

قد كنتُ أبكي على ما فاتَ من سلفي　　وأهل ودّي جميعاً غير أشتات
فما حياة امرىء أضحت مدامعه　　نوى بكيت على أهل المودات
فالآن إذ فرَّقت بيني وبينهمُ　　مقسومة بين أحياء وأموات[١]

فمثل هذه النفسية المخلصة بالطبع لا بالتطبّع، لا يمكن أن تضرب أحداً من الخلف، لأغراضٍ شخصية وأمجاد ذاتية.

كما كان يرضخ للحق بسهولة ويسر دون مكابرة ولا مجادلة، قال مسلمة: «أليس قد أمرتُم بالطاعة يعني ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢]، فقيل له: إنّ الله قد انتزعه منكم إذا خالفتم الحق، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٣]، قال: فأين الله؟ فقيل له: الكتاب، قال: فأين الرّسول؟ فقيل له: «السّنّة»[٤]، فرضخ مسلمة للحق فوراً دون مماراة!

فهو يعلم أنّ الحق المعمول به حينذاك هو عدم تولية الخلافة لابن أَمَةٍ، فهو يقرّ هذا الحق ويعترف به.

لذلك لم يكن الخلفاء يخشونه على سلطتهم، فأولوه ثقتهم الكاملة.

١٠ ـ بقي عليَّ أن أتحدَث عنه رجلًا له سمات شخصية تختلف عن الرجال الآخرين، أو بتعبير آخر التحدث عن شئونه الشخصية الخاصة به.

---

(١) ابن شاكر الكبتي ـ عيون التواريخ ـ نسخة مخطوطة بدار الكتب ـ رقم (١٤٩) حوادث سنة ١٢٩هـ.

(٢) من سورة النساء (٤: ٥٩).

(٣) من سورة النساء (٤: ٥٩).

(٤) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ـ نخسة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٤٩٢) ـ (ج ٣٢).

هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان القرشيِّ الأُموي[1] أبو سعيد وأبو الأصبغ[2]، وكان يلقب بالجرادة الصّفراء[3] لصفرة كان تعلوه[4]، ومع ذلك فإنّ الجرادة الصفراء من نَهَم الجراد في اكتساح المزارع والزروع، فإذا ألمّت بزرع أو نبات أتت عليه ولم تُبق منه على شيءٍ، وهذا يرمز لضراوة مسلمة في الحروب وشدّة وطأته على الأعداء.

وكان جميل الصورة حسن الوجه صبيحاً، من أجمل الناس[5]، وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام[6].

تزوج مسلمة بالرَّباب بنت زفر[7] بن الحارث بن عبد عمرو بن مُعاذ بن يزيد بن عمرو الصَّعِق[8] الفَزاريّ[9]، فكان يؤذن لأخويها: الهُذَيل والكُوْثر في أول الناس[10] وقد يتبادر إلى الأذهان أنّ مسلمة يتحيّز لهما لأنهما أخوا زوجه الرَّباب، والواقع أنهما كانا من الرؤساء، كما أنّ الهُذَيْل هو قاتل يزيد بن المهلَب يوم (العَقْر) وقيل غير ذلك[11].

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٢) جمهرة أنساب العرب (١٠٣) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) والمعارف (٣٥٨) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤).

(٣) نسب قريش (١٦٥) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) والمعارف (٣٥٨)، وتاريخ الإسلام (٩/ ٣٥٨) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤).

(٤) المعارف (٣٥٨)، وعظماء من ذوي العاهات (٩٩)، وفيه: «وكان مسلمة أصفر الجلد كأنه جرادة صفراء».

(٥) العقد الفريد (٤/ ٤١).

(٦) تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤). والتابعي: من لقي الصحابة مؤمناً بالنبي ﷺ ومات على الإسلام، ج: التابعون.

(٧) ابن الأثير (٤/ ٣٤٠) وأنساب الأشراف (٥/ ٣٠٧).

(٨) الصعق: هو خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب، كان سيداً يطعم الطعام بعكاظ، وأحرقته صاعقة فلذلك سمى: الصعق، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٨٦).

(٩) جمهرة أنساب العرب (٢٨٦).

(١٠) ابن الأثير (٤/ ٣٤٠).

(١١) جمهرة أنساب العرب (٢٨٦).

وتزوج مسلمة أمَّ سَلَمة بنت يعقوب بن سلمة المخزوميّة، وقيل تزوجها عبد الله بن عبد الملك[1]، ولم تذكر المصادر التي وصلت إليّ شيئاً عن زوجاته الأخرى.

ولمسلمة عَقِبٌ[2] كثير[3] باقٍ بقرب (حَرّان)[4] في حِصْن يقال له: (حصن مَسْلمة). وله من الولد: يزيد بن مسلمة، وإبراهيم بن مسلمة قتل، وشراحيل بن مسلمة سُمَّ هو وإبراهيم الإمام العباسي فماتا جميعاً في سجن مروان[5] في (حَرّان)، ومحمد بن مسلمة كان من أكرم الناس وأشجعهم، وشهد مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة يوم التقى مع عبد الله بن علي العباسيّ، وكان صديقاً لعبد الله، فأمّنَه، فلحق به، فلما رأى فعل أهل (خُراسان) في أهل (الشّام)، حميتْ نفسه، فقال:

ذُلُّ الحياةِ وخِزْيُ المَمات ... فكلًّا أراه شراباً وبيلا

فإن كان لا بد إحْداهما ... فسَيراً إلى المَوْتِ سَيْراً جميلًا[6]

ثم لحق بمروان، فقاتل معه حتى قُتل. ومن أولاده إسحاق بن مسلمة[7].

و(حصن مسلمة)[8] الذي كان يعيش فيه عقب مسلمة، حصين من

---

(١) المحبر (٤٤٥).
(٢) العقب: الولد، وولد الولد الباقون بعده، (ج): أعقاب.
(٣) المعارف (٣٥٨).
(٤) حران: مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٤٢).
(٥) مروان بن محمد بن الحكم آخر خلفاء بني أمية.
(٦) قالهما متمثلًا، والبيتان لبشامة بن الغدير من قصيدة في المفضليات (٥٩).
(٧) انظر تفاصيل ولد مسلمة في: جمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥).
(٨) حصن مسلمة: حصن: بالجزيرة، بينه وبين البليخ ميل ونصف، وشرب أهله من مصنع فيه طوله مئتا ذراع في عرض مثله، وعمقه نحو عشرين ذراعاً، معقود بالحجارة، وكان مسلمة قد أصلحه. الماء يجري فيه من (البليخ) في نهر مفرد من=

أعمال (جزيرة ابن عمر) بين رأس عَيْن[١] و(الرَّقّة)[٢]، بناه مسلمة[٣]، فورثه أولاده عنه، وكان هذا الحصن قد بنى على قدر جَرِيب[٤] من الأرض، وارتفاعه في الهواء أكثر من ثلاثين ذراعاً[٥].

وقد أطلق على عقب مسلمة لكثرتهم: (بنو مسلمة)، وهم بطن من بطون بني أُميّة، من قريش، من العدنانيّة، مساكنهم مع قومهم بني أُميّة ب(تَنْدَة)[٦]

= كل سنة مرة حتى يملأه، فيكفي أهله بقية عامهم، ويسقي هذا النهر بساتين حصن مسلمة، وفوهته من (البليخ) على خمسة أميال. وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ، وهو على القاصد للرقة من حران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٢٨٦)، والمصنع: حوض يجمع فيه ماء المطر ونحوه، انظر المعجم الوسيط (١/ ٥٢٦). والبليخ: اسم نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون، وأعظم تلك العيون عين يقال لها: الدهبانية في أرض (حران)، فيجري نحو خمسة أميال، ثم يسير إلى موضع قد بنى عليه مسلمة بن عبد الملك حصناً يكون أسفله قدر جريب وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً، وأجرى ماء تلك العيون تحته، فإذا خرج من تحت الحصن يسمى: بليخاً، ويتشعب من تلك الموضع أنهار تسقي بساتين وقرى ثم تصب في الفرات تحت (الرقة) بميل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣) وصورة الأرض (٢٠٦ ـ ٢٠٧).

وقد جاء ذكر: (حصن مسلمة) في كتاب: بلدان الخلافة الشرقية ـ لسترنج، فقال: «ينسب هذا الحصن إلى مسلمة بن عبد الملك الخليفة الأموي، انظر (١٣٦)، ولم يكن مسلمة خليفة من خلفاء بني أمية، بل كان أميراً من أمرائهم.

(١) رأس عين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين، بينها بين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حران، وفي رأس عين عيون كثيرة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور (خابور الفرات)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧) وصورة الأرض (٢٠٠).

(٢) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاث أيام، معدودة في بلاد الجزيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

(٣) معجم البلدان (٣/ ٢٨٦).

(٤) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة. وهنا يراد به مساحة من الأرض يعادل ثلث أيكر، انظر بلدان الخلافة الشرقية (١٣٦).

(٥) بلدان الخلافة الشرقية (١٣٦).

(٦) تندة: قرية كبيرة في غربي النيل من الصعيد الأدنى، انظر معجم البلدان (٢/ ١٤٤)، وانظر زبدة كشف الممالك (٣٣) عن الصعيد.

من بلاد (الأشْمُونين)[1] في الصعيد المصري[2]، ولا تناقض بين سكنى بني مسلمة في (حصن مسلمة) وفي صعيد مصر، فقد سكن قسم منهم هنا، وقسم منهم هناك.

ولمسلمة دار في دمشق[3] في حجلة القباب عند باب الجامع القبلي[4]، والجامع هو جامع بني أُمية بدمشق الذي يطلق عليه اليوم: الجامع الأُمويّ.

وكان يوسِّع على أهل بيته إسكاناً وإطعاماً وإكساءاً، ومن أقواله: «العيش في ثلاث: سعة المنزل، وكثرة الخدم، وموافقة الأهل»[5]، ولا عجب في ذلك، فقد كان يوسِّع على مَنْ يعرف ومَن لا يعرف من ضيوفه وقاصديه.

وتوفي في سنة عشرين ومئة الهجريّة[6] (٧٣٨م)، وفي رواية أخرى أنه توفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية[7] (٧٣٨م)، بعد أن ترك آثاراً كثيرة[8].

---

(١) الأشمونين: هكذا يسميها أهل مصر، وهي (أشمون): بلدة قديمة عامرة آهلة، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٦).

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (٤٢١).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (٣/ ١٨٦).

(٦) تاريخ الموصل (٤٠) وتاريخ الإسلام (٥/ ٤٠٣) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٥)، ولكن ابن خياط أخطأ في ذكر غزوات لمسلمة سنة إحدى ومئة الهجرية (٢/ ٣٦٧) وكان على المحقق تصحيح ذلك، والصواب أن مسلمة بن هشام بن عبد الملك هو الذي غزا في تلك السنة.

(٧) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩) وتاريخ الإسلام (٥/ ٢٧) ودول الإسلام (١/ ٥٨) والعبر (١/ ١٥٤) وشذرات الذهب (١/ ١٥٩).

(٨) نسب قريش (١٦٥).

وكانت وفاته بالشام[١]، ودفن بموضع يقال له: (الحانوت)[٢]، وفي رواية أنّ عبد الله بن علي العباسيّ لما هزم مروان بن محمد بن الحَكَم آخر خلفاء بني أُميّة نبش قبور الأمويين، فاستخرج مسلمة بـ(قِنّسْرين) من قبره سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية، فلم يجد غير جمجمة فأحرقها[٣]!

فإذا كان مولده حوالي سنة ست وستين الهجرية كما ذكرنا سابقاً، فإنه مات عن عمر يناهز الرابعة والخمسين.

وهكذا خلّفت النار رماداً، وأدى الحقد الأسود إلي إحراق الموتى وصلبهم وقتل الأحياء وتشريدهم، في محاولة لإفناء بني أُمية الأحياء منهم والأموات!!

وقد رثاه الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقال:

أتانا بريدانِ من واسِطٍ ... يخبّان بالكُتُب المُعجَمَه
أقول وما البعدُ إلّا الرَّدى ... أمَسْلَم لا تَبْعَدَن[٤] مَسْلَمه
فقد كنتَ نوراً لنا في البلاد ... تُضيءُ فقد أصبحتْ مُظلِمَه
كتَمْنا نَعِيّكَ نَخْشَى اليقين ... فَجَلّى اليقين عن الجَمْجَمه[٥]
فكم من يتيم تلافيتَه ... بأرض العدوّ وكم أيِّمه[٦]
وكنتَ إذا الحربُ درّتْ دماً ... نَصَبْتَ لها رايةً مُعْلَمَة[٧]

وقال الوليد في رثائه أيضاً:

---

(١) خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٥) وابن الأثير (٥/ ٢٢٨).
(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٩).
(٣) تاريخ الموصل (١٣٨) وقد توفي مؤلفه سنة (٣٣٤هـ) = (٩٤٥م).
(٤) لا تبعدن: لاتهلكن.
(٥) جلى عن الشيء: كشفه وأظهره. والجمجمة: إخفاء الكلام.
(٦) الأيمة: الأرملة.
(٧) الأغاني (٦/٧) ونسب قريش (١٦٥) وانظر تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤) والبداية والنهاية (٩/ ١٢٩٨) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٣).

أَهَيْنَمَةٌ حديثُ القوم أم هُمْ سُكُوتٌ بعدما مَتَعَ[1] النّهارُ
غزيرٌ كان بينهمُ نبيّاً فقول القوم وحيٌ لا يُحارُ
كأنّا بعد مَسْلَمَة المُرجّى شُروبٌ طوَّحتْ بهمُ عُقَارُ
أوْ الأفٌ هِجانٌ في قيود تَلَفّتُ كلّما حنّتْ ظُؤار[2]
فليتَك لم تَمُتْ وفداك قومٌ تُريح غبيّهم عنّا الدِّيار
سقيمُ الصَّدْر أو شَكِسٌ بَليْدٌ وآخر لا يَزُور ولا يُزار[3]

ومن حَسَن الكلام ما قاله الوليد لما مات مَسْلمَة، فإن هشاماً[4] قعد للعزاء، فأتاه الوليد، فوقف على هشام فقال: «يا أمير المؤمنين! إنّ عُقْبَى مَنْ بقيَ لحوقُ مَنْ مضى، وقد أقْفَرَ بعد مَسْلَمَة الصَّيْدُ لمن رَمَى، واختَلَّ الثغْرُ فوهى، وعلى أثَر مَنْ سَلَفَ يمضي من خَلَف: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[5]»، فأعرض عنه هشام ولم يُحِرْ جواباً، وسكتَ النّاس فلم ينطقوا[6].

وصدق الوليد، فقد مات فتى العرب[7]، ورجل بني أميّة[8]، ومثله يُرْثى وعلى أمثاله يبكي الناس.

القائد:

١ ـ كانت لمسلمة مواقف مشهورة، ومساع مشكورة، وغزوات متتالية منثورة، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعاً؛ وكان في

---

(١) متع النهار: بلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال ـ وقيل: متع النهار: طال وامتد.
(٢) الظؤار: جمع نادر، مفرده ظئر، وهي الناقة العاطفة على غير ولدها المرضعة له.
(٣) الأغاني (٧/ ٧ ـ ٨)، ويريد بسقيم الصدر: يزيد بن الوليد، ومعنى بالمشاكس: هشاماً، والذي لا يزور ولا يزار مروان بن محمد.
(٤) هشام بن عبد الملك.
(٥) الآية في سورة البقرة (٢: ١٩٧).
(٦) ابن الأثير (٥/ ٢٩٠) والأغاني (٨/ ٨).
(٧) الشعر والشعراء (٤١١).
(٨) نسب قريش (١٦٥) وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤).

زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد[1] في أيامه، في كثرة مغازيه، وكثرة فتوحه، وقوّة عزمه، وشدّة بأسه، وجودة تصرّفه في نقضه وإبرامه، وهذا مع الكرم والفصاحة[2] وهو بطل كرّار[3]، وشجاع مهيب، له آثار حميدة في الحروب[4]، وكان موصوفاً بالشجاعة والإقدام والرأي والدهاء[5]، وكان من رجال بني أمية، وله آثار كثيرة في الحروب ومكانة في الرُّوم[6].

وكان مسلمة باسلًا، سأل هشام بن عبد الملك مسلمة: «يا أبا سعيد! هل دخلك ذُعْر قطُّ لحرب أو عدوّ؟» قال: «ما سَلِمْتُ في ذلك من ذعر يُنَبِّهُ عليَّ حِيَلي[7]، ولم يَغْشَني ذُعر قطّ سلبني رأيي»، فقال هشام: «صدقتَ، هذه والله البسالة»[8].

وكان حازماً بعيد النظر، يحسب لكل شيءٍ حسابه، ويتّخذ لكل أمر عدّته، ويتقن المكيدة في الحرب، ومن أقواله في ذلك: «ما أخذتُ أمراً قطُّ بحزم فَلُمت نفسي فيه، وإن كانت العاقبة عليّ؛ ولا أخذت أمراً قطّ وضيعت الحزم فيه، إلّا لُمْتُ نفسي عليه، وإن كانت العاقبة لي»[9].

وقد تحدثنا عن مزاياه إنساناً: الشخصية القوية النّافذة، الذكاء، المحدِّث، الشاعر، السخاء، الكرم، الشهامة، المروءة، التديُّن، قابليته الإدارية، ثقة الناس به حكاماً ومحكومين، الحدب والعطف، وتقدير الناس له وإعجابهم به.

---

(١) انظر سيرة خالد بن الوليد في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٥٠ ـ ٢٣٧)، وانظر سيرته في كتابنا: خالد بن الوليد المخزومي.

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٣) دول الإسلام (١/ ٥٨).

(٤) تاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) وانظر المعارف (٣٥٨).

(٥) العبر (١/ ١٥٤) وشذرات الذهب (١/ ١٥٩).

(٦) تهذيب التهذيب (١٠/ ١٤٤) والبداية والنهاية (٩/ ٣٢٨).

(٧) في عيون الأخبار (١/ ١٧٤): حيلة.

(٨) العقد الفريد (١/ ١٠٤) وعيون الأخبار (١/ ١٧٤).

(٩) العقد الفريد (١/ ١٢٢).

وهذا المزايا لها وزن في صفات القائد المتميز في أيام مسلمة، ولا تزال من صفات القائد المتميز حتى اليوم.

٢ ـ والحق أنه كان فتى العرب[١] بحق، ولكنه ليس نظير خالد بن الوليد كما ذكر ابن كثير وغيره، فليس لخالد نظير في طبقات القادة العرب والمسلمين، فيما أعرف، غير المُثَنّى بن حارثة الشيباني[٢] في مزايا القيادة، أما في سعة فتوحاته، فلا نظير لخالد في القادة العرب والمسلمين، إذا استثنينا الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام؛ باعتباره قائداً ورسولاً.

ولكن يمكن أن نقول: إنَّ مَسْلمة بن عبد الملك هو خالد بن الوليد زمانه، أي هو خالد زمانه لا خالد كلِّ الأزمان، لأنّ مسلمة كان قائداً مبرزاً في زمانه بالنسبة للقادة الآخرين ولم يكن أبرز قائد في أيام قُتَيْبَة بن مُسْلم الباهلي[٣] ومحمد بن القاسم الثقَفِيّ[٤]، فلما رحلا عن هذه الدنيا في مأساة دَامية مؤلمة، أصبح مسلمة من بعدهما رجل الساعة في القيادة وأبرز القادة المعاصرين له على الإطلاق.

ومن المعلوم أنّ المؤرخين المسلمين غالباً ما يغفلون تفاصيل المعارك التي تلقي ضوءاً ساطعاً محدّداً على سمات مزايا القادة، ولا تظهر سمات القائد بإيراد الخطة التفصيلية لكل معركة، وكيف جرى تنفيذها، وأثر القائد الشخصي في إدارة المعركة، بحيث يمكن استنتاج مزايا القائد بسهولة ويسر.

---

(١) الشعر والشعراء (٤١١).

(٢) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٧ ـ ٥٠) ـ ط٢.

(٣) انظر سيرته في العدد الثاني عشر (٤١ ـ ٧٢) والعدد الثالث عشر (١٤٥ ـ ١٦٥) من مجلة المجمع العلمي العراقي ـ ١٣٨٤ هـ و١٣٨٥هـ.

(٤) انظر سيرته في العدد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي (١٢٧ ـ ١٤٨) ـ ١٣٨٨هـ.

والمؤرخون المحدثون عرباً ومسلمين وأجانب الذين اعتمدوا المصادر التاريخية، أغفلوا مزايا القائد الحربيّة أو تحدّثوا عنها باقتضاب وغموض، أو قارنوا مزايا القادة القدامى بمزايا القادة المحدثين، فحمّلوا الأمور فوق ما تطيق، أو جعلوا القادة الأقدمين كما يريد أولئك المؤرخون لا كما كانوا؛ وربما كان المؤرخ المحدث غير عسكري، فقلب الحقائق رأساً على عقب، لأنه أقحم نفسه في قضايا عسكرية ليست ضمن اختصاصه، فجاءت استنتاجاته خاطئة غير ذات موضوع.

إنّ استنتاج مزايا القائد العسكرية صعب جداً بالنسبة للتاريخ المدوّن الذي بأيدينا، ولكن وطأة هذه الصعوبة تخّف كثيراً إذا درست المعارك التي خاضها القائد كافة، الواردة في شتى المصادر لا في مصدر واحد، لأنّ الاقتصار على دراسة معركة واحدة خاضها القائد لا على معاركه كافة، وعلى مصدر واحد لا عن مصادر شتى، لا يبرز مزايا القائد العَسكرية بوضوح ولا يزيل الغموض التي يكتنف تلك المزايا، وبالرغم من ذلك قد لا يستطيع الباحث المدقِّق أن يعطي القائد حقّه كما كان فعلًا، نظراً لإهمال المؤرخين القدامى هذه الناحية إهمالًا كاملًا.

ومع ذلك، فما لا يدرك كلُّه لا ينبغي أن يهمل، فبعض الشيء خير من لا شيء، هذا إذا درس المعارك كلّها في المصادر كلها عسكريّ مختص، يستطيع بخبرته الطويلة وعمله أن يستنبط مزايا القائد من دراسته، وأشك كثيراً في مقدرة غير العسكري أن يستنبط ما يستنبطه العسكري في هذا المجال، وقد أحسن قسم من غير العسكريين في جمع تاريخ قسم من القادة، وجمع التاريخ شيء، واستنباط المزايا العسكرية شيء آخر.

ولست أحاول أن أقلِّل من شأن المؤرخين غير العسكريين في مجالات الدراسات العسكرية، ولكنني أحاول ألّا أحملهم ما لا يستطيعون ولا أكلِّفهم ما لا يقدرون.

لقد كان مسلمة يتحلّى بأركان القيادة الثلاثة: الطّبْع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية.

٣ ـ وقد تحدّثنا عن سماته الموهوبة فيما سلف: حزماً وعزماً، وكرماً وفصاحة، وشجاعة وإقداماً، ورأياً ودهاءاً، وفطنة وذكاءاً، وبعد نظر وسخاءاً، وتديناً وورعاً، وشهامة ومروءة، وشخصية قويّة، وقابلية إدارية، وحدباً وعطفاً.

وأضاف إلى مزاياه الطبيعية الموهوبة، علماً مكتسباً، فكان أديباً شاعراً، ومحدثاً عالماً.

وتعلم الرِّماية والفروسية، وتنظيم الجيش وإدارته، وأساليبه التعبوية والسَّوْقيّة، كما أتقن الأساليب الإدارية للجيش: تدريباً وتسليحاً، وتجهيزاً وتموينا، وإسكاناً وتنقلاً، وتَنظيماً وقيادة.

ولعلّ إعداد جيشه واستحضاراته المتقنة، وإسكانه وتموينه، قبل حصار القسطنطينية وبعد حصارها في صفحة (المبادرة)، خير دليل على ذلك.

ومن المعلوم، أنّ الخلفاء، وبخاصة بني أُميّة، كانوا يعدون أولادهم إعداداً عسكرياً رفيعاً، وذلك بثلاث مراحل: التدريب العملي على الرماية والفروسية وتحمل المشاق، فإذا قضوا هذه المرحلة بنجاح بدأوا المرحلة الثانية، وهي مرحلة مرافقة القادة المشهود لهم بالكفاية في الحروب، للاطلاع عن كثب على أساليب إدارة المعارك من الناحيتين الإدارية والتعبوية، والتشبّع بجو المعارك والقتال.

فإذا انتهت هذه المرحلة التي غالباً ما تصل ذروتها في سن العشرين، بدأوا مرحلة تحمل المسؤولية في القيادة الفعلية للجيوش.

ومن الطبيعي أن الذي لا يثبت جدارته في تحمل المسؤولية بكفاية ومقدرة، لا يتولى المناصب القيادية، فما كلّ أبناء الخلفاء وأهل بيتهم تولوا مناصب قيادية، وقسم منهم لم يمارس هذه المناصب أبداً.

وقد مرّ مسلمة بهذه المراحل الثلاث في عهد أبيه عبد الملك بن مروان[1]، الذي كان رجل بني أُميّة بحق في القضايا العسكرية، بالإضافة إلى مزاياه الأخرى.

واستطاع مسلمة أن يجتاز هذه المراحل بتفوّق باهر، فأصبح موضع ثقة والده عبد الملك، فقال فيه وهو على فراش الموت في وصيته بنيه وآل بيته: «.... وانظروا مَسْلَمة، فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم[2] الذي إليه تفترون[3]، ومِجَنّكم[4] الذي عنه تَرْمُون....»[5]، وما أعظمها من شهادة وما أضخمها من ثقة وما أكبرها من تقدير.

إنه يقول: مسلمة أسدّكم رأياً وأرجحكم عقلاً، فلا تخالفوه في شيء. وهو سيّدكم الذي يشيع فيكم السكينة والأمن والاطمئنان، وهو حاميكم من كل سوء في أيام الحرب والسّلام، ولا أظن أنّ هناك والداً بلغت ثقته بولده ما بلغت ثقة عبد الملك بمسلمة، وهذا هو منتهى النجاح الذي حقّقه مسلمة على يد والده ومعلّمه الأول قائداً وإدارياً وإنساناً.

فلا عجب أن يردّد مؤرخوه بأنه كان أحّق أبناء عبد الملك بالخلافة، لولا أنه ابن أمة، ولم يكونوا يولّون الخلافة لبني أمهات الأولاد!

أما التجربة العملية قائداً، فقد تولى القيادة سنة ست وثمانين الهجرية في أواخر حياة أبيه عبد الملك بن مروان، ليس لأنه ابن الخليفة حسب، فمن المعلوم أنّ قسماً من إخوته لم يتولّوا مناصب قيادية ولا شهدوا معركة في حياتهم كلّها قادة أو جنوداً، منهم على سبيل المثال أبو بكر بن

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح المغرب (٢/٥٩ ـ ١٥٢).
(٢) ناب القوم: سيدهم.
(٣) تفترون: تطمئنون وتسكنون. فتر إلى الشيء: اطمأن وسكن. وفي الحديث: «من فتر إلى سنتي فقد نجا».
(٤) المجن: الترس، وفلان مجنكم: حاميكم.
(٥) ابن الأثير (٤/١١٧ ـ ١١٨).

عبد الملك الذي كان اسمه: بَكّاراً[1]، ومحمد بن عبد الملك وسعيد بن عبد الملك وكانا ناسكَيْن[2].

كما أنّ أي خليفَة أو ملك أو رئيس لا يمكن أن يوّلي أولاده المناصب القيادية إلّا إذا كانوا قادرين على تحمل أعبائها بكفاية، لأنّ توليتهم مثل هذه المناصب بدون أن يكونوا أهلًا لها، تؤدي حتماً إلى التضحية برجالهم في مجزرة لا تعرف نتائجها الوخيمة دون مسوِّغ معقول أو منطقي، مما يزعزع أركان سلطانهم ويلحق بسمعهم أفدح الأضرار. ومن المحتمل أن يولّوهم مناصب إداريّة مع إعانتهم برجال قادرين يستعينون بهم في تسيير أعمالهم، أما أن يولوهم مناصب قيادية، فلا!

ومن المعلوم أنّ المرء يكون قادراً على حمل السِّلاح وخوض غمار الحرب وممارسة القتال في سن العشرين من عمره كمعدل نسبيّ، وقد يكون المرء جاهزاً لذلك قبل سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر جندياً، أما أن يكون قائداً له مسؤولياته القيادية، فلا يتولى القيادة قبل العشرين من عمره، إلّا نادراً كما هو الحال بالنسبة لأُسامة بن زيد رضي الله عنه ومحمد بن القاسم الثقفي اللذين توليا منصب القيادة قبل أن يبلغا العشرين، وهذا أمر يعتبر شاذاً، ولا قياس على الشواذ.

ومضى مسلمة من سنة ست وثمانين الهجريّة حتى تقاعد سنة أربع عشرة ومئة الهجرية قائداً دون توقف إلّا في سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة، وأحسب أنّ توقفه في هذه السنة كان لأسباب مرضِيّة، كما أحسب أنّ تقاعده بعد سنة أربع عشرة ومئة الهجرية حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجريّة أو سنة إحدى وعشرين الهجريّة، كان لمرضه أيضاً، ومعنى هذا أنه أمضى كل سني حياته قائداً، فإذا توفي عن عمر يناهز الرابعة والخمسين كما

(١) انظر المعارف (٣٥٨).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٨٩).

ذكرنا سابقاً، وتولى القيادة بعد أن بلغ العشرين من عمره، فإنه كان قادراً على تولّي القيادة أربعاً وثلاثين سنة، مارس منها القيادة سبعاً وعشرين سنة، وأقعده المرض عن ممارسة الجهاد سبع سنوات فقط!

ولا أعتقد أنّ هناك قائداً مارس القيادة أربع أخماس سِنِيِّ حياته في ساحات القتال، وتخلّف خمسَ سِنِيِّ حياته عن تلك السّاحات مضطراً.

إنّ مسلمة قضى أكثر حياته في التجربة العملية قائداً، وكان بمقدوره أن يتولّى إمارة الأمصار والياً، فينعم بالسلطة والراحة بعيداً عن أهوال القتال، ولكن مسلمة خلق ليكون غازياً لا ليكون والياً.

٤ ـ فماذا عن مسلمة في رسم الخطط العسكرية؟

من المعلوم أنّ الخطّة العسكرية قسمان: قسم إداري، وهو الجانب الإداريّ من الخُطّة: حشداً للمصادر البشريّة، وتجهيزها، وتموينها، وإسكانها، ونقلها، وطبابتها، وتسليحها، ومرتّباتها. وقد برز مسلمة في ذلك بشكل ملموس في حصار (القسطنطينية) كما ذكره المؤرخون بالتفصيل في تلك الملحمة، مما يدل على كفايته الفذّة في هذا المجال.

والواقع أنه اهتمّ بأدق التفاصيل من الجانب الإداريِّ لخطّته في حصار (القسطنطينية) بمعاونة سليمان بن عبد الملك، ومن الإنصاف أن نسجِّل لسليمان تلك المعاونة الصّادقة السخيّة بالتقدير والإعجاب.

وليس معنى إغفال المؤرخين للجانب الإداري من خطط مسلمة العسكريّة الأخرى، أنه أهملها ولم يعرها اهتمامه البالغ وعنايته الفائقة، فلو أنه أهملها لما انتصر أبداً.

أما قسم العمليّات في رسم الخطّة العسكرية، فيبدو أنه كان ماهراً في تطبيق مبدأ (المباغتة) وهي أهّم مبادىء الحرب على الإطلاق.

فقد تحرّك سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م) على رأس قوّاته إلى (إرمينية)، و(أذربيجان) بعد استشهاد قائدها وأميرها الجرّاح بن عبد الله

الحَكَمِيّ وتمزيق جيش المسلمين فيها، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك الذين قتلوا الجرّاح ومزّقوا جيشه ـ في شتاء شديد، حتى جاز (الباب) في آثارهم، وبذلك باغت الترك المنتصرين مباغتة كاملة، فقلب نصرهم إلى هزيمة، لأنّ الترك لم يكونوا يتوقعون أن يقاتلهم المسلمون شتاء في مناطق قارسة البرد، فكانت حركة مسلمة في الشتاء مباغتة في الزمان للترك.

والمباغتة إما أن تكون بالزمان: في وقت لا يتوقّعه العدو، وإما أن تكون بالمكان، من اتجاه لا يتوقّعه العدو، وإما أن تكون بالأسلوب: وهو اتخاذ إسلوب قتالي لا يتوقّعه العدو، أو استخدام سلاح جديد لا يتوقّعه العدو.

ومن الأمثلة على تطبيق مَسْلمة مبدأ (المباغتة) بالأسلوب، ما نفذَه سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م) في الانسحاب أمام تفوّق الخزر العدديّ، إذ أمر أصحابه بإيقاد النيران، وترك خيامهم وأثقالهم، ثم قدّم الضعفاء وأخرّ الشجعان، وطوى المراحل: كلّ مرحلتين في مرحلة واحدة، وبذلك أنقذ قوّاته بهذا الأسلوب في الانسحاب من خطر مطاردتها وإلحاق الخسائر الفادحة بها، وحرم (الخزر) من إحراز انتصار ساحق على جيشه.

لقد وجد الخزر نيران المسلمين مضرمة، وخيامهم قائمة، وأثقالهم باقية، فحسبوا أنّ قواتهم الضاربة في مكانها، بينما أخلى مسلمة الضعفاء، وأبقى الشجعان ليغطوا حركة الانسحاب السريع المنظّم، فلما اكتشف الخزر انسحاب المسلمين كان الوقت المناسب للقيام بمطاردة المسلمين مطاردة مؤثرة قد فات، وبهذا باغت مسلمة أعداءه بالأسلوب.

ولم يتحدّث المؤرخون عن أسلوب انسحاب مسلمة من محاصَرة (القسطنطينية)، ولكنهم لم يتحدّثوا عن مطاردة الروم للمسلمين بعد انسحابهم، مما يدلّ على أنّ مسلمة انسحب بالمسلمين وفق خطّة مرسومة محكمة، إلى القواعد المتقدمة، فحرم الروم من مطاردة توقع أفدح الخسائر بالمسلمين.

وقد كان انسحاب المسلمين من حصار (القسطنطينية) مباغتة للروم بالأسلوب أيضاً.

ولعلّ من المفيد أن نذكر أنّ إدارة معركة الانسحاب، أصعب بكثير من إدارة معركة مسير الاقتراب، والدفاع، والهجوم، والمطاردة، لأنّ الانسحاب يؤدي إلى زعزعة المعنويات، كما أنّ احتمال تعرض المقاتلين للأخطار عند الانسحاب أكبر من احتمال تعرضهم في صفحات القتال الأربع الأخرى.

فإذا أثبت أيّ قائد وجوده في معركة انسحابية، فهو قادر على إدارة أي معركة أخرى تقدّماً أو دفاعاً أو هجوماً أو مطاردة.

ولكن مسلمة لم يقتصر على تطبيق مبدأ (المباغتة) من مبادىء الحرب، بل طبق مبادىء الحرب الأخرى بنفس الكفاية والحرص الذي طبّق بهما مبدأ المباغتة.

فقد كان (يختار مقصده ويديمه)، فهو دائماً يعرف ما يريد، ويسعى جاهداً للحصول عليه من أقصر الطرق وبأقل الخسائر المادية والمعنوية.

وكان قائداً (تعرُّضياً)، ولم يلجأ إلى الدِّفاع في معاركه، وكانت كلّ المعارك التي خاضها تعرضية، عدا حصار (القسطنطينية) الذي كان تعرضاً حقيقاً لم يكتب له النجاح، ولم يمارس (الانسحاب) إلّا مرتين كما ذكرنا سابقاً، ولو أن الانسحاب أيضاً لا يتم إلّا بتعرض تعبويّ محليّ، ويمارسه القائد لإنقاذ جيشه من المطاردة، لذلك اعتبر قسم من أساطين العسكريين الانسحاب تعرضاً معكوساً.

وكان (يحشد) قواته من الناحيتين المادية والمعنوية في المكان والزمان الجازمين، وقد استطاع حشد عشرين ومئة ألف في غزوة (القسطنطينية) عدا ما وصل إليه من مدد متعاقب متّصل، وهذا العدد يعتبر ضخماً بالنسبة للحشود في أيامه، والأرقام التي توردها المصادر التاريخيّة القديمة فيها مبالغة كبيرة في أكثر الأحيان.

وكان يحرص غاية الحرص على (الاقتصاد بالمجهود)، فلا يستخدم غير القوّات المناسبة للواجب المناسب، وهذا أدّى إلى عدم تكبّد قواته خسائر لا مسوِّغ لها.

وكان يهتمّ كثيراً بمتطلبات (الأمن)، فيوفِّر الحماية الكافية لقواته لمواصلتها خوفاً من (المباغتة)، لذلك لم يستطيع أعداؤه أن يباغتوا قوّاته أبداً. وكان يخرج المقدمات والمجنبات في مسير الاقتراب، ويؤمِّن السّاقات في الانسحاب، ويخصِّص القطع العسكرية الّلازمة لحماية خطوط مواصلاته وقواعده المتقدِّمة.

وكان (التعاون) من أهدافه في كلِّ معاركه، فكانت قواته تتعاون فيما بينها، وكان تتعاون مع القوات الأخرى التي تقاتل في ساحة القتال من أجل تخفيف الضغط على جيشه، كما كان يتعاون مع الخلفاء تعاوناً وثيقاً لإمداده بالرجال والمعدّات.

وكان (يديم معنويات) رجاله، ووجوده بين هؤلاء الرجال قائداً، يرفع معنويات رجاله من جهة، ويزعزع معنويات عدوه من جهة أخرى.

وقد رأينا كيف تزعزعت معنويات قوّات يزيد بن المهلّب، بمجرد علمهم بأنه يقود الحملة التي جاءت لحربهم، مما جعل يزيد بن المهلّب يخطب رجاله في محاولة لرفع معنوياتهم، ولكن محاولته باءت بالإِخفاق.

وقبيل خوضه المعركة الحاسمة ضدّ يزيد بن المهلب، أحرق الجسر الذي يمثِّل الشريان الرئيس لخطوط انسحاب قوّات ابن المهلب، وبذلك زعزع معنوياتهم فهرب أكثرها قبل نشوب القتال.

وحين غزا مسلمة (عَمُّورِيّة) حمل معه نساءه إرادة الجدّ في القتال للغيرة على الحرم[١]، حتى يديم معنويات قوّاته ويسمو بها إلى أعلى الدرجات.

---

(١) فتوح البلدان (٢٢٩).

وحمل النِّساء في الحرب، بالرغم من الأخطار التي يمكن أن يتعرَّض له، يعتبر دليلًا واضحاً على تحليّ مسلمة بإرادة القتال، التي هي: «الرَّغبة الأكيدة في الثبات عند القتال من أجل تحقيق النّصر وتحمّل أعباء الحرب بذلًا للأموال والأنفس، واستهانة بالأضرار والشدائد، وصبراً في الباساء والضرّاء وحين البأس، مهما طال الأمد وبَعُدَ الشّوط وكثر العناء وازدادت المصاعب وتكاثرت التضحيات»[1].

والقائد الذي لا يتحلّى بمزية: إرادة القتال، قد يهرب عند الصدمة الأولى لينجو بنفسه، فلا ينتصر أبداً، لأن رجاله يقتدون به في الهروب، ولم يقاتل جيش انهزم قائده أبداً.

والذي يبدو هو أنّ مسلمة يتفق مع خالد بن الوليد في شدته القاسية أثناء القتال، ويختلف معه في رحمته لأعدائه بعد أن تضع الحرب أوزارها، فكان يحنو على المغلوبين، ويترضىّ المنهزمين، ويعفو عن المحاربين، كلما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وبهذا التسّامح الذي يكون من موطن القوّة لا من موطن الضعف، جعل أعدائه يأملون بالعفو والحياة الكريمة الرضيّة حتى في حالة هزيمتهم، إذا استسلموا وأخلصوا للدولة وللحكم القائم، مما يؤدي إلى عدم استقتالهم إلى آخر سهم وآخر مقاتل.

كما أنّ مسلمة كان يخرِّب لمصلحة إحراز النصر، ولكنه يعود بعد النصر، فيعمِّر ما خَرَّب ويشيِّدها: يهدم ويبني ما هدم. وقد علمنا أنه هدم مدينة (باب الأبواب) ليقضي على عصيانها، فلما استسلمت أعاد بناءها وزاد في عمارها، وحصّن أسوارها، فأصبحت أكثر عماراً، وأقوى تحصيناً.

إنه يخرِّب لا من أجل التخريب، ولا من أجل الانتقام، ولا من أجل إخافة سائر الأعداء، بل ليكون التخريب عبرة لمن اعتبر، وكان يخرِّب

---

(١) انظر كتابنا: إرادة القتال في الجهاد الإسلامي ص(١٦).

لضرورة حربية، فإذا زالت تلك الضرورة عاد فبنى ما خرّب، وأصلح ما دمر.

وبهذا الأسلوب وهذه الطريقة، يقضي على الأحقاد والضغائن، ويجمع الصفوف وينقّي القلوب من الحقد الدفين.

وثمة سمة أخرى تميّز قيادة مسلمة، وهي أنه كان يقود بعقله أكثر مما كان يقود بسيفه، فلا يباشر القتال إلّا نادراً، بينما كان خالد بن الوليد يقود بعقله ويقود بسيفه، ويباشر القتال بنفسه، ويستهدف قائد العدو، فينقض عليه كالصّاعقة، فيأسره أو يقتله.

وقد كان قادة بني أُميّة يقودون بعقولهم أكثر مما كانوا يقودون بسيوفهم، وأقصد بقادة بني أميّة القادة الأُمويين نسباً، لا القادة الذين تولّوا قيادة الجيوش في عهدهم، فقد كان بين هؤلاء من يقود بعقله وسيفه على حد سواء، كقتيبة بن مُسلم البَاهِليّ ومحمد بن القاسم الثقفيّ.

والقادة في رأيي ثلاثة أنواع: قائد يقود بعقله، وقائد يقود بسيفه، وقائد يقود بعقله وسيفه.

وأما القادة الذين يقودن بعقولهم، فهم قادة متميِّزون وليسوا جنوداً متميِّزين، وأما القادة الذين يقودون بسيوفهم، فهم جنود متميزون وليسوا قادة متميِّزين، وأما القادة الذين يقودون بعقولهم وسيوفهم معاً، فهم قادة متميِّزون وجنود متميزون في آن واحد.

والقادة الأمويون على الأكثر قادة متميِّزون، وقد يكونون جنوداً متميِّزين أيضاً، ولكن صفة القيادية المتميِّزة فيهم أظهر وأبرز.

وكان بإمكان مسلمة أن يكون قائداً متميِّزاً، وجندياً متميزاً، لأنه كان فارساً شجاعاً، ورامياً بارعاً، وبطلًا كّراراً، ومقاتلًا مغواراً، ولكنه آثر كما آثر بنو أُميّة أن يديروا الألوف من رجالهم بعقولهم لإحراز النصر، لا أن يصبحوا فرداً من بين تلك الألوف. وقد يموت الفرد شهيداً وهو جندي

فينقص تَعْداد الجيش عدداً من الشهداء قلّ أو كثر، فلا تكون تلك الخسائر إلّا لبنات في صرح النصر، ولكنّ خسارة القائد باستشهاده تؤدي إلى الهزيمة، وشتان بين استشهاد القائد وهو العقل المدبِّر والرجل المسيطر والعامل المؤثِّر، وبين استشهاد الجنود وهم لبنات النصر وعدّته، ولا نصر بدون قيادة قادرة وجنود شهداء.

٥ ـ لقد كان لمسلمة قابليّة على إعطاء القرار السّريع الصائب، لأنه كان ذكياً، حاضر البديهة، عالماً مجرِّباً، لذلك كان القائد الأول في الدولة الأموية بعد محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم، والمستشار الأوّل للخلفاء في نفس الوقت.

وكان يتحلّى بالشّجاعة الشخصيّة، مقداماً غير هيّاب، وبطلًا لا يخشى المصاعب والأهوال.

وكان ذا إرادة قويّة، إذ قرّر أمراً واقتنع به، ينفذه بحزم وإصرار، ولا نعرف له موقفاً أبدى فيه تردّداً.

وكان يتحمّل المسؤوليّة بلا تردّد أيضاً، ولا يحاول التملّص منها أو إلقاءها على عاتق الآخرين. وقد قبل مسؤوليات ضخمة في أوقات عصيبة، وأثبت جدارة فائقة في تحمل أعبائها، وكمثال على ذلك قبوله مسؤولية حرب يزيد بن المهلّب في ثورته العارمة العاصفة، وبالرغم من مكانة ابن المهلّب داخلياً وخارجياً، وبالرغم من استفحال أمره في العراق وفارس وخُراسان.

والواقع أنه تحمّل مسؤوليات ثقيلة، كان بعضها يهدِّد مصير الدولة بالزوال.

وكان يعرف (مبادىء الحرب) ويطبقها بكفاية، وحسبنا ما شرحناه في مجال التطبيق.

وكان يتحلّى بنفسيّة لا تتبدل في حالة النصر والاندحار: يتقبل النقد

بصدر رحب، ويصغي للناصحين الصادقين، ويستشير أهل الرأي والفطنة في أموره، ويفتح أبوابه للناس، ولا يتعالى على أحد غروراً بانتصاراته أو مكانته الرفيعة بين الحكّام والمحكومين على حد سواء، أما في حالة الاندحار، فيسيطر على أعصابه، ولا ينهار أو يهون أو يتخاذل، ولا يبدو عليه ضعف ولا تظهر عليه استكانة، بل يتحرّك بكل وسيلة ممكنة لإنقاذ الموقف وتبديله من حال إلى حال.

وكان يسبق النّظر ويُعدُّ لكل أمر عدّته، ويدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات، حتى لا يُفاجأ بما لا يتوقّعه من أحداث.

ولم يقتصر في سبق النظر على معضلاته العسكرية والإدارية، بل يسبق النظر حتى في قضايا الدولة العليا، وكمثال على ذلك اقتراحه على الخليفة يزيد بن عبد الملك أن يختار ولياً للعهد من بعده، فاختار هشام بن عبد الملك ومن بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

وكان يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم، لأنه قضى معظم حياته بينهم، ولأنه كان يخالطهم مخالطة الندّ للندِّ، ويقصده كل فرد منهم زائراً أو من أجل قضاء حاجاته، لهذا كان يختار الرجل المناسب للعمل المناسب، كلٌّ حسب كفاياته ومزاياه.

وكان يثق برجاله المرؤسين له، ويثق برؤسائه من الخلفاء، ويثق به رجاله ورؤساؤه ثقة مطلقة، نظراً لإخلاصه وأمانته وسجاياه الأخرى.

وكان يحب الخلفاء ورجاله ويحبونه، فقد كان آلفاً مألوفاً، يعمل للمصلحة العليا للدولة أكثر مما يعمل لنفسه، ويسدي العون الخالص لأتباعه، ويسعى لقضاء حوائجهم، وكانت له شخصيّة قويّة نافذة. تطغى حتى على شخصيات الخلفاء من بعد أبيه، فلا يُرَدّ له طلب، ويدخل عليهم متى شاء، ويقدِّم النُّصح لهم بالحسنى، ويأمر المنحرف منهم بالعودة إلى الصّواب. أما أنداده وأتباعه فيهابونه من دون خوف، ويخشونه من غير

رهبة، يتواضع للصغير، ويوقِّر الكبير، ولا يعصون له أمراً، وينفذونها بحماسة وبطيبة قلب.

ولم تكن شخصيته ذات أثر في محيطه العربي والإسلامي، بل فرضها على الروم والترك والفُرس والأقوام الأخرى.

وكان له قابليّة بدنيّة تعينه على تحملّ المشاق العسكرية إلى درجة ما، وأحسب أنه لم يكن قوياً جداً بدنياً، إذ أخذه صداع عظيم حين كان يحاصر القسنطينية[1]، وكان يومها في مقتبل العمر وفي ريعان الشبّاب، وسابق الوليد بن عبد الملك بالخيل بحضور والدهما عبد الملك بن مروان، فسبقه الوليد كما ذكرنا سابقاً.

وكان لمسلمة ماضٍ ناصع مجيد في المجالين العسكري والإداريّ، وفي المجال الشخصيّ، إذ لم يطعن أحد في سلوكه وخلقه واستقامته ونزاهته، بينما شنّع المؤرخون بالمنحرفين أخلاقياً من بني بيته كما هو معروف[2].

لقد كان مسلمة بحق قائداً متمِيِّزاً، ترك بصماته على الدولة دفاعاً عنها وإخلاصاً لها ودعماً لمكانتها، كما ترك فتوحاته شاهداً باقياً على كفايته القيادية، فلا عجب أن يترك رحيله فراغاً هائلاً لم يستطيع أن يملأه غيره من آل بيته ولا من القادة الآخرين[3].

---

(١) البداية والنهاية (٩/٣٢٨).

(٢) انظر كتابنا: الرسول القائد (٤٢٨) حول الصفات المثالية للقائد.

(٣) في آثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٨)، ورد في معرض الحديث عن مدينة (باب الأبواب): «وخارج المدينة تل عليه مسجد، في محرابه سيف يقولون: إنه سيف مسلمة بن عبد الملك بن مروان، يزوره الناس، ولا يزار إلا في ثياب بيض، فمن قصده في ثياب مصبوغة، جاءت الأمطار والرياح، وكاد يهلك ما حول التل. وعليه حفاظ يمنعون من يذهب إليه بالثياب المصبوغة».
وبالرغم من وضوح الأسطورة في هذا الادعاء، إلا أنه يظهر مبلغ الأثر النفسي الذي بقي لمسلمة في تلك المناطق، والواقع أنه حصن المدينة وعمرها وأولاها كل=

٦ ـ ولكن لا بدّ لنا من ذكر حقيقة قد لا تؤثر في مزايا قيادة مسلمة، ولكنها تلقي ضوءاً على سبب مهم جداً من أسباب انتصاراته المتوالية في قتال الأعداء الخارجيين الأجانب قائداً فاتحاً، وفي اقتتاله ضد الأعداء غير الأجانب الخارجين على الدولة قائداً إدارياً، وبتعبير آخر، في القتال الخارجيّ، وفي الاقتتال الداخلي، فاتحاً في القتال، وموطِّداً للأمن الداخلي من الاقتتال.

هذا السبب، هو صلته الوثيقة بالخلفاء: الوالد والأخوة وأبناء العم، وهذه الصلة جعلت المجال أمامه مفتوحاً، لتسخير منابع الدولة كافة بشرية ومالية ومادية ومعنوية، من أجل تحقيق أهدافه في الفتح خارجياً، وفي توطيد الأمن داخلياً.

لقد كان يقود جيشاً ضخماً في عَدَده، متكاملاً في عُدَده، تتدفّق عليه قضاياه الإدارية تمويناً وتسليحاً وتجهيزاً ونقلاً، وتصرف عليه الأموال الطائلة رواتب ومكافآت وإسكاناً، وليس من شك في أنّ صلته القريبة بالخلفاء، واعتمادهم عليه وثقتهم به اعتماداً وثقة بغير حدود، وتلبية لطلباته واستجابة لرغباته بغير تردّد، كل ذلك كان له أثر أيّ أثر في انتصاراته خارجياً وداخلياً وفي قتاله واقتتاله.

وقد مّر بنا أنّ مسلمة عزله الخليفة عن (العراقَيْنِ) لأنه تصرف بالواردات دون الرجوع إلى الخليفة ولم يبعث منها إلى (دمشق) درهماً ولا ديناراً.

وما كان مسلمة محتاجاً إلى مراجعة الخليفة فيما يأخذ أو يعطي من المال، لأنه ليس متّهماً في ذمته، ولأنّ منزلته أعلى من منزلة المراجعة والاستئذان.

= اهتمامه، فكان لاهتمامه في إعمارها وتحصينها أثره الباقي في نفوس سكان المنطقة حتى بعد وفاته لمدة قرون طويلة.

وكما كان الخليفة ينفق من هذا المال دون حسيب أو رقيب، كان مسلمة كذلك ينفق ما يريد دون حسيب أو رقيب.

لقد كان مسلمة (يأخذ) ولا (يُعْطَى)، وهذا هو الفرق بينه وبين القادة الآخرين.

وكما انتصر مونتكومري في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) بتفوقه على رومل في شمالي إفريقية بالموارد البشرية والمادية الأخرى، وعلى كيسرلنك في إيطاليا وعلى رونشتد في غربي أوربا بعد الإنزال في نورماندي، بالإضافة إلى المزايا القيادية لمونتكومري، كذلك تغلّب مسلمة على الرُّوم والترك والخزر مقاتلًا، وعلى الخوارج وابن المهلّب مقتتلًا، بموارده البشرية والمادية الأخرى، بالإضافة إلى مزاياه القيادية الأخرى أيضاً.

وهكذا تهيّأ لمسلمة قائداً مزايا القيادة الأصلية، ومزايا العناصر البشرية والمادية، مما جعله في عداد أعظم القادة على عهد بني أميّة.

وإذا كان لي أن أصنّف قادة الفتح في عهد بني أميّة إلى طبقات، فالطبقة الأولى من القادة هم: محمد بن القاسم الثَّقَفِيّ وقُتَيْبة بن مُسْلم الباهليّ في الجبهة الشرقية، وزهير بن قيس البَلوِيّ[(١)] وعُقْبَة بن نافع الفِهْري[(٢)] وحَسّان بن النُّعمان الغَسّانيّ[(٣)] وموسى بن نُصَيْر اللَخْمِي[(٤)] وطارق بن زياد[(٥)] في الجبهة الغربية.

أما الطبقة الثانية، فمسلمة على رأسها بعد معاوية بن أبي سفيان، ومن

(١) انظر تفاصيل سيرته في: قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٥٠ ـ ١٧٠).

(٢) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا: عقبة بن نافع الفهري، وفي قادة فتح المغرب العربي (١/ ٩٠ ـ ١٣٦).

(٣) انظر تفاصيل سيرته في: قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٧٢ ـ ٢٢٠).

(٤) انظر تفاصيل سيرته في: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).

(٥) ترد سيرته في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار.

هذه الطبقة: معاوية بن أبي سفيان[١] وعبد الملك بن مروان[٢] ومروان بن محمد[٣] آخر خلفاء بني أُميّة في الشام.

وقد انتصر قادة الطبقة الأولى بكفاياتهم وحدها، وانتصر قادة الطبقة الثانية بكفاياتهم ومواردهم، والطبقة الأولى جنود متميزون وقادة متميزون، والطبقة الثانية قادة متميزون حسب.

مسلمة في التاريخ:

يذكر التاريخ لمسلمة، أنه كان أوسع الأمويين فتحاً برّاً، وأعظم قادتهم بعد معاوية بن أبي سفيان[٤].

ويذكر له أنه كان أبرز شخصيّة أُموية بعد معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان.

ويذكر له أنه، أكثر الأمويين فتحاً في الأنضول، وأكثر من غير الأمويين الفاتحين في هذه المناطق، وبذلك أمّن الحدود البريّة الشمالية الغربية للدولة وحماها من صولة الرّوم.

ويذكر له، أنه كان خليفة بغير خلافة، وملكاً غير متوّج من بني أميّة.

ويذكر له حماسته الفائقة في جميع الشّمل ورصّ الصفوف ووحدة الكلمة من أجل المصلحة العليا للدولة.

ويذكر له أنه سخّر كفاياته الفذة لخدمة الدولة، ولم يسخر الدولة لخدمة طموحه الشخصيّ.

ويذكر له التفوق على الخلفاء الذين تولوا الخلافة بعد أبيه، دون أن يستغل تفوقه في منافسة الخلفاء على السُّلطة.

---

(١) انظر سيرته في قادة فتح الشام ومصر (٢٢٩ ـ ٢٣٥).

(٢) انظر سيرته في قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٩٥ ـ ١٥٢).

(٣) ترد سيرته في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

(٤) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١٧٤ ـ ١٩٤).

ويذكر له أنه طهّر الجبهة الشرقية، والجبهة الشمالية، والجبهة الشمالية الشرقية الغربية، من أعداء الدولة، وأخضع تلك المناطق الشاسعة للسّلطة الشرعيّة.

ويذكر له، أنه كان رجل دولة بكل معنى الكلمة، قضى معظم سني حياته مجاهداً من أجل الوحدة وموحِّداً من أجل الجهاد.

ويذكر له أنه كان إدارياً حازماً، بالرغم من أنه لم يخلق والياً بل خلق غازياً.

ويذكر مزاياه الرفيعة خلقاً وسلوكاً وورعاً، بالإضافة إلى العلم والأدب والشعر والكرم والمروءة.

ويذكر له أنه قضى أربعة أخماس عمره بعد بلوغه مبلغ الرجال في ساحات الجهاد، ولم يسقط السيف من يده في السنوات الباقية من عمره إلّا مضطراً ومكرهاً.

ويذكر له أنه أعظم من حاصر (القسطنطينية)[١] من القادة العرب المسلمين.

---

(١) أفاض بروكس (E. W. Brooks) في سرد غزوات المسلمين في آسية الصغرى، مستقياً ذلك من المراجع العربية مع التعليق عليها في بحثه المرسوم: «العرب في آسية الصغرى من سنة (٦٤١م) إلى سنة (٧٥٠م) وعنوان هذا البحث: (The Arabs in Asia Minor, 641 To 750) المنشور في مجلة الدراسات الهلنية (Journal of Hellenic Studies) المجلد (١٨) سنة (١٨٩٨م). وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم في أيام خلافة سليمان بن عبد الملك في مقال نشره في مجلة الدراسات الهلنية أيضاً (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩م) بعنوان: حملة سنة ٧١٦م إلى سنة ٧١٨م بحسب المراجع العربية» (The Campaign of 716 to from Arabes Sources) وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ جي بي بوري (J. B. Bury)في كتابه: (Histor of the Later Rooman Empire)المجلد الثاني ص(٤٠١)، انظر الهامش (٩) من كتاب: بلدان الخلافة الشرقية (١٧٠).

ويذكر له أنه فتح مدناً وحصوناً كثيرة وبلاداً شاسعة، لا يزال أثر اللغة العربية فيها باقياً حتى اليوم، ولا تزال متمسكة بالدين الحنيف.

رحم الله القائد الفاتح، الإداري الحازم، الأديب الشاعر، العالم المحدِّث، المجاهد الإنسان، مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

● ● ●

الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ
فاتح بَلَنجر وفاتح
شطر إزمِينية ثانية

نسبه وأيامه الأولى:

هو الجَرَّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ نِسْبَةً إلى الحَكَم بن سَعْد العَشِيرة[1] من مُذْحِج[2]، وكان الحَكَمِ أكبر أبناء سَعْد العشيرة وبه يُكَنى[3] ومُذحج من القبائل اليمنيّة: من كَهْلان بن سَبَأ[4].

والجرّاح يكنّى: أبا عُقْبَة، دمشقيّ الأصل والمولد[5].

ولا ذكر في المصادر المعتمدة التي بين أيدينا لأيامه الأولى: مولده، نشأته، تعليمه، فقد أغفلت تلك المصادر حياته الخاصة، واقتصر المؤرخون على ذكر حياته العامة في تولي المناصب الإدارية والقيادية وجهاده.

ويبدو أنه لم يشغل نفسه بالعلوم السّائدة في عصره كعلوم القرآن والحديث واللّغة والتاريخ، فسكتت عنه كتب الطبقات التي تُعنى بالمحدثين والعلماء والمؤرخين، بل شغل نفسه بالأعمال الإداريّة والياً، والأعمال

---

(١) الأنساب المتّفقة (٤٤).
(٢) لب الألباب في تحرير الأنساب (٨٢).
(٣) جمهرة أنساب العرب (٤٠٧).
(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٠٧).
(٥) الأعلام (١٠٦/٢) نقلًا من: سير النبلاء - خ - المجلد الرابع، وانظر القاموس الإسلامي (٥٨٨/١).

العسكرية جندياً وقائداً ومجاهداً، فاهتمّ المؤرخون بأعماله العامة في الدولة الإسلامية، ولم يهتم به غيرهم، لأنه لم يكن له أثر يذكر في المجالات الفكرية الشّائعة في أيامه.

جهاده:

١ ـ الفاتح:

أ ـ في سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢م) ولّى يزيدُ بن عبد الملك الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِي إرمينية[١].

وسبب تولية الجرّاح، أنّ المسلمين في سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١م) دخلوا بلاد الخَزَر (القفقاس) من إرمينية وعليهم ثُبَيْت النَّهْرانِيّ[٢]، فاجتمعت الخزر في جمع كثير، وأعانهم الترك من مختلف أنواعهم، فلقوا المسلمين في مكان يُعْرَف ب(مُرْج الحجارة)، ونشب القتال بين الجانبين بشدّة وعنف، فقُتل من المسلمين بشر كثير[٣]، واستولى الخزر على معسكرهم وغنموا جميع ما فيه[٤]، وذلك في شهر رمضان في عزّ موسم الشتاء من سنة ثلاث ومئة الهجرية[٥].

وهكذا اجتمعت على المسلمين حشود الخزر الضخمة وبرد الشتاء في عنفوانه، فأدّى ذلك إلى هزيمتهم.

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١١١) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٧) والعِبر في خبر مَنْ غبر (١/ ١٢٦) وتاريخ الموصل (١٧)، وانظر فتوح البلدان للبلاذري (٢٨٩) والبداية والنهاية (٩/ ٢٣٠).

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٦): أنّ قائد المسلمين كان مَعْلق بن صفّار البهراني.

(٣) في تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٦): فأصيب من المسلمين جميعاً.

(٤) ابن الأثير (٥/ ١١٠).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٦).

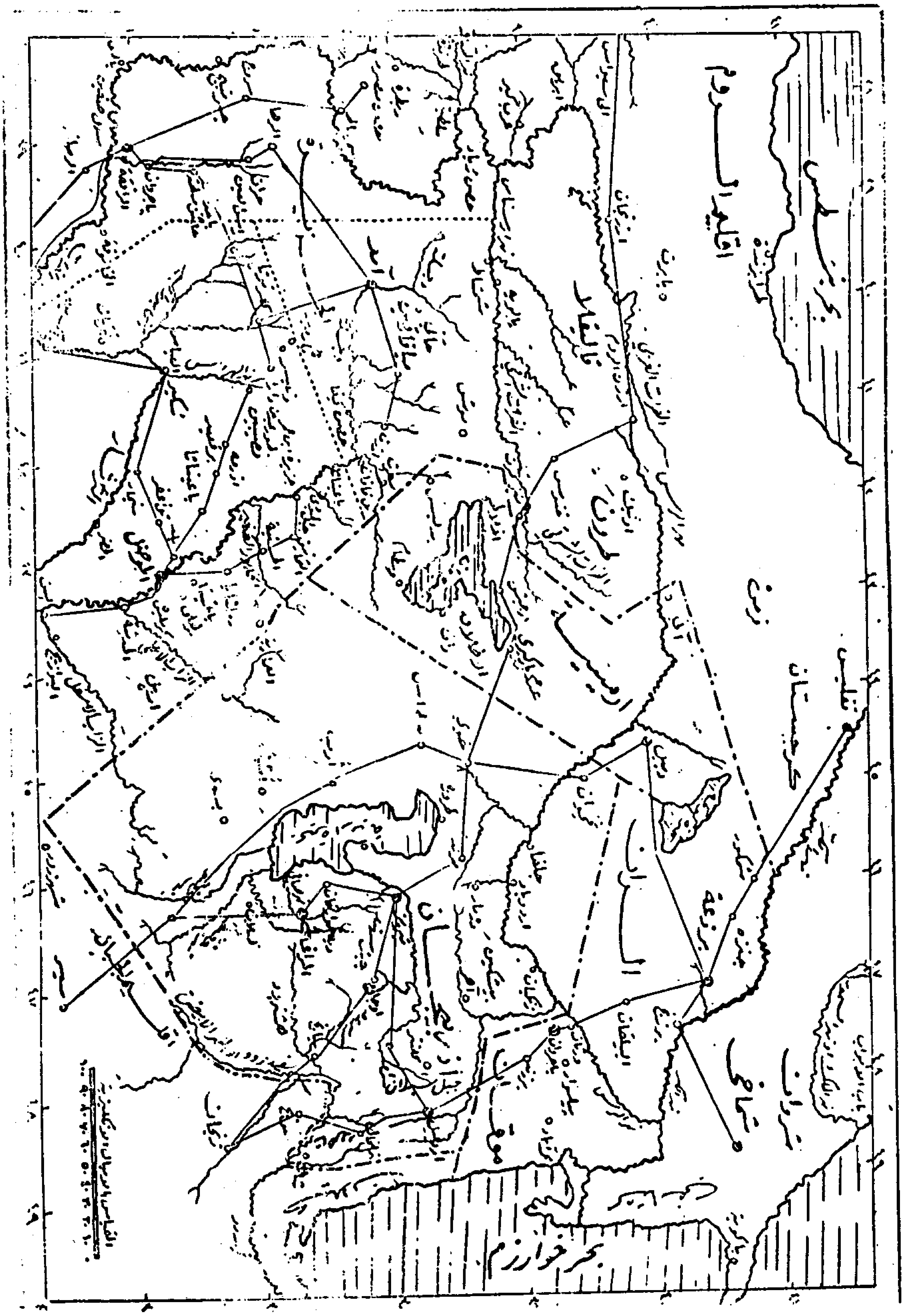

ارمينية وأذربيجان والجزيرة

وأقبل المنهزمون إلى الشّام، وقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثُبَيْت، فوبّخهم يزيد على الهزيمة، فقال ثُبَيْت: «يا أمير المؤمنين! ما جبنتُ ولا نكبتُ عن لقاء العدو، ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل، ولقد طاعنتُ حتى انقصف رمحي، وضاربتُ حتى انقطع سيفي، غير أنّ الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد»[١].

ولما تمّت الهزيمة على المسلمين، طمع الخزر في البلاد، فجمعوا وحشدوا، فاستعمل يزيدُ الجرّاحَ، وأمّده بجيش كثيف، وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء، وقصدهم في عقر دارهم. وتسامع الخزر وحلفاؤهم بقدوم المسلمين، فلجأوا إلى مدينة (باب الأبواب). ووصل الجرّاح إلى مدينة (بَرْذَعة) فأقام بها حتى استراح هو ومَن معه، وتوجّه نحو الخزر، فعبر نهر (الكُرّ)، فسمع أن بعض مَن كان معه في جيشه من أهل الجبال (جبال القفقاس) قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجراح إليه فأمر مناديه بالناس: «إنّ الأمير مقيمٌ ههنا عدة أيام، فاستكثروا من الميرة»، فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر يخبره أنّ الجرّاح مقيمٌ، ويشير عليه بترك الحركة لئلا يطمع المسلمون فيه[٢]!

ولما كان اللّيل أمر الجرّاح بالرحيل، فسار مُجِداً حتى انتهى إلى مدينة (باب الأبواب)، فلم ير الخزر، ويبدو أنهم انسحبوا بسرعة من المدينة إلى منطقة حشودهم، فدخل المسلمون المدينة، وبثّ الجرّاح سراياه على ما يجاور المدينة، فغنموا وعادوا في الغد.

وسار الخزر وحلفاؤهم إلى المسلمين بقيادة ابن ملكهم (ابن خاقان)، فالتقوا عند نهر (الرّان)، فنشب القتال الشديد بن الجانبين، وحرّض الجرّاح أصحابه، فظفر المسلمون بالخَزَر وهزموهم، فطاردهم المسلمون يقتلون

(١) ابن الأثير (٥/١١١).

(٢) ابن الأثير (٥/١١١).

ويأسرون، فقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون جميع ما معهم[1]، وفتح حصن (الحُصَيْن) سلماً ونقل أهله عنه.

وسار الجرّاح بالمسلمين إلى مدينة (يَرْغوا)[2]، فأقام عليها ستة أيام وهو مجدُ في قتال أهلها، فطلبوا الأمان، فأمنهم ونقلهم منها.

وسار الجرّاح إلى (بَلَنْجَر)، وهو حصن مشهور من حصونهم، وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة، شدّوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها، وتمنعَ المسلمين من الوصول إلى الحصن، وكانت تلك العجل أشدّ شيءٍ على المسلمين في قتالهم[3].

وخرج رجل من المسلمين، فقال: «مَن يَشْري الله نفسه؟»، فأجابته جماعة ما بلغت عِدَّتُهم ثلاثين رجلًا، فكسروا جفون سيوفهم، وشدّوا على العجل، وأجلوا الرجال عنها، وأخذوا عجلة منها.

وجدّ الخزر بقتالهم، ورموا من النشّاب ما كان يحجب الشمس، فلم يتراجع مغاوير المسلمين حتى وصلوا إلى العَجَل، وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذي يمسكها، وجذبوها، فانحدرت، وتبعها سائر العجل، لأن بعضها كان مشدوداً إلى بعض، وانحدر الجميع إلى المسلمين[4].

والتحم القتال واشتدّ، وعظم الأمر على الجميع، حتى بلغت القلوب الحناجر فانهزم الخزر وحلفاؤهم واستولى المسلمون على الحصن عَنْوَة وأصابوا جميع ما فيه غنائم للمسلمين[5]، فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار،

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١١٢)، وانظر العبر (١/ ١٢٦).
(٢) يرغوا: لم أجد لهذه المدينة ذكراً في معجم البلدان، ووردت في تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٧): يزعوا.
(٣) ابن الأثير (٥/ ١١٢).
(٤) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٧).
(٥) ابن الأثير (٥/ ١١٢).

وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً، وكانت تلك المعركة في ربيع الأول[1] من سنة أربع ومئة الهجرية[2].

وسار الجرّاح عن (بلَنْجَر) بعد أن أسر أولاد صاحب (بلنجر) وأهله، فبعث الجراح إليه وأحضره، وردّ أمواله وأهله وحصنه وجعله عيناً للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخزر وحلفاؤهم.

ونزل المسلمون على حصن (الوبندر)[3]، وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك، فصالحوا الجرّاح على مالٍ يؤدونه[4]:.

وسار الجرّاح إلى (وَرْثان)[5]، فأدركه الشتاء، فأقام المسلمون فيها.

وكتب الجرّاح إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه، وأن أهل تلك البلاد تجمّعوا وأخذوا الطرق على المسلمين، ويسأله المدد.

ووعد يزيدُ الجرّاحَ أن يرسل له المدد من المقاتلين، فأدركه الأجل قبل أن يرسل ما وعد به من المدد إلى الجرّاح، فأرسل هُشام بن عبد الملك إلى الجرّاح، فأقرّه على عمله، ووعده بإرسال المدد[6].

ب ـ وفي سنة خمس ومئة الهجرية (٧٢٣م) زحف الترك نحو إرمينية، وزحف الجرّاح لصدّ زحف الترك، فالتقى الجانبان بموضع يقال له: (الزَمّ) بين نهري: (الكُرَّ) و (الرسّ) في إرمينية، في شهر رمضان من هذه السّنة، وقد استمر القتال أياماً، فانهزم الترك[7].

---

(١) كان فتح بلنجر يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول، انظر خليفة ابن خياط (١/ ٣٣٧).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١١٢) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٧).

(٣) وبندر: لا ذكر له في معجم البلدان.

(٤) ابن الأثير (٥/ ١١٢).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٨)، وفي ابن الأثير (٥/ ١١٣): أنه عاد إلى رستاق (ملّي).

(٦) ابن الأثير (٥/ ١١٣).

(٧) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٩).

والظاهر أنّ المدد الذي وعد الخليفة هشام بإرساله إلى إرمينية قد وصل إلى الجرّاح في الوقت المناسب، فاستأنف المسلمون استعادة ما انتقض من إرمينية، فغزا الجرّاحُ (اللّان) وهي بلاد واسعة غنيّة، فاستعاد فتحها وفتح مدائن وحصوناً وراء (بَلَنْجَر)، وأصاب غنائم كثيرة[١].

جـ - وفي سنة ستة ومئة الهجرية (٧٢٤م) غزا الجرّاح بلاد (الَّلان) فصالح أهلها وأدّوا الجزية[٢] بعد أن أوغل في بلاد الخزر، وهو أول مَن قفل من باب اللّان في إرمينية[٣].

د - وفي سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥م) عزل هُشامُ بن عبد الملك الجرَّاحَ عن إرمينية وأذربيجان وولّاها مَسْلمة بن عبد الملك[٤].

ولم يذكر المؤرخون سبباً لعزل الجرّاح عن إرمينية وأَذْرَبِيْجَان، لأنّ الجرّاح لم يقصّر في عمله قائداً وإدارياً، كما أنّ نزاهته كانت فوق الشبهات، ويبدو أن هشام بن عبد الملك أراد أن يستفيد من كفاية أخيه القيادية في منطقة اشتدّ فيها القتال وكثرت الخسائر، فعزل الجراح واستعمل أخاه.

٢ - الشَّهيد:

أ - في سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م) استعمل هُشام بن عبد الملك الجرَّاح على إرمينية وأَذربيجان ثانية، وعزل أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك[٥].

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٢٥) وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٣٩) والبداية والنهاية (٩/ ٢٣١).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٣٤).
(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٤٩).
(٤) ابن الأثير (٥/ ١٣٧).
(٥) ابن الأثير (٥/ ١٥٨) وتاريخ الإسلام (٤/ ٣٠٢) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٠) وابن خلدون (٣/ ٢٩٩) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٥٣).

ودخل الجرّاح بلاد الخَزَر من ناحية (تَفْلِيس)، واستعاد فتح مدينة من مدن الخَزَر هي مدينة (البيضاء) ثم انصرف سالماً[1].

وجمعت الخزر جموعاً كثيرة بقيادة ابن خاقان، فدخلوا إرمينية، ثم سار ابن خاقان، فحاصَر (أرْدَبِيْل)[2].

ب ـ وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٠م)، زحف الجرّاح من (بَرْذَعة)[3]، وكان الخزر والترك قد حشدوا جموعهم من ناحية(الّلان). وعسكر الجرّاح ومَنْ معه بمرج (أردبيل)، وقاتل جموعَ الخزر والترك أشدّ قتال رآه النّاس، فصبر الفريقان صبراً جميلًا[4].

وتكاثر الخزر والترك على المسلمين، فاستشهد الجرّاح لثمانٍ بقين من رمضان سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية، وغلبت الخزر على (أَذْرَبِيْجان) وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا مدينة (المَوْصِل)، وعظم الخطب على المسلمين[5] وتكبّدوا خسائر فادحة بالأرواح والأموال.

الإنسان:

١ ـ لما بلغ هُشاماً خبر الجرّاح، دعا سعيداً الحَرَشيّ[6] فقال له: «بلغني أن الجرّاح قد انحاز عن المشركين!!»، فقال الحَرَشِيّ: «كلا يا أمير المؤمنين! الجرّاح أعرف بالله من أن ينهزم، ولكنه قُتِلَ!»، فلا عجب، إذ كان الجرّاح خيِّراً فاضلًا من عمّال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[7].

٢ ـ وبرز الجرّاح لأول مرة سنة سبع وثمانين الهجرية، إذ كان على

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١٥٨) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٤).
(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).
(٣) تاريخ خليفة ابن خياط (٢/ ٣٥٥).
(٤) ابن الأثير (٥/ ١٥٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٦).
(٥) ابن الأثير (٥/ ١٥٩).
(٦) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.
(٧) ابن الأثير (٥/ ١٥٩).

(البصرة) خليفة للحجّاج بن يوسف الثقفي الذي كان على العراق والمشرق كلِّه[1].

ولا يمكن أن يولّى الجراح مدينة البصرة، التي كانت والكوفة في حينه أعظم مدن العراق وأوسعها وأهمها، وكانت القاعدة الرئيسة هي والكوفة لفتوح المشرق الإسلامي، إلّا إذا كان موضع ثقة الحجّاج بخاصة والدولة بعامة وذا كفاية إدارية عالية.

وفي سنة تسعين الهجرية، أصبح الجرّاح عامل البصرة للحجّاج بن يوسف الثقفي[2]، وهكذا تقدّم في سلك المناصب الإدارية، فكان قبل سنة (وكيلًا)، فأصبح بعد سنة (أصيلًا).

واستمرّ الجراح في منصبه عاملًا على البصرة حتى سنة أربع وتسعين الهجرية[3].

٣ ـ وفي سنة ثمان وتسعين الهجريّة تولّى يزيد بن المُهلّب بن أبي صُفْرَة خُراسان لسليمان بن عبد الملك بن مروان، فلما سار يزيد إلى خُراسان استخلف على مدينة (واسِط) ـ وكانت يومئذٍ عاصمة العراق ـ الجرّاح[4]، وهذا دليل على كفايته المتميزة في الإدارة وثقة يزيد بن المهلّب به بعد الحجّاج بن يوسف الثقفيّ.

وفي سنة تسع وتسعين الهجرية أصبح الجرّاح عاملًا على خُراسان ـ لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[5]، وليس من السهل الحصول على ثقة عمر بن عبد العزيز بسهولة ويسر، إلا إذا كان مستحقاً لهذه الثقة ديناً وكفاية.

---

(١) الطبري (٦/ ٤٣٣) وابن الأثير (٤/ ٥٣٠).
(٢) الطبري (٦/ ٤٤٧) وابن الأثير (٤/ ٥٤٨).
(٣) الطبري (٦/ ٤٩١).
(٤) الطبري (٦/ ٥٢٦) وابن الأثير (٥/ ٢٥).
(٥) الطبري (٦/ ٥٥٤) وابن الأثير (٥/ ٤٤).

وأقرّ عمر بن عبد العزيز الجرّاح على خُراسان سنة مئة الهجرية[(١)] أيضاً في أيام القبض على يزيد بن المهلّب وحبسه[(٢)]، وهي أيام عصيبة بالنسبة للدولة، لأنّ يزيد بن المهلّب من رجالات العرب وقادتهم البارزين، ولأنه من قبيلة الأزد التي تدافع عنه حتى الموت، ولأنّ له شعبيّة طاغية في مختلف القبائل العربيّة الأخرى وغير العربيّة أيضاً وبخاصة في خُراسان بالذات.

ولكن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عاد وعزل الجرّاح في هذه السنة عن خُراسان وولاها عبد الرحمن بن نُعَيْم القُشَيْرِي[(٣)]، وكان عزل الجرّاح في شهر رمضان من هذه السّنة، فكانت ولايته بخراسان سنة وخمسة أشهر: قدمها سنة تسع وتسعين الهجرية، وخرج منها لأيام بقيت من شهر رمضان سنة مئة الهجرية[(٤)].

وكان سبب عزل الجرّاح، أنّ يزيد بن المهلّب لما عُزل عن خُراسان، أرسل عامل العراق عاملًا على (جُرْجان)، فأخذه جَهْمُ بن زَحْر الجُعْفِيّ[(٥)]، وكان على جُرجان عاملًا ليزيد بن المهلّب، وحبسه وقيّده وحبس رهطاً قدموا معه. وخرج جهْم إلى الجرّاح بخراسان، فأطلق أهلُ جُرْجان عاملهم، فقال الجرّاح لجهْم: «لولا أنك ابن عميّ لم أسوِّغك هذا»، فقال جَهْم: «ولولا أنك ابن عميّ لم آتِك».

وكان جَهْم سِلْفَ الجرّاح من قبل ابنتي الحُصَيْن بن الحارث، وأما

(١) الطبري (٦/ ٥٢٧).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/١٦ ٥٥٦ ـ ٥٥٨).
(٣) هو عبد الرحمن بن نعيم الغامديّ الأزديّ، انظر تفاصيل نسبه في جمهرة أنساب العرب (٣٧٨).
(٤) الطبري (٦/ ٥٥٨) وانظر ابن الأثير (٥/ ٥٠).
(٥) جهم بن زحر بن قيس: قاتل قتيبة بن مسلم الباهليّ، انظر تفاصيل نسبه في جمهرة أنساب العرب (٤٠٩).

كونه ابن عمّه، فلأنّ الحكم جّد الجرّاح والجُعْفِيّ جدّ جَهْم هما ابنا سَعْد العَشِيْرَة[1].

وقال الجرّاح لَجهْم: «خالفتَ إمامَكَ، فاغزُ لعلّك تظفر فيصلح أمرك عنده»، فوجَّهَهُ إلى (الخُتَّل)[2]، فغنم منهم ورجع.

وأوفد الجرّاح وفداً إلى عمر بن عبد العزيز مؤلّف من رجلين من العرب ورجل من الموالي، فتكلّم العربيان والمولى ساكت، فقال عمر: «ما أنتَ من الوفد؟!»، قال: «بلى!»، فقال: «فما يمنعك من الكلام؟»، فقال: «يا أمير المؤمنين! عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد أسلموا من الذمّة يؤخذون بالخراج، فأميرنا عصبيّ جافٍ، يقوم على منبرنا فيقول: أتيتكم حفيّاً[3] وأنا اليوم عصبيّ، والله لرجل من قومي أحبّ إليّ من مئة من غيرهم[4]. وهو بَعْدُ سيف من سيوف الحجّاج، قد عمل بالظلم والعدوان». قال عمر: «إذن بمثلك يوفد».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرّاح: «انظر مَنْ صلّى قِبَلك إلى القِبلة فضع عنه الجِزْية»، فسارع الناسُ إلى الإسلام. فقيل للجرّاح: إنّ الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية، فامتحنهم بالختان، فكتب الجرّاح بذلك إلى عمر، فأجابه عمر: «إن اللَّهَ بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتِناً».

وقال عمر: «إيتوني رجلًا صدوقاً أسأله عن خُراسان»، فقيل له: عليك بأبى مِجْلَز، فكتب إلى الجرّاح: «أن أَقْبِل واحمل أبا مِجْلَز. وخلّف على حرب خُراسان عبد الرحمن بن نُعَيْم العامِريّ».

---

(١) انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٠٨ ـ ٤٠٩).

(٢) الختَّل: كورة واسعة كثيرة المدن فيما وراء النهر (نهر جيحون)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٧).

(٣) الحفِيّ: اللطيف الرقيق، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

(٤) يريد: رجل من العرب أحبّ إليه من مئة غير العرب.

وخطب الجرّاح قبل رحيله فقال: «يا أهل خُراسان! جئتكم في ثيابي هذه التي عليّ، وعلى فرسي، لم أُصِبْ من مالكم إلّا حِلية سيفي»، ولم يكن عنده إلّا فرس وبغلة!.

وسار عن خُراسان، فلما قدِمَ على عمر قال: «متى خرجتَ؟»، قال: «في شهر رمضان»، قال: «صدق مَن وصفك بالجفاء! هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج!».

وكان الجرّاح قد كتب إلى عمر: «إني قدمت خُراسان، فوجدت قوماً قد أبطرتْهم الفِتنةُ، فأحبّ الأمور إليهم أن يعودوا ليمنعوا حقّ الله عليهم، فليس يكفّهم إلّا السيف والسّوط، فكرهتُ الإقدام على ذلك إلّا بإذنك»، فكتب إليه عمر: «يا ابن أم الجرّاح! أنت أحرص على الفتنة منهم! لا تضربنّ مؤمناً ولا مُعاهِداً سوطاً إلّا في الحق، واحذرِ القصاص، فإنك صائر إلى مَنْ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَآ﴾[(1)] . . .».

وقال عمر لأبي مِجْلَز: «أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله!»، قال: «يكافي الأكفاء، ويعادي الأعداء، وهو أمير يفعل ما يشاء، ويُقدِم إن وجَدَ مَنْ يساعده»، قال: «فعبد الرحمن بن نُعَيْم؟»، قال: «يحبّ العافية والتأنّي، وهو أحبّ إليّ»، فولّاه الحرب والصّلاة، وولّى عبد الرحمن القُشَيْرِي الخراجَ، وكتب إلى أهل خرسان: «إني استعملت عبد الرحمن على حربكم وعبد الرحمن بن عبد الله[(2)] على خَراجكم»، وكتب إليهما يأمرهما بالمعروف والإحسان[(3)].

---

(١) الآية الكريمة من سورة الكهف (١٨/ ٤٩).

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله القشيري: أحد بني الأعور بن قُشَير، انظر الطبري (٦/ ٥٦١).

(٣) ابن الأثير (٥/ ٥٠ ـ ٥٢)، وانظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٥٨ ـ ٥٦٢) وانظر فتوح البلدان (٦٠٠).

ومن الواضح أنّ الجرّاح كان لاغبار على تدينه ونزاهته واستقامته، ولكنّ اجتهاده في تطبيق الإسلام يختلف عن اجتهاد عمر عبد العزيز، فالأول يرى أنّ الناس قد غيرّوا ما بأنفسهم فلا يستقيمون إلّا بالشدّة والعقاب، والثاني يرى تطبيق تعاليم الإسلام نصّاً وروحاً، فلا يعاقب المرء إلّا بذنب ثبت عليه، فاختلافهما في أسلوب تطبيق المبادئ لا في المبادئ.

إنّ عزل الجرّاح كان لاختلافه في الاجتهاد عن الخليفة الصالح الورع، ولم يكن عن تقصير أو انحراف أو ريبة.

٥ - وتولى الجرّاح إرمينية وأذْرِبِيْجان مرتين: الأولى من سنة أربع ومئة الهجريّة (٧٢٢م) إلى سنة سبع ومئة الهجريّة (٧٢٥م)، والثانية من سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية إلى أن استشهد على أرض إرمينية سنة اثنتي عشرة الهجرية (٧٣٠م)، فسقط مضّرجاً بدمائه ولم يسقط من يده السيف.

وهكذا قضى الجرّاح زهرة حياته إدارياً وقائداً في خدمة الدولة الإسلامية، وأعطى من نفسه للمصلحة العامة كلّ شيء، ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً.

٦ - وكانت له في إرمينية آثار إدارية لها صلة بالقضايا العسكرية، منها كتابه في الصلح لأهل تَفْلِيس، وهذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من الجرّاح بن عبد الله لأهل تفليسِ من رستاق (مَنْجَلِيْس)[1] من كورة (جُرْزان)[2]، أنه أتوني بكتاب أمان لهم من حبيب بن مَسْلَمَة[3] على الإقرار بصَغار الجزية، وأنه صالحهم على أرضين لهم وكروم وأرحاء يقال لها: (أواري) و (سابينا) من رستاق

(١) منجليس: الرستاق الذي عاصمته مدينة تفليس.

(٢) جرزان: اسم جامع لناحية بأرمينية، قصبتها تفليس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠/٨٣ - ٨٤).

(٣) حبيب بن مسلمة الفهري: انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.

منجلِيس، وعن طعام وديدونا من رستاق (مُحُويط) من كورة جرزان، على أن يؤدوا عن هذه الأرحاء والكروم في كلِّ سنة مئة درهم بلا ثانية، فأنفذت لهم أمانهم وصلحهم وأمرت ألّا يراد عليهم، فمن قرئ عليه كتابي، فلا يتعدّ فيها ذلك إن شاء الله»[1].

٧ ـ ولما نزل الجرّاح مدينة (بَرْذعة) أيام ولايته على إرمينية، رفع إليه اختلاف مكاييلها وموازينها، فأقامها على العدل والوفاء، واتّخذ مكيالاً يُدْعى: الجَرَّاحيّ، فأهلها يتعاملون به[2].

وهذه اللَّمحة من اهتمامه في القضايا الإدارية، التي أوردها المؤرخون مثالاً على اهتماماته الإدارية الأخرى، تدلّ على مبلغ حرصه على شؤون رعيته وسهره على مصالحها.

٨ ـ ومما يدلّ على شهامة الجرّاح ومروءته، أن مَسْلَمة بن عبد الملك حَلَفَ أن يبيع ذريّة آل المهلب بعد انتصاره عليهم ومقتل يزيد بن المهلب، وإخوته وأولاده[3]، فقال الجرّاح: «فأنا أشتريهم منك لأبرّ يمينك»، فاشتراهم بمئة ألف، فلم يأخذ مسلمة منه الثمن، وخلّى الجراح سبيلهم جميعاً[4].

وعهدنا بأكثر الناس، مع المنتصر على المهزوم، ومع أصحاب السلطان على الذين زال سلطانهم، ومع القوي على الضعيف، ومع الغني على الفقير، ومع الحي على الميت، إلّا أصحاب المروءات الرفيعة، وما أقلهم من كل زمان ومكان، وهؤلاء يكونون مع(الحق) لا مع المصلحة الشخصيّة.

---

(١) فتوح البلدان (٢٨٤ ـ ٢٨٥).
(٢) فتوح البلدان (٢٨٩).
(٣) انظر تفاصيل فتنة يزيد بن المهلّب في الطبري (٦/٥٧٨ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/٥٧ ـ ٨٩).
(٤) الطبري (٦/٦٠٢) وابن الأثير (٥/٨٦).

ولم يكن بمقدور كلٍّ أحد أن يُقْدِم على شراء ذريّة قائد تخلّى عنه الحظ وأصبح في عِداد الأموات، وهذا دليل على قوّة شخصية الجرّاح ومبلغ ثقة مَسْلمة به، بالإضافة إلى جوده وكرمه ومروءته.

فلا عجب أن يرثيه الشعراء، ويرثيه الخليفة هشام بن عبد الملك[١]، ويجزع لموته المسلمون.

وكان له عقب بوادي (إشّ)[٢].

القائد:

في سنة اثنتين وثمانين الهجرّية (٧٠١م)، كانت الحرب دائرة بين ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث في العراق وبين الحجّاج بن يوسف الثقفي عامل الدولة على العِراقَيْن[٣]، واستمرّت الحرب بين الجانبين مئة يوم وثلاثة أيام، وكانت أشدّ كتائب ابن الأشعث قتالًا واستبسالًا هي كتيبة القرّاء المؤلفة من علماء المسلمين وقادة فكرهم: يحمل عليهم رجال الحجّاج فلا يبرحون، وكانوا قد عرفوا بثباتهم البطولي. وخرجت كتيبة القرّاء ذات يوم من أيام القتال كما كانوا يخرجون، وعَبّأ الحجّاج صفوفه، وعَبّأ ابن الأشعث أصحابه، وعبّأ الحجّاج لكتيبة القرّاء ثلاث كتائب، وبعث عليها الجرّاح، فأقبلوا نحوهم فحملوا على القراء حملات: كلّ كتيبة تحمل حملة، فلم يبرحوا وصبروا[٤].

وكانت ثورة ابن الأشعث تهدِّد مصير الدولة بأفدح الأخطار، وكان القرّاء صلب رجال ابن الأشعث وعمودهم الفقري، لثقة الناس بهم، ولأنهم كانوا يستقتلون في الحرب ويطلبون الشهادة أو النصر ويضربون أروع الأمثال

(١) انظر ابن الأثير (٥/١٦٨).

(٢) إش: من قرى خوارزم، انظر معجم البلدان (١/٢٥٧)، وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٠٨) عن عقبة وتفاصيل نسبه.

(٣) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٤/ ٤٦١ ـ ٤٨٠).

(٤) الطبري (٦/ ٣٥٠) وابن الأثير (٤/ ٤٧٢).

في الثبات لأصحاب ابن الأشعث وكان القضاء على مقاومة كتيبة القرّاء قضاءً مبرماً على ثورة ابن الأشعث، فتولية الحجّاج للجرّاح على كتائب مقاومة كتيبة القرّاء ومصاولتها، دليل على أن الحجاج يثق بكفاية الجرّاح القيادية وشجاعته وإقدامه وأنه مسعر حرب حقاً.

وفي هذه الثورة في أيام الحرب، خرج عبد الله بن رِزَام الحارثِيّ، فطلب المبارزة، فخرج إليه رجل من عسكر الحجّاج، فقتله، وفعل ذلك ثلاثة أيام، يَقتل كلّ مَن يبارزه من رجال الحجّاج، وفي اليوم الرابع خرج، فقال أصحاب الحجّاج: جاء لا جاء الله به! وطلب الحارثي المبارزة، فقال الحجّاج للجرّاح: «اخرج إليه». وخرج الجرّاح، فقال له الحارثي وكان له صديقاً: «ويحك يا جرّاح! ما أخرجك!»، فقال: «ابتليت بك»، قال: «هل لك في خير؟»، قال الجرّاح: «ما هو؟»، قال: «انهزم لك وترجع إلى الحجّاج وقد أحسنتَ عنده وحمَدك، وأما أنا، فأحتمل مقالةَ الناس في انهزامي حبّاً لسلامتك، فإني لا أحبّ قتل مثلك من قومي»، فقال الجرّاح: «أفعلْ».

وحمل الجرّاح على الحارثيّ، فاستطرد له الحارثيّ، وحمل عليه الجرّاح بجدٍ يريد قتله، فصاح للحارثيّ غلامه، وكان ناحية معه ماء ليشربه، وقال له: «يا سيّدي! إنّ الرجل يريد قتلك»، فعطف عليه الحارثيّ وضربه بعمود على رأسه فصرعه، وقال له: «يا جرّاح! بئس ما جزيتني! أردتُ بك العافية وأردت قتلي! انطلق، فقد تركتك للقرابة والعشيرة»[1].

ومهما تكن نتيجة المبارزة، إلّا أنّ مجرد اختيار الحجّاج للجرّاح ليتولى مبارزة بطل من الأبطال انتصر على أقرانه ثلاثة أيام متوالية، يدلّ على أنّ الجراح كان بين جيش الحجّاج بطلًا متميِّزاً لامعاً، خاصة وأن انتصار مبارزٍ على قرينه، يؤثّر في معنويات أصحاب المنتصر فيرفعها عالياً، ويؤثّر

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٤٨٠).

في معنويات أعداء أصحابه فيرديها إلى الحضيض، والنصر دائماً لذوي المعنويات العالية، والهزيمة دائماً لذوي المعنويات المنهارة.

كما أنّ إيثار الحارثيّ للجرّاح بالنصر، واستئثاره بالهزيمة طوعاً، في مثل تلك الظروف الحرجة، يدلّ على مكانة الجرّاح السامية ليس بين أصحابه حسب، بل بين أعدائه أيضاً، ولا يكون هذا التنازل الطوعيّ إلّا لشخصية قويّة نافذة تملأ الأعين قدراً وجلالاً.

وكان الجرّاح يوصَم بالجفاء، أي أنه صاحب ضَبْط شديد، يسيطر على رجاله سيطرة قويّة، ومزيّة الضبط المتين إحدى مزايا القائد الجيِّد.

وكان الجرّاح يتميَّز بالحرص الشديد في محاولة الحصول على المعلومات المفصّلة عن عدوِّه، وقد استطاع أن يكتشف أنّ بعض مَن كان معه في جيشه من أهل جبال القفقاس قد كاتب ملك الخزر يخبره أن المسلمين قد ساروا إليه، فتظاهر الجرّاح بالبقاء في (بَرْذَعَة)، فكتب ذلك العَين إلى ملك الخزر يخبره أنّ المسلمين مقيمون، وحينذاك بادر الجرّاح بالمسير، فرحل مسرعاً إلى هدفه[1].

والقائد الحريص على اقتناص المعلومات التفصيلّة عن عدوه، قائد يعمل في النور لا في الظلام، لأنّ عملياته تكون على هدى وبصيرة، فيتحرّك وعيناه مفتوحتان، مما ييسِّر له إحراز النصر.

وقد أدّى تظاهر الجرّاح بالبقاء في (بَرْذَعة) وقتاً طويلًا، ثم رحيله السريع عنها إلى هدفه، مباغتة للعَدوّ في الزمان، لأنّ الجرّاح وصل إلى هدفه في وقت لا يتوقّعه ذلك العدو، والمباغتة كما هو معروف أهم مبادئ الحرب على الإطلاق.

وحين فتح الجرّاح مدينة (بَلَنْجرَ) أسر أولاد صاحبها وغنم أمواله

---

(١) ابن الأثير (٥/ ١١١).

وسيطر على حصنه، ولكنه استدعى إليه صاحب (بلنجر) وردّ أمواله وأهله وحصنه إليه وجعله عيناً للمسلمين يخبرهم بما يفعل الخزر وحلفاؤهم[1].

وهذا دليل آخر على حرص الجرّاح الشديد في محاولاته للحصول على المعلومات المفصّلة الدقيقة عن عدوِّه.

وكان الجرّاح من أولئك القادة الذين يُصرّون على إحراز النصر مهما طالت المدّة واشتدّت وطأة القتال وكثرت الخسائر، ولعلّ معركة (بَلَنْجر) خير دليل على هذا الإصرار.

فقد كان نشّاب العدو يحجب الشمس، وكان حصن المدينة منيعاً، والتحم القتال بشدَّة حتى بلغت القلوب الحناجر، دون أن يتخلّى الجراح عن فتح (بَلَنْجر)[2].

ومزيّة الحرص الشديد على إحراز النّصر بأي ثمن، من مزايا القائد المتميِّز.

ولم يُنكب جيش يقوده الجرّاح في غير ميدان القتال سواء كان ذلك في سير الاقتراب أو في المعسكرات، مما يدلّ على أنه كان يتّخذ التدابير الأمنية كافة لحماية جيشه بالمقدمة والميمنة والميسرة والمؤخرة، بالإضافة إلى أنه كان يتحرّك وهو مفتوح العينين في النور، لأنه يحصل على المعلومات المفصلة الدقيقة عن العدو، ويمنع العدو من الحصول على المعلومات المفصّلة عن قواته.

وكما كان يهيِّئ التدابير الأمنية كافة لقواته التي يقودها، كان يهيئ التدابير الأمنية لنفسه، وقد رُئي قد ظاهَرَ بين درعين، فقيل له في ذلك، فقال: «لستُ أقِيْ بَدَني وإنما أقي صَبْرى»[3]، يريد: أنه يقي معنوياته بهذين الدرعين.

---

(١) ابن الأثير (٥/١١٢).

(٢) ابن الأثير (٥/١١٢).

(٣) العقد الفريد (١/١٧٨) وعيون الأخبار (١/١٧٨).

ومن المعلوم أنّ الذي يتّخذ التدابير الأمنية لنفسه وقواته، يرفع معنوياته ومعنوياتهم مادياً ومعنوياً، والأمن مبدأ من أهم مبادئ الحرب.

لقد كان قائداً من قادة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي كتب إليه مرّة: «إنه بلغني أنه رسول الله ﷺ، كان إذا بعث جيشاً أو سَرِيّةً قال: اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، تقاتلون مَنْ كفر بالله: لا تَغُلّوا[1]، ولا تغْدِروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً)، فإذا بعثتَ جيشاً أو سريّة، فُمْرهم بذلك»[2].

وكان أعرف بالله من أن ينهزم[3]، كما وصفه أحد قادة الفتح الإسلامي[4] للخليفة هُشام بن عبد الملك بن مروان.

وأخيراً ضحّى الجّراح بروحه من أجل عقيدته، ولم يُضَحِّ بعقيدته من أجل روحه، فضرّج بدمه الطّاهر ثرى إرمينية، كما خرّج ثراها قبله وفي أيامه ومن بعدهم عدد كثير من قادة الفتح الإسلامي وجنوده.

لقد كان قائداً يثق به رؤساؤه ورجاله، شجاعاً مقداماً، ذا شخصية قويّة نافذة، يتحلى بالضبط المتين، ويؤدي واجبه كاملًا ويفضِّله على العلاقات الشخصية كالقربي والصّداقة، يأمر بالجهاد ويحثُّ عليه ويحرِّض رجاله على القتال، حريصاً على الحصول على المعلومات الدقيقة عن عدوِّه، يبذل قصارى جهده لإحراز النصر، يطبقّ مبدأ المباغتة، ومبدأ الأمن في عملياته العسكرية.

وكان فوق ذلك قائداً عقائدياً، يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، يطلب الشهادة ويحرص على الموت حرص غيره على الحياة.

---

(١) غلّ فلان غُلُولًا: خانَ في المغنم وغيره.

(٢) العقد الفريد (١/١٢٨).

(٣) ابن الأثير (٥/١٥٩).

(٤) هو: سعيد بن عمرو الحَرَشي، اقرأ سيرته في: قادة فتح المشرق الإسلامي.

لقد كان الجرّاح قائداً متميِّزاً.

الجرّاح في التاريخ:

يذكر التاريخ للجرّاح، أنه وطّد أركان الأمن في (خُراسان) والعراق وإرمينية.

ويذكر له أنه استعاد فتح شطر خُراسان وشطر إرمينية وفتحاً جديداً.

ويذكر له، أنه نشر العربيّة لغة والإسلام ديناً في أرجاء شاسعة تمتدّ من خُراسان إلى ما وراء نهر جيحون إلى إرمينية.

ويذكر أنه كان مجاهداً صادقاً، يسعى إلى الشّهادة قبل أن تسعى الشهادة إليه.

رضي الله عن القائد الفاتح، والإداريّ الحازم، الشّهيد البطل، الجرّاح بن عبد الله الحَكِميّ.

سَعِيْدُ بن عَمْرو الحَرَشِيّ
فاتح شَطْر إرمينية ثانية وشطر خراسان

نسبة وأيامه الأولى:

هو سعيد بن عمرو بن أسود بن مالك بن كَعْب بن الحَرِيْش بن كَعْب بن ربيعة بن عامِر بن صَعْصَعَة،، واسم الحِرَيْش معاوية بن كَعْب[1] من قَيْس عَيْلان بنُ مُضر[2].

ولم يكن سعيد من رؤساء قبيلته، بل كان عِصاميًّا، تقدّم بكدِّه وعرقه وكفايته، وكان في صغره فقيراً مُعْدَماً يسأل على الأبواب، ثم صار يسقي الماء، ثم احترف الجندية، فَعَلَتْ حاله[3]، وتقدّم في المناصب الإداريّة والعسكرية، ويبدو أنه لفت أنظار المسؤولين في الدولة بشجاعته وكفايته، ففرض بجهده ومزاياه نفسه على الحاكمين، ولم يفرضها بحسبه ونسبه.

ولا نعرف متى وأين وُلد، ولا تفاصيل حياته الأولى، ولا سنة رحيله عن الدنيا، وقد ذُكرأنه شامِيّ، وولده بإرمينية[4]، وأمه حبشيّة[5].

لقد كان حظّ سعيد عند المؤرخين وكتّاب السير في مجال حياته الخاصة حظّاً عاثراً، فبخلوا عليه بذكر حياته الشخصيّة، وعوّضوا عليه بذكرحياته العامة قائداً وإدارياً.

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٢٨٨).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٢٧١).
(٣) جمهرة أنساب العرب (٢٨٨) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ١٦٤).
(٤) جمهرة أنساب العرب (٢٨٨) وتذيب ابن عساكر (٦/ ١٦٤).
(٥) المحبّر (٣٠٨).

في توطيد الأمن الداخِلِيّ:

١ ـ في حرب عبد الرحمن بن محمد بن الأَشْعَث[1]:

شهد سعيد ثورة ابن الأشعث على عبد الملك بن مروان، وكان يقاتل تحت راية الحجّاج بن يوسف الثقفِيّ. وفي يوم من الأيام خرج رجل من أهل العراق يقال له: قُدامَة بن الحِرَيْش من رجال ابن الأشعث لَيبارز رجلاً من رجال الحجّاج. وخرج إليه رجل من أهل الشّام فقتله، حتى قتل أربعة من أهل الشّام. ولما رأى الحجّاج ذلك، أمر منادياً فنادى: لا يخرج إلى هذا الرجل أحد! فكفّ الناس.

وكلم سعيدٌ الحجّاج فقال: «إنك رأيتَ ألّا يخرج إلى هذا الرجل أحدٌ، وإنما هلكَ مَنْ هلكَ من هؤلاء النّفر بآجالهم، ولهذا الرّجل أجلٌ، وأرجو أن يكون قد حضر، فَأْذن لأصحابي الذين قدِموا معي فليخرج إليه رجل منهم».

وأذِنَ الحجَاج أن يخرج أحد أصحاب سعيد لمبارزة هذا الرجل، ولكنَ الرّجلَ عاجل الشّاميّ الذي خرج لمبارزته من أصحاب سعيد فقتله.

وشقّ ذلك على سعيد، فاستأذن الحجّاج في الخروج لمبارزة قُدامة، فقال له: «وعندَكَ ذلك؟»، فقال سعيد: «نعم، أنا كما تحبّ»، فأمر له الحجّاج بسيف مُرْهَف ثقيل، وأذِنَ له بالمبارزة.

ومهما تكن نتيجة المبارزة، إذ لم ينتصر سعيد على خصمه ويقضي عليه، إلّا أنّ مجرّد خروجه، إلى المبارزة متطوّعاً، يدلّ على شجاعته وثقته بنفسه وحرصه على انتصار الدولة على ابن الأشعث وأصحابه[2].

---

(١) انظر تفاصيل ثوة عبد الرحمن بن الأشعث في الطبري (٦/ ٣٣٤ ـ ٣٤١) و (٦/ ٣٤٢ ـ ٣٤٥) و (٦/ ٣٤٦ ـ ٣٥٠)، ومحمد بن الأشعث الكندي، انظر ما جاء عنه في جمهرة أنساب العرب (٤٢٥).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).

٢ ـ القضاء على فتنة شَوْذَب الخارجي:

في سنة مئة الهجريّة (٧١٨م)، خرج شَوْذَب الخارجيّ، وهو بِسْطَام من بني (يَشْكُر)[١] في (جُوْخِيّ)[٢]، وكان في ثمانين رجلًا.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب عامله بالكوفة، ألّا يُحَرِّكهم حتى يسفكوا دماءً ويفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فوجِّه إليهم رجلًا صليباً حازماً في جُنْد.

وبعث عبد الحميد والي الكوفة محمد بن جرير بن عبد الله البَجَلِيّ[٣] في ألفين، وأمره بما كتب عمر بن عبد العزيز إليه.

كما كتب عمر بن عبد العزيز إلى بِسْطام الخارجيّ، يسأله عن مخرجه، وكان في كتاب عمر إلى بِسْطام: «بلغني أنك خرجتَ غضباً لله ولرسوله، ولستَ أولى بذلك مني، فهلمّ إليّ أُناظرك، فإن كان الحق بأيدينا، دخلت فيما دخل الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك»، فقدم كتاب عمر إلى بِسطام وقد قدم إليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يتحرّك.

وكتب بسطام إلى عمر: «قد أنصفتَ، وقدبعثتُ إليك رجلين يدارسانك».

ووصل الرجلان الموفدان من بسطام الخارجيّ، وناظرا عمر بن عبد العزيز، فاقتنعا بوجهة نظره.

ومات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة إحدى ومئة الهجريّة (٧١٩م)، ومحمد بن جرير مقابل الخوارج، لا يتعرّضون إليه ولا يتعرّض

---

(١) هو يشكر بن بكر بن وائل، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٠٨).

(٢) جوخي: وردت في معجم البلدان (٣/ ١٦١): جوخا، اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد، ولم تكن ببغداد كورة مثل جوخا.

(٣) انظر سيرة أبيه: جرير بن عبد الله البجلي في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ ـ ٣٧١).

إليهم، وكلّ منهم ينتظر عودة الرُّسل من عند عمر بن عبد العزيز، فتوفي عمر والأمر على ذلك[1].

وتولّى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعهده من أخيه سليمان بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز[2]، فأحبَّ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطّاب أمير الكوفة، أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك، فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شَوْذَب.

ولما رأى الخوارج محمد بن جرير يستعدّ للحرب قالوا: «ما فعل هؤلاء هذا إلّا وقد مات الرّجل الصالح»، يريدون عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ونشب الاقتتال بين الجانبين، فأُصيب من الخوارج نفرٌ، وقُتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا، وجُرح محمد بن جرير فدخل الكوفة، وتبعهم الخوارج إلى الكوفة، ثم رجعوا إلى مكانهم.

ووجّه يزيدُ بن عبد الملك تَمِيم بن الحُبَاب في ألفين إلى شَوْذب الخارجي، فاقتتل الجانبان وقتل شوذب كثيراً من أصحاب تميم، فلجأ فلول جيش تميم هاربين إلى يزيد بن عبد الملك وإلى الكوفة أيضاً.

وأرسل يزيد بن عبد الملك جيشاً بقيادة نَجْدة بن الحَكَم الأَزْدِيّ إلى شوْذب، فقتله الخوارج وهزموا رجاله، فوجه يزيد السجّاح بن وداع في ألفين، فقتلوه وهزموا رجاله أيضاً.

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مَسْلَمَةُ بن عبد الملك[3] الكوفة، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شَوْذَب وتأثيره في اضطراب الأمن وأثره في قوّات الدولة، فأرسل إليه مَسْلَمَةُ سعيدَ بن عمرو الحَرَشِيّ، وكان فارساً من فرسان العرب في عشرة آلاف.

وأتاه سعيدُ في مكانه، فرأى شوذبُ وأصحابُه ما لا قِبَل لهم به، فقال

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٥٥٥) وابن الأثير (٥/ ٤٥ ـ ٤٨).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٦٧).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الروم (١٢).

لأصحابه: «مَنْ كان يريد الشَّهادة، فقد جاءته؛ ومن كان يريد الدنيا، فقد ذهبت».

وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً، حتى خاف سعيد الفضيحة، فوبّخ أصحابه وقال: «من هذه الشرذمة لا أبَ لكم تَفِرّون!! يا أهل الشّام! يوماً كأيامكم».

وحمل سعيد وحمل أصحابه معه على الخوارج حملة صادقة، فطحنوهم طحناً، وقتلوا بِسطاماً ـ وهو شَوْذب ـ وأصحابه[(١)].

وهكذا قضى سعيد بحسن قيادته وثباته وتحريضه أصحابه على الاقتتال والثبات، على فتنة شوذب التي أثّرت في معنويات سكّان جنوبي العراق، وأشاعت الفوضى والاضطراب فيه، وكبّدت الدولة خسائر فادحة بالأموال والرجال.

٣ ـ القضاء على فتنة يزيد بن المُهَلّب:

حبسَ عمر بن عبد العزيز في سجن (حَلَب) يزيد بن المهلّب سنة مئة الهجريّة (٧١٨م)، فبقي يزيد في محبسه حتى بلغه مرض عمر[(٢)].

ولما اشتدّ مرض عمر بن عبد العزيز، خاف يزيد بن المُهَلّب من يزيد بن عبد الملك[(٣)]، فهرب يزيد بن المهلّب من محبسه سنة إحدى ومئة الهجرية[(٤)] (٧١٩م).

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/ ٥٧٥ ـ ٥٧٨) وابن الأثير (٥/ ٦٨ ـ ٧٠) وانظر: العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٦٥).

(٢) الطبري (٦/ ٥٥٦ ـ ٥٥٨) وابن الأثير (٥/ ٤٨ ـ ٥٠)، وانظر كتاب: الوزراء والكتّاب (٣١).

(٣) كانت بين يزيد بن عبد الملك ويزيد بن المهلّب عداوة شخصيّة قبل أن يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، وقد توعّد كلّ منهما صاحبه، انظر ابن الأثير (٥/ ٥٧).

(٤) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥) وابن الأيثر (٥/ ٥٧ ـ ٥٨) وابن خلدون (٣/ ١٦٦).

ووصل يزيد بن المهلّب إلى العراق، وسيطر على (البَصْرَة)، فأصبح الموقف في العراق خطيراً للغاية بالنسبة للدولة.

وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى (الكوفة) شيئاً من المال، ومَنَّى أهلَها الزيادة، وجهّز أخاه مَسْلَمَة بن عبد الملك وابن أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك[1] في سبعين ألفاً من أهل الشّام وجزيرة ابن عمر، وقيل: كانوا ثمانين ألفاً، فساروا إلى العراق، وقَدِما (الكوفة) ونزلا (النّخَيْلَة).

وسار يزيد بن المهلّب من (البَصْرَة)، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب، وأتى (واسِطاً)[2] وأقام بها أياماً حتى خرجت سنة إحدى ومئة الهجرية[3].

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرّية (٧٢٠م)، فسار يزيد بن المهلّب (واسِط) واستخلف عليها ابنه معاوية، وجعل معه بيت المال والأسرى.

وسار يزيدُ بن المهلّب بجيشه على فم (النّيْل)[4] حتى نزل (العَقْرَ)[5]، فعسكر هناك.

وأقبل مَسْلَمَة بن عبد الملك بجيشه سالكا طريق نهر (الفُرات) إلى

---

(١) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح بلاد الرّوم.

(٢) واسط: مدينة كبيرة بناها الحجّاج بن يوسف الثّقِفيّ، وسميت: واسطاً، لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، وانظر التفاصيل في: معجم البلدان (٨/ ٣٧٨ ـ ٣٨٧)، وقد أطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث، وهي محافظة الكوت على نهر دجلة في العراق الأوسط، إحياءً لذكرى مدينة واسط القديمة.

(٣) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٥٧٨ ـ ٥٨٩) وابن الأثير (٥/ ٧١ ـ ٧٧) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٩)، وانظر خلاصة الذهب المسبوك (٢٦).

(٤) النيل: بليدة في سواد الكوفة قرب مدينة (الحِلّة): حِلّة بني مَزيد، يخرقها خليج كبير يتخلّج من الفرات الكبير، انظر التفاصيل في معجم البدان (٨/ ٣٦٠).

(٥) العقر: عقر بابل، قرب كربلاء من الكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

مدينة (الأنْبار)[1]، فعقد عليها جسراً وعبر.

وفي طريق مسلمة إلى (العَقْر)، في مرحلة مسير الاقتراب، عقد يزيد بن المهلّب لعبد الله بن حَيَّان العَبْدِيّ على أربعة آلاف، فعبروا نهر (الصَّرَاة)[2] لعرقلة مسيرة مَسْلَمة، ولكنّ مسلمة وجّه إليهم خيلًا من أهل الشّام عليهم سعيد بن عمرو الحَرَشِيّ. وكان لأهل الشّام كمين في منطقة نهر (الصَّرَاة)، فاقتتلوا وقُتِل عبد الله بن حيّان، ثم خرج كمين أهل الشّام على رجال عبد الله بن حَيّان، فانهزموا حتى أتوا يزيد بن المهلّب[3].

وعبر مَسْلَمَة (الصَّراة) بجيشه، بعد أن طهّر له الطريق سعيد، فعبر النهر وهو آمن مطمئن، لا يخشى مقاومة قوات يزيد ولا محاولة عرقلة مسيرته، حتى اتخذ مواضعه تجاه جيش يزيد، وخندق حول مواضعه خندقين[4].

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومَسْلَمَة بن عبد الملك ثمانية أيام، فلما كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صَفَر، بعث مسلمة مَن يحرق الجسر.

وخرج مسلمة مُعَبِّاً أهل الشام، ثم قرب من ابن المهلّب، فلما أُحرق الجسر وسطع دخانه، وقد أقبل الناس ونشب الاقتتال بين الجانبين، ورأى أصحاب ابن المهلّب الدُّخان، وقيل لهم: أُحرق الجسر، انهزموا!

وخرج يزيد بن المهلّب مع أصحابه المقرّبين في محاولة لرد المنهزمين من جيشه، ولكنه أخفق من محاولته.

---

(١) الأنبار: مدينة على الفرات في غرب بغداد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢)، وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم، وأطلق اسمها على محافظة من محافظات العراق الحديث، وهي محافظة (الرّمادي) التي أصبح اسمها اليوم: محافظة الأنبار.

(٢) الصَّراة: المقصود هنا: صراة جاماسب؛ تستمدّ ماءها من الفرات، بنى عليها الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ مدينة النيل التي بأرض بابل، انظر معجم البلدان (٥/ ٣٤٩).

(٣) العيون والحدائق (٧١).

(٤) العيون والحدائق (٧١).

واشتدّ الاقتتال بين الجانبين، فلما كان اليوم الذي قتل فيه يزيد بن المهلّب وهو يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين ومئة الهجريّة، خرج محمد بن المهلّب على فرسه يقاتل، فضُرب على جبهته بعمود، فقال له يزيد: «مَن ضَرَبك؟»، قال: «لا أدري! إلّا أنه حين ضَرَبني قال: أنا الغلام الحَرَشِيّ»[1].

وكان يزيد يقاتل، فجاءه مَن ينعي إليه أخاه حبيباً الذي قُتل في المعركة، فقال يزيد: «لا خير في العيش بعده! قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة، وقد ازددت لها بغضاً! امضوا قُدُماً»، فعلموا أنه قد استقتل.

وباشر يزيد القتال حتى قُتل وقُتل معه محمد بن المهلّب[2].

لقد أحبط سعيد محاولة يزيد بن المهلّب عرقلة مسير الاقتراب لجيش مسلمة، فيسّر لمسلمة تنفيذ خطته المرسومة في القضاء على فتنة يزيد بن المهلّب، كما برز سعيد في هذه المعركة قائداً منتصراً، ومقاتلًا رهيباً، وبطلًا فارساً.

جهاده:

١ ـ في ميدان الصّغْد[3]:

في سنة ثلاث ومئة الهجرّية (٧٢١م) عزل عمرُ بن هُبَيْرَة سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم الأموي عن (خرُاسان) واستعمل سعيد بن

---

(١) العيون والحدائق (٧٢).

(٢) انظر التفاصيل في: الطبري (٦/ ٥٩٠ ـ ٦٠٤) وابن الأثير (٥/ ٧٧ ـ ٨٩) وابن خلدون (٣/ ١٦٦ ـ ١٧٢)، وانظر المسعودي (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ ـ ١٦) والمعارف (٤٠٠).

(٣) الصُّغْدُ: منطقة واسعة جداً بين بخارى وسمرقند، قصبتها سمرقند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٨٦) و (٥/ ٣٦٢/ ٣٦٤)، وهو إقليم بآسيا الوسطي يمثل اليوم التركستان الغربية، وانظر القاموس الإسلامي (٣/ ٣٦٨). والصغد أمة من التركمان باسم المنطقة التي يطلق عليها: الصّغْد أيضاً، وقد تنطق بالسين.

عمرو الحَرَشِيّ[١] عليها.

ولما قدم سعيد الحَرَشِيّ (خُراسان)، وجد أعداء المسلمين قد تكالبوا عليهم وأثروا فيها مادياً ومعنوياً، فجمع سعيد مَن حضر من المسلمين وخطبهم وحثّهم على الجهاد وقال: «إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بِعُدَّة، ولكن بنصر الله وعزِّ الإسلام، فقولوا: لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.. وأنشد:

فلستُ لعامر إنْ لَمْ تَروْنِي ... أمامَ الخَيّل أطْعَنُ بالعوالي[٢]
فأَضِربُ هامَةَ الجبَّارِ منهم ... بِعَضْبِ الحَدِّ حودِث بالصَّقالِ[٣]
فما أَنا في الحروبِ بمُسْتَكِيْنٍ ... ولا أخشى مصاولة الرِّجال
أَبَى لي والدِي من كلِّ ذم ... وخالي في الحوادث خيرُ خال
إذا خطَرَتْ أمامي حيّ كَعْبِ ... وزافَتْ كالجبالِ بنو هِلالِ[٤]

ومن الواضح أنّ خطاب الحرشيّ كان لرفع المعنويات المنهارة لقوّات المسلمين في خُراسان، لأنهم نُكبوا نكبات متعاقبة، والعدو يحيط بهم ويهدِّدهم بقواته المتفوِّقة، فكان لا بد من أن يبدأ الحرشيّ عمله الإداري والقيادي في خُراسان، بمحاولة رفع المعنويات وتبديل أوضاعها المتردّية من حال إلى حال.

ولعلّ الكلام المجرّد في مثل ذلك الموقف لا يجدي فتيلًا، لهذا بدأ بنفسه، فقرّر أمام السامعين أنه سيكون أمام المجاهدين، ولا يكتفي بإصدار الأوامر إليهم ثم يبقي في (الخَلْف) بدون أن يعاني شخصياً ما يعانيه المجاهدون قبل القتال وفي أثنائه وبعده، بل يقودهم من (الأمام)، ليكون أسوة حسنة لأصحابه جميعاً.

---

(١) الطبري (٦/ ٦٢٠) ابن الأثير (٥/ ١٠٣).
(٢) ابن الأيثر (٥/ ١٠٤): تطعن.
(٣) حودث: جلي.
(٤) الطبري (٦/ ٦٢٠ ـ ٦٢١) وابن الأيثر (٥/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

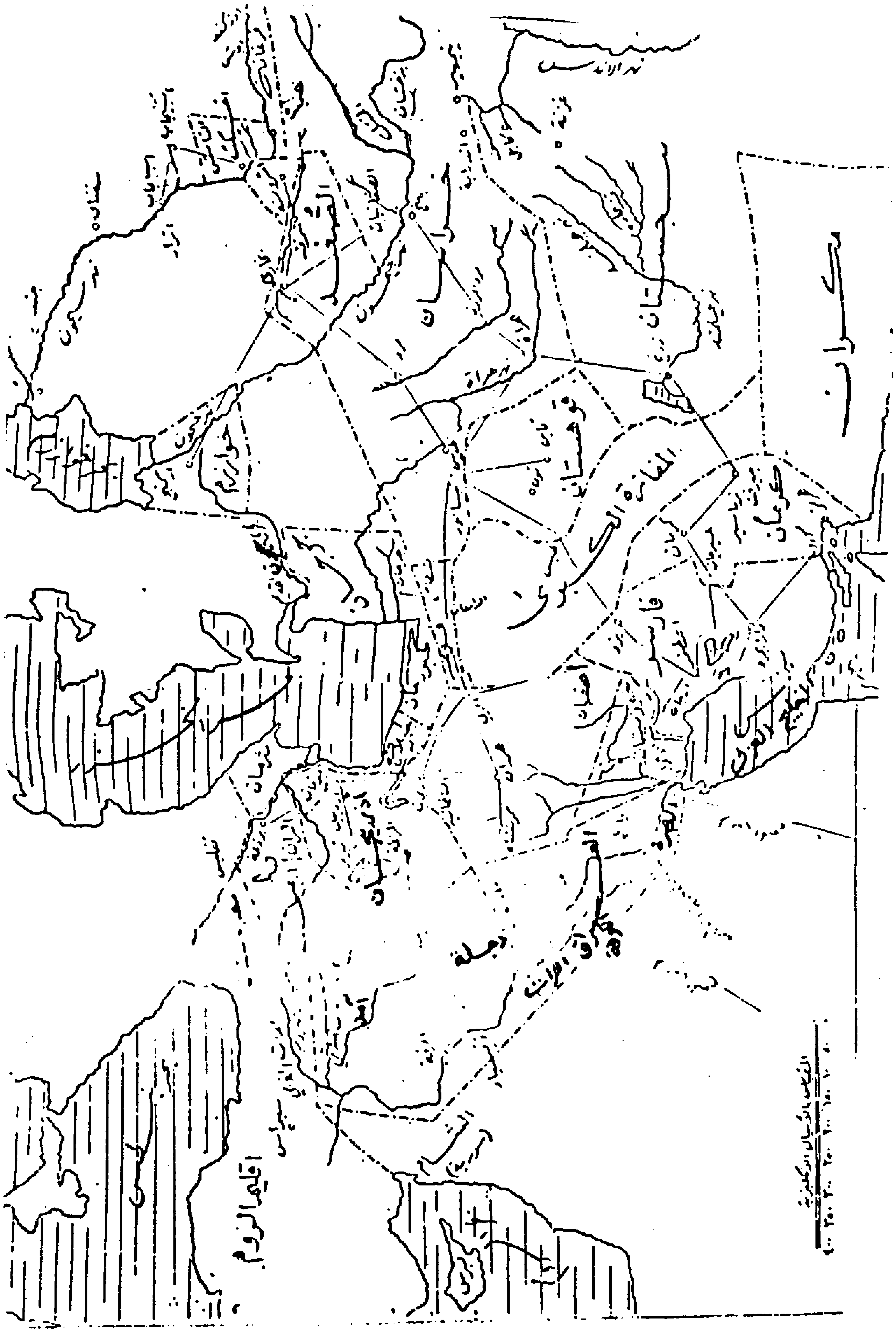

أقاليم آسيا الجنوبية الغربية

وكما رفع الحَرَشِي بقوله وعمله معنويات رجاله فإنّ مَقْدَمه إلى(خُراسان) زعزع معنويات أعداء المسلمين، فلما سمع (الصُّغْدُ) بقدومه خافوا على أنفسهم، لأنهم كانوا قد أعانوا الترك أيام سلفه سعيد بن عبد العزيز الأُموي الملقب بـ (خُذَينة)[1]، فاجتمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم، فقال لهم ملكهُم: «لا تفعلوا! أقيموا، واحملوا الخَراج ما مضى، واضمنوا له خَراج ما يأتي وعمارة الأرض»، فقالوا: نخاف أن لا يرضى، ولا يقبل ذلك منّا، ولكنّا نأتي (خُجَنْدَة)[2]، فنستجير ملكها، ونرسل إلى الأمير، فنسأله الصَّفح عمّا كان منّا، ونوثق له أنه لا يرى منّا أمراً يكرهه. فقال لهم الملك: «أنا رجلٌ منكم، والذي أشرتُ به عليكم خير لكم»[3].

ويبدو أنّ ملك الصُّغْد كان ضعيفاً، ولا رأى لمن لا يطاع، كما أنّ أثر الحَرَشي المعنوي فيهم كان بليغاً، فاضطرب أمرهم وولّوا الأدبار.

وخرج الصُّغْدُ إلى (خُجَنْدَة)، وأرسلوا إلى ملك (فَرْغانة)[4] يسألونه أن يبسط حمايته عليهم وينزلهم مدينته، فأراد أن يحقّق لهم رغباتهم، ولكنّ أُمَّهُ نصحته ألّا يقبلهم في مدينته، بل يخصِّص لهم مكاناً في منطقة أخرى.

وأرسل الملك إليهم أن يختاروا منطقة أخرى في بلاده يعيشون فيها قائلاً: «سموا رستاقاً تكونون فيه أفرّغه لكم، وأجّلوني أربعين يوماً»، وقيل:

---

(١) خذينة: كلمة فارسية، وهي الدهقانة ربّة البيت، فقد كان سعيد خذينة ليناً سهلاً متنعِّماً، فهو أشبه بربة البيت منه بالوالي القائد، انظر الطبري (٦/ ٦٠٥) وابن الأثير (٥/ ٩٠).

(٢) خجندة: مدينة مشهورة بما وراء النهر (جيحون) على شاطئ نهر (سيحون)، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقاً. وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصّقع أنزه منها ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهر جارٍ، والجبل متصل بها، وهي متاخمة لفرغانة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

(٣) الطبري (٦/ ٦٢١) وابن الأثير (٥/ ١٠٤).

(٤) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراءَ النهر متاخمة لبلاد تركستان، ومن ولايتها خجندة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥).

«أجّلوني عشرين يوماً»، فاختاروا شِعْب عصام بن عبد الله الباهليّ، وكان قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهليّ[1] قد خصَّص هذا الشِّعْب لقريبه هذا وجماعته.

ووافق الملك على اختيار هذا الموضع من الصّغْد، ولكنه اشترط عليهم: «ليس لكم عليّ عقد وجوار حتى تدخلوه، وإن أتتكم العربُ قبل أن تدخلوه، لم أمنعكم»، فرضوا بهذا الشّرط، ففرّغ لهم الشِّعْب[2].

وسار الحرَشِيَ سنة أربع ومئة الهجريّة (٧٢٢م)، وقطع النّهر (جَيْحُون)، ونزل في (قصر الرّيح)[3] على فرسخين من (الدَّبوسِيَّة)[4]، ثم أمر بالرَّحيل قبل أن يجتمع إليه جنده، فأشار عليه أحد رجاله بالتريّث ليجتمع إليه جنده أولًا، ثم يرحل إلى هدفه بعد ذلك[5].

ومن الواضح أنه كان يريد الإسراع في تَنَقُّله، ليصل إلى هدفه بسرعة مناسبة، لأنه كان لعامل الوقت أثر في ضرب العدو قبل أن يرحل من (خُجَنْدَة)، لذلك أمر بالرحيل قبل إكمال حشد جيشه، ولكنه آثر التريُّث بالرحيل عملًا بنصيحة أحد رجاله، لأنّ تريّثه أسلم عاقبةً من تسرّعه.

وأتاه ابن عمّ ملك (فَرْغانَة)، وأخبره أنّ الصّغْد في (خُجَنْدَة)، وأشار عليه بأن يعاجلهم قبل أن يصلوا إلى الشّعب، فليس لهم جوار على ملك (فرغانة) قبل أن يمضي الأجل وهو أربعون يوماً.

ووجّه الحَرَشِيّ مع ابن عم مالك فَرْغانة عبد الرحمن القُشَيْريّ وزياد بن عبد الرحمن في جماعة من جيشه، ولكنه ندم بعدما فصلوا وقال: «جاءني عِلْج لا أعلم أصدق أم كذب، فغرّرت بجند من المسلمين!»،

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المشرق الإسلامي.
(٢) الطبري (٦/ ٦٢١ ـ ٦٢٢) وابن الأيثر (٥/ ١٠٤ ـ ١٠٥).
(٣) قصر الريح: قرية بنواحي نيسابور، انظر معجم البلدان (٧/ ١٠١).
(٤) الدبوسيّة: بليد من أعمال الصّغد من وراء النهر، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٣).
(٥) الطبري (٧/ ٧) وابن الأثير (٥/ ١٠٧).

فارتحل في أثرهم على عَجَل، حتى نزل (أُشْروسَنَة)[1]، فصالحهم بشيءٍ يسير.

واستمرّ مسرعاً في مسيره باتجاه (خُجَنْدَة) لا يلوي على شيءٍ حتى لحق القُشَيْرِي بعد ثلاثة أيام، وحينذاك فقط اطمأنَّتْ نفسه على مصير رجاله.

ولما انتهى إلى (خُجَنْدَة)، قال له بعض أصحابه: ما ترى؟ قال: «أرى المعاجلة»، قال: لا أرى ذلك! إنْ جُرح رجل فإلى أين يرجع؟ أو قُتل قتيل فإلى مَنْ يُحْمَل؟ ولكنني أرى النزول والتأني والاستعداد للحرب.

ونزل الحَرَشِيّ، وأخذ في التأهّب والاستعداد، فلم يخرج أحد من العدو، ولجأوا إلى داخل المدينة.

وحمل رجل من المسلمين، فضرب باب (خُجَنْدَة) بعمود، ففُتح الباب، وكان الصُّغد قد حفروا في ربضهم وراء الباب الخارج خندقاً وغطّوه بقصب وتراب مكيدةً، وأرادوا إذا التقوا بالمسلمين وانهزموا كانوا قد عرفوا الطريق، ويصعب على المسلمين معرفتها فيسقطون في الخندق، فأخرج المسلمون منهم أربعين رجلًا.

وحصرهم الحَرَشِيّ، ونصب عليهم المجانيق، فأرسلوا إلى ملك (فرغانة): إنَّك غدرت بنا! وسألوه أن ينصرهم، فقال: «قد أتوكم قبل انقضاء الأجل، ولستم في جواري».

وطلب الصُّغد الصلحَ وسألوا الأمان، وأن يردّوهم إلى بلادهم الأصليّة، فاشترط عليهم الحَرَشِيّ: أن يردّوا ما بأيديهم من نساء العرب وذراريهم، وأن يؤدوا ما كسروا من الخَراج، ولا يغتالوا أحداً، ولا يتخلّف منهم بـ (خُجَنْدَة) أحدٌ، فإن أحدثوا حدثاً حلَّت دماؤهم.

---

(1) أشروسنة: بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهَيَاطِلة بين سيحون وسمرقند، وبينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخاً، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

وخرج إلى المسلمين رجالات الصّغْد وتجّارهم، وتُرك أهل (خُجَنْدَة) على حالهم، ونزل عظماء الصُّغد على الجند المسلمين الذي سبقت لهم معرفة بهم.

وبلغ الحَرَشِيّ أنّ الصُّغد قتلوا امرأة مسلمة ممن كان في أيديهم، فقال: «بلغني أنّ أحدكم قتل امرأة ودفنها»، فجحد الذي اشتُبه به، فتعمّق في التحقيق، فإذا الخبر صحيح، فدعا بالقاتل إلى خيمته فقتله.

ولما سمع كارزنج أحد عظماء الصّغد الذي كان في معسكر المسلمين بقتل الذي قتل المرأة العربية الأسيرة، خاف أن يُقتل كما قُتل أخ له من قَبْل، فأرسل إلى ابن أخيه ليأتيه بسراويل، وكان قد قال لابن أخيه: «إذا طلبتُ سراويل، فاعلمْ أنه القتل»، فبعث به إليه، وخرج يعترض الناس، فقتل عدداً منهم، مما أدّى إلى تضعضع العسكر الذين لقوا منه شرّاً، فانتهى إلى مَن قتله وأنقذ المسلمين من شرِّه.

وقتل الصُّغْدُ أسرى عندهم من المسلمين يقدّر عددهم بمئة وخمسين رجلًا، فأُخبر الحَرَشِيّ بذلك، فسأل فرأى الخبر صحيحاً، فأمر بقتلهم بعد عزل التجّار عنهم لأنهم غير محاربين، فقاتلهم الصُّغْد بالخشب لأنهم كانوا بلا سلاح، فقُتلوا عن آخرهم، وكانوا ثلاثة آلاف، وقيل: سبعة آلاف، واصطفى أموال الصُّغد وذراريهم، وأخذ منها ما أعجبه.

وكتب الحَرَشِيّ إلى يزيد بن عبد الملك مباشرة ولم يكتب إلى عمر بن هُبَيْرَة، فكان هذا مما أوغر صدره عليه.

وسرّح الحرشِيّ سليمان بن أبي الشَرِيّ مولى بني عُوافة بن سَعْد بن زَيْد مناة بن تَميم[1] إلى حصن يحيط به وادي الصُّغد إلّا من وجه واحد، فسيّر سليمان على مقدمته المُسَيّب بن بِشْر الرياحِيّ، فتلقّوه على فرسخ من الحصن، فهزمهم حتى ردّهم إلى حصنهم، فحصرهم في داخل الحصن،

(١) جمهرة أنساب العرب (٢١٥).

فطلب قائد الحصن أن ينزل على حكم الحَرَشِيّ، فسيّره سليمان إليه، فأكرمه، وطلب أهل الحصن الصلح على ألّا يتعرّض لنسائهم وذراريهم ويُسْلِمون القلعةِ، فبعث مَنْ قبضه، وباعوه وقسموه.

وسار الحَرَشِيّ إلى (كَشّ)[1]، فصالحه أهلها على عشرة آلاف رأس وقيل ستة آلاف كل رأس منهم يعطي الجزية للمسلمين.

وسار إلى «زَرَنْج»[2]، فوافاه كتاب ابن هُبَيْرَة بإطلاق سراح قائد الحصن الذي طلب أن ينزل على حكم الحَرَشي، ويدعى: ديوشتي، فقتله الحرشِيّ وصلبه!

واستعمل الحَرَشِي سليمان بن أبي الشّريّ على (كَشّ) و (نَسَف)[3]: حربها وخراجها، وكانت (خُزار)[4] منيعة حصينة، فبعث المُسَرْبَل بن الخِرِّيت النّاجي، وكان صديقاً لملكها الذي يدعي: سُبُغْرِي، فأخبر الملك بما صنع الحَرَشِيّ بأهل (خُجَنْدَة) وخوّفه، فقال الملك: «فما تَرى!»، قال: «أن تنزل بأمان»، قال: «فما أصنع بَمن لحق بي؟!»، قال: «تجعلهم في أمانك»، فأمنوه وبلاده، ورجع الحَرَشِيّ إلى خُراسان ومعه سُبُغْري، فقُتل سبغري وصُلب ومعه الأمان[5].

ولا ينكر أنّ الترك والصّغد نقضوا عدّة مرات دون مسوِّغ، وكبّدوا الدولة الإسلامية خسائر فادحة في الأرواح والأموال والجهد، ومنعوا ما عليهم من خراج وجِزْية، ولكنّ ذلك لا يسوِّغ غدر الحرشِيّ بمن أعطاهم الأمان، ولا ينكث بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه، لأنّ من أوّل

(١) كش: قرية على ثلاثة فراسخ من جُرْجان، انظر معجم البلدان (٧/ ٢٥٤).
(٢) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٨٥).
(٣) نسف: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٨٦).
(٤) خزار: موضع بقرب نسف.
(٥) انظر التفاصيل في: الطبري (٧/ ٧ ـ ١٢) وابن الأثير (٥/ ١٠٧ ـ ١١٠).

نتائج الغدر زعزعة الثقة بين الحكام والمحكومين، إضافة إلى أنّ الغدر يناقض تعاليم الإسلام في القتال.

ولكن، لعلّ له عذراً فيما فعل، وسيرد تفصيل ذلك في سيرته إنساناً وقائداً.

٢ ـ في ميدان إرمينية:

في سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م) قُتِل الجرَّاحُ بن عبد الله الحَكَمِيّ في (إرمينية).

ولما بلغ هُشام بن عبد الملك خبر استشهاد الجرَّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ، دعا سعيداً الحَرَشِيّ، فقال له: «بلغني أنَّ الجرَّاح قد انحاز عن المشركين!»، قال: «كلّا يا أمير المؤمنين! الجرّاح أعرف بالله من أن ينهزم، ولكنه قُتِل». قال: «فما رأيك؟»، قال: «تبعثني على أربعين دابّة من دوّاب البريد، ثم تبعث إليّ كلّ يوم أربعين رجلًا، ثمّ اكتبْ إلى أُمراء الأجناد يوافوني»، ففعل ذلك هُشام[1]، وولّاه مقدمة مَسْلمة بن عبد الملك[2] الذي استعمله على أرمينية وأَذْرَبِيْجان[3].

وسار الحَرَشِيّ، فكان لا يمرّ بمدينة إلّا ويستنهض أهلها، فيجيبه مَنْ يريد الجهاد.

ووصل إلى مدينة (أَرْزَن)[4]، فلقيه جماعة من أصحاب الجرّاح وبكوا وبكى لبكائهم، ففرّق بينهم نفقةً وردّهم معه.

---

(١) ابن الأيثر (٥/١٥٩ ـ ١٦٠) وانظر الطبري (٧/٧٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٦٥).

(٢) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٣) فتوح البلدان (٢٩٠).

(٤) أَرزن: مدينة مشهورة قرب خِلاط ولها قلعة حصينة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٩٠ ـ ١٩١).

ووصل على رأس المقدمة إلى (خِلاط) وهي ممتنعة عليه، فحصرها وفتحها وقسم غنائمها في أصحابه.

وسار عن (خِلاط)، وفتح الحصون والقِلاع شيئاً بعد شيءٍ، إلى أن وصل إلى (بَرْذَعَة)، فنزلها.

وكان ابن خاقان يومئذ بأذربِيجان يُغير وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصر مدينة (وَرْثان) فخاف الحَرَشِيّ أن يملكها، فأرسل بعض أصحابه إلى أهل (وَرْثَان) سرّاً يعرِّفهم بوصولهم ويأمرهم بالصبر؛ فسار الرسول، ولقيه بعض الخَزَر، فأخذوه وسألوه عن حاله، فأخبرهم وصدقهم، وقال الخَزَر له: إن فعلتَ ما نأمرك به أحسنّا إليك وأطلقناك، وإلّا قتلناك. قال: «فما الذي تريدون؟!»، قالوا: تقول لأهل (وَرْثَان) إنكم ليس لكم مدد، ولا مَنْ يكشف مابكم، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا. . . . فأجابهم إلى ذلك.

وقارب الرجُل المسلمُ المدينةَ، فوقف بحيث يسمع أهلها كلامه، والخَزَر يترصدونه ويسمعون كلامه، فقال لأهل (وُرْثَان): «أتعرفوني؟» قالوا: نعم، أنت فلان! قال: «فإن الحَرَشِيّ قد وصل إلى مكان كذا في عساكر كثيرة، وهو يأمركم بحفظ البلد والصّبر، وفي هذين اليومين يصل إليكم»، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل.

وقتلت الخَزَر ذلك الرَّجل، ثم رحلوا عن مدينة (وَرْثَان)، فوصلها الحرشيّ في العساكر وليس عندها أحد.

وارتحل الحَرَشِيّ يطلب الخَزَر إلى (أَرْدَبِيْل)، فسار الخزر عنها.

ونزل الحَرَشِيّ (باجَرْوَان)، فجاءه مَن يخبره بأنّ الخزر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أُسارى أو سبايا وقد نزلوا على بُعْد أربعة فراسخ من مكانه الذي هو فيه.

وسار الحَرَشِيّ ليلًا، فوافاهم آخر الليل وهم نيام، ففرّق أصحابه من أربع جهات، وكبس الخزرَ مع الفجر، فوضع المسلمون فيهم السّيفَ، فما

بزغت الشمس حتى أبادهم المسلمون. وأطلق الحَرَشِيّ مَن كان مع الخزر من المسلمين، وأخذهم معه إلى (باجَرْوان).

ولم يكد يستقرّ به المقام في (باجَرْوَان) إلاّ وأتاه من يخبره بأنّ الخزر ومعهم أموال المسلمين وحُرَم الجرَّاح وأولاده في مكان قريب.

وأسرع الحَرَشِيّ إلى هدف الجديد، فلم يشعر الخزر إلّا والمسلمون معهم، فوضعوا فيهم السَّيف وقَتَلوا كيف شاءوا، ولم يفلت من الخَزَر إلّا الشَّريد، واستنفدوا مَنْ معهم من المسلمين والمسلمات، وغنموا أموالهم، وأخذوا أولاد الجرّاح وحُرَمه وأكرموهم وأحسنوا إليهم، وحملوا الجميع إلى (باجَرْوان).

وبلغ ما فعله الحَرَشِيُّ بعساكر الخَزَر ابنَ ملكهم، فوبّخ عساكره وذمّهم ونسبهم إلى العجز والوَهَن، فحرّض بعضهم بعضاً، وأشاروا عليه بجمع أصحابه والعود إلى قتال المسلمين.

وجمع ابن ملك الخزر أصحابه من نواحي أذربيجان، فاجتمع معه عساكر كثيرة.

وسار الحَرَشي إلى جموع الخزر، فالتقى المسلمون بالخزر في أرض (بَرْزَنْد)، فنشب القتال بين الجانبين بشدّة وعنف. وانحاز المسلمون وقتاً يسيراً، وتصدّعت أركان صفوفهم، ولكنّ الحَرَشِيّ حرّضهم وأمرهم بالصبر، فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة.

واستغاث مَنْ مع الخَزَر من أسارى المسلمين، ونادوا بالتكبير والتهليل والدُّعاء، فتصاعد استقتال المسلمين، ولم يبق أحد إلّا وبكى رحمة للأسرى.

واشتدّت حملة المسلمين على الخَزَر، فولّوا الأدبار منهزمين، فطاردهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر (الرَّسّ)، ثم عادوا عنهم بعد أن أطلقوا أسرى المسلمين وسباياهم، وغنموا أموال الخزر، ورجعوا إلى (باجَرْوان).

وجمع ابن ملك الخزر مَن لحق به من عساكره، وعاد بهم إلى الحَرَشِيّ، فنزل على نهر (البَيْلَقَان)، فالتقوا هناك.

وحمل المسلمون على الخزر حملة صادقة، في منطقة نهر (البَيْلَقَان)، فتضعضعت صفوف الخزر. وتتابعت حملات المسلمين، فصبَر الخزر صبراً عظيماً، ثم كانت الهزيمة عليهم، فولّوا الأدبار منهزمين، وكان من غرق منهم في النهر أكثر ممن قُتِل.

وجمع الحَرَشِيّ الغنائم، وعاد إلى (باجَرْوَان) فقسمها[1].

وقدم مَسْلَمَة بن عبد الملك إرمينية، والخزر قد انسحبوا إلى (مِيْمَذ)، والحَرَشِيّ يتهيّأ لقتالهم، فأتاه كتاب مَسْلَمَة يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه، ويعلمه أنه قد عزله وولّى قيادة عسكره غيره. وسلّم سعيدُ الحَرَشِيّ القيادةَ، فأخذه رسول مَسْلَمَة وقيّده وحبسه في سجن (بَرْذَعَة). وكتب مَسْلَمَة إلى هُشام بن عبد الملك في (دمشق) بما حدث، فكتب هشام إلى مَسْلَمَة:

أتتركهم بِمَيْمَذ قد تراهم ... وتطلبهم بمنقطع التراب!!

وأمر هشام بإطلاق سراح سعيد الحَرَشِيّ من السجن[2]، فعاد إلى دمشق[3].

لقد كان واجب الحَرَشِيّ في هذه الغزوة واضحاً جليّاً: استنقاذ أسرى المسلمين وسباياهم، واستعادة فتح المناطق التي احتلها الخزر بعد استشهاد الجَرّاح بن عبد الله الحكَمِيّ[4]، وتلقين الخزر درساً لا ينسونه أبداً لنقضهم العهد وأسر كثير من المسلمين وسبي ذريّتهم وقتل كثير منهم.

وكان الحَرَشِيّ موفّقاً غاية التوفيق في أداء واجبه على أحسن وجه،

---

(١) ابن الأثير (٥/١٥٩ - ١٦٢).
(٢) فتوح البلدان (٢٩٠).
(٣) ابن الأثير: (٥/١٦٢).
(٤) ابن الأثير (٥/١٦٢).

فانطلق على دواب البريد - وهي أسرع واسطة للنقل في حينه - بسرعة خاطفة، واستهدف أنقاذ أسرى المسلمين وسباياهم أولًا، فكان يستنقذهم بالقتال فوراً بعد معرفة أماكنهم، ومع ذلك لم يقصِّر في استعادة فتح المناطق المحتلة من الخزر، وتلقينهم دروساً قاسية في القتال كبّدتهم خسائر فادحة في الأموال والأنفس والمعنويات، وألحقت بهم هزائم شنيعة.

فما كان ينبغي لمَسْلَمة أن يلوم الحَرَشِيّ ويقيِّده ويحبسه ويعزله عن قيادته لأنه قاتل الخزر قبل قدومه، فواجب الحَرَشِيّ أن يستنقذ الأسرى والسبايا بسرعة قبل أن يُقضى عليهم وينقذهم من الذل والهوان الذي لم يعتاده المسلمون وقتذاك، ويعيدهم إلى دار الإسلام أحراراً، وكان ينبغي لمسلمة أن يشكر الحَرَشِيّ كما فعل هشام(1).

ومثل هذا الواجب، يقتضي السرعة الخاطفة والاندفاع الجريء، لا التريث والانتظار.

لقد كانت هذه الغزوة من أروع أعمال الحَرَشِيّ القتاليّة. فقد جاء إرمينية والمسلمون فيها أسرى وسبايا، فأعاد إليهم حريتهم وكرامتهم. وجاءها وهي تحت سيطرة الخزر، فاستعاد فتحها؛ وكان الميزان العسكري إلى جانب أعداء المسلمين، فجعل هذا الميزان إلى جانب المسلمين، وكان الخزر هم الذين يقتلون المسلمين ويأسرونهم، فأصبح المسلمون هم الذين يأسرون الخزر ويأسرونهم، وكان المسلمون يخافون الخزر، فأصبح الخزر يخافون المسلمين؛ وكانت مدن المسلمين محتلة أو محاصَرة، فأصبحت مدن الخزر مفتوحة أو محاصَرة.

لقد قلب الحَرَشِيّ خلال وقتٍ قصير جداً الموازين رأساً على عقب في إرمينية لصالح المسلمين.

---

(1) ابن الأثير (٥/ ١٦٢).

الإنسان:

كتبَ عمرُ بن هُبَيْرة الذي كان على العراق إلى يزيد بن عبد الملك، بأسماء مَنْ أبلى يوم (العَقْر) ولم يذكر سعيداً الحَرَشِيّ، فقال يزيد: «لِمَ لم يذكر الحَرَشِيّ؟»، فكتب إلى هُبَيْرَة: «وَلِّ الحَرَشِيّ خُراسان»، فولّاه[1].

وكان موقف الحَرَشِيّ قبل يوم (العَقْر) قائداً مرءوساً، وفي أثناء المعركة موقفاً بطولياً مشهوداً، لم يخف عن الخليفة يزيد بن عبد الملك وهو في عاصمته دمشق، ولا يمكن أن يخفى على أحد من الحكّام والمحكومين ومنهم ابن هُبَيْرة، ولكنه لم يذكر اسمه في قائمة الشرف لعداوة ابن هُبَيْرة إياه، فلما قرأ يزيد أسماء أصحاب البلاء تساءل: «أين الحَرَشِيّ؟!... فوالله ما كان الفتح إلّا على يديه، وما قتل المرتدين غيره»، ويريد بالمرتدين الذي ثاروا على الدولة بقيادة يزيد بن المُهَلَّب، فكتب إلى ابن هُبَيْرَة: «أن ولِّهِ خُراسان»، فولّاه ثغرها، وذلك في سنة ثلاث ومئة الهجرية[2].

وكان الحَرَشِيّ عند حسن ظنِّ يزيد بن عبد الملك به، فقد أعاد الأمن إلى ربوع خُراسان، وقتل الذين نقضوا عن آخرهم وسبى ذراريهم[3].

فلماذا كان ابن هُبَيْرة يناصب العداء للحِرَشِيّ؟

لقد بنى الحَرَشِيّ سمعته الطيِّبة على كفاياته الشخصية لا على حسبه ونسبه، فقد كان في أول أيامه فقيراً مُعْدَماً[4]، وإنما تقدّم بإخلاصه وشجاعته ودينه[5]، فكان يعمل بإبداعه الذاتي خضوعاً للمصلحة العامة دون أن ينتظر توجيهات السلطة التي يرتبط بها وينفِّذ أوامرها ملتزماً بتلك

---

(١) الطبري (٦/ ٦٢٠) وابن الأثير (٥/ ١٠٣).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥).
(٣) تاريخ خليفة بن خيّاط (١/ ٣٣٦).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٦/ ١٦٤).
(٥) ابن الأثير (٥/ ١٠٨).

التوجيهات والأوامر التزاماً صارماً، فقد لا تصله توجيهات السلطة التي يرتبط بها مباشرة، أو قد تأتي متأخِّرة فيذهب نفعها وتفقد أهميتها، مما يلحق الضرر بالمصلحة العامة دون مسوِّغ.

كما أنه (يرى) الأحداث بعينيه، فهو (حاضر) في جوِّ الأحداث، بينما السلطة التي يرتبط بها مباشرة (تسمع) عن تلك الأحداث بأذنيها، فهي (غائبة) عن جوِّ الأحداث، وليس مَنْ (رأى) كمن (سمع)، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب.

والولاة والقادة صنفان في كلِّ زمان ومكان: صنف (متّبِع) ينتظر الأوامر فينفِّذها حرفياً والتوجيهات فيطبِّقها نصّاً، وأغلب هذا الصِّنف تنقصه الكفاية أو لا يحب تحمّل المسئولية ولا يثق بنفسه ثقة كاملة، فهو موظّف حسب. وصنف (مُبْتَدِع) لا ينتظر الأوامر والتوجيهات، لأنه أعرف بالموقف الراهن من غيره، وأغلب هذا الصنف يتميَّز بالكفاية العالية، ويحبّ تحمل المسئولية، ويثق بنفسه ثقة كاملة.

والصنف الأول يريح صاحب السُّلطان ويستريح إليه في أوقات الدّعة و الاطمئنان، ولكنه يتملّص من كلِّ مسئولية في أوقات الخطر والملمات.

والصنف الثاني لا يستريح إليه صاحب السُّلطان في أوقات الدّعة والهدوء، ولكنه يلجأ إليه في أوقات الحروب والمدلهمّات.

وقد كان الحَرَشِيّ من الصنف الثاني، لذلك أثبت وجوده في أيام الشِدَّة والمصائب، وغاب عن الأنظار في أيام اللّهو واللّعب، وربما قضى ردحاً غير قليل من تلك الأيام في غياهب السجون.

والدليل على بغض ابن هُبَيْرَة للحَرَشِيّ، أنه بادر بعزله عن (خُراسان) سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢م)، بعد أن استقرت أمور ابن هُبيرة في العراق من جهة، وبعد أن أعاد الحَرَشِيّ الأمن والسّلام إلى (خُراسان) واستعاد فتحها من جديد.

وكان السبب في عزل الحَرَشِي عن (خُراسان) بعد أن مكث فيها سنة أو بعض سنة في حرب دامية متنقلًا في الجبال والوهاد، معرِّضاً نفسه لأعظم الأخطار، لا يُريح ولا يستريح ولا ينام ولا يُنيم، فلما انتصر على الأعداء ووطّد أكناف البلاد، وآن له أن يستريح قليلًا ويأخذ لنفسه إغفاءة قصيرة، عزله ابن هُبَيْرَة ليغلق نافذة يأتيه الريح المزعج من منافذها، ليولي رجلًا يريحه ولا يزعجه ويطيعه ولا يعصيه.

وكان السبب في عزله، ما كان كتبه ابن هُبَيْرة إلى الحرَشِيّ بإطلاق سراح أحد قادة الصُّغد الذي يدعى (ديوشتى)، فقتله ولم ينفِّذ أمر ابن هُبَيْرَة. كما كان يستخفّ بابن هُبَيْرَة ويذكره بأبي المُثَنّى ولا يقول الأمير، فيقول: قال أبو المثنّى، وفعل أبو المثنّى، فبلغ ذلك ابن هُبَيْرَة، فأرسل إليه جميل بن عِمْران ليعلم حال الحَرَشِيّ، وأظهر أنه ينظر في الدواوين، فلما قَدِم جميلٌ على الحَرَشِيّ قال: «كيف أبو المثنّى؟»، فقيل له: إنّ جميلًا لم يَقْدِم إلّا ليعلم علمك! ومرض جميل مرضاً شديداً وسقط شعرُه[1]. وعولج جميل حتى تماثل للشفاء، فغادر (خُراسان) عائداً إلى ابن هُبَيْرَة في العراق، فقال لابن هُبَيْرَة: «الأمر أعظم مما بلغك... ما يرى الحَرَشِيّ إلّا أنك عامل له»، فغضب وعزله ونفحَ في بطنه النّمل[2] وعذّبه[3].

ومن أسباب عزله، أن ابن هُبَيْرَة وجّه مَعْقِل بن عُرْوَة إلى (هَرا)[4]، إما عاملًا وإما في غير ذلك من أموره، فنزل قبل أن يمرّ على الحَرَشِيّ. وكتب الحَرَشِيّ إلى عامله على (هَراة) يأمره أن يحمل مَعْقَلًا إليه، فقال له

---

(١) قيل: إن الحرشيّ بعث لجميل بطيخة مسمومة، فأكلها ومرض وسقط شعره، انظر ابن الأثير (٥/ ١١٥)، ولا يمكن أن تصدّق هذه التهمة، فقد كان الحرشيّ متديناً، لا يقدم على مثل هذا الأمر وهو أرفع من ذلك.

(٢) النمل هنا: بثور صغار مع ورم صغير.

(٣) الطبري (٧/ ١٥ ـ ١٧) وابن الأثير (٥/ ١١٥).

(٤) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خُراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، وهي من أهم مدن أفغانستان حالياً.

الحَرَشِيّ: «ما منعك من إتياني قبل أن تأتي هَراة؟»، فقال: «أنا عامل لابن هُبَيْرَة، ولّاني كما ولّاك»، فضربه مئتي جلدة وحَلَّقه[1]. وكتب ابن هُبَيْرة إلى الحَرَشِيّ يُلَخِّنه، فقال: «بل هو ابن اللَّخناء»[2].

ولا شكّ في أنّ للحَرَشِيّ أسبابه الوجيهة التي جعلته يقف مثل هذه المواقف من ابن هُبيرة، فلم يكن الرجل غِرّاً ولا متّهماً في عقله، ليقف مثل هذه المواقف الجريئة دون مسوِّغ.

وقد سكت المؤرخون عن أسباب موقف الحَرَشِيّ، ولكن يستطيع كلّ مَنْ يدرس شخصيته أن يبوح بتلك الأسباب.

ويبدو أنّ الحَرَشِيّ قتل أحد قادة الصُّغد بعد أن أكرمه وأحسن وفادته، لأنه اكتشف أن هذا القائد الصُّغديّ قد لوّث يديه بدماء المسلمين واعتدى على حرماتهم، ومن المعروف أن الحَرَشِيّ أجرى تحقيقاً شاملًا دقيقاً لمعرفة الذين اعتدوا على أرواح المسلمين وأعراضهم، فنال المجرمون الصُّغد ما يستحقّونه من عقاب.

ومن المحتمل أن يكون هذا القائد الصُّغدي أحد أولئك المجرمين، فقتله الحَرَشِيّ مجرماً لا سياسيّاً أو أسيراً.

أما أن الحَرشيّ يذكر ابن هُبَيْرَة بأبي المثنّى ولا يقول الأمير، فهو يرى نفسه نداً لابن هُبَيْرَة، فقد ولّاه الخليفة على خُراسان ولم يولِّه ابن هُبَيْرَة، ونال هذا المنصب بجهده وعرقه وجهاده لا بوسائل أخرى.

أما عقاب الحَرَشِيّ لمَعْقِل فكان شديداً حقّاً، ولكن لم يكن هذا العقاب بلا مسوِّغ، وبخاصة أنّ القلاقل والفتن في خُراسان، كانت تتطلّب استعادة هيبة الحكم فيها قوياً مُهَاباً، ولا يتمّ ذلك إلّا بفرض السيطرة الكاملة.

---

(١) حلّقه: وسمه بحلقة في فخذه.

(٢) الطبري (٧/١٦).

وأحسب أنّ الحَرَشِيّ كان منطقياً مع نفسه حصيفاً غير متهوّر، وكانت له أسبابه المنطقية في مخالفته، ولكنّ السلطات العليا لا ترضى من السلطات المرءوسة غير الطّاعة العمياء التي كان الحَرَشِيّ يعتبرها نوعاً من النفاق والاستخذاء.

وقد كان لسلفه على خُراسان عمال اختارهم ليعاونوه في تحمل أعباء مهمّته، فلما قدم الحَرَشِيّ خُراسان لم يعرض لعمّال سلفه[1]، بل تركهم على ما كانوا عليه، مما يدلّ على أنه لم يأت منتقماً ولا كان من الذين يعملون لمصلحتهم الذاتية، بل كان رجل دولة يعمل للمصلحة العامة وحدها.

وقد سجن الحَرَشِيّ وعُذّب عذاباً أليماً، وتولى أمر تعذيبه حتى الموت مَعْقِل بن عُرْوة الذي كان الحَرَشِيّ قد سجنه في خُراسان وضربه مئتي سوط كما ذكرنا، فقد أمر ابن هبيرة عامله الجديد على خُراسان أن يحمل إليه الحَرَشِيّ مع مَعْقِل بن عُرْوة، فأساء معقل بالحرشيّ وضيّق عليه. وفي يوم من الأيام أمر ابن هبيرة معقِلًا أن يعذّب الحَرَشِيّ ويقتله بالعذاب الأليم. وجاء المساء فسمر ابن هُبَيْرَة مع الصّفوة من خلّانه، فقال: «مَنْ سيِّد قيس؟»، فقالوا: الأمير. قال: «دعوا هذا! سيِّد قيس الكوثَر بن زُفَر، لو بوّقَ بليلٍ لوافاه عشرون ألفاً لا يسألونه: لِمَ دعوتنا ولا يسألونه. وهذا الحمار الذي في الحبس ـ يريد الحَرَشِيّ ـ قد أمرتُ بقتله فارسُها، وأما خير قيس لها، فعسى أن أكونه. إنه لم يعرض إليّ أمرٌ أرى أني أقدر فيه على منفعة وخير إلّا جررته إليهم»، فقال أعرابيّ من فَزارة: «ما أنتَ كما تقول! لو كنت كذلك ما أمرتَ بقتل فارسها»، فأرسل ابن هُبيرة إلى معقِل: «أن كُفّ عمّا كنتُ أمرتك به»[2].

---

(١) ابن الأثير (٥/١٠٣).

(٢) الطبري: (٧/١٦) وابن الأثير (٥/١١٥ ـ ١١٦).

ودار الزّمن دورته، فمات يزيد بن عبد الملك وتولّى هُشام بن عبد الملك سنة خمس ومئة الهجرية (٧٢٣م)، فعزل هشام ابنَ هُبَيْرة عن العراق واستعمل خالد بن عبد الله القَسرِيّ[١]، فبادر خالد بعد وصوله إلى العراق بإطلاق سراح الحَرَشِيّ من السجن بعد أن مكث فيه سنة وشهوراً. وهرب ابن هُبَيْرة من العراق لا يلوي على شيء يريد النجاة بنفسه شريداً طريداً متخفياً، فأرسل خالدُ في طلبه الحَرَشِيّ، فلحقه بموضع من الفُرات يقطعه إلى الجانب الآخر في سفينة، وكان في صدر السَّفينة غلام يقال له: قُبَيْض. وعرف الحَرَشِيّ ذلك الغلام، فقال له: «قُبَيْض؟» قال: «نعم»، فقال: «أفي السفينة أبو المثنى؟!»، قال: «نعم». وخرج إليه ابن هبيرة فقال له الحرشي: «أبا المثنّى! ما ظنّك بي؟!»، قال: «ظني بك أنك لا تدفع رجلًا من قومك إلى رجل من قريش!» قال: «هو ذاك»، قال: «النّجاء»[٢]، وهذا دليل آخر على أن الحَرَشِيّ غير منتقم ولا حاقد، ولو أنه دليل على عصبيّة الحرشَيّ القبليّة، وكان تصرّف الحرشيّ تصرّف الذي يعفو عن مقدرة لا عن ضعف.

وكما كان ابن هُبَيْرَة يكره الحَرَشِيّ لأنه كان (مبتدعاً) لا (متّبعاً)، فقد كان مَسْلمة بن عبد الملك يكره الحرشِي للسبب عينه[٣]. فقد اندفع الحَرَشِيّ في قيادة خيل مسلمة وصد مقدّمة يزيد بن المهلّب دون استشارة مسلمة والرجوع إليه، كما برز بروزاً هائلًا في معركة (العَقْر) فلفت إليه الأنظار.

وكما طبّق الحَرَشِيّ في معركة (العَقْر) ما أملاه عليه الموقف العسكريّ

---

(١) الطبري (٧/ ٢٦) وابن الأثير (٥/ ١٢٤).

(٢) الطبري (٧/ ١٧) وابن الأثير (٥/ ١١٦)، وابن هبيرة والحَرَشِيّ من قَيسْ عَيْلان بن مُضَر بن نِزار بن معَدّ بن عدنان، انظر نسب ابن هبيرة في: جمهرة أنساب العرب (٢٥٥).

(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦٤).

الرّاهن، طبّق في غزوة إرمينيّة حين كان على مقدمة مَسْلَمَة الأسلوب الذي طبّقه في معركة (العَقْر)، فلامه مَسْلمة على قتاله الخَزَر قبل قدومه، وعزله عن قيادته وقيّده وسجنه في سجن (بَرْذَعة)، فأنّب هُشامُ بن عبد الملك مسلمة على ما فعل في حبس الحَرَشِيّ والتخلّي عن تنفيذ خطّته في قتال الخزر، وأمر بإطلاق سراحه[1].

وهكذا يكون جزاء (المبتدع)، ليس بالنسبة للحَرَشِيِّ، بل لكل من يبتدع ولا يتّبع: الحقد والتنكيل بالمبتدع، والسّلامة والمستقبل للمتّبع.

وهذه القّاعدة تسري على (المبتدع) و (المتّبع) في كلِّ زمان ومكان؛ الغُرم دوماً للمبتدع، والغُنم دوماً للمتّبع، وقلّما يُفلح (المبتدع) إلّا إذا تولّى المبتدع السُّلطات العليا وكان غير مسئول أمام أحد، وقلّما يخفق (المتّبع) إذا عمل بالأمرة في الظل ولم يتولّ السّلطات العليا.

وهنا أرى أن نتوقّف قليلًا، لإنصاف الحَرَشِيّ من اتهامه بأنه نقض العهد في حرب الصُّغد وحرب الخزر، فقتل أشخاصاً أو جماعات بعد أن أعطاهم الأمان.

وقد كان الحَرَشِيّ معروفاً بتدينه[2]، كما كان معروفاً برأيه السديد[3]، وقد قتل القاتل بجريمته، وقتل أحد قادة الصُّغد الذي اعترض الناس فقتل ناساً، وكان في أيدي الصُّغد أسراء من المسلمين، فقتلوا منهم خمسين ومئة، ويقال: قتلوا منهم أربعين، فأمر الحرشيّ بقتل المجرمين[4].

وأثّر قَصاص الحَرَشِيّ في الخارجين على الدولة من أهل خُراسان بعامة وفي الصُّغد وهم رأس الفتنة بخاصة، فقال الرَّاجز:

---

(١) فتوح البلدان (٢٩٠).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٠٤) و (٥/١٠٨).
(٣) الطبري (٧/ ٨).
(٤) الطبري (٧/ ٩ ـ ١٠).

إذا سَعِيدٌ سار في الأخماس ... في رَهَج يأخُذُ بالأنفاس
دارت على التُّرْكِ أمَرُّ الكاسي ... وطارت التُّركُ على الأحلاس
ولَّوْا فِراراً عُطِّلَ القِياس[1]

لقد قدم الحَرَشِيّ خُراسان فكان المسلمون بإزاء العدو، وكانوا قد نُكبوا[2]، وكان كثير من المسلمين أسرى وكثير من نسائهم سبايا، فأعاد الأمن والنظام خلال أشهر معدودات إلى ربوع خُراسان، وعادت للدولة هيبتها وللسُّلطة مركزها، ولا مراء في أنّ من أهم الأسباب استعادته الأمن والاستقرار بعد الخوف والفوضى يعود إلى أخذ المسيئ وإنزال العقاب به، فكان القصاص الذي نزل بأفراد وجماعات من الصُّغد باعتبارهم مجرمي حرب، عُوقبوا على ما جنت أيديهم من جرائم، والأمان الذي قطعه الحَرَشِيّ على نفسه لهم أفراداً وجماعات هو على جريمة. انتقاضهم على الدولة وحملهم السِّلاح عليها، لا على الجرائم التي ارتكبوها في أيام انتقاضهم قتلًا للمسلمين وانتهاكاً لحرماتهم.

وما يقال عن التزام الحَرَشِيّ بالضبّط المتين ومعاقبة مجرمي الحرب من حرب الصُّغد، يقال عنه أيضاً في حرب الخَزَر، فقد نفّذ العهود والمواثيق بالنسبة لغير المجرمين، أما المجرمون فلم يسكت عنهم وأنزل بهم القصاص العادل كمجرمين لا كمعاهدين.

تولّى (البَصْرَة) شهوراً من سنة ثلاث ومئة الهجرية[3] (٧٢١م) لابن هُبَيْرَة، ثم تولّى خُراسان في هذه السنة لابن هُبَيْرَة[4] أيضاً، وعزل عن خُراسان سنة أربع ومئة الهجرية[5] (٧٢٢م)، وتولّى إرمينية وكيلًا لمَسْلَمَة بن عبد الملك سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م)، وعُزل في هذه السنة.

---

(١) الطبري (٧/ ١٢).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٠٣).
(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٤١) وانظر الطبري (٧/ ١٧).
(٤) الطبري (٦/ ٦٢٠: و (٧/ ١٧).
(٥) الطبري (٧/ ١٥).

وقد عمل بإمرة ابن هُبيرة في ولايته وخُراسان، وبإمرة مَسْلَمَة بن عبد الملك في إرمينية، وكان الأميران اللّذان عمل الحَرَشَيّ بإمرتهما يبغضانه[١]، لأنه كان (مبتدعاً) يعمل بوحي كفايته وخبرته، ولا يستوحي ما يعمله من اللذين عمل بإمرتهما، فكلّل الأميران جهود الحَرَشِيّ المظفّرة بالحبس والتنكيل.

وأحسب أن الحَرَشِيّ لم يخالف ابن هُبيرة ومَسْلَمَة لمجرّد رغبته في المخالفة حبّاً بإظهار نفسه وقوّته، بل لأن عامل الوقت كان عاملًا حاسماً يقضي عليه بالمخالفة، فلو أنه انتظر حتى يقدم مَسْلمة إرمينية لتبدّل الموقف العسكري لصالح الخزر، كما أنه خالف ابن هُبَيْرَة في قتل أحد رجالات الصُّغد، لأنه ثبت عليه إجرامهُ بشكل لا يقبل الشّك، والحقّ أحق أن يُتَّبع، وكل شيءٍ في سبيله يهون.

وقد علمنا أنّ الحَرَشِيّ يتحلّى بالضبط المتين، فحري بمثله ألّا يخالف مرجعه الأعلى الذي يعمل بإمرته إلّا لضرورة قصوى، لأنه إذا أباح لنفسه مخالفة رئيسه، فقد أتاح لغيره أن يخالفه، فإذا شاع الخلاف عمّت الفوضى، والحَرَشِيّ ليس من دعاتها بل من أعدائها الأشدّاء.

ولعلّ ما يدلّ على مبلغ حرصه في توقير الذين يعملون بإمرتهم، أن الحَرَشَيّ حين قدم خُراسان والياً، أمر أحد رجاله أن يقرأ عهده على الناس، والعهد هنا المرسوم الذي كتبه عمر بن هُبَيْرة للحَرَشِيّ في توليته على خُراسان. وقرأ الرجل العهد فلحن فيه، فقال الحَرَشِيّ: «مهما سمعتم فهو من الكاتب والأمير بريء منه»[٢]، أي بريء مما تسمعون من هذا اللّحن[٣]، وهذا دليل على توقير الحَرَشِيّ لأميره المباشر، وأنه بعيد عن الاستهانة بالأمير الذي يعمل بإمرته المباشرة.

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦٤).

(٢) فتوح البلدان (٦٠١) وابن الأثير (٥/ ١٠٣).

(٣) فتوح البلدان (٦٠١).

ولعلّ نقطة الضعف في الحَرَشِيّ هي حبه الشديد للمال، فالذي يبدو أنه كان يحبّ هذا المال حبّاً جمّاً، فأوقعه هذا الحبّ في مأزق لا يمكن السكوت عنه أو نكرانه أو محاولة الدفاع عنهُ، فيما إذا صحّ أنه جمع المال لمصلحته الشخصية وثبت اتّهامه بذلك.

ففي معركة الصُّغد سنة أربع ومئة، اصطفى أموال الصُّغد وذراريهم، وأخذ منها ما أعجبه، ثم دعا مُسْلِمْ بن بُدَيْل العَدَوِيّ: عَدِيّ الرّباب، فقال: «ولّيتك المقسَم»، فقال: «بعدما عمل فيه عمّالك ليلةً!! ولِّهِ غيري!»، فولاه عُبَيْد الله بن زُهير بن حيّان العَدَوِيّ، فأخرج الخُمْسَ، وقسّم الأموال. وكتب الحَرَشِيّ إلى يزيد بن عبد الملك، ولم يكتب إلى عمر بن هُبَيَرة، فكان هذا مما وجَد فيه عليه عمر بن هبيرة[1].

ولما حبس ابنُ هُبَيْرَة الحَرَشِيّ اتهمه بالخيانة[2] في الأصول، فلما عُذِّب في السِّجن أدّى[3] الذي عليه.

ولكنّ الحَرَشِيّ عذِّب عذاباً شديداً، فقال كُليب بن أُذَيْنَة:

تصبَّر أبا يَحْيَى فقد كنت ـ علمنا صبوراً ونهّاضاً بثقل المغارم

وقد أمر ابنُ هُبَيْرة يوماً المشرف على تعذيب الحَرَشِيّ أن يعذِّبه إلى أن يقتله في العذاب[4].

ورأى أنّ مجرّد اتِّهام الحَرَشِيّ من ابن هُبَيْرَة لا يكفي لتصديقه، فقد كان ابن هُبيرة حاقداً أشدّ الحقد على الحرشِيّ وكان يبغضه بغضاً شديداً، فلا يمكن أن نصدِّق تهمة حاقد مبغض.

ولو أن الحرشِيّ خان في المال، لما نال العطف الإجماعي على

---

(١) الطبري (٧/ ١٠) وابن الأثير (٥/ ١٠٩).
(٢) الطبري (٧/ ١٩).
(٣) الطبري (٧/ ١٦).
(٤) الطبري (٧/ ١٦).

حبسه وتعذيبه، ولما أُطلق سراحه بعد ذلك، وأصبح موضع ثقة الخليفة هُشام بن عبد الملك، فولّاه قيادة مقدمة مسلمة بن عبد الملك في إرمينية، وكان يستشيره وينفّذ مشورته.

والظّاهر أنّ الحَرَشِيّ تألّف بعض سادات العرب وقادة خُراسان بالمال، ليكونوا له عَوْناً في حربه وسلمه، وليقطع دابراً الشّغب على الدولة، فعلم بذلك ابن هُبَيْرة، وأرسل رجلين من رجاله إلى الحَرَشِيّ يأمره أن يدفع أولئك المنتفعين بالمال الحكوميّ إليها ليستعيدا منهم ما في ذمّتهم من الأموال إلى بيت المال، فأبى الحَرَشِيّ أن يفعل. ولما قَدِم خليفةُ الحَرَشِيّ الذي ولّاه ابن هُبيرة خُراسان بعد عزل الحَرَشِيّ عن خُراسان، أراد أخذ الناس بتلك الأموال التي فُرّقت عليهم، فقيل له: إن فعلتَ هذا بهؤلاء لم يكن لك بخُراسان قرار، وإن لم تعمل على وضع تلك الأموال عنهم فسدت عليك وعليهم خُراسان، لأن هؤلاء الذين تريد أن تأخذهم بهذه الأموال أعيان البلد. وكتب والي خُراسان الذي خلف الحَرَشِيّ عليها وهو مُسْلِم بن سعيد بن أَسْلَم بن زُرْعَة الكِلابيّ بذلك إلى ابن هُبَيْرَة، وأوفد وفداً فيهم مِهْزَم بن جابِر - أحد رجالات العرب في خُراسان، فقال له: «أيّها الأمير! إنّ الذي رُفع إليك الظلمُ والباطلُ، ما علينا من هذا كله لو صدق إلّا القليل الذي لو أُخذنا به أدّيناه»، فقال ابن هُبَيْرَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[1]، فقال مِهْزَم: «اقرأ ما ما بعدها: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾[2]، فقال ابن هُبَيْرَة: «لا بدَّ من هذا المال»، فقال مِهْزَم: «أما والله لئن أخذته لتأخذنّه من قوم شديدة شوكتهم ونكايتهم في عدوّك، وليضرنّ ذلك بأهل خُراسان في عُدَّتهم وكُراعهم وحَلْقَتهم، ونحن ثغر نُكابد فيه عدوّاً لا ينقضي حربهم. إنَّ أحدنا ليلبس الحديد حتى يخلص صدؤه إلى جلده، حتى أنّ الخادم التي تخدم الرجل لتصرف وجهها عن مولاها

(١) سورة النساء (٥٨).

(٢) سورة النساء (٥٨).

وعن الرجل الذي تخدمه لريح الحديد، وأنتم في بلادكم متفضِّلون في الرِّقاق وفي المُعَصْفَرة، والذين قرِفوا بهذا المال وجوه أهل خُراسان وأهل الولايات والكلف العِظام في المغازي، وقَبلنا قوم قدِموا علينا من كلِّ فجّ عميق، فجاءوا على الحُمُرات، فوُلُّوا الولايات، فاقتطعوا الأموال، فهي عندهم موقرة جمّة»[1].

ولا أرى دفاعاً عن الحَرَشِيّ أبلغ من هذا الدفاع الذي ذكره أحد رجاله لخلفه: وزِّعت الأموال على المقاتلين الأشداء، الذين لهم نفوذ على قومهم، ليستعينوا بها في حرب مديدة، لا تنقضي صفحة منها، إلا لتبدأ صفحة جديدة.

ونعود إلى حكاية (المبتدع)، فقد كان الحَرَشِيّ مبتدعاً في توزيع المال على المحاربين الأشداء من ذوي القوّة والمَنَعة والعشيرة، دون أن يرجع إلى ابن هُبَيْرة ليعطي مَنْ يريد ما يريد، بل اجتهد الحرَشِيّ فأعطى المستحق للعطاء، وهو الحاضر وابن هُبَيْرة الغائب، وهو يرى وأميره يسمع، فعمل الذي يقتضيه الحق وترتضيه المصلحة.

وربما أبقى الحَرَشِيّ شيئاً لنفسه من هذا المال، تحسّباً للأيّام السّود، فلم يذكر المؤرخون أنه ترك بعد رحيله عن الدنيا داراً أو ديناراً، فما خان الحَرَشِيّ في المال، ولكنه فرّقه في المستحقِّين.

وقد غضب ابن هُبَيْرة على الحَرَشِيّ، وأمره أن يجمعه ممن أخذه، فأبى الحَرَشِيّ، فحاول أن يجمعه خلفُه دون جدوى، لا لأنّ الحَرَشِيّ قد فرّقهُ على غير المستحقّين بل لأن المال لم يُفَرّق باسمه على الموالين له كأنه هديّة شخصيّة من مال ابن هُبَيْرة الخاص، ففوّت عليه الحَرَشِيّ هذه الفرصة لحشد الأتباع والموالين بمال الدولة لا بماله، لذلك غضب وأراد استرجاع المال نكاية بالحَرَشِيّ، فما استطاع استرجاعه وباءت محاولته بالإخفاق.

---

(١) الطبري (٧/ ٢٠).

ونعود إلى الحَرَشَيّ إنساناً، فقد جاء في بعض المصادر التاريخية، أن الحَرَشِيّ قتل المُقَنّع بخُراسان سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية (٧٧٩م) على عهد الخليفة المهدي العباسي[١]، وأنّ الخليفة المهدي وجّه الحَرَشِيّ سنة ثمان وستين ومائة الهجرية (٧٨٤م) في أربعين ألف رجل إلى (طَبَرِسْتان)[٢]، وأنّ الحَرَشِيّ قدم على الخليفة هارون الرشيد بأربعمائة بطل من أبطال (طبرستان) فأسلموا على يدي الرشيد سنة تسع وثمانين ومئة الهجرية[٣] (٨٠٤م). ومن الواضح أن الحَرَشِيّ الذي عمل في عهد بني أُمية وهو الذي تقرأ سيرته هذه، غير الحَرَشِيّ الذي عمل في عهد بني العبّاس التي تحدثت عنه تلك المصادر في حرب المُقَنّع وفي ولاية طبرستان، فالفرق الزمنيّ بين الاثنين كبير جداً، فالأول تولى (خُراسان) سنة ثلاث ومئة الهجرية، فليس من المعقول أن يتولّى جيشاً ويقاتل المقنع سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية، أي بعد ستين سنة، ويتولى (طبرستان) سنة تسع وثمانين سنة من ولايته (خُراسان)، أي بعد ست وثمانين سنة!

وقد ذكرت بعض المصادر أنّ الذي قتل المُقَنّعَ سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية هو سعيد الجُرَشِيّ[٤] لا الحَرَشِيّ، وهو سعيد الحَرَسِيّ[٥] لا سعيد الحَرَشِيّ، وهو سعيد الحُرَيْشِيّ[٦] لا الحَرَشِيّ، وأن الذي سار في أربعين ألفاً إلى (طبرستان) هو الجُرَشِيّ[٧] لا الحَرَشِيّ.

---

(١) انظر الطبري (٨/ ١٣٥) و (٨/ ١٤٤) وابن الأثير (٦/ ٥١ - ٥٢) وذكرها ابن الأثير في حوادث إحدى وستين ومئة الهجرية، وانظر تاريخ ابن خياط (٢/ ٤٦٩).

(٢) الطبري (٨/ ١٦٧).

(٣) الطبري (٨/ ٣١٦).

(٤) العبر (١/ ٢٤٠).

(٥) النجوم الزاهرة (٢/ ٣٨) و (٢/ ٤٥).

(٦) ابن خلدون (٣/ ٤٣٩) و (٣/ ٤٤٠).

(٧) العبر (١/ ٢٥٢).

كما ورد أنّ الذي قتل المُقَنّع هو سنة ثلاث وستين ومئة الهجرية هو سعيد الحريثيّ[١].

والفرق كبير جداً بين سعيد الحَرَشِيّ وما جاء في المصادر الأخرى[٢].

وقد شبّ للحَرَشِيّ وترعرع وأصبح أحد ولاة بني العبّاس على الموصل ابنٌ للحَرَشِيّ هو يحيى الحرَشِيّ الذي تولّى (الموصل) لهارون الرشيد سنة ثمانين ومئة الهجرية[٣] (٧٩٦م)، وكان ليحيى هذا قصر في لَجَف[٤] سور (نينوى) التي تقع على الجانب الأيسر من نهر (دجلة) مقابل مدينة (الموصل) يفصل بينهما النهر، يعرف بقصر الحَرَشِيّ، وسكن أولاده (الموصل) ويعملون حاكة[٥] لصنع القماش الموصليّ.

وكان الحَرَشِيّ يكنّى: أبا يحيى[٦]، وأمّه حبشيّة. وولده بأرمينية كما ذكرنا وفي (الموصل) أيضاً.

ولا نعلم متى ولد ولا متى رحل، وتفاصيل حياته إنساناً قليلة، وذكرُ أخباره الشخصية نادرة بعكس أخباره العامة، فهي مستفيضة، ويبدو من حياته العامة أنه كان إدارياً حازماً ووالياً قديراً، عصاميّ سوّد نفسه بكفايته وشجاعته وحزمه، ولكنه كان عاثر الخط في حياته الشخصية، إذ كان يُحسن في أداء واجبه إحساناً فريداً، ولكنه كان يجازى على إحسانه بالسجن والتعذيب، لأنه يَعْمل ما (يجب) أن يُعْمَل، لا ما (يحبّ) أمراؤه أن يَعْمل.

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ١٤٥).

(٢) الجرشي: نسبة إلى جرش بطن من حمير، وقيل موضع باليمن، انظر لب الألباب (٦٣). والحرسي: نسبة إلى الحرس، محلة بمصر وبطن من طيّءٍ، انظر لب الألباب (٧٨). والحرشي: نسبة إلى الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، انظر اللباب (٧٨). حريث: نسبة إلى حريث جد، انظر اللباب (٧٨).

(٣) ابن الأثير (٦/ ١٥٣) وتاريخ الموصل (٢٨٧).

(٤) لجف: سرة الوادي، انظر تاج العروس (٦/ ٣٤٣).

(٥) تاريخ الموصل (٢٩٣).

(٦) الطبري (٧/ ١٦).

وكان المتوقّع أن يقف المؤرخون طويلًا على إبراز سجيّته في (الابتداع) وتنكره لسجية أمثاله في (الاتّباع)، ولكنهم بخلوا عليه كثيراً، فمثله في سجيته الابتداعيّة قليل نادر. ولكنّ القطار السّريع كثيراً ما يتوقّف في المحطّات الصغيرة ولا يتوقف في المحطّات الكبيرة.

وحظوظ الأفذاذ مختلفة بالنسبة للمؤرخين، فمنهم من أخذ حقّه كاملًا، ومنهم من غُمط حقّه، ومنهم مَن أخذ أكثر من حقِّه، ومن الذين غمطهم التاريخ سعيد الحَرَشِيّ.

القائد:

اتّخذ سعيد الحَرَشَيّ الجندية مهنة له، فرفعته هذه المهنةُ بالتدريجُ، حتى تسلم المناصب القياديّة الرفيعة، وأصبح أحد قادة الأُمويين اللامعين، يستعين به الخلفاء في المُلمّات.

تولّى خُراسان بعد أن اشتعلت ناراً، بإيعاز من الخليفة يزيد بن عبد الملك، فاستعاد فتح ما نقض مها وأعاد إليها الأمن والسّلام، خلال أشهر معدودات.

وتولّى حرب إرمينية بعد أن استُشهد قائدها العام وأُبيد جيش المسلمين فيها قتلًا وأسراً، وتولّاها بأمرٍ من الخليفة هُشام بن عبد الملك، فاستعاد فتحها وأعاد إليها الأمن والسّلام خلال أشهر معدودات.

لقد أصبح الحَرشِيّ رجل السّاعة من بين القادة البارزين في الدولة، وهذا منتهى النجاح الذي يمكن أن يطمح إليه جنديّ ارتقى إلى منصب القيادة، ثم ارتقى بين القادة إلى مكان الصّدارة، فأصبح الملجأ الذي تتجه إليه الأنظار حين تَدْلَهِمّ الخُطوب.

ومن الواضح أنه شهد معارك لتوطيد الأمن في الداخل ولاستعادة الفتح في الخارج قبل معركة (العَقْر) التي تولّى فيها القيادة، إذا أثبت وجوده في المعارك الأولى جندياً متميزاً أهلته كفايته لتولي القيادة في معركة

(العَقْر)، ولكنه في هذه المعركة أثبت وجوده قائداً متميِّزاً بالإضافة إلى إثبات وجوده جندياً متميِّزاً في معاركه الأولى.

وكان موقفه في معركة (العَقْر) مشهوداً، ولكنَّ هذا الموقف غُمط بعد المعركة غَمْطاً متعمّداً حتى يُحرم من ثمرات النصر، إلّا أن يزيد بن عبد الملك الذي تسامع بموقف الحَرَشِيّ المَشرِّف في معركة (العَقْر) من مصادر غير رسميّة، أنصف الحَرَشِيّ وأعطاه حقّه الذي تعمدت المصادر الرسميّة غمطه، فشارك غيره في ثمرات النصر، ولم يقتصر على تحمل ويلات المعركة وليستأثر غيره بالثمرات.

فقد كانت ثورة يزيد بن المُهَلَّب على يزيد بن عبد الملك ثورة عارمة حقاً، فالمهالبة من سادات العرب وقادتهم، وكانت لهم مكانة رفيعة بين الناس وشعبية طاغية، وقد خلع يزيدُ بن المهلّب يزيدَ بن عبد الملك[1]، فكانت معركة (العَقْر) بالنسبة ليزيد بن عبد الملك معركة حياة أو موت، لأنها من المعارك الداخلية الحاسمة، لذلك كتب ابن هُبَيْرة أمير العراق إلى يزيد بن عبد الملك بأسماء الذي أبلوا يوم (العَقْر) بلاءً حسناً، ولم يذكر الحَرَشي في قائمة الشّرف، فلما قرأ يزيد بن عبد الملك أسماءهم، قال: «أين الحَرَشِيّ!! فوالله ما كان الفتح إلّا على يديه، وما قتل المتمردين غيره»، فكتب إلى ابن هُبَيْرة يأمره أن يولي الحَرَشيّ خُراسان[2].

وتولّى الحَرَشِيّ خُراسان، فكان عند حسن ظن الخليفة به وعند حسن ظنّ الناس به أيضاً.

وتولى هُشام بن عبد الملك بعد وفاة أخيه يزيد بن عبد الملك، وأُصيب المسلمون في إرمينية واستُشهد قائدهم الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ.

---

(١) الطبري (٦/ ٥٧٨).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/ ١٦٤ ـ ١٦٥) وانظر الطبري (٦/ ٦٢٠). وابن الأثير (٥/ ١٠٣)، وفي الأصل، قتل المرتدين، ولم يكن هناك مرتداً بل كان متمرِّداً، ولعلّ هذا الخطأ تصحيف.

وأصبح مَن بقي فيها من المسلمين أسرى وسبايا إلّا الذي بقي منهم خائفاً يترقب في بلد محاصَر لا يعرف أهله متى يقتحمه العدو أو في بلد لا يدري أهله متى يُفرض عليهم الحصار.

حينذاك بادر هُشام إلى استدعاء الحَرَشِيّ، فبسط بين يديه موقف المسلمين اليائس في إرمينية، فاقترح الحَرَشِيّ عليه أن يتولّى أمر إعادة الأمور إلى نصابها في ذلك البلد النائي البعيد، وسأله أن يحمل على دواب البريد التي كانت أسرع واسطة للتنقّل يومذاك، فبعثه هشام على رأس قوّات خفيفة سريعة، وسار على عجل يبسط للمسلمين في طريق رحلته الشاقّة الطويلة ما حاق بالمسلمين في إرمينية ويندبهم للجهاد.

ولم يكد يصل إلى إرمينية إلّا وانقض كالصقر على الخَزَر، واستعاد فتح البلاد ورفع الحصار عن المدن المحاصَرَة واستنقذ الأسرى والسبايا فصدق وعده للخليفة وأعاد الأمن والسّلام إلى إرمينية.

فما هي مزايا قيادة الحرَشِيّ الذي أخذت بيده في طريق التقدّم من جندي مغمور إلى قائد لامع، إلى قائد يحتلّ مركز القيادة المرموقة في ساعة المحنة، فيتخطىّ الأهوال والصعاب بسرعة وكفاية؟؟

لقد اتخذ الحَرَشِيّ الجندية مهنة له، وكانت هذه المهنة محبّبة إلى نفسه، فهو من هواتها، عاش لها وبها، مما يدلّ على أن طبعه الموهوب جعله يهب نفسه للجنديّة ويتفرّغ لها في حياته تفرغاً كاملًا.

وربما يتبادر إلى الأذهان أنه امتهن الجنديّة لفقره وعَوَزه، وقد كان فقيراً مُعْدماً حقاً في أيامه الأولى، ولكنّ المرتزق في الجنديّة لا يبرز فيها بروزاً هائلًا. كما أنه أصبح والياً ولكنه بقي والياً غازياً، فعاش مع الجُنْد في الفيافي والقفار ولم يعش مع المدنيين في المدن والقصور.

إنه صاحب طبع موهوب في المدينة في الجنديّة، فهو جندي من

أخْمَص قدمه إلى قمّة رأسه، امتهن الجند ولم يمتهِنْها[1].

وقد طعَّمَ هذا الطبع الموهوب وشذّبه بالعلم العسكري المكتسب في استعمال السِّلاح والفروسيّة، وبالتجربة العملية في ممارسة الحروب داخليّاً في القضاء على الفتن والثورات الداخلية، وخارجيّاً في استعادة البلاد المفتوحة وفي ضمّ فتح جديد، وبذلك اجتمع له عناصر النجاح للقائد ومزايا للقائد المتميز: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية.

واجتماع هذه المزايا الثلاث في الحَرَشِيّ هي سرّ نجاحه قائداً، وتميّزه بالنجاح قائداً متميِّزاً.

وقد كان يتمتّع بشجاعة نادرة وإقدام فذ، والشجاعة والإقدام وحدهما قد يؤديان إلى التهلكة نتيجة للمغامرة غير المدروسة، وقد كان الحَرَشِيّ يتميّز بروح المغامرة حقاً، ولكنها مغامرة يقودها عقل متزن وذكاء لامع، لذلك كانت مغامراته تؤدي إلى النصر دائماً، فلم تُهزم له راية أبداً.

وحبّ الحرشِيّ للمغامرة العاقلة، أدّت به إلى تطبيق (حرب الصّاعقة) التي تتميّز بالسرعة والجرأة والمغامرة والاندفاع، ففد كان حربه في إرمينية نوعا مثالياً من حرب الصّاعقة التي تميّز فيها ثلاثة من قادة الفتح الأولين: خالد بن الوليد والمُثنّى بن حارِثة الشَّيْبانِيّ والحَرَشِيّ.

ونهوضه بالحرب الصّاعقة أو الحرب الخاطفة دليل على حبّه لتحمّل المسئولية، فهو يتقبّلها ولا يلقيها على عاتق غيره، ويتحمل وحده نتائجها. وهو كذلك يعمل ما يُملي عليه الموقف الراهن ويقرِّر وينفِّذ ما يقرِّره، غير منتظر وصول الأوامر إليه من القادة الذين يعمل بإمرتهم، فقد تضيع عليه الفرصة السّانحة إذا بقي مُسْتَكِنّاً مُجَمَّداً إذا انتظر أوامر غيره، فهو قائد (مُبْتَدِع) وليس قائداً (مُتَّبِعاً).

---

(١) امتهن الجندية: اتخذها مهنة له. ولم يمتهنها: لم يبتذلها. وامتهن: اتّخذ مهنة، وامتهنَ الشيءَ: ابتذله.

والدليل على أنه كان مغامراً عاقلًا لا أَهْوَج، هو استشارته وتقبله للمشورة، وتنفيد رأي المشِير إذا اقتنع به، وحينذاك تصبح روح المغامرة والاندفاع فيه أناة وتحفّظا[1]، ولكنها أناة المتربِّص وتحفّظ المتخفِّز.

وكان الحرِشِيّ يقود رجاله من الأمام، فيقول لهم: «اتبعوني»، وهو يقاتل أمامهم، ولا يقود رجاله من الخلف، فيقول لهم: «تَقدّموا»، وهو يقبع في الخلف لحماية نفسه في مكان أمين.

وكان مثالاً شخصياً لرجاله في الشجاعة والإقدام والاستقتال في الحرب، وهو القائل:

ولست لعامر إنْ لم تَرَوني ... أمام الخيلِ أَطْعَنُ بالعوالي
فأضربِ هامة الجبّار منهم ... بعضب الحدِّ حودِث بالصَّقالِ
فما أنا في الحروب بمُسْتَكِيْنٍ ... ولا أخشى مُصَاولةَ الرِّجال

وقد قال ذلك في حشد من رجاله بعد تولي خُراسان ووصوله إلى مقرِّ عمله[2].

والقائد الذي يجعل من نفسه مثالًا شخصياً لرجاله، ويطبِّق أفعاله على أقواله، ويلتزم بما يقول التزاماً صارماً، هو الذي يقود رجاله إلى النصر، أما القائد الذي يقول ولا يفعل، فلا يقود رجاله إلّا إلى الهزيمة.

كان لا ينامُ ولا يُنيم، ولا يُريح ولا يستريح، يحرِّض أصحابه على القتال، يتميّز بمنطق أخّاذ وبيان مُشرق وقابليّة نادرة على الخطابة في مواجهة الجماهير[3]، مِسْعَر حرب[4] يجد راحته في القتال لا في الظِّلال.

وبقدر استئثار الحرَشِيّ بالخطر، كان إيثاره بالأمن والسَّلامة رجاله،

(١) انظر الطبري (٧/ ٨) وابن الأثير (٥/ ١٠٧).
(٢) الطبري (٦/ ٦٢١) وابن الأثير (٥/ ١٠٤).
(٣) الطبري (٦/ ٦٢١ ـ ٦٢٢) وابن الأثير (٥/ ١٠٣ ـ ١٠٤).
(٤) مسعر حرب: موقد حرب.

فقد كان يحرص على أرواح المسلمين ولا يغرِّر بهم، وكان حرصه الشديد بالمسلمين مضرب الأمثال[1].

وكان الحَرَشِيّ يتحلّى بالضبط المتين، ولا يتخلّى عنه ويلتزم به التزاماً صارماً، ويطالب رجاله بالالتزام به التزاماً صارماً، مما أشاع النظام في رجاله وجعلهم ينفِّذون أوامره نصاً وروحاً.

والقائد الذي لا يتحلّى بالضبط لا يستطيع أن يفرضه على غيره ويشيعه في رجاله، والجيش الذي لا يتحلّى بالضبط المتين لا ينفِّذ الأوامر الصّادرة إليه بحرص وأمانة، وتنهار معنوياته بسرعة خاطفة، فيولي الأدبار.

وكان الحَرَشِيّ يطبّق مبدأ المباغتة، وهي أهم مبادئ الحرب على الإطلاق، وقد طبّق هذا المبدأ بالمكان، فهاجم العدو في مكان لا يتوقّعه، وبالزمان فهاجم العدو بوقت لا يتوقعّه وبسرعة لا يتوقّعها.

وكان يطبِّق مبدأ المعنويات، فوجوده في القيادة يرفع معنويات رجاله من جهة، فهو فارس قَيْس بشهادة عدوِّه اللّدود ابن هُبَيْرة الذي يكرهه[2]، وهو فارس العرب بشهادة (كارزنج) أحد قادة الصُّغد البارزين[3]، ويؤثر في معنويات أعدائه من جهة أخرى.

كما أنّه بانتصاراته المتوالية ورايته التي لم تهزم أبداً، يرفع معنويات رجاله ويؤدي بمعنويات أعدائه إلى الانهيار.

ولا ينتصر جيش إلّا إذا كانت معنوياته عالية، فالمعنويات لا تقلّ أهمية عن المادّيات في إحراز النّصر.

وكانت انتصارات الحَرَشِيّ حافزاً للشعراء في مديحه، فقال الشاعر في وصف انتصاره على الخَزَر في إرمينية:

---

(١) ابن الأثير (٥/١٠٧).

(٢) الطبري (٧/١٦).

(٣) الطبري (٦/٦٢٢).

أنتَ الذي أدركَ اللَّهُ العِبادَ به ... بَعْدَ البلاءِ بتأييدٍ وإظفار
موفَّقٌ للهُدى والرُّشدِ مُضْطَلِعٌ ... كيدُ الحروب أرِيبٌ زَنْدُه واري
تَضَمَّنَ الحَزْمَ والإيمان مِنْبَرُهُ ... كالصّبح أقبلَ في غرٍ وإسفار
لأَمْتَ ما شِئتَ من شِعْبٍ ومن شُعَبٍ ... للمسلمن بِجِدٍ غير عثّار
على أوانٍ شديد ليس يعلمه ... من شأننا كان غير الخالقِ الباري
قد أبْدَتِ الحربُ فيها عن نواجِذِها ... وشَمَّرَتْ عن شَذاها أيَّ تشمار
وأنت يوم أبي جَرْوانَ[1] إذ رَجَعَتْ ... فيه الطَّراخين ذو نقضٍ وإمْرار[2]
لقيتَهم بليوثٍ في اللِّقاء وقد ... وافوا بِأزْعَنَ بادى الزَّمِّ[3] جرّار
فَجِسْتَهم جَوْسَ قَرْم[4] ما يُقِيْلُهُم ... بالخيل تَنْقُضُ أوتاراً بأوتار
والخيل ساهِمةٌ نضحُ الدِّماء بها ... من عَلِّها بَعْدَ إنهال وإصدار[5]
من كلِّ طِرْفٍ شَديد الشِّعْب مُنْصَلِتٍ ... نَهْدٍ أَشَقٍ كَصَدْرِ الرُّمحَ خَطَّارِ
فَهُمْ يُوَلّون والفُرسانُ تَضرِبُهُمْ ... بكلِّ عَضْبٍ شَدِيْدِ المَتْنِ بتَّارِ
أمامَ لَيْثٍ هَزَبْرٍ فُرْهُدٍ[6] أَزِرٍ[7] ... صُلْبِ الدَّوَّاسِ[8] هصُوْرٍهَيْصَمٍضاري[9]
عَبْل الذِّراع أبي الشِّبلين ذي لبد ... دلمِّسٍ هو عَدّاءٌ على السَّاري[10]

---

(١) في الأصل: حزوان، والصحيح: جروان وهي: باجروان: مدينة بأرمينية.
(٢) إمرار: تنغيص، وأمرّ الشيء: صيّره مُرّاً.
(٣) الزَمّ: الشموخ والتكبّر.
(٤) القرم: السيِّد المعظَّم.
(٥) العل: شرب ثانية. النهل: الشرب الأول. إصدار: شَبَع.
(٦) فرهد: في الأصل: فرهم، والفرهد: ولد الأسد، والفرهد من الغلمان: الحسن الممتلئ.
(٧) الأزر: القوّة.
(٨) الصلب: الشديد القوى، والدَّوّاس: وصف للمبالغة، الشجاع الذي يدوس أقرانه.
(٩) الهصور: الأسد. الهيصم: الغليظ الشَّديد الصُّلب. والضاري: المفترس.
(١٠) العبل: الضخم من كلِّ شيءٍ، ويقال: عبل الذراعين، والشِّبل: ولد الأسد. لِبدَ: جمع لِبدة: الشعر المتراكب بين كتفي الأسد. الدلمس: الداهية. العدّاء: الشديد العدو من الناس والخيل.

ويومُ أسراب[1] إذ جاشَتْ جموعهُمُ وأسْعَروا نار حربٍ أيّ إسْعارِ
وأقبلوا كالتماع البرق بِيْضُهُمُ لهم عِصَار تراه بعد إعصار[2]
فَسِرتَ بالخيلِ والرَّايات تَقْدُمها بخِيْرة من عِبادِ اللّهِ أخْيارِ
أمدَّك اللَّهُ رَبُّ العالمينَ بِهِمْ مُسَوّمين أمام النّاسِ أنصار
فَأهْلَكَ اللّهُ جَمْعَ الشِّرْكِ إذ رَجعوا علَى يدَيك وأَخْزَى كلَّ كَفَّارِ

ولا نعرف شيئاً عن قائل هذا الشِّعر، ويبدو أنه من فرسان الأعراب الذين يتقنون الألفاظ الجاسية الحوشية ومفردات الخيلِ والسِّلاح والأسد والأبطال، فهو فارس معجب بفارس، وليس شاعراً متكسِّباً.

لقد كان الحَرَشِيّ سريع القرار صائبه، ذا طبع موهوب وعلم مكتسب وتجربة عمليّة، يتحلّى بالشجاعة والإقدام ويتميّز بالفروسية التي تفوّق بها على الأقران، ويتمتع بروح المغامرة والذكاء الألمعيّ، ويطبّق حرب الصّاعقة في حروبه، مبتدعاً لا متّبعاً، يقود رجاله من الأمام ويجعل من نفسه مثالاً شخصياً لرجاله، ذا ضبط متين، حريصاً على أرواح المسلمين، يطبّق مبدأ المباغتة ومبدأ المعنويات.

إنه فارس العرب، يثق بنفسه، وبرجاله وقيادته ويثقون به، ويحبونه ويحبهم، ويخلص لهم ويخلصون له، ذا شخصية قويّة نافذة، كوّن نفسه بكفايته ومزاياه لا بنسبه وَحَسبه، وتولّى المناصب القياديّة والإداريّة بجهده وسعيه وعَرقه، فسعت إليه تلك المناصب ولم يتولّها بالوراثة أو بالتزلّف أو بالوسائل الأخرى.

إنّ الحَرَشِيّ قائد قد لا يتكرّر إلّا نادراً.

الحَرَشِيّ في التاريخ:

يذكر التاريخ للحَرَشِيّ أنّه قائد عِصَامِيّ، بدأ حياته العمليّة جنديّاً ثم تدرّج في سلّم العسكرية حتى أصبح قائداً في الذِّرْوَة.

(١) أسراب، جمع سُرْبَة: الجماعة ينسلون من المعسكر فيغيرون ويرجعون.

(٢) العصار: الغبار الشديد. الإعصار: ريح تهب بشدة وتثير الغبار.

ويذكر له أنّه بذل قصارى جهده في القضاء على الثورات والفتن الداخلية دفاعاً عن سلامة الدولة وكيانها.

ويذكر أنّه استعاد فتح بلاد الصُّغد (تركستان الغربية) من خُراسان وأعاد إليها الأمن والسّلام بخاصة وإلى خُراسان بعامة ونشر العربية لغةً والإسلام ديناً في ربوع خُراسان.

ويذكر له، أنّه استعاد فتح إرْمِينِيَة، وأعاد إليها سلطة الدولة الإسلاميّة، ونشر العربية لغة والإسلام ديناً في ربوعها.

ويذكر له، أنّه استنقذ عشرات الألوف من أسرى المسلمين الذين كانوا تحت سيطرة الصُّغد في خُراسان والخَزَر في إرمينية، وقلب الموازين في تلك الأرجاء الشّاسعة لصالح المسلمين.

ويذكر له، أنّه كان قائداً وإدارياً (مُبْتَدِعاً) يعمل ما تمليه عليه المصلحة العامة، وليس قائداً وإدارياً (مُتَّبعاً) ينفِّذ أوامر السُّلطة حتى ولو ناقضت المصلحة العامة، فكان بحق رجل دولَةٍ بكل معنى الكلمة لا إمَّعَةً يميل مع الأهواء.

ويذكر له، أنّه أحرز انتصارات باهرة داخلياً وخارجياً فعُوقب عن انتصاراته بالحبس والتعذيب والتنكيل، لأنّه كان يعمل ما (يَجِبُ) أن يُعْمل لا ما (يُحِبّ) رؤساؤه أن يعمل.

ويذكر له، أنه كان في الحرب يقود الجيوش في أخطر ميادينها ويكون مقرّه في خطوطها الأماميّة، فإذا حلّ السّلام استثمر غيره نتائج انتصاراته، فيكون مقرّه في السجون متحملاً العذاب الأليم.

ويذكر له، أنّه كان فارس العرب دون منازع، يستأثر بالأخطار ويستأثر غيره بالغنائم.

ويذكر له، أنّه كان رجل السّاعة في الملمّات، ورجل السُّجون في النزهات.

ويذكر له، أنّه كان يؤثر أن يكون غازياً في العَراء، على أن يكون والياً في المدن.

ويذكر له، أنّه كان يقود رجاله من الأمام لا من الخلف، وكان أسوة حسنة لرجاله في التضحية والإقدام.

ويذكر له، أنّه قائد توفّرت فيه الشروط الكاملة للقائد المتميِّز: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العمليّة.

يرحم الله الإداري الحازم، القائد الفاتح، فارس العرب، سعيد بن عمرو الحَرَشِيّ.

مَرْوان بن محمَّد بن مَرْوان بن الحَكَم

فاتح شطر بلاد الرُّوم وشطر إرْمِينية

نسبه وأيّامه الأولى:

هو مَرْوان بن محمَّد بن مَرْوان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُمَيَّة بن عبد شَمْس بن عبد مَنَاف بن قُصَيّ القُرَشِيّ الأُمَوِيّ[١].

أبوه: محمّد بن مَرْوان بن الحَكَم أخو عبد الملك بن مروان بن الحَكَم، من قادة الفتح الإسلامي ومن أبرز ولاة بني أُميّة ومن البيت المالك.

وأمّه: كرديّة من أمّهات الأولاد[٢]، ويريدون بأُمّهات الأولاد: الجواري والإماء اللّواتي وَلَدْنَ لمواليهن ذُكراناً، واسم أمّه: لُبَابة.

ولد سنة ست وسبعين الهجرية[٣] (٦٩٥م)، ويومها كان أبوه محمد بن مروان على الجزيرة وإرْمِينِيَة، فقد استعمله أخوه عبد الملك بن مروان على الجزيرة وإرمينية سنة ثلاث وسبعين الهجرية[٤] (٦٩٢م)، وبقي على عمله طيلة حياة أخيه عبد الملك بن مروان الذي توفي سنة خمس وثمانين الهجرية[٥] (٧٠٤م) وشطراً من حياة الوليد بن عبد الملك الذي

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ ـ ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/٣١).

(٢) المحبَّر (٣٢ و ٤٥) والبداية والنهاية (١٠/٤٦).

(٣) الطبري (٦/٢٥٦) وابن الأثير (٤/٤١٨)، وفي تاريخ خليفة من خياط (٢/٤٢٨): أنه ولد سنة اثنتين وسبعين الهجرية في الجزيرة.

(٤) ابن الأثير (٤/٣٦١).

(٥) العبر (١/١٠٢).

عزله سنة إحدى وتسعين الهجرية[1] (٧٠٩م)، بعد أن أمضى في ولايته ثماني عشرة سنة متواصلة، فأصبح ابنه مروان خلال هذه المدة شاباً في ريعان الشباب، اكتسب خلالها خبرة عملية في معرفة أرجاء ولاية أبيه على الطبيعة، كما تلقّى علومه النظرية والعمليّة في محيط يَعجّ بقادة الفتح وجنوده، وبقادة الفكر وجنوده، كلهم يجاهدون في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمة الله، في ساحة من أخطر ساحات الفتح الإسلامي، وفي وقت هو وقت مدّ الفتح واستعادة الفتح، بالمقر الذي تصدر عنه القرارات العسكرية والإدارية المهمّة، إلى جانب والده القائد والإداريّ وأعوانه القادة والإداريين المرؤوسين والعلماء العاملين، فلا عجب أن يتعلّم ما ينبغي أن يتعلّم لذاته ويتدرّب على أيدي القمّة من العلماء المجاهدين والقادة الفاتحين والإداريين المجرِّبين، فلا عجب أن تثريَ تجاربه العمليّة بخاصة كفاياته القيادية والإدارية والعلمية، فأصبح أحد البارزين في بني أُميّة وأحد المرموقين منهم المرشّحين بكفاياتهم المتميِّزة لتولي أعلى المراكز القياديّة والإدارية في الدولة.

جهاده:

١ - في سنة ست ومئة الهجريّة (٧٢٤م) في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان، تولّى مروان أوّل قيادة عسكريّة له، وكان عمره يومئذٍ ثلاثين سنة.

فقد تولى الصّائفة اليُمنى، وهي التي تنطلق من الجزيرة شمالاً في بلاد الرُّوم صيفاً. فافتتح (قُوْنِيَة)[2] من أرض الرُّوم و(كَمْخ)[3] التي تعدّ من

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٣٠٧/١).

(٢) قونية: من أعظم بلاد الإسلام في الروم، وهي من المدن المشهورة، لها جبل في جنوبيّها، ولها بساتين من جهة الجبل يقرب من ثلاثة فراسخ، وبقلعتها تربة إفلاطون الحكيم، ونهرها يسقي بساتينها ثم تصير مياهه بحيرة ومروجاً والفواكه بها كثيرة، وهناك المشمش المعروف بقمر الدين، انظر التفاصيل في بحث: مدن بلاد الروم، وانظر معجم البلدان (١٨٦/٧).

(٣) كمخ: مدينة وقلعة على الفرات الغربي من مدن أعالي الفرات في الجزيرة، على=

أرض الجزيرة[1].

٢ ـ وكان مروان مع مَسْلَمَة بن عبد الملك من سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥م) حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣١م) في جهاده الذي امتدّ من الجزيرة إلى بلاد الرّوم وأَذْرَبْيجَان وإِرْمِيْنِيَة[2]، فعزل هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة وولّى مروان بن محمد على الجزيرة وأَذْرَبِيْجَان وإرمينية[3].

ومضى مروان إلى إرمينية والياً عليها، وسيّر هشام بن عبد الملك الجنود من الشّام والعراق والجزيرة، فاجتمع عند مروان من الجنود والمتطوّعة المجاهدين مئة وعشرون ألفاً.

وكانت كثير من أقاليم الإِرمينيّة قد نقضت، فشاع فيها الاضطراب والتمرّد، فأراد مروان أن يعيد الأمن والاستقرار إلى تلك الأقاليم.

وأظهر مروان أنّه يريد غزو (الّلاّن)[4] وقَصَدَ بلادَهم، وأرسل إلى ملك الخَزَر يطلب منهم المهادنة. وبلاد اللاّن مجاورة لبلاد الخزر، فأجابه ملك الخزر إلى ذلك، وأرسل وفداً إليه للاتّفاق على شروط الصّلح.

وأبقى مروان وفد الخزر عنده، إلى أن فرغ من جهازه واستحضاراته، ثمّ أغلظ لهم القول، ولم يوافق على شروطهم التي عرضوها عليه، وآذنهم بالحرب، وسيّرهم إلى أحد قادته، وأخبره بعزمه على حرب الخزر، لأنّهم

= مسيرة يوم أسفل أرزنجان، في يسار النهر أي في ضفته الجنوبية، وهي: (كمخا camcha) عند الروم. وهي قلعة عظيمة أيضاً، في أسفلها المدينة على ضفة النهر، انظر بحث: بلاد الجزيرة، ومعجم البلدان (٨/ ٢٧٩).

(١) ابن الأثير (٥/ ١٢٥)، وفي خليفة بن خياط (١/ ٣٣٩) أنه تولّى سنة خمس ومئة الهجرية.

(٢) انظر التفاصيل في سيرة مسلمة بن عبد الملك في هذا الكتاب.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٥٩) وابن الأثير (٥/ ١٧٧).

(٤) بلاد واسعة في طرف إرمينية، قرب باب الأبواب مجاورون للخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣١٦).

كرّروا نقض عهودهم ومواثيقهم، وألحقوا بالمسلمين خسائر فادحة بالأرواح والممتلكات من جرّاء نقضهم المتكرِّر، وأمر قائده أن يسيِّر وفد الخزر على طريق بعيدة في عودتهم إلى ملكهم لكسب الوقت، وسار هو على رأس جيشه في أقرب الطرق إلى هدفه، فما وصل الوفد الخزريّ إلى ملكهم إلّا ومروان قد وافاهم وأطبق عليهم.

وكانت هذه العمليّة العسكرية لمروان مباغتة كاملة لملك الخزر وللخزر، شلّت تفكير الملك ومَن حوله، وزادت في شللهم الفكري الأخبارُ التي حملها إليهم وفدهم الذي عاد خائباً من رحلته إلى مروان، فقد حمل هذا الوفد إلى الملك بالإِضافة إلى إخفاق المفاوضات، ما جمع له مروان وحشد واستعدّ.

واستشار ملك الخزر أصحابه، فقالوا له: «إن هذا قد اغترّك ودخل بلادك، فإن أقمتَ إلى أن تجمع، لم يجتمع عندك إلى مدّة، فيبلغ منك ما يريد. وإن أنتَ لقيتهُ على حالك هذه هزمَكَ وظفرَ بك، والرأي أن تتأخّر إلى أقصى بلادك، وتدعه وما يريد». أي أن خلاصة رأي أصحاب ملك الخزر، أنّ الخزر لا يستطيعون إكمال استعداداتهم للقتال، لأنّ الوقت المتيسِّر لديهم غير كاف لإِنجاز الاستعدادات، فإذا قَبِل المعركة بدون استعدادات كاملة، فإنّ الهزيمة ستقع بالخزر، وليس أمامه إلّا التملّص من القتال، والانسحاب إلى مجاهل بلاده النائية، استعداداً لفرصة مؤاتية جديدة.

وقَبِلَ ملك الخزر رأي أصحابه، وسار مع رجاله منسحباً من ساحة القتال إلى أقصى بلاده.

ودخل مروان بلاد الخزر، وأوغل فيها، وأخربها، وغنم وسبى، وانتهى إلى آخرها، وأقام فيها عدّة أيام، حتى أذلّ الخزر وانتقم منهم.

ولم يكتفِ مروان بهذا النّصر المؤزّر على بلاد الخَزَر، بل دخل بجيشه بلاد (ملك السّرير)[1]، وهي بين اللّآن ومدينة باب الأبواب، فأوقع

---

(١) السّرير: مملكة واسعة بين اللّان ومدينة باب الأبواب (دربند)، وليس إليها غير=

بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك، وصالحه على مئة ألف مُدي[1] مع عدد من الجواري والغلمان، على أن تحمل الحبوب إلى أهراء مدينة باب الأبواب في كلّ سنة، وأَخذ منه الرّهن.

وصالح مروان أهل (تُومان)[2] على عشرين ألف مُدْيٍ من الحبوب وعدد من الجواري والغلمان.

ثم دخل أرض (زِرِيكران)[3]، فصالحه ملكها.

ثمّ أتى إلى أرض (حمزين)[4]، فأبى حمزين أن يصالح مروان، فحصرهم وشدّد عليهم الخناق، حتى افتتح حصنهم.

ثمّ أتى (سُغْدان)[5]، فصالحه أهلها على خمسة آلاف مُدْي في كل سنة تحمل إلى مدينة (باب الأبواب) أيضاً.

ووظّف مروان على أهل (طَبَرْ سَرانْشَاه)[6] عشرة آلاف مُدْيٍ في كل سنة تحمل إلى أهراء مدينة باب الأبواب أيضاً.

= مسلكين: مسلك إلى بلاد الخزر ومسلك إلى بلاد إرمينية، هي ثمانية عشر ألف قرية في جبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٨٠). وملك السرير أيضاً: خان الجبل في إرمينية، انظر فتوح البلدان (٢٨٦) وفيه: ويدعى: وهرارزانشاه.

(١) المدي: مكيال في الشام ومصر يسع تسعة عشر صاعاً، والصاع: مكيال تكال به الحبوب ونحوها، وقدّره أهل العراق قديماً بثمانية أرطال.

(٢) لا ذكر لها في المصادر البلدانية العربية، ويبدو أنها مدينة بين اللّان ومدينة باب الأبواب.

(٣) زريكران = زره كران = زرنكران: لا ذكر لها في المصادر البلدانية العربية المتيسّرة، ويبدو أنها قريبة من مدينة (باب الأبواب). استناداً إلى سير العمليات العسكرية في تقدم مروان.

(٤) حمزين: اسم صاحب كورة بالقرب من مدينة باب الأبواب.

(٥) سغدان: جاء ذكرها في معجم البلدان (٥/ ٨٦): قرية من قرى بخارى، ولا يمكن أن تكون هي المعنيّة، لبعدها عن سير العمليات العسكرية، ويبدو أنها مدينة بالغرب من مدينة باب الأبواب.

(٦) طبر سرانشاه: ملك (طَبَرسَتَران) التي هي من نواحي إرمينية، بالقرب من مدينة باب الأبواب، انظر معجم البلدان (٦/ ٢١).

ولم يوظِّف على (فِيلَانْشاه)[1] شيئاً، وذلك لحسن غنائه وجميل بلائه، فقد التزم بعهوده ومواثيقه، ولم ينقض عهداً ولا ميثاقاً، وأعان مروان في حربه.

ثمّ نزل على قلعة صاحب (اللكْز)[2]، وقد امتنع عن أداء الوظيفة، فخرج ملك اللكْز يريد ملك الخزر، فقتله أحد الرعاة بسهمٍ وهو لا يعرفه، فصالح أهلُ اللكُز مروان واستعمل عليهم عاملًا.

وسار مروان إلى قلعة (شَرْوَان) وهي تدعى: (خِرش)[3]، وهي على البحر، فأذعن بالطّاعة والانحدار إلى السّهل، وألزمهم عشرة آلاف مُدّي في كلّ سنة، وجعل على صاحب شروان أن يكون في المقدَّمَة إذا بدأ المسلمون بغزو الخزر، وبالسّاقة إذا رجعوا، وعلى فِيلَانْشاه أن يغزو معهم فقط، وعلى طَبَرْسَرَانشاه أن يكون في السّاقة إذا بدأوا وفي المقدمة إذا انصرفوا.

وسار مروان إلى (الدُّودَانِيَّة)[4]، فأوقع بهم وأخضعهم إلى سيطرة الدولة، وأعاد إلى ربوعهم الأمن والاستقرار[5].

---

(١) فيلانشاه: ملك فيلان، انظر فتوح البلدان (٢٧٦)، وفيلان: بلد وولاية قرب باب الأبواب من نواحي الخزر، يقال لملكها فيلانشاه، هو ملك السّرير. انظر معجم البلدان (٤١٣ ـ ٤١٤)، أما فتوح البلدان فيذكر أن ملك السرير يدعى: وهرار زانشاه، انظر فتوح البلدان (٢٧٦).

(٢) اللكزْ: مدينة تقع في جبل القفقاس خلف مدينة باب الأبواب، ويسكنها قوم يعرفون باللكزْ أيضاً.

(٣) خرش: اسم قلعة شروان، انظر فتوح البلدان (٢٩٣).

(٤) الدودانية: يدّعون بأنّهم ينتسبون إلى دُوْدَان بن أسد بن خَزِيْمَة، فهم عرب، ومن المحتمل أنّهم من العرب الذين نقلهم كسرى أنو شروان من بلاد العرب إلى كورة أرّان للدفاع عن بلاده من خطر الخزر، فبنى لهم الحصون والقلاع. وأطلق عليها اسم: أبواب الدُّدانيّة.

(٥) فتوح البلدان (٢٩٢ ـ ٢٩٤) وانظر ابن الأثير (٥/١٧٨ ـ ١٧٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٦١).

ومن الواضح أنّ مروان في هذه الحملة استعاد فتح كورتي أَرَّان وباب الأبواب وأعاد المنتفضين منهم إلى سيطرة الدولة.

وكورة أَرَّان كما هو معروف. تمتدّ من مدينة: (باب الأبواب) في الشمال الشرقي لإِقليم إرمينية، إلى مدينة (تَفْلِيس) غرباً، ويحدّها نهر (الرَسّ) من الجنوب والجنوب الغربي[1].

وتقع مدينة (باب الأبواب) على بحر الخزر (قزوين)، وتنتهي حدودها عند جبل (القَبْق).

وتعتبر أَرَّان من إرمينية الأولى، أما اللكْز فتعتبر من إرمينية الثانية.

وكانت هذه الغزوة التي قادها مروان، من الغزوات الموفَقة إلى أبعد الحدود.

٣ ـ وفي سنة سبع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٥م) بعث مروان وهو على إرمينية بَعْثَين إلى جبل (القَبْق)[2]، فافتتح أحد البعثين ثلاثة حصون من (الّلان)، ونزل الآخر على (تُومان شاه)، فنزل هذا على حكم مروان، فبعث به مروان إلى هُشام بن عبد الملك في دمشق، فردّه هشام إلى مروان، فأعاده مروان إلى مملكته[3]، بعد أن اطمأن إلى التزام الملك بالعهود والمواثيق التي قطعها على نفسه للمسلمين.

وجبل القَبْق هو جبل القفقاس الكبرى، وهو جبل منيع جداً، يبلغ

---

(١) المسالك والممالك للإصطخري (١٩٠).

(٢) جبل القبق: يمتد في شمالي إقليم إرمينية، ويتكون من عدّة سلاسل تمتدّ عموماً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بصورة متوازية، حيث تمتد إلى البحر الأسود (بحر بنطس) إلى بحر قزوين.

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٢) وابن الأثير (٥/ ١٨٦).

متوسّط ارتفاعه عن سطح البحر بين (٢٧٠٠ متر - ٣٦٠٠م)، ويضمّ قمماً يتجاوز ارتفاعها (٤٥٠٠ متر)، ويبدو أنّ الذين أرادوا الانتقاض على الدولة، استفادوا من مناعة مناطقهم الجبليّة التي تساهم على الدفاع، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات أمام القوّات الإسلاميّة بالرغم من مناعة بلادهم، فاستسلموا إلى تلك القوات.

ويبدو أيضاً أن الاضطرابات التي حدثت في جبال القَبق كانت اضطرابات خفيفة، لذلك بعث مروان مَنْ يعالجها من قادته المرءوسين ولم يتولَّ معالجتها بنفسه، كما أن عفوه عن تُومان شاه وإعادته إلى مملكته دليل آخر على أنّ اضطراباته لم تكن خطيرة بدرجة يستحق عليها أيّ نوع من العقاب، فتمّ تسويتها بسلام.

٤ - وفي سنة ثماني عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٦م)، غزا مروان أرض (وَرْتَنِيْس)، فدخلها من ثلاثة أبواب، وأحاط بحصنها إحاطة السِّوار بالمعصم.

وهرب وَرْتِنْيس قائد الحصن وترك حصنهُ الذي سمى باسمه تحت رحمة المحاصرين، وتوجّه في هربه إلى الخزر، فنصب مروان على الحصن المجانيق وأخذ يقصفه قصفاً عنيفاً متواصلًا. ولكنّ ورتنيس قُتل وهو في طريقه إلى الخزر، فبعث مَن قتله برأسه إلى مروان، فنصبه لأهل حصنه الذين تأكّد لهم قتله، فانهارت معنوياتهم، ونزلوا على حكم مروان الذي قتل المقاتلة وسبى الذريّة(١).

ويبدو أن ورتنيس قصد ملك الخزر ليستعين به على المسلمين،

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٦٣) وابن الأثير (٥/١٩٨)، وورد فيه: ورنيس بدلًا من ورتنيس، وورتنيس هو الصواب، إذ لا يزال هذا الاسم شائعاً بين الأرمن حتى اليوم.

وحرّض رجاله على الثبات في الحصن حتى الرمق الأخير، ريثما تردهم النجدات معه، فلما تبيّن لهم أنه قُتل، لم يبق لهم أمل بالنّجاة.

٥ ـ وفي سنة تسع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٧م)، غزا مروان إرمينية، فدخل من باب (اللّآن)، واخترق هذه الولاية حتى خرج إلى بلاد الخَزَر، فمرّ بمدينة (بَلَنْجَر) و(سَمَنْدار)[١]، وانتهى إلى مدينة (البَيْضاء) عاصمة خاقان، فهرب خاقان منها ومن مروان[٢].

ومن المعروف أنّ جبل القَبْق يقطعه ممرّان: الأول عن طريق مدينة باب الأبواب، والثاني عن طريق باب اللآن الذي يطبق عليه في الوقت الحاضر: ممر: (دَارْيِيْل) أو ممر: (دايال) على اسم مدينتين يمرّ بهما هذا الممر الحيوي الذي سلكه مروان في هذه الحملة.

وكانت هذه الغزوة من غزوات مروان الشّاملة التي قصد بها إبراز قوّة الدولة ومقدرتها على قمع كلّ انتقاض بكفاية وسرعة.

ويبدو أنّ هذه الغزوة أثمرت في توطيد الأمن والاستقرار في ربوع إرمينية بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للسكّان الأصليين، فقد كانت سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٨م) سنة سلام واستقرار في أرجاء إرمينية، إذ لم يَغْز مروان في تلك السنة، فاستعادت قوّات المسلمين أنفاسها، وأكملت استحضاراتها استعداداً لجهاد جديد.

كما أنّ هذه الغزوة حقّقت بانتصاراتها استعادة فتح أجزاء كبيرة من

---

(١) سمندر: بلد خلف باب الأبواب بثمانية أيام بأرض الخزر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٤) وابن الأثير (٥/ ٢١٥)، وانظر النجوم الزاهرة (١/ ٢٨٢).

إرمينية وبلاد الخَزَر سبق فتحها من الفاتحين الأولين، ولكنها كانت تنتقض بين حينٍ وآخر إذا وجدت لذلك سبيلًا.

٦ ـ وفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٣٨م)، غزا مروان في إرمينية وهو واليها، فأتى قلعة بيت السّرير، فقَتل وسبى.

ودخل مروان (غُوْمَسْك)[١]، وهو حصن فيه بيت الملك، يكون فيه ملك السّرير[٢]، فخرج الملك هارباً حتى أتى حصناً يقال له: (خترج)[٣] فيه سرير الذّهب، فأقام عليه مروان شتوةً وصيفةً محاصراً له، فصالحه على ألف رأس كلّ سنة ومئة ألف مُدْيٍ.

وسار مروان، فدخل (تُومان)، فصالحه ملكها تومان شاه.

وسار مروان، فدخل أرض (زِرِبكران)[٤]، فصالحه ملكها.

وسار مروان حتى دخل بلاد (حمزين)[٥]، فأخرب بلاده، وحصر حصناً له شهراً كاملًا، فسأله حمزين الصّلح، فصالحه مروان.

وسار مروان حتى دخل أرض (مسدار)[٦]، فافتتحها على صلح.

---

(١) وردت كذلك في تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٧)، أما في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠)، فقد وردت: غرميك.

(٢) ملك السرير: يدعى وهرارزانشاه، انظر فتوح البلدان (٢٧٦).

(٣) خترج: وردت كذلك في تاريخ ابن خياط (٢/ ٣٦٧)، أما في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠) فقد وردت: خيزج، حصن في إقليم السّرير، ولا ذكر له في المصادر البلدانية الميسّرة.

(٤) زريلران: هكذا وردت في فتوح البلدان (٢٩٣).

(٥) حمزين: هكذا وردت في ابن الأثير (٥/ ٢٤٠)، أما في تاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦٧)، فقد وردت حمرين.

(٦) هكذا وردت في تاريخ خليفة ابن خياط (٢/ ٣٦٧)، أما في تاريخ ابن الأثير (٥/ ٢٤٠)، فقد وردت: مسداز.

ثمّ نزل مروان على (كِيْران)[1]، فصالحه طَبَرْ سَرانشاه وفِيْلَانْ شَاه[2].

وكلّ هذه الولايات على شاطئ البحر من إرمينية إلى طَبَرِستان[3].

ومن الواضح أنّ هذه الغزوة كانت لغرض فرض سيطرة الدولَة على الذين انتقضوا، وإظهار قوّتها للذين خالفوا وللذين يتردّدون في إعلان مخالفتهم لسبب أو لآخر، والقوّة هي السَّبيل لقمع الفوضى وفرض النظام إذا عجزت السياسة عن فرضهما بالحسنى.

وقد تهيأَ لمروان في هذه السنة من الفتوحات أَمْرٌ عظيم، ووقع في قلوب الخزر والترك منه رعب عظيم[4].

وقد وطّد أركان الأمن والاستقرار في إرمينية. وأصبح الذين كان دأبهم الانتقاض على الدولة والشّغب عليها وقطع الجزية عنها أو المماطلة في أدائها، يخافون مروان ويهابونه ويطيعونه وينفّذون أوامره، كما أصبح للدولة هيبة في نفوس سكّان البلاد الأصليين والوافدين، لهذا نعمت إرمينية بالسّلام والاستقرار، وانصرف مروان للبناء والتعمير، إلى أن عاد أدراجه من إرمينية إلى دمشق، على رأس جيش ضخم سنة سبع وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٤م) مطالباً بالخلافة.

لقد كان مروان في قيادته فاتحاً من أبرز الفاتحين في دولة بني أُميّة: فتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعدِّدة في سنين كثيرة، وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله، وقاتل طوائف من الناس الكفّار ومن الترك والخزر واللاّن وغيرهم، فكسرهم وقهرهم، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي[5].

---

(١) كيران: مدينة بإرمينية بالقرب من البيلقان، انظر معجم البلدان (٧/ ٣٠٥).

(٢) تاريخ خليفة بن خيّاط (٢/ ٣٦٧) وابن الأثير (٥/ ٢٤٠) وانظر الطبري (٧/ ٩٩).

(٣) ابن الأثير (٥/ ٢٤٠).

(٤) العبر (١/ ١٥٣).

(٥) البداية والنهاية (١٠/ ٤٧).

١ ـ من الولاية إلى الخلافة:

في الصراع الداخلي:

تُوفي هُشام بن عبد الملك بن مروان سنة خمس وعشرين ومئة الهجرية[١] (٧٤٢م)، فتولى الخلافة من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فكتب إليه مروان بن محمد بيعته، واستأذنه بالقدوم عليه[٢]، وكان نصّ كتاب البيعة الذي بعث به مروان إلى الخليفة الجديد: «بارك الله لأمير المؤمنين فيما صار إليه من ولاية عباده، ووراثة بلاده؛ وكان من تغشّي غَمْرة سكرة الولاية ما حمل هُشاماً على ما حاول من تصغير ما عظّم اللّهُ من حقّ أمير المؤمنين، ورامَ من الأمر المستصعَب عليه، الذي أجابه إليه المدخولون[٣] في آرائهم وأديانهم، فوجد ما طمع فيه مُستصعباً، وزاحمته الأقدار بأشدِّ مناكبها. وكان أمير المؤمنين بمكانٍ من الله حاطه فيه، حتى أَزَّره بأكرم مناطق الخلافة، فقام بما أراه الله له أهلًا ونهض مستقلًّا بما حُمِّل منها، مثبتة ولايته في سابق الزُّبُر[٤] بالأجل المسمّى، وخصّه الله بها على خُلقه وهوْ يرى حالاتهم، فقلّده طَوْقها، ورمى إليه بأزِمّة الخِلافة، وعِصم الأمور.

فالحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لخلافته، ووثائق عُرَى دينه، وذبّ له عمّا كاده فيه الظالمون، فرفعه ووضعهم، فمن أقام على تلك الخَسِيسة من الأمور أَوْبَق[٥] نفسه وأسخطَ ربَّه، ومَنْ عدلتُ به التّوبة نازعاً عن الباطل إلى حق وجد الله توّاباً رحيماً.

أُخبر أمير المؤمنين أكرمه الله، أني عندما انتهى إليّ من قيامه بولاية

---

(١) الطبري (٧/ ٢٠٠) وابن الأثير (٥/ ٢٦١) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٧٢) والعبر (١/ ١٦٠).

(٢) الطبري (٧/ ٢١٦) وابن الأثير (٥/ ٢٦٨).

(٣) المدخول: مَنْ في عقله دخل، أي فساد.

(٤) الزّبر: جمع زبور، وهو الكتاب.

(٥) أوبق نفسه: أي أهلكها.

خلافة الله، نهضتُ إلى منبري، عليّ سيفان مستعدّاً بهما لأهل الغش، حتى أعلمتُ مَنْ قِبَلي ما امتن الله به عليهم من ولاية أمير المؤمنين، فاستبشروا بذلك، وقالوا: لم تأتنا خلافة كانت آمالنا فيها أعظم ولا هي لنا أسرّ من ولاية أمير المؤمنين؛ وقد بسطتُ يدي لبيعتك فجدّدتها ووَكدّتها بوثائق العهود وترداد المواثيق وتغليظ الأيمان، فكلّهم حسُنت إجابتُهم وطاعتُهم، فأَثِبْهم يا أمير المؤمنين بطاعتهم من مال الله الذي آتاكَ، فإنك أجودهم جوداً وأبسطهم يداً، وقد انتظروك راجين فضلَك قِبَلهم بالرَّحم الذي استرحموك، وزِدْهم زيادة يَفْضَل بها مَنْ كان قِبَلك، حتى يظهر بذلك فضلُك عليهم وعلى رعيتِك؛ ولولا ما أُحاول من سدِّ الثّغر[1] الذي أنا به، لخفتُ أن يحملني الشّوق إلى أمير المؤمنين أن أستخلف رجلًا على غير أمره، وأقدمَ لمعاينة أمير المؤمنين، فإنّها لا يعدلها عندي عادل نعمة وإن عظمت، فإن رأى أمير المؤمنين يأذن لي في المسير إليه لأشافهه بأمورٍ كرهتُ الكتاب بها فعل»[2].

ولا تخلو هذه الرسالة من مجاملة في غير موضعها لا يستحقّها الخليفة الجديد، لأنّ الخليفة الجديد كان صاحب لهوٍ وصيد ولذّات حتى ثقل على النّاس وعلى جنده[3]، ولكنها تدلّ على أنّ مروان يميل إلى الوليد بن يزيد ويدين له بالولاء، وقد بقي على ولائه ما بقي الوليد على قيد الحياة.

فقد بلغ مروان وهو في مقر عمله على إرمينية وأذربيجان والجزيرة سنة ست وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٣م)، أنّ يزيد بن الوليد بن عبد الملك يدعو سرّاً لنفسه ويبثّ دعاته في الأمصار ويبايع الناس سرّاً، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان. وكان يدعى: سعيد الخير، وكان أكبر بني أميّة وأفضلهم حينذاك ـ يأمره أن ينهى النّاسَ ويكفّهم ويحذّرهم الفتنة

---

(١) الثغر: موضع المخافة من فروج البلدان.
(٢) الطبري (٧/٢١٦ ـ ٢١٧).
(٣) الطبري ((٧/٢٣١).

ويخوّفهم خروج الأمر عنهم. وأعظم سعيد ذلك، وبعث بالكتاب إلى العبّاس بن الوليد بن عبد الملك، فاستدعى العبّاس يزيد وتهدّده، ولكن يزيدَ كتمه أمره، فصدّقه العباس[1]، وانتهى الأمر إلى هذا الحد.

واستطاع يزيد بن الوليد بن عبد الملك قتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك وتولى الخلافة من بعده، فاضطرب أمر بني أُميّة اضطراباً شديداً.

ولعلّ أخطر الاضطرابات التي انتشرت انتشاراً خاطفاً، مخالفة مروان بن محمد للخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية، وإظهار هذا الخلاف.

وبدأ عبد الملك بن مروان بن محمد بالوثوب على حَرّان والجزيرة فضبطهما بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم كتب إلى أبيه مروان وهو بأرمينية يُعْلمه بذلك ويشير عليه بالتَّعجيل بالمسير إلى دمشق، فتهيأ مروان للمسير، وأنفذ إلى الثغور مَن يضبطها ويحفظها، وأظهر أنّه يطالب بدم الوليد بن يزيد، وسار ومعه الجنود ومعه ثابت بن نُعَيْم الجُذاميّ من أهل فلسطين.

وسبب صحبة ثابت، أنّ هشام بن عبد الملك، كان قد حبسه، لأن هشاماً أرسله إلى إفريقية لما قتلوا عامله كُلْثوم بنِ عياض فأفسد الجند، فحبسه هشام. وقدم مروان على هشام في بعض وفاداته، فشفع بثابت، فقبل هشام شفاعته وأطلق سراحه، فاستصحبه معه مروان إلى إرمينية.

ولما سار مروان مسيره هذا، أمر ثابت بن نُعَيْم مَنْ مع مروان من أهل الشّام بالانضمام إليه ومفارقة مروان، ليعود بهم إلى الشّام، فأجابوه إلى ذلك، واجتمع معه ضعف مَنْ مع مروان، وباتوا يتحارسون، ولكن مروان هدّدهم، فانقادوا له، فأخذ ثابت بن نُعَيْم وأولاده وحبسهم، وضبط الجند حتى بلغ حرّان، ثم سيّرهم إلى الشّام.

---

(١) الطبري (٧/ ٢٣٨) وابن الأثير (٥/ ٢٨٤).

ودعا مروان أهل الجزيرة إلى التجنيد، ففرض لنيِّف وعشرين ألفاً، وتجهّز للمسير إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك في دمشق.

وكاتبه يزيد ليبايع له، على أن يولّيه ما كان عبد الملك بن مروان ولّى أباه محمد بن مروان من الجزيرة وإرمينية وأذربيجان، فبايعه مروان، وأعطاه يزيد ولاية ما ذكر له[1].

والذي يبدو أنّ مروان تظاهر بالمطالبة بدم الوليد، لأنّه خشى أن يعزله الخليفة الجديد يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فلما أقرّه على الجزيرة وإرمينية وأذربيجان بايع يزيد وكفى الله المؤمنين شرّ القتال، وهكذا كان طموح مروان غير المشروع، هو المحرِّك لإقدامه على الخلاف.

والدليل على أن طموحه غير المشروع هو الذي دفعه إلى الخلاف، وحرصه على الولاية التي يحكمها من زمن بعيد أولّا وقبل كلّ شيءٍ، هو أنّه لم يخالف الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان فاسقاً متهتِّكاً[2]، وخالف يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان فيه زُهْدٌ وعدلُ وخير[3]، لأنّ الوليد أقرّه على ولايته، ولأن زيد لم يقرّه في بداية أيام خلافته، ثم أقرّه على ولايته حين علم بمخالفته، فبايع يزيدَ ونسي خِلافه وجمّده إلى حين.

ولكن يزيد بن الوليد بن عبد الملك تُوفي في هذه السنة وهي سنة ست وعشرون ومئة الهجرية بعد أن تولى الخلافة ستة أشهر تقريباً[4]، فتولّى الخلافة من بعده إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك[5]، فأظهر مروان خلافه

(١) الطبري (٧/٢٩٧) وابن الأثير (٥/٣٠٩ ـ ٣١٠).
(٢) العبر (١/١٦١).
(٣) العبر (١/١٦٢).
(٤) الطبري (٧/٢٩٨).
(٥) ابن الأثير (٥/٣١١).

من جديد، فقد دفعه طموحه غير المشروع إلى الطمع في تولي أعلى منصب في الدولة الإِسلامية، كأنّ منصبه الحالي لا يرضي طموحه الجامح بعد اليوم.

وسار مروان بالجنود، وخلّف ابنه عبد الملك في جمع عظيم بالرَّقَّة، فلما انتهى مروان إلى قِنَّسْرين، لقي بها بِشْر بن الوليد بن عبد الملك، وكان ولّاه أخوه يزيد قِنَّسْرين، ومعه أخوه مَسْرور بن الوليد.

واستعدّ الجانبان للقتال، فدعاهم مروان إلى بيته، فمال إليه يزيد بن عمر بن هُبَيْرة في القَيْسِيَّة وأسلموا بِشْراً وأخاه مَسْروراً، فأخذهما مروان وحبسهما، ثمّ سار ومعه أهل قِنَّسْرين متوجِّهاً إلى حِمْص.

وكان أهل حمص قد امتنعوا حين مات يزيد من بيعة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي تولّى الخلافة بعد يزيد بعهدٍ منه، على أن يتولى الخلافة من بعده عبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك[1]، فلم يبايع أهل حمص إبراهيمَ وعبدَ العزيز، فوجه إليهم إبراهيم لقتالهم عبد العزيز وجند أهل دمشق، فحاصروا أهل حمص في مدينتهم.

وأسرع مروان في مسيرته باتِّجاه حمص، فلما دنا منها، رحل عنها عبد العزيز، فخرج أهلها إلى مروان وبايعوه وساروا معه نحو دِمَشق.

ووجّه إبراهيم بن الوليد الجنود من دمشق مع سليمان بن هُشام بن عبد الملك، للقاء مروان وصدِّه عن دمشق، فنزل سليمان موضع: (عين الجَرْ)[2] في مئة وعشرين ألفاً، ونزلها مروان في ثمانين ألفاً.

ودعا مروان أهل دمشق إلى الكفّ عن قتاله وإطلاق سراح ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك من السِّجن، وكانا قد سُجنا بعد مقتل أبيهما،

---

(١) ابن الأثير (٥/٣٠٨).

(٢) عين الجر: موضع معروف بسهل البقاع، بين بعلبك ودمشق، انظر معجم البلدان (٦/١٥٤).

وضمن لهم مروان أنه لا يطلب أحداً من قَتَلة الوليد إذا كفّوا عن قتاله، فلم يجيبوه وجدّوا في قتاله.

واقتتل الجانبان ما بين ارتفاع النّهار إلى العصر، وكثر القتل بينهما.

وكان مروان ذا رأيٍ ومكيدة، فأرسل ثلاثة آلاف فارس، فساروا خلف عسكره، وقطعوا نهراً كان هناك، وقصدوا عسكر دمشق ليغيروه فيه، فلم يشعر سليمان ومَنْ معه وهم مشغوفون بالقتال إلّا بالخيل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلفهم، فانهزم عسكر دمشق، ووضع أهل حمص السِّلاح فيهم لحنقهم عليهم، فقتلوا منهم سبعة عشر ألفاً، وكفّ أهل الجزيرة وأهل قِنّسرين عن قتلهم، وأتوا مروان من أسراهم بمثل القتلى وأكثر، فأخذ مروان عليهم البيعة لولَدَيِّ الوليد، الحكم وعثمان، وخَلَّى عن الأسرى الباقين عدا اثنين من الأسرى توليا قتل الوليد فحبسهما فماتا في السِّجن.

وهرب يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْرِيّ فيمَنْ هرب مع سليمان إلى دمشق واجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجّاج، فقال بعضهم لبعض: إن بقي ولدا الوليد: الحكم وعثمان، حتى يُخْرجهما، مروان ويعيد الأمر إليهما، لم يَسْتَبْقِيا أحداً من قَتَلة أبيهما، والرأي قتلهما، فقُتِلا.

وتقدّم جيش مروان كالسّيل الجارف إلى دمشق، فدخلتها خيل مروان أولًا ثم مشاته بعد الخيل، فهرب إبراهيم وهرب الخليفة واختفى، وانتهب سليمان ما في بيت المال وقسمه في أصحابه وخرج من المدينة، وهرب أشياع الخليفة واختفوا ودخل مروان المدينة لا ينازعه أحد فيها[1].

وما قَتَلَ الحَكَمَ وعثمان وهما ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك والوريثان الشرعيان للخلافة، مَنْ قتلهما من أصحاب إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الخليفة المخلوع، ولكنَ الذي قتلهما هو مروان، فقد ذبحهما بغير سكين، حين أجبر أسرى جيش دمشق في معركة: (عين الجَرّ) على

---

(١) الطبري (٧/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢) وابن الأثير (٥/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

بيعتهما، ولا أظنّ أنّ مروان بدرجة من الغباء بحيث يغفل عن خطورة بيعتهما وهما في سجن إبراهيم، ويبدو أنّه أراد أن يُزيل آخر عقبة أمامه تحول بينه وبين الخلافة، فأقدم على ما أقدم ليتخلّص منهما، على الرغم من تظاهره بنصرتهما والمطالبة بدم الوليد أبيهما، وهو في الواقع لا يطالب بغير الخلافة لنفسه، لأنّه كان يرى أنه أحق بها من غيره في حينه.

وبدأت تمثيلية بيعة مروان بالخلافة، إذ لم يبق أحد ينازعه في تولي هذا المنصب الرفيع، فقد أُتي مروان بالغلامين الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك مقتولين وغيرهما فدفنهم وأُتي بأبي محمد السفياني الذي نجا من القتل بأعجوبة، وكان مع ابني الوليد بن يزيد في السجن، وقد أُتي به في قيوده، فسلّم على مروان بالخلافة!!

وكان مروان يُسلّم عليه يومئذٍ بالإمرة.

واستنكر مروان التّسليم عليه بالخلافة، ولكن أبا محمد السفياني قال: «إنهما - ويريد الغلامين الحكم وعثمان.. جعلاها لك بعدهما»، وأنشده شعراً قاله الحَكَم في السجن، وكانا قد بلغا وولد للحكم مولود، وهذا هو شعر الحكم الذي رواه السفياني لمروان:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ مَرْوَان عنّي ... وعَميّ الغَمْرَ طال به حنينا[١]
بأني قد ظُلمتُ وصار قومي ... على قتل الوليد مشايعينا[٢]
أَيذهبُ كلُّهم بدمي ومالي ... فلا غثّاً أصبتُ ولا سَمينا[٣]
ومروانٌ بأرض بني نِزارٍ ... كليث الغاب مفترسُ عرينا[٤]

(١) في الطبري (٧/ ٣١١): طال بذا حنينا.
(٢) في الطبري: متابعينا.
(٣) في الطبري، أيذهب كلبهم.
(٤) ورد في الطبري بعد هذا البيت الأبيات التالية:
أَلَمْ يَحْزُنكَ قَتْلُ فَتَى قُرَيْشٍ ... وشَقُّهُمُ عِصيَّ المسلمينا
ألا فاقْرَ السَّلَامَ على قُرَيْشٍ ... وقَيْسٍ بالجزيرة أَجْمَعينا =

أتُنْكَثُ بَيْعَتي من أجل أمي فقد بايعتُم قبلي هجينا[1]
فإنْ أَهْلِك أنا ووليّ عَهْدِي فمروانٌ أمير المؤمنينا

ثمَّ قال: «ابسط يدك أبايعك».

وسمعه مَنْ مع مروان، وكان أوّل من بايعه معاوية بن زيد بن حُصَيْن بن نُمَيْر ورؤوس أهل حِمْص والناس بعده.

ولما استقرّ له الأمر، رحل إلى منزله بحَرَّان.

وطُلب منه الأمان لإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك وهو الخليفة المتنازل عن الخلافة، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، فآمنهما. وقد وفدا عليه وهو في حَرَّان، وبايعاه بالخلافة، وكان سليمان بـ (تَدْمُر) بمن معه من إخوته ومواليه، فبايعوا جميعاً مروان بن محمد بن الحَكَم[2].

وليس المهم تحقيق نتيجة نسبة هذه الأبيات إلى الحَكَم، فالظلال على نسبتها كثيفة قاتمة، فبالرغم من سذاجة الأبيات الشعرية، إلّا أنّها يصعب على الحكم قولها في ظروفه الحرجة وهو بين الحياة والموت وقد بلغ الحلم أو لم يبلغه، كما يصعب على هذا السفياني حفظ هذا الشعر وهو مهدّد بالموت في السِّجن يلجأ إلى أحد دهاليسه ويغلق عليه الباب، وخلفه السيوف مصلتة تريد رأسه، فينقذه من القتل وصول جند مروان في تلك اللّحظات الحرجة الحاسمة إلى السِّجن.

المهمّ أنّ مروان حقّق ما طمح إليه في تسنّم سدّة الخلافة، وبعد انتصاره على جيش الخلافة أصبح سيّد الموقف بدون منازع، ولو لم يتطوّع

= وساد الناقص القَدَرِيّ فينا وألقى الحربَ بين بني أبينا
فلو شَهِدَ الفوارس مِن سُلَيْم وكَعْبٍ لم أكنْ لهمُ رهِينَا
ولو شَهِدَتْ لُيوثُ بني تَمِيمٍ لما بِعْنا تراثَ بني أبِينا

(1) بعد هذا البيت في الطبري:
فلَيْتَ خئولتي من غير كَلْبٍ وكانت في ولادة آخرينا

(2) الطبري (٧/ ٣١١ ـ ٣١٢). وابن الأثير (٥/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

السفياني باختلاق ما أعلنه من أساطير، لتطوّع لإعلان مثلها غيره من النهّازين الخبراء كلّ الخبرة بإسماع السلطان ما (يحبّ) أن يسمع لا ما (يجب) أن يسمع، فأكثر الناس مع (الواقف) لا مع (القاعد) بصرف النظر عن أيّهما يكون معه الحقّ وأيّهما يكون معه الباطل، فهم مع (القوي) حتى إذا كان على الباطل، على (الضعيف) حتى إذا كان على الحق.

وقد ظنّ مروان أنّه بلغ أوج سعادته في تسلّمه الخلافة، وما درى أنّه بلغ حضيض شقائه في تسلّمها، فقد انتهت بالخلافة أيام رخائه، وبدأت بها أيام شقائه، حتى قُتل شريداً طريداً غريباً محروماً من أبسط حق من حقوق الإِنسان: القبر.

٢ ـ أوّل الغيث:

أ ـ كانت بيعة مروان بالخلافة سنة سبع وعشرين ومئة الهجرّية (٧٤٤م)، وفي هذه السنة بالذّات ظهر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه، فقاتله جيش الدولة وانتصر عليه، فلجأ إلى (المدائن) بعد أن أُعطي له الأمان، ولكنه جمع الجموع فغلب على حُلوان والجبال وَهَمدان وأصبهان والريّ[1]، واشتبك بعدة معارك طاحنة اندحر فيها، فهرب إلى أبي مُسْلم الخراساني الذي أعلن الدعوة العباسيّة بخُراسان، فقتله أبو مسلم الخراساني سنة تسع وعشرين ومئة الهجرية[2] (٧٤٦م).

ب ـ وفي هذه السّنة انتقض أهل حِمْص على مروان، وسبب انتقاضهم أنه لما عاد إلى حَرَّان بعد فراغه من أهل الشّام، أقام ثلاثة، فانتقض عليه أهل حمص.

وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نُعَيْم الذي راسلهم محرِّضاً،

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧).

(٢) انظرالتفاصيل في ابن الأثير (٥/ ٣٧٠ ـ ٣٧٣).

وبعث إليهم مَنْ بتَدْمُر من كَلْب في نحوٍ من ألفٍ من فرسانهم، فدخلوا حمص ليلة عيد الفطر.

وتوجّه مروان في السّير إلى حمص ومعه الخليفة المخلوع إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان مروان قد آمنهما، وكان يكرمهما إكراماً كبيراً.

وبلغ مروان حمص بعد الفطر بيومين، وقد سدّ أهلها أبوابها، فأحدق بالمدينة، ووقف بإزاء بابٍ من أبوابها، فنادى مناديه الذين عند الباب: «ما دعاكم إلى النكث؟!»، فقالوا: «إنّا على طاعتك، لم ننكث!»، فقال: «فافتحوا الباب»، ففتحو الباب!!

ودخلت قوّات مروان حمص في نحو ثلاثة آلاف مقاتل، فقاتلهم مَنْ في البلد، ولكنّ خيل مروان هاجمتهم بشدّة وتكاثرت عليهم.

وخرجت قوّات حمص من باب تَدْمُر، أحد أبواب المدينة، فقاتلهم مَنْ عليه من أصحاب مروان، فقتل عامّة مَنْ خرج منه، ولم يفلت منهم غير الشّريد.

وقتل مروان جماعة من الأسرى، وصلب خمسمائة من القتلى حول المدينة، وهدم من سورها نحو غَلْوَة[(١)].

وغير الواضح في هذه المعركة، هو سبب فتح باب من أبواب المدينة للمهاجمين، ولا تعليل له إلّا أن يكون سكّان المدينة غير مجمعين على حرب مروان، ففتح له الباب الذين كانوا لا يريدون قتاله من أهل حمص، وأفسحوا له المجال لقتال المخالفين.

وعلى كلِّ حال، فقد كانت قوّات الجانبين غير متكافئتين، وكان

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣١٢ ـ ٣١٦) وابن الأثير (٥/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩)، والغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدّر بثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة ذراع.

التفوق مع جيش مروان، لذلك انتصر على أهل حمص، وبالغ في عقابهم الصّارم، على نقضهم الذي لا مسوِّغ له، بعد أن كانوا معه على أعدائه.

جـ - وفي هذه السنة أيضاً، سنة سبع وعشرين ومئة، خالف أهل الغُوْطَة[1] وهي الكورة التي منها دمشق[1]، وولّوا عليهم يزيد بن خالد القَسْرِيّ، وحصروا دمشق.

ووجّه إليهم مروان من حمص أحد قادته في عشرة آلاف مقاتل، فلما دنوا إلى المدين حملوا على المخالفين.

وخرج عليهم مَنْ بالغوطة، واشتبك الجانبان، فانهزم أهل الغوطة، واستباح جيش عسكرهم، وأحرقوا (المِزَّة)، وكانت قرية كبيرة غَنَّاء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ[2]، كما أحرقوا قرى اليمانيين المجاورة للغُوطة، وأُخذ يزيد بن خالد فقُتل، وبُعث برأسه إلى مروان بحمص[3].

د - وفي هذه السنة أيضاً، سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة، خرج ثابت بن نُعَيْم بعد أهل حمص ودمشق، معلناً خلافه لمروان، وكان مع ثابت في خلافه أهل فلسطين.

وتقدّم ثابت بمن معه إلى مدينة (طَبَرِيَّة) فحاصرها، وكان عليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ابن عم مروان بن محمد بن الحكم.

وكتب مروان إلى قائده الذي بعثه إلى الغُوطة يأمره بالمسير إلى أهل فلسطين المخالفين، فسار إليهم، فلما قرب منهم خرج أهل طبريَّة على ثابت، فهزموه واستباحوا عسكره.

---

(١) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣١٤ - ٣١٥).

(٢) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٧).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣١٣ - ٣١٤) وابن الأثير (٥/ ٣٢٩).

وانصرف ثابت إلى فلسطين منهزماً، ولكنّ قائد مروان الذي بعثه لقتاله طارده، فالتقوا واقتتلوا، فَهُزم ثابت ثانية وتفرّق أصحابه، وأُسر ثلاثة من أولاد ثابت، واستطاع ثابت وابنه رفاعة أن يلوذا بالفرار.

واستعمل مروان أحد رجاله على فلسطين، فظفر بثابت وبعثه إلى مروان موثقاً بعد شهرين، فأمر به وبأولاده الثلاثة، فقتلوا جميعاً، ثم حُملوا إلى دمشق، فأُلقُوا على باب المسجد، ثم صلبهم على أبواب دمشق[١].

هـ ـ وكان مروان في هذه السّنة قد بايع لابنيه عُبيد الله وعبد الله وزوّجهما ابنتيْ هشام بن عبد الملك، وجمع كذلك بني أُميَّة، واستقام له الشام ما عدا تدمُر، فسار إليها ونزل القَسْطَل[٢]، وبينه وبين تَدْمُر أيّام، وكانوا قد عوّروا[٣] المياه، فاستعمل المزاد والقِرب والأعلاف والإِبل. وكلّمه الأبرش بن الوليد بن عبد الملك وسليمان بن هشام بن عبد الملك وغيرهما، وسألوه أن يُعذِر إليهم ويحتجّ عليهم، فأجابهم إلى ذلك. ووجّه الأبرش إليهم أخاه عمرو بن الوليد، فلم يستجيبوا له، فقصدهم الأبرش وخوّفهم وحذّرهم، فأجابوا إلى الطّاعة، وهرب بعضهم إلى البر مِمَّنْ لم يثق بمروان، ورجع الأبرش إلى مروان ومعه مَنْ أطاع بعد أن هدم سورها[٤].

و ـ وكان مروان في هذه السّنة أيضاً، قد سيّر يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة بين يديه إلى العراق لقتال الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجيّ، وضرب على أهل الشّام بعثاً، وأمرهم باللّحاق بيزيد.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣١٤) وابن الأثير (٥/ ٣٣٠).

(٢) القسطل: موضع بين حمص ودمشق، انظر معجم البلدان (٧/ ٨٦).

(٣) عوّر البئر: أفسدها.

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣١٤ ـ ٣١٥) وابن الأثير (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

وسار مروان إلى الرُّصافة[1]، فاستأذنه سليمان بن هشام بن عبد الملك ليقيم أياماً ليقوى ويستريح هو ومَنْ معه، فأذن له مروان بالبقاء.

وتقدّم مروان إلى (قَرْقِيْسِيَاء) وبها ابن هُبَيْرَة ليقدِّمه إلى الضَّحاك في العراق، فرجع عشرة آلاف ممَّنْ كان مروان قد أَخذهم من أهل الشّام لقتال الضحّاك، فأقاموا بالرُّصافة، ثمّ دعوا سليمان بن هشام بن عبد الملك إلى خلع مروان، فأجابهم سليمان إلى ما دعوه إليه وأعلن خلع مروان بن محمّد.

وسار سليمان بإِخوته ومواليه مع جند الشام الذين رفضوا السير إلى العراق مع مروان، فعسكر بقنَّسرين وكاتب أهل الشّام، فأتوه من كلِّ وجه.

وبلغ الخبرُ مروانَ، فرجع من قرقيسياء، وكتب إلى ابن هُبَيْرَة يأمره بالمقام في قرقيسياء.

واجتاز مروان في رجوعه بحصن الكامل بين قرقيسياء وقنَّسرين، وكان فيه جماعة من موالي سليمان وأولاد هشام بن عبد الملك، فأرسل إليهم مروان: «إني أحذِّركم أن تعرضوا لأحدٍ ممّن يتبعني من جندي، فإِن فعلتم فلا أمان لكم عندي»، فأرسلواإليه: إنا لا نتعرّض بأحدٍ ممّن معك.

ومضى مروان، فجعل الذين في حصن الكامل يغيرون على مَنْ يتبعه من أخريات النّاس. وبلغه ذلك فتغيظ عليهم.

واجتمع إلى سليمان نحو من سبعين ألفاً من أهل الشّام وغيرهم، وعسكر بقرية (خُسَاف)[2] من أرض قِنَّسرين.

---

(١) الرّصافة: يريد هنا رصافة الشّام التي يطلق عليها رصافة هشام، غربي الرقّة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٢٥٥).

(٢) خساف بريّة بين بالس وحلب ـ مشهورة عند أهل حلب وبالس، وكان بها قرى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٣٦).

وقدم مروان إلى معسكر سليمان بن هشام، وواقعه عند قدومه مباشرة، فاشتدّ القتال بين الجانبين، فانهزم سليمان ومَنْ معه، وطاردتهم خيل مروان تقتل وتأسر، واستباح جيش مروان معسكر جيش سليمان، ثمّ وقف مروان في نقطة للسيطرة على السّابلة، ووقف ابناه في نقطتين أخريين، ووقف كَوْثر صاحب شرطة مروان في نقطة رابعة، وأمرهم ألّا يؤتَوا بأسير إلّا قتلوه إلّا عبداً مملوكاً، فأُحصي قتلاهم يومئذ ما نَيَّف على ثلاثين ألف قتيل، وقُتل إبراهيم بن سليمان أكبر ولده وخالد بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك، وادّعى كثير من الأسرى لجند مروان أنّهم عبيد، فكفّ عن قتلهم وأمر ببيعهم، وكان عددهم أكثر ممن أُصيب من عسكرهم.

ومضى سليمان حتى انتهى إلى حِمْص، وانضمّ إليه مَنْ أفلت ممّن كان معه، فعسكر في حمص وبنى ما كان مروان أمر بهدمه من سورها. وسار مروان إلى حصن الكامل حنقاً على مَنْ فيه، فحصرهم وأنزلهم على حكمه، ومَثَّل بهم وأخذهم إلى الرَّقَّة، فداووا جراحاتهم، وهلك بعضهم وبقي أكثرهم، وكانت عدّتهم نحواً من ثلاثمائة.

وسار مروان إلى سليمان ومَنْ معه، فقال بعضهم لبعض: حتى متى ينهزم من مروان؟!

وتبايع سبعمائة من فرسانهم على الموت، وساروا بأجمعهم مجمعين على أن يبيِّتوا مروان إنْ أصابوا منه غِرَّة.

وبلغ مروانَ خبرهم، فتحرّز منهم، وزحف إليهم في الخنادق على احتراس وتعبية، فلم يُمكِّنهم أن يبيِّتوه.

وكمنوا له في حقل للزيتون في طريقه، وخرجوا عليه وهو يسير على تعبية، فوضعوا السِّلاح فيمَنْ معه، فحشد خيوله التي كانت في المقدمة والمجنبتين، وقاتلهم من ارتفاع النّهار إلى العصر، فانهزم أصحاب سليمان مرة أخرى، وقُتل منهم نحو من ستّة آلاف.

ولما بلغ سليمان هزيمة رجاله، خلّف أخاه سعيداً بحمص، ومضى هو إلى تَدْمُر فأقام بها.

ونزل مروان على حمص، فحصر أهلها عشرة أشهر، ونصب عليهم نيِّفاً وثمانين منجنيقاً يُرمى بها ليلّا ونهاراً، وأهل حمص يخرجون إليه كلّ يوم فيقاتلونه، وربّما بيّتوا نواحي عسكره في بعض الأحيان.

ولما طال عليهم البلاء، طلبوا الأمان على أن يمكّنوه من سعيد بن هشام بن عبد الملك وابْنَيْه عثمان ومروان ومن بعض الذين نصبوا له العداء، فاستوثق من سعيد وابنيه، وقتل أعداءه.

وقيل: إنّ سليمان بن هشام لما انهزم بخُساف، أقبل هارباً حتى صار إلى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بالعراق، فخرج معه إلى الضحّاك بن قيس الخارجيّ، فبايعه وحرّض على مروان، فقال بعض شعرائهم:

ألم ترَ أنّ اللّهَ أظْهَرَ دِينَهُ … وصلّت قريشٌ خلفَ بكر بن وائل[1]

وكان الضحّاك بن قيس من بني شَيْبَان من بكر بن وائل.

ز ـ وفي هذه السنة أيضاً، خرج الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي من العراق، فسار إليه مروان ومعه يزيد بن عمر بن هُبَيْرة الذي قدّمه إلى قرقيسياء، ولكن فتنة سليمان بن هشام جعلت مروان يعود أدراجه من قرقيسياء ويقضي على فتنة سليمان، ثم يعود إليها على رأس جيشه، وكان قد أمر ابن هبيرة بالمقام في قريسياء ريثما يعود إليه.

وسبب خروج الضحّاك الخارجي في العراق على الدولة، أنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك حين قُتل، خرج بالجزيرة حَرَوْريّ يقال له: سعيد بن بَهْدَل الشّيبانيّ في مئتين من أهل الجزيرة، فيهم الضحاك بن قيس الشيباني، فاغتنم قتل الوليد واشتغال مروان بالشّام، فخرج في الجزيرة ثم سار إلى

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧) وابن الأثير (٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٣).

العراق لما بلغه أنّ الاختلاف بها أيضاً، فمات سعيد بن بهدل في الطريق، واستُخلف الضحّاكُ بن قيس، فبايعه الشُّراة (الخوارج)، فأتى أرض الموصل ثمّ (شَهْرَزور)[1]، واجتمعت إليه الصُّفريّة (فرقة من الخوارج) حتى صار في أربعة آلاف.

وهلك يزيد بن الوليد، وكان عامله على العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فلما تولى مروان الخلافة، كتب إلى النَّضْر بن سعد الحَرشِي بولاية العراق، فلم يسلِّم ابن عمر إليه العمل.

وشخص النَّضْر إلى الكوفة، وبقي ابن عمرو بالحيرة، فتحارب أربعة أشهر، وأمدّ مروانُ النَّضْر.

واجتمعت المُضَرِيَّة مع النّضر عصبيّة لمروان حيث طلب بدم الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكانت أمّ الوليد قيسيّة من مُضَر، وكان أهل اليمن مع ابن عمر عصبية له، حيث كانوا يؤيدون يزيد بن الوليد بن عبد الملك في قتل الوليد.

فلما سمع الضحّاك بختلافهم، أقبل نحوهم وقصد العراق سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة، فأرسل ابن عمر إلى النّضر: «إنّ هذا لا يريد غيري وغيرك، فَهَلُمَّ نجتمع عليه».

وتعاقدا عليه واجتمعا بالكوفة، وكان كلٌّ منهما يصلي بأصحابه.

وأقبل الضحاك، فنزل بـ (النُّخَيْلَة)، واقتتلوا قتالًا شديداً، فكشف الخوارج ابن عمر وقتلوا أخاه عاصِماً، فدخل ابن عمر خندقه، وبقي الخوارج يحيطونه إلى اللّيل ثم انصرفوا.

---

(١) شهرزور: كورة واسعة في الجبال، بين أربيل وهمذان، فيها مدن وقرى كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣١٢ ـ ٣١٤).

وفي اليوم الثاني اقتتل الجانبان قتالاً عنيفاً، فانهزم أصحاب ابن عمر، ودخلوا خنادقهم، فلما أصبحوا تسلل أصحابه نحو واسِط، لأنهم رأوا قوماً لم يروا أشدّ بأساً منهم.

وكان ممن لحق بواسط النَّضْر بن سعيد الحرشِيّ وغيره من الوجوه، وبقي ابن عمر فيمَنْ عنده من أصحابه لم يبرح، فقال له أصحابه: قد هرب الناس، فعلامَ تُقيم؟!

وبقي ابن عمر يومين آخرين لا يرى إلّا هارباً، فرحل عند ذلك إلى واسط، واستولى الضحّاك على الكوفة ودخلها.

ووصل ابن عمر إلى واسط، فنزل بدار الحجّاج بن يوسف الثّقفِيّ، فعادت الحرب بينه وبين النّضر إلى ما كانت عليه قبل قدوم الضحّاك إلى العراق، النّضر يطلب أن يسلِّم إليه ابن عمر ولاية العراق بعهد مروان له، وابن عمر يمتنع.

وسار الضحّاك من الكوفة إلى واسِط، فلما رأى ابن عمر والنّضر ذلك، تركا الحرب بينهما واتّفقا على قتال الضحّاك، فاستمرّ القتال بين الجانبين ثلاثة أشهر متواصلاً.

وقال أحد الرجال لابن عمر: «ما رأيتُ مثل هؤلاء! فَلِمَ نحاربهم ونَشْغلهم عن مروان؟ أَعطهم الرِّضا واجعلْهم بينك وبين مروان، فإِنّهم يرجعون عنّا إليه ويوسعونه شرّاً، فإِن ظفروا به كان ما أردتَ وكنتَ عندهم آمناً، وإن ظفر بهم وأردتَ خلافه وقتاله قاتلته وأنت مستريح!».

ثمّ إنّ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز خرج إلى الضحّاك وصالحه وبايعه، ومعه سليمان بن هشام بن عبد الملك[1].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٢٧ ـ ٣٢٩) وابن الأثير (٥/ ٣٣٤ ـ ٣٣٧).

حـ - وفي هذه السنة أيضاً، خلع أهل الأندلس أبا الخُطَّار الحُسَام بن ضِرار أميرهم.

وسبب ذلك أنه لما قدم الأندلس أميراً، أظهر العصبيّة لليمانيّة على المُضَرِيّة، فاتّفق في بعض الأيام أنه اختصم رجل من كِنَانة ورجل من غسّان، فاستعانَ الكِنانِي بالصُّمَيْل بن حاتَم بن ذي الجَوْشَن الضِّبابِيّ، فكلّم به أبا الخُطّار، فاستغلظ له أبو الخطّار، فأجابه الصُّميل، فأمر به فأُقيم وضُرب قفاه، فمالت عِمامته، فلما خرج قيل له: نرى عمامتك مالت! فقال: «إن كان لي قوم فسيقيمونها!».

وكان الصُّميل من أشراف مُضَر، فلما دخل الأندلس شرف فيها بنفسه وأوليّته. فلما جرى له ما ذكرناه جمع قومه وأعلمهم، فقالوا له: نحن تَبَعٌ لك، فقال: «أُريد أن أُخرج أبا الخطّار من الأندلس»، فنصحه بعض أصحابه أن يستعين بأبي عطاء القَيْسِيّ، وكان من أشراف قيس، وكان يناظر الصُّميل في الرياسة ويحسده، وقالوا له: الرأي أنّك تأتي أبا العطاء وتشدّ أمرك به، فأنه تحرِّكه الحميّة وينصرك، وإن تركته مال إلى أبي الخطّار وأعانه عليك ليبلغ فيك ما يريد، والرأي أيضاً أن تستعين عليه بأهل اليمن فضلاً عن مَعَدّ[1].

وسار من ليلته إلى أبي عطاء فعظّمه أبو عطاء، وسأله عن سبب قدومه، فأعلمه، فلم يكلِّمه حتى قام فركب فرسه ولبس سلاحه، وقال له: «انهضِ الآن حيث شئت، فأنا معك»، ثمّ أمر أهله وأتباعه باتِّباعه.

واستعان الصُّميل بثوابَة بن سلامة الحذّاني، وكان مطاعاً في قومه، وكان أبو الخطّار استعمله على إشْبِيْلية وغيرها ثمّ عزله، ففسد عليه، فدعاه الصّميل إلى نصره، ووعده أنه إذا أخرجوا أبا الخطّار صار أميراً، فأجاب إلى نصره، ودعا قومه فأجابوه.

---

(١) معد بن عدنان، وكِنانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن الياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عدنان.

وسار أبو الخطّار إليهم من قُرطبة، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً. وصبر الفريقان، ثم وقعت الهزيمة على أبي الخطّار، وقُتل أصحابه أشدّ قتل، وأُسر أبو الخطّار.

ولما انهزم أبو الخّطار، سار ثوابة بن سلامة والصُّميل إلى قُرْطبة فملكاها. واستقرّ ثوابة في الإِمارة، فثار به عبد الرحمن بن حسّان الكلبيّ وأخرج أبا الخطَّار من السِّجن، فاستجاش (طلب منهم جيشاً) اليمانيّة، فاجتمع له خلق كثير. وأقبل بهم إلى قُرطبة، فخرج إليه ثوابة بمن معه من اليمانيّة والمُضَريّةِ مع الصُّميل.

ولما تقاتل الطَائفتان نادى رجلٌ من مُضَر: يا معشر اليمانيّة! ما بالكم تتعرّضون للحرب على أبي الخطّار، وقد جعلنا الأمير منكم؟! يعني ثوابة، فإنه من اليمن، ثم أضاف، ولو أنّ الأمير منّا، لقد كنتم تعتذرون في قتالكم لنا، وما نقول هذا إلّا تحرّجاً من الدماء ورغبة في العافية للعامة! فلما سمع النّاس كلامه، قالوا: صدق والله، الأمير منّا، فما بالنا نقاتل قومنا؟ فتركوا القتال، وافترق النّاس فهرب أبو الخطّار ولجأ إلى مأمنه، ورجع ثوابة إلى قُرطبة، فسمي ذلك العسكر: عسكر العافية(١).

ط ـ وفي هذه السنة أيضاً، توجّه سليمان بن كثير ولاهز بن قُرَيظ وقَحْطَبة إلى مكّة، فلقوا إبراهيم بن محمد الإِمام بها، وأوصلوا إلى مولى له عشرين ألف دينار ومئتي ألف درهم ومسكاً ومتاعاً كثيراً وكان معهم أبو سلمة الخراساني فقال سليمان لإبراهيم: «هذا مولاك».

وكتب بُكَيْر بن ماهان إلى إبراهيم الإِمام، أنّه في الموت، وأنّه قد استخلف أبا سَلَمة حَفْص بن سليمان، وكتب إلى أهل خراسان، وهو رضيٌّ للأمر فكتب إبراهيم الإمام لأبي مسلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه يخبرهم أنّه قد أسند أمرهم إليه. ومضى أبو سَلِمَة إلى أهل خُراسان يخبرهم أنّه قد

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩).

أسند أمرهم إليه. ومضى أبو سَلِمَة إلى خُراسان فصدَقوه وقبلوا أمره، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشِّيعة وخُمْس أموالهم[1].

٣ ـ تصاعد الخلاف:

أ ـ دخلت سنة ثمان وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٥م)، فتصاعدت حدّة الخلاف، وكثر المخالفون نوعاً وعَدَداً، وكأنّ مروان هدف للرّمي في ميدان للرمّي، تتكاثر عليه السِّهام، فتصيبه بعضها وتتخطّاه أخرى، ولكنّها تستنزف قوّته وتؤثِّر في معنوياته وتسحبه سحباً إلى مصيره المحتوم.

فقد بلغت الفوضى في خُراسان منتهاها، ليس من جهة واحدة، بل من جهات عدّة ولا يمكن حصر كلّ بواعث الفوضى في خراسان في الحديث عن سيرة مروان، ولكن لا بأس أن نتطرّق إلى نماذج قليلة منها.

فقد كان يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد أعطى الأمان للحارث بن سُرَيْج الذي كان يعيش في بلاد العدو، فعاد أدراجه إلى بلاد الإِسلام.

ولما ولّى ابنُ هُبَيْرَة العراق، كتب إلى نَصْر بن سَيّار بعهده على خُراسان، فبايع لمروان بن محمد، فقال الحارث: «إنما آمنني يزيد ولم يؤمنّي مروان، ولا يجيز مروان أمان يزيد، فلا آمنه»، فخالف نصراً.

وأرسل إليه نصر، يدعوه إلى الجماعة، وينهاه عن الفُرقة وإطماع العدو المتربِّص بالمسلمين، فلم يجبه إلى ما أراد، وخرج وعسكر مع أصحابه، ثمّ أرسل إلى نصرٍ: اجعل الأمر شُورى، فأبى نصر. وأمر الحارثُ جَهْمَ بن صفوان، رأس الجهميّة، أن يقرأ سيرته وما يدعو إليه على النّاس، فلما سمعوا ذلك كثُروا وكثر جمعه.

وأرسل الحارث إلى نصر ليعزل صاحب شُرطته ويغيِّر عمّاله ويقرّ الأمر بينهما أن يختاروا رجالاً يسمّون لهم قوماً يعملون بكتاب الله، فاختار

---

(١) الطبري (٧/٣٢٩) وابن الأثير (٥/٣٣٩ ـ ٣٤٠).

نصر رجلين من أصحابه، واختار الحارث رجلين من أصحابه أيضاً، وأمر نصر كاتبه أن يكتب ما يُرضي هؤلاء الأربعة المختارين من السّنن وما يختارونه من العمّال، فيولِّيهم ثغر سَمَرْقَنْد وطخارستان، وكان الحارث يُظْهر أنّه صاحب الرّايات السُّود، فأرسل إليه نصر: «إن كنتَ تزعم أنّكم تهدمون سور دمشق وتزيلون مُلْك بني أُمَيّة، فخذ مني خمسمائة رأس ومائَتيْ بعير، واحمل من الأموال ما شئتَ وآلة الحرب وسِرْ، فلعمري إن كنتَ صاحبَ ما ذكرتَ إني لفي يدك، وإن كنتَ لستَ ذلك، فقد أهلكتَ عشيرتك».

وقال الحارث: «قد علمتُ أنّ هذا حق، ولكن لا يبايعني عليه مَنْ صحبني»، فقال نصر: «فقد ظهر أنّهم ليسوا على رأيك، فاذكر اللّهَ في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن يهلكون فيما بينكم».

وعرض عليه نصر أن يولّيه ما وراء النهر (جيحون) ويعطيه ثلاثمائة ألف، فلم يقبل، فسأله نصر أن يبدأ بالكَرمانِيّ فإن قَتَلَهُ فهو في طاعته، فلم يقبل أيضاً.

وقدم على الحارث جمع من أهل خُراسان حين سمعوا بالفتنة، وأمر الحارث أن تُقرأ سيرته في الأسواق والمساجد وعلى باب نصر، فقُرِئت، فأتاه خلق كثير. وقرأها رجل على باب نصر، فضربه غلمان نصر، فنابذهم الحارث وتجهزوا للحرب.

ودلّ رجل من أهل (مَرْو) الحارث على نقب في سورها، فمضى الحارث إليه ونقبه ودخل المدينة، فقتل مَن قتل ونهب بيت صاحب شُرطة نصر.

ولكنّ أصحاب نصر هزموا أصحاب الحارث، فأراد نصر أن يتّفق مع الكرماني على حرب الحارث، ولكنه أخفق في مسعاه، واتّفق الكرماني والحارث على حرب نصر.

ولكن اتفاق الكرماني والحارث لم يدم طويلًا، إذ سأل الحارثُ الكرمانِيَّ أن يكون الأمر شورى، فأبى الكرماني، فانتقل الحارث عنه.

ثم إنّ الحارثَ أتى سور مَرْو فثلم فيه ثلمةً ودخل البلد، وهاجم الكرمانِيّ، فاشتد القتال بينهما، فانهزم الحارث، فقُتل في هزيمته وقُتل كثير من أصحابه.

وصفت مرو لليمن، فهدموا دور المُضَرِيّة[1].

ب ـ وفي هذه السّنة، وجّه إبراهيم الإِمام أبَا مُسْلم الخُراسانِيْ، واسمه: عبد الرحمن بن مُسْلِم، إلى خُراسان، وعمره يومئذ تسع عشرة سنة، وكتب إلى أصحابه: «إني قد أمرته بأمري، فاسمعوا له وأطيعوا، فإني قد أمَّرته على خُراسان وعلى ما غلب عليه بعد ذلك».

وقدم أبو مسلم الخراساني خُراسان ومعه كتاب إبراهيم الإِمام، فلم يقبل شيعة بني العباس قول أبي مسلم الخراساني، وخرجوا بعد ذلك إلى مكّة والتقوا عند إبراهيم الإِمام، فأعلمهم رأيه بأبي مُسلم، وأمرهم بالسّمع والطّاعة له. ثم قال لأبي مسلم: «إنّك رجل منّا أهل البيت، احفظ وصيّتي! انظر هذا الحيّ من اليمن، فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإنْ الله لا يُتمّ هذاالأمر إلّا بهم، فاتّهم ربيعة في أمرهم، وأمّا مُضَر فإنْهم العدو القريب الدار، واقْتلْ مَن شككتَ فيه، وإنْ استطعتَ أن لا تَدَع بخُراسان مَنْ يتكلّم بالعربية، فافعل. وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه فاقتلْه، ولا تخالف هذا الشّيخ (يعني سليمان بن كَثير) ولا تعصه، وإذا أشكل عليكَ أمرٌ فاكتفِ به مني»[2].

ولا أعلم توجيهاً أكثر شعوبية وأشدّ حقداً على العرب، مثل هذا التوجيه الذي أصدره إبراهيم الإِمام لرأس الشعوبية أبي مسلم الخراساني.

وكان لهذا التوجيه أثره البالغ في انتقال الحكم عملياً من العرب

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٣٠ ـ ٣٤٤) وابن الأثير (٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٧).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٤٤) وابن الأثير (٥/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨).

المسلمين إلى غيرهم، وكان بداية الانهيار العربي الإِسلامي في الدولة، مما أفقد العرب منزلتهم السّامية المرموقة بين المسلمين.

جـ - وفي هذه السنة أيضاً، نشبت حروب طاحنة بين جيوش الدولة وجيش الضَّحاك بن قيس الخارجي.

فقد حاصر الضَّحَّاك بواسِط عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فلما طال الحصر على ابن عمر. أُشير عليه بأن يدفعه عن نفسه إلى مروان، فأرسل ابن عمر إلى الضَّحَّاك: «إنّ مقامكم عليّ ليس بشيء! هذا مروان، فسِر إليه، فإِن قاتلته، فأنا معك»، فصالحه وخرج إليه وصلّى خلفه، فانصرف الضّحاك إلى الكوفة، وأقام ابن عمر بواسِط.

وكاتب أهل الموصل الضّحاك ليقدم عليهم ليسلّموها إليه، فسار في جماعة من جنوده حتى انتهى إلى الموصل، وعليها يومئذ لمروان عامل من عمّاله.

وفتح أهل الموصل البلد للضَّحاك، فدخله وأصحابه، وقاتلهم عامل مروان ومَنْ معه من أهله وهم عدّة يسيرة حتى قُتلوا، واستولى الضّحاك على الموصل وكوَّرها[1].

وبلغ مروان خبره وهو محاصر حِمْص مشتغل بقتال أهلها، فكتب إلى ابنه عبد الله، وهو خليفته بالجزيرة، يأمره أن يسير إلى نَصِيبِيْن في مَنْ معه، يمْنع الضَّحّاك من السيطرة على الجزيرة، فسار إليها في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف، وسار الضَّحاك إلى نَصِيبين، فحصر عبد الله بن مروان فيها، وكان مع الضّحاك ما يزيد على مئة ألف. ووجّه الضّحاك قائدين من قادته إلى الرَّقّة في أربعة آلاف أو خمسة آلاف، فقاتلهم حماة المدينة، ووجّه إليهم مروان مَنْ رحّلهم عنها.

---

(١) تاريخ الموصل (٦٩) للأزديّ.

ثم إنّ الضَّحاك قابل جيش مروان المتقدِّم باتِّجاهه بنواحي (كَفَرْتُوثا)[1] من أعمال مَارِدِيْن، فقاتله يومه أجمع؛ فلما كان عند المساء، ترجّل الضَّحاك ومعه من ذوي الثبات وأرباب البصائر نحو من ستّة آلاف، ولم يعلم أكثر أهل عسكره بما كان، فأحدقت به خيول مروان وألحّوا عليهم بالقتال حتى قتلوهم عند العتمة. وانصرف مَنْ بقي من أصحاب الضحّاك عند العتمة إلى عسكرهم ولم يعلمُوا بقتل الضحاك ولم يعلم به مروان أيضاً.

وجاء مَنْ عاينه إلى أصحابه، فأخبرهم بمقتل الضّحاك، فخرج قائد من قوّاده إلى مروان فأخبره، فبعث مروان رأسه إلى مدائن الجزيرة، فطيف به فيها[2].

ولما قُتل الضّحاك، بايع أصحابه الخَيْبَرِي، وأقاموا يومئذ وعاودوا القتال من بعد الغد وصافوه وصافهم، وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك مع الخيبري وكان قبله مع الضّحاك في أكثر من ثلاثة آلاف من أهله بيته ومواليه.

وحمل الخيبري على مروان في نحوٍ من أربعمائة فارس من الشُّراة، فهزم مروان وهو في القلب. وخرج مروان من العسكر منهزماً، ودخل الخيبريّ ومَنْ معه عسكره، ينادون بشعارهم، ويقتلون مَنْ أَدْرَكوا، حتى انتهوا إلى خيمة مروان نفسه، فقطعوا أطنابها، وجلس الخيبري على فرشه. وكانت ميمنة مروان وعليها ابنه عبد الله ثابتة، وميسرته وعليها إسحاق بن مُسْلم العُقَيْلِيّ ثابتة أيضاً، فلما رأى أهل العسكر قلّة مَنْ مع الخيبريّ، ثار إليه عبيدهم بعمد الخيم، فقتلوا الخيبريّ وأصحابه جميعاً في خيمة مروان وحولها.

---

(١) كفرتوثا: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة، بينها وبين دارا خمسة فراسخ، وهي بين دار ورأس العين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢٦٣).

(٢) الطبري (٧/ ٣٤٤ ـ ٣٤٦) وابن الأثير (٥/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠) وانظر تاريخ الموصل (٦٩ ـ ٧١).

وبلغ مروان الخبرُ، وقد جاز العسكر بخمسة أميال أو ستّة منهزماً، فانصرف إلى عسكره، وردّ خيوله عن مواقعها، وبات ليلته في عسكره.

وانصرف أهل عسكر الخيبريّ، فولّوا عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكريّ الحروري، فقاتله مروان بعد ذلك بأسلول الكراديس، وأبطل الصفّ منذ يومئذٍ[1].

وأقام شيبان يقاتل مروان، فترّق عنه كثير من أصحاب الطّمع، وبقي في نحو أربعين ألفاً، فأشار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك أن ينصرف وأصحابه إلى الموصل، فيجعلوها ظهرهم، فارتحلوا وتبعهم مروان حتى انتهوا إلى الموصل.

وعسكر الخوارج شرقي دجلة وعقدوا جسوراً عليها من عسكرهم إلى المدينة، فكانت ميرتهم ومرافقهم منها، وخندق مروان بإِزائهم، وكان أهل الموصل يقاتلون مع الخوارج، فأقام مروان ستة أشهر يقاتلهم، وقيل تسعة أشهر.

وكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة يأمره بالمسير من قَرْقِيْسياء بجميع مَنْ معه إلى العراق، وعلى الكوفة المثنّى بن عِمْران العائذيّ، عائذ قُريش، وهو والٍ للخوارج بالعراق، فلقي ابن هبيرة بـ (عين التمر)[2]، فهزمهم ابن هبيرة.

واجتمع الخوارج بالكوفة، فهزمهم ابن هبيرة من جديد.

واجتمع الخوارج بالبصرة، فأرسل شيبان إليهم عُبَيْدَة بن سَوَّار في خيل عظيمة، فالتقوا بالبصرة، فانهزم الخوارج، وقُتل عُبَيْدَة، فاستباح ابن هبيرة عسكرهم، فلم يكن لهم همّة بالعراق، فاستولى ابن هبيرة على العراق.

---

(١) الطبري (٧/ ٣٤٤ ـ ٣٤٦) وابن الأثير (٥/ ٣٥٠) وانظر تاريخ الموصل (٧١ ـ ٧٢).

(٢) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، بقربها موضع يقال لها: شفاثا، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٥٣).

وكان منصور بن جُمْهور مع الخوارج، فانهزم وغلب على (الماهَيْنِ)(١) وعلى (الجبل)(٢) أجمع.

وسار ابن هبيرة إلى واسِط، فأخذ ابن عمر وحبسه، ثمّ وجّه نُباتَة بن حَنْظَلَة إلى سليمان بن حبيب، وهو على كُوَر الأهواز، فسمع سليمان الخبر، فأرسل إلى نُباتة داودَ بن حاتم، فالتقوا بـ (المرتان)(٣) على شاطئ نهر (دُجَيْل)(٤)، فانهزم الناس وقُتل داود بن حاتم.

وكتب مروان إلى ابن هبيرة لما استولى على العراق، يأمره بإرسال عامِر بن ضُبارة المُرّيّ إليه، فسيّره في سبعة آلاف أو ثمانية آلافٍ، فبلغ شيبان خبره، فأرسل الجَوْن بن كلاب الخارجيّ في جمع، فلقوا عامراً بـ (السِّن)(٥)، فهزموه ومَنْ معه، فدخل السِّنّ وتحصّن فيه، وجعل مروان يمدّه بالجنود على طريق البرّ، حتى ينتهوا إلى السِّن، فكثُر جمع عامر.

وكان منصور بن جُمْهور يمدّ شيبان من الجبل بالأموال، فلما كثر مَنْ مع عامر، نهض إلى الجَوْن والخوارج، فقاتلهم وهزمهم، وقُتل الجون، وسار عامر مصعداً إلى الموصل. وانتهى خبر قتل الجون إلى شيبان ومسير عامر نحوه، فكره أن يقيم بين العسكرين: عسكر مروان من جهة، وعسكر عامر من جهة أخرى، فارتحل بمَنْ معه من الخوارج.

---

(١) الماهين: الماهان هما: الدِّيْنَور ونهاوند، انظر معجم البلدان (٧/ ٣٧٤).

(٢) الجبل: هو ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرمسين والري وما بين ذلك.

(٣) المرتان: موضع على نهر دُجيل، ولا ذكر لها في معجم البلدان.

(٤) الدُّجَيْل: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس، ومعناه: دجلة الصغيرة، ومخرجه من أرض أصبهان ومصبه قرب عبّادان، وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج، وفيه غرق شبيب الخارجيْ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٤١ ـ ٤٢).

(٥) السِّن: مدينة على نهر دجلة فوق مدينة تكريت، لها سور وجامع، وعند السِّن مصب الزَّاب الأسفل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

وقدم عامر إلى الموصل، فسيّره مروان في جمع كثير إثر شيبان مع هذه الوصايا: «إن أقام شيبان أقام، وإن سار سار، وألّا يبدأه بقتال، فإن قاتله شيبان قاتله، وإنْ أمسك أمسكَ عنه، وإن ارتحل اتبعه»، فكان على ذلك حتى مرّ على (الجبل)، وخرج من بيضاء[1] فارس وبها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في جموع كثيرة، فلم يتّفق شيبان معه على أمر، فسار حتى نزل (جِيْرَفْت)[2] من كَرْمان.

وأقبل عامر بن ضُبارة حتى نزل بإزاء عبد الله بن معاوية أياماً، ثمّ ناهضه فانهزم ابن معاوية ولحق بهَراة.

وسار عامر بمن معه، فلقي شيبان بجيرفت، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الخوارج واستبيح عسكرهم، ومضى شيبان إلى سِجِسْتَان فهلك بها وذلك في سنة مئة وثلاثين الهجرية (٧٤٧م).

وقيل: بل كان قتال مروان وشيبان على الموصل مقدار شهر، ثم انهزم شيبان حتى لحق بفارس، وعامر بن ضُبَارة يتبعه. وسار شيبان إلى جزيرة ابن كادان في الخليج العربي، ثم خرج منها إلى عُمان، فقتله جُلُنْدِيّ بن مسعود بن جَيْفَر بن جُلُنْدِي الأَزْدِيّ سنة أربع وثلاثين ومئة الهجرية (٧٥١م).

وركب سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان مع شيبان هو ومَنْ معه السّفن إلى السِّند، ثم لما ولى السفّاح حضر عنده سليمان، فأعطاه يده فقبّلها، ثم قتله السفّاح.

وانصرف مروان بعد مسير شيبان عن الموصل إلى منزله بحرَّان، فأقام بها حتى سَار إلى الزّاب[3].

---

(١) البيضاء: أكبر مدينة في كورة اصطخر، وسميت البيضاء لأنّ لها قلعة تبيّن من بعدٍ ويُرى بيانها، وكانت معسكراً للمسلمين يقصدونها في فتح اصطخر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

(٢) جيرفت: مدينة بكرمان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٤٩ ـ ٣٥٣) وابن الأثير (٥/ ٣٥٣ ـ ٣٥٦).

٤ ـ تفاقم الخلاف:

أ ـ في سنة تسع وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٦م) تفاقم الخلاف بين مروان من جهة وخُصُومه الكثيرين من جهة أخرى.

فقد أظهر شيعة بني العبّاس دعوتهم، ولم يعودوا يعملون في الخفاء، فكتب إبراهيم بن الإمام إلى أبي مسلم الخراساني: «إني قد بعثت إليك براية النّصر، فارجعْ من حيث لقيك كتابي، ووجّه إليّ قَحْطَبَة بما معك يوافِني به في الموسم».

وانصرف أبو مسلم إلى خُراسان. وكان في طريقه إلى مكّة للقاء إبراهيم الإِمام، ووجّه قُحْطَبة إلى الإِمام بما معه من الأموال والعروض.

وقدم أبو مسلم مَرْوَ. فدفع كتاب الإِمام إلى سليمان بن كثير، يأمره فيه بإِظهار الدّعوة، فنصبوا أبا مسلم وقالوا: رجل من أهل البيت! ودعوا إلى طاعة بني العبّاس، وأرسلوا إلى مَن قَرُب منهم أو بَعُد ممّن أجابهم، وأمروهم بإِظهار أمرهم.

ووجّه أبو مسلم إلى طَخارستان فما دون بَلْخٍ يأمر أصحابه بإِظهار الدعوة في شهر رمضان، فإِن أعجلهم عدوّهم دون الوقت بالأذى والمكروه، فقد حلّ لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجرّدوا السّيوف ويجاهدوا أعداء الله، ومَنْ شغله منهم عدوّهم عن الوقت، فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت.

وبثّ أبو مسلم دعاته في الناس، وأظهر أمره، فأتاه في ليلة واحدة أهل ستين قرية.

ولما كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من هذه السنة عقد أبو مسلم اللّواء الذي بعث به إبراهيم الإِمام الذي يدعى: (الظِلّ) على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً، وعقد الرّاية التي بعث بها إليه، وهي التي تدعى: (السَّحاب) على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً، ولبسوا السّواد هو

وسليمان بن كثير وإخوة سليمان ومواليه ومَنْ كان أجاب الدّعوة، وأوقدوا النيران لليلتهم لشيعتهم وكانت علامتهم، فتجمّعوا إليه حين أصبحوا، وتأول (الظلّ) و(السَّحاب) أنّ السّحاب يطبّق الأرض، وأنّ الأرض كما لا تخلو من الظلّ كذلك لا تخلو من خليفة عباسيّ إلى آخر الدّهر.

وقدم على أبي مسلم الدعاة بمن أجاب الدّعوة، فدخلوا عسكر أبي مسلم.

ولما حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم أن يصلي سليمان بن كثير به وبالشيِّعة، ونصب له منبراً.

فلما قضى سليمان الصّلاة، انصرف أبو مسلم والشِّيعة إلى طعام قد أعدّه لهم، فأكلوا مستبشرين.

وجّه نَصر بن سيار مولى له إلى أبي مسلم، فوجه أبو مسلم أحد قادته إلى مولى نصر بن سيّار ومَنْ معه، واقتتلوا فانتصر أصحاب أبي مسلم على أصحاب نصر.

واستطاع أحد قادة أبي مسلم أن يغلب على (مَرْو الرُّوذ)، وقتل عامل نصر بن سيار عليها.

وبثّ أبو مسلم الدّعاة في أقطار خُراسان، فدخل الناس أفواجاً في شيعته وكثروا، وفشت الدّعاة بخراسان كلَّها[1].

ب ـ ولم يقف أبو مسلم في هذه السنة موقفاً سلبياً من الحرب بين نصر بن سيّار من جهة والكرماني من جهة أخرى.

فقد سيطر الكرماني على مرو، فأرسل له نصر ثلاثة قادة من قادته بالتعاقب، فانتصر عليهم أصحاب الكرماني وكبدّهم خسائر فادحة بالأرواح.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٥٣ ـ ٣٦٣) وابن الأثير (٥/ ٣٥٦ ـ ٣٦٣).

وكان أبو مسلم في أيام الاقتتال بين الجانبين يحرِّض القبائل العربية على بعضها، وينشر فيها الفتن والأحقاد، فأثمر تحريضه وأينع.

وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق الكرماني وخندق نصر، فهابه الطرفان.

وبعث إلى الكرماني: «إني معك، فقبل ذلك الكرماني، فانضم أبو مسلم إليه، واشتدّ ذلك على نصر، وأصبح موقفه حرجاً للغاية.

وأرسل نصر إلى الكرماني ينصحه ألّا يغترّ بوعود أبي مسلم وجاء في كتابه: «والله إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه، فادخل مَرْو ونكتب كتاباً بيننا بالصّلح»، وهو يريد أن يفرِّق بينه وبين أبي مسلم، فدخل الكرماني منزله في مَرْو، وأقام أبو مسلم في العسكر.

وأرسل الكرماني إلى نصر: «اخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب»، فأبصر نصر منه غِرَّة، فوجّه إلى ابن الحارث بن سُرَيج، وكان الكرماني قد قتل أباه، في نحوٍ من ثلاثمائة فارس، فطعن الكرماني في خاصرته فخرّ عن دابّته. وحماه أصحابه، حتى جاءهم ما لا قِبَلَ لهم به، فقَتل نصرُ بن سيّار الكرماني ثم صلبه.

وأقبل ابن الكرماني وقد جمع جمعاً كثيراً، فصار إلى أبي مسلم واستصحبه معه، فقاتلوا نصر بن سيّار حتى أخرجوه من دار الإمارة، فمال إلى بعض دور مَرْو. وأقبل أبو مسلم حتى دخل مَرْو، وأتاه علي بن الكرماني وأعلمه أنه معه، وسلّم عليه بالإمرة.

وحين نزل أبو مسلم بين خندق الكرماني وخندق نصر، ورأى نصرٌ قوّته، كتب إلى مروان بن محمد يعلمه حال أبي مسلم وخروجه وكثرة مَنْ معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد الإمام وكتب إليه بأبيات:

أرى بَيْنَ الرَّمادِ وَمِيْضَ جَمْرٍ ... وأخشى أَنْ يكونَ له خِرامُ[1]

(١) في الطبري (٧/٣٦٥): فأَحجِ بأن يكون له ضِرام.

فـإن الـنّـار بـالـعُـودَيْـن تُـذْكَـى وأنّ الـحـربَ مَـبْـدَؤهـا كـلامُ[1]
فقلتُ من التّعجُب ليت شِعْري أأيْـقـاظٌ أُمَـيَّـةُ أم نِـيَـامُ!

فكان جواب مروان: «إنّ الشّاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحْسِم الثؤلول[2] قِبَلك»، فقال نصر: «أما صاحبكم فقد أعلمكم أنّه لا نَصْر عنده».

وكتب نصر إلى يزيد بن عمر بن هُبَيْرة يستمدّه وكتب إليه بأبيات شعر:

أَبْلِغْ يَـزِيْـدَ وَخَيْـرُ الـقَـوْلِ أَصْـدَقُهُ وقـد تَـبَـيَّـنْـتُ أَلّا خَـيْـرَ فـي الـكَـذِبِ
إنَّ خُـراسـانَ أَرْضٌ قـد رأيْـتُ بـهـا بَيْضاً لو افْرِخ قد حُدِّثْتَ بالعَجَبِ
فِـراخُ عـامَـيْـنِ إلّا أَنّـهـا كـبِـرَتْ لـمّـا يَـطِـرْنَ وقـد سُرْبِلْن بـالـزَّغـبِ
إلّا تـدارَكْ بـخـيـل الـلّـهِ مُـغْـلـمـةً أَلْـهَـبْـنَ نـيـرانَ حَـرْبٍ أيّـمـا لَـهَـبِ

فقال يزيد: «لا تُكثر، فليس له عندي رجل»!

ولما قرأ مروان كتاب نصر، الذي وصل كتابه مع وصول رسُول لأبي مسلم إلى إبراهيم الإمام، وقد عاد من إبراهيم ومعه جوابه لأبي مسلم يسبّه فيه ويلعنه حيث لم ينتهز الفرصة من نصر والكَرْمانِيْ إذ أمكناه، ويأمره ألّا يدع متكلّماً بالعربية في خراسان إلّا قتله. فلما قرأ مروان الْكتاب، كتب إلى عامله بالبَلْقَاء ليسير إلى (الحُمَيْمَة)[3] وليأخذ إبراهيم بن محمد، فيشدّه وثاقاً ويبعث به إليه، ففعل ذلك، فأخذه مروان وحبسه[4].

وكان مروان معذوراً، كما كان يزيد بن عمر بن هُبَيْرة عامل مروان

---

(١) في الطبري: وإنّ الحرب مَبْدَؤها الكلام.
(٢) الثؤلول: بثر صغير صلب مستدير، يظهر على الجلد كالحمصة أو دونها.
(٣) الحميمة: بلد من أرض السراة من أعمال عمّان في أطراف الشام، منزل بني العباس، انظر معجم البلدان (٣/٣٤٦).
(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٧/٣٦٧ ـ ٣٧١) وابن الأثير (٥/٣٦٣ ـ ٣٦٦).

على العراق معذوراً أيضاً، فقد كان كلّ واحد منهما مشغولاً بمعالجة الفتن والاضطرابات النّاشبة في أرضه، فكان على نصر بن سيّار أن يصطلي بناره، دون انتظار المعونة العاجلة أو الآجلة من أحد.

ج - وفي هذه السنة أيضاً ظهر أمر أبي مسلم وسار إليه الناس، وجعل أهل مَرْو يأتونه ولا يعرض لهم نصر ولا يمنعهم، وأبو مسلم في خباء ليس له حرس ولا حُجّاب. وعَظم أمره عند الناس، وقالوا: ظهر رجل من بني هاشم له حلم ووقار وسكينة، فانطلق إلى أبي مسلم فتية من أهل مَرْو يطلبون الفقه، فسألوه عن نسبه فقال: «خيري خير لكم من نسبي»، وسألوه أشياء من الفقه فقال: «أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا، ونحن إلى عونكم أحوج منا إلى مسألتكم فاعفونا».

وعادوا أدراجهم خائبين، لا يعرفون لأبي مسلم نسباً، ولا يجدون عنده فقهاً.

ووجد نَصْرُ العربَ متفرقين، كأنهم لا يشعرون بالخطر المحدق بهم، فقال شعراً يخاطب به العرب ويحثّهم على الاتّفاق معه على حرب أبي مسلم:

أبْلِغْ ربيعةَ في مَرْو وفي يَمن ... أن اغضبوا قبل ألّا ينفع الغضبُ
ما بالكم تُنشبون الحربَ بينكُمُ ... كأَنَّ أهل الحِجىٰ عن رأيكم غُيُبُ
وتتركونَ عدوّاً قد أحاطَ بكم ... ممَّنْ تأَشَّبَ لا دِيْنٌ ولا حَسَبُ
لا عُرْبَ مثلكُمُ في النّاس نَعْرِفُهُمْ ... ولا صَرِيْحَ موالٍ إنْ هُمْ نُسِبُوا
مَنْ كان يَسْأَلُنِيْ عن أهلِ دينهم ... فإن دينَهُمُ أَنْ تَهْلِكَ العَرَبُ
قومٌ يقولون قولاً ما سمعتُ به ... عن النَّبِيِّ ولا جاءَتْ به الكُتُبُ

وعزم العرب على الاتّفاق لمحاربة أبي مسلم دفاعاً عن أنفسهم، ولكنهم اتّفقوا على ألّا يتّفقوا، فما زال أمرهم في هبوط، وأمر أبي مسلم

في صعود، حتى استطاع اكتساحهم لا لقوّته التي لا تُقهر، ولكن لتفرّقهم الذي لا يلتئم[1]!

د ـ وفي هذه السنة لم تقتصر الفوضى على خراسان، بل شملت معظم أجزاء الدولة، فقد غلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على فارس وكُوَرها، فلما قدم ابن هُبيرة العراق والياً، بعث إليه مَنْ يحاربه، فانتصر عليه، وهرب ابن معاوية إلى أصحاب أبي مُسلم، فأمر بقتله[2].

وبلغ الاستهتار بسلطة الدولة والعبث بهيبتها مبلغاً جعل الخوارج يحضرون موسم الحج وعلى رأسهم أبو حمزة الخارجي، معلنين الخلاف لمروان وآل مروان، فأخلى عامل مروان مكة المكرّمة، ودخلها أبو حمزة بغير قتال[3].

وقصد عامل مروان المدينة المنورة، فبعث جيشاً من المدينة لقتال أبي حمزة، وكان جيش المدينة مترفاً لا علم له بالحرب ولا يصبر عليها، فقضى عليه أبو حمزة قضاءاً مبرماً، ودخل المدينة المنوّرة ومضى عاملها وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان إلى الشام.

وخرج أبو حمزة من المدينة المنوّرة يريد الشّام، فالتقى في الطريق بجيش مروان الذي بعثه لقتاله، فقُتل أبو حمزة وكثير من رجاله[4].

هـ ـ وفي هذه السنة أيضاً، مات أمير الأندلس ثوابة بن سلامة، فاختلف الناس: المُضَرِيّة أرادت أن يكون الأمير منهم، واليمانيّة أرادت أن يكون الأمير منهم، فبقوا بغير أمير.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٦٣ ـ ٣٦٧) وابن الأثير (٥/ ٣٦٦ ـ ٣٧٠).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٧١ ـ ٣٧٤) وابن الأثير (٥/ ٣٧٠ ـ ٣٧٣).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦) وابن الأثير (٥/ ٢٧٣ ـ ٣٧٥).
(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٩٣ ـ ٣٩٩) وابن الأثير (٥/ ٣٨٨ ـ ٣٩١).

وخاف الصُّمَيْل الفتنة، فأشار بأن يكون الوالي من قريش، فرضوا كلّهم بذلك، فاختار لهم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ، وكتبوا إليه بما اجتمع عليه الناس من تأميره، فلم يوافق على تسلُّم هذا المنصب الرّفيع، فقالوا له: «إنْ لم تفعل وقعت الفتنة، ويكون إثم ذلك عليك»، فأجاب حينئذٍ، وسار إلى قُرطبة فدخلها، وأطاعه النّاس.

فلما انتهى الأمر إلى أبي الخطّار حول ولاية يوسف قال: «إنّما أراد الصُّمَيْل أن يصير الأمر إلى مُضَر»، وسعى في النّاس حتى ثارت الفتنة بين اليمن ومُضَر.

وحين رأى يوسف نشوب الاختلاف، فارق قصر الإِمارة بقرطبة وعاد إلى منزله.

واجتمعت اليمانيّة إلى أبي الخطّار، واجتمعت المضريّة إلى الصُّميل، وتزاحفوا واقتتلوا أياماً كثيرة لم يكن بالأندلس قتال أعظم منه ولا أعنف، فانجلت الحرب عن هزيمة اليمانية.

ومضى أبو الخطّار منهزماً، فاستتر في رحى كانت للصُّميل، فدُلّ عليه، فأخذه الصُّميل وقتله.

ورجع يوسف بن عبد الرحمن إلى قصر الإِمارة في قُرطبة، وازداد الصُّميل شرفاً، وكان اسم الإِمارة ليوسف والحكم إلى الصُّميل!

وخرج على يوسف بن عبد الرحمن ابنُ علقمة اللخميّ بمدينة أَرَبُونَة، فلم يلبث إلّا قليلًا حتى قُتل وحُمل رأسه إلى يوسف.

وخرج عليه عُذْرة المعروف بالذِّمِيّ، وإنّما قيل له ذلك لأنّه استعان بأهل الذِّمّة، فوجّه إليه يوسفُ عامرَ بن عمرو، وهو الذي تنسب إليه مقبرة عامِر من أبواب قُرطبة، فلم يظفر به وعاد مغلولًا؛ فسار إليه يوسف بن عبد الرحمن، فقاتله وقتله واستباح عسكره[1].

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦).

٥ ـ الفيضان:

أ ـ كانت سنة ثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٧م) سنة الفيضان بالخلاف والفتن والاضطرابات والقلاقل وسفك الدماء بالنسبة لمروان والدولة، فقد ضاعت المقاييس وتردّت الأحوال وشاعت الفوضى وذهبت هيبة الخلافة والدولة، وأصبح الخلاف هو القاعدة والأمن هو الاستثناء.

فقد دخل أبو مسلم الخُراساني مَرْو وبايعه الناس بها، وأصبح الحاكم بإمره في خُراسان كلِّها.

واتّفق علي بن الكرماني مع أبي مسلم، وكان السبب في ذلك أنّ ابن الكرماني ومَنْ معه وسائر القبائل العربية بخراسان لما عاقدوا نَصْراً على أبي مسلم، عظم عليه وجمع أصحابه لحربهم، فكان سليمان بن كَثير بإِزاء ابن الكرماني، فقال له سليمان: «إنّ أبا مسلم يقول لك: أما تأنف من مصالحة نصر، وقد قتل الأمس أباك وصلبه؟! ما كنتُ أحسبك بجامع نصراً في مسجد تصليان فيه!!»، فأحفظه هذا الكلام، ورجع عن رأيه، وانتقض صلح العرب.

وبعث نصر إلى أبي مسلم، يلتمس منه أن يدخل مع مُضَر، وبعث أصحاب ابن الكرماني، وهم ربيعة ومُضَر واليمن، إلى أبي مسلم بمثل ذلك، وراسلوه بهذا أياماً، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين حتى يختار أحدهما، وأمر أبو مسلم شيعته أن تختار ربيعة واليمن، فأنّ الشّيطان ـ كما قال لهم ـ في مُضَر، لأنهم أصحاب مروان وعمّاله وقتلة يحيى بن زيد.

وقدم الوفدان، فجلس أبو مسلم وأجلسهم، وجمع عنده من شيعته سبعين رجلًا، ليختاروا أحد الفريقين.

وقام سليمان بن كثير من شيعته، فتكلّم، وكان خطيباً مفوّهاً، فاختار ابن الكرماني وأصحابه، وقام آخر فاختارهم أيضاً، ثم قام ثالث فقال: «إنّ مُضَر قتلة آل النبيّ ﷺ وأعوان بني أُميّة وشيعة مروان وعمّاله، ودماؤنا في

أعناقهم، وأموالنا في أيديهم، ونصر بن سيّار عامل مروان ينفِّذ أموره ويدعو له على منبره ويسميه: أمير المؤمنين، ونحن نبرأ إلى الله عزّ وجلّ من أن يكون نصر على هدًى، وقد اخترنا عليّ بن الكرماني وأصحابه»، فوافق السبعون من شيعة أبي مسلم على هذا الكلام، واختاروا ابن الكرمانيّ وأصحابه.

ونهض وفد نصر عليهم الكآبة والذلّة، ورجع وفد ابن الكرمانيّ منصورين.

وعاد أبو مسلم إلى مقرِّه، وأمر الشِّيعة أن يبنوا المساكن، فقد أغناهم الله من اجتماع كلمة العرب عليهم.

وأرسل ابن الكرماني إلى أبي مسلم، ليدخل مدينة مرو من ناحيته، وليدخل هو وعشيرته من الناحية الأخرى، فأرسل إليه أبو مسلم: «إني لستُ آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على محاربتي، ولكن ادخلْ أنتَ، فأنْشِبِ الحربَ مع أصحاب نصر»».

ودخل ابن الكرماني، فأنشب الحربَ، وبعث أبو مسلم أحد قادته في خيل، فدخلوا مَرْو، ونزل قائد أبي مسلم في قصر الإمارة، ثم بعثوا إلى أبي مسلم ليدخل إليهم، فدخل مرو، والفريقان يقتتلان!

ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة، وأرسل إلى الفريقين: أن كفّوا، ولينصرف كلّ فريق إلى عسكره، فتوقّف الاقتتال، وصفت الأمور في مرو لأبي مسلم.

وأمر أبو مسلم بأخذ البيعة من الجند، وكانت البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنّة رسوله محمّد ﷺ، وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطّلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام، وعلى ألّا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبتدئكم به ولاتكم»[1].

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٧٧ ـ ٣٨٥).

وخرج نصر بن سيّار من مرو لآخر مرّة، ولم يَعُد إليها بعد خروجه الأخير أبداً.

وما كان أبو مسلم الخراساني يؤمن بالشِّعار البّراق الذي رفعه، وهو الشُّعوبي الحاقد، ولكنه رفع هذا الشِّعار ليستقطب به الناس تحت لوائه، لأنّ الناس أصبحوا لا يثقون بالدولة ورجالها، فاستهواهم شعار أبي مسلم وشيعته، دون أن يعرفوا في حينه أنّ أبا مسلم وأصحابه أشدّ ضلالاً من الدولة ورجالها، فلما اكتشفوا حقيقة أبي مسلم وأنصارهم الذين كان شعارهم الحقيقي: القضاء على كلِّ عربي في خراسان، كان الوقت المناسب قد ضاع إلى الأبد!

وهكذا أرادوا النّجاة إلى طريق الحق، فضلّوا ضلالاً بعيداً.

ب ـ وبدأت في هذه السنة التصفيات الجسدية بالنسبة للعرب، لا فرق بين المتعاونين مع أبي مسلم أو الذين كانوا يقاتلون نصراً كما كان أبو مسلم يقاتله، وعدوّ عدوِّك صديقك كما يقول المثل، وبين الذين كانوا محايدين أو كانوا غير متعاونين معه.

فقد كان شيبان بن سَلَمَة الخارجي يقاتل نصراً بالتعاون مع ابن الكرمانيّ، لأنّ نصراً من عمّال مروان، وشيبان يرى رأي الخوارج، ومخالفة ابن الكرمانيّ نصراً لأنّ نصراً قتل أباه، ولأنّ نصراً مُضَرِيّ، وابن الكرمانيّ يماني، وبين الفريقين من العصبية ما هو مشهور. فلما صالح ابن الكرمانيّ أبا مسلم على ما تقدّم وفارق شيبان، تنحىّ شيبان عن مَرْو إذ علم أنه لا يقوى على حرب أبي مسلم وحليفه ابن الكرمانيّ، بعد أن غادر نصر مرْو إلى الأبد.

ولمّا استقام الأمر لأبي مُسْلم في مَرْو، أرسل إلى شيبان يدعوه إلى البيعة، فقال شيبان: «أنا أدعوك إلى بيعتي!»، فأرسل إليه أبو مسلم: «إن لم تدخل في أمرنا، فارتحل عن منزلك الذي أنت به!».

وأرسل شيبان إلى ابن الكرمانيّ يستنصره، فرفض ابن الكرماني أن ينصره.

وبعث أبو مسلم أحد قادته، فقتل شيبان وعدداً من بكر بن وائل العرب[1].

وثنّى أبو مسلم بقتل عليّ بن الكرمانيّ وأخاه عثمان بن الكرماني، فقد اتّفق أبو مسلم أن يقتل هو حليفه عليّ بن الكرماني ويقتل قائده المدعو: أبو داود عثمانَ الكرماني، فقتل أبو داود عثمان وقتل من أصحابه العرب خلقاً كثيراً. أما أبو مسلم قد أمر عليّ الكرمانيّ أن يسمّى له خاصّته. ليولّيهم ويأمر لهم بجوائز وكسوات، فسمّاهم له، فقتل أبو مسلم وقتل أصحابه جميعاً[2]!!

وهذا هو مصير الذي يوالي أعداء قومه على قومه!

وغلب أبو مسلم علي خُراسان، وبعث عمّاله على البلاد، فقتل قَحْطبةُ بن شبيب أحد قادة أبي مسلم بضعة عشر ألفاً، وقتل قائد آخر من قادته ثلاثين ألفاً[3] كلهم من العرب.

جـ - ولم تتوقف في هذه السنة التصفيات الجسديّة التي نفّذها أبو مسلم بالعرب المسلمين عند هذا الحد، بل امتدت إلى جُرْجان أيضاً.

فقد أقبل قَحْطبة إلى جُرْجان، وكان فيها نُباتة بن حَنْظَلة عامل يزيد بن هُبَيْرَة عليها، فقال قَحطبة: «يا أهل خُراسان! أتدرونَ إلى مَنْ تسيرون؟! ومَنْ تقاتلون؟! إنّما تقاتلون بقيّة قومٍ حرقوا بيت الله تعالى!».

وقدم قَحطبة، فنزل بإِزاء نُباتة، ومعه نَصْر بن سيّار، وقد خندقوا عليهم، فلما رآهم أهل خُراسان هابوهم وتكلّموا في ذلك وأظهروه، لأنّ

(١) انظرالتفاصيل في الطبري (٧/ ٣٨٥ - ٣٨٦) وابن الأثير (٥/ ٣٨٢ - ٣٨٣).
(٢) الطبري (٧/ ٣٨٦ - ٣٨٨) وابن الأثير (٣٨٣ - ٣٨٥).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٨٨ - ٣٩٠) وابن الأثير (٥/ ٣٨٦ - ٣٨٧).

قوّات نُباتة كانت في عدّة لم ير النّاس مثلها. وبلغ قَحطبة خوف جيشه من جيش الدولة، فقام فيهم خطيباً فقال: «يا أهل خُراسان! هذه البلاد كانت لآبائكم، وكانوا يُنْصَرون على عدوِّهم، لعدلهم وحسن سيرتهم، حتى بدّلوا وظلموا، فسخط الله عزّ وجلّ عليهم، فانتزع سلطانهم وسلّط عليهم أذلّ أُمّةٍ كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، وكانوا بذلك يحكمون بالعدل ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم، ثمّ بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البرّ والتّقوى من عترة رسول الله، فسلّطكم عليهم لينتقم منهم بكم، لتكونوا أشدّ عقوبة، لأنكم طلبتموهم بالثأر. وقد عهد إليّ الإِمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدّة، فينصركم الله عزّ وجلّ عليهم، فتهزمونهم وتقتلونهم».

والتقى الفريقان يوم الجمعة من شهر ذي الحجة، فقال قَحطبة لأصحابه: «إنّ الإِمام أخبرنا أنكم تُنصرون على عدوِّكم هذا اليوم من هذا الشّهر»، فاقتتلوا قتالًا شديداً، فقتل من أهل الشّام عشرة آلاف من العرب المسلمين، وقتل نُباتة، وبعث إلى أبي مسلم برأسه[١].

وكان نصّ رسالة أبي مسلم إلى قَحطبة: «أما بعد، فناهض عدوّك، فإِنّ الله عزّ وجلّ ناصرك، فإِذا ظهرت عليهم فأثخن في القتل»[٢].

وهذا هو بيت القصيد: أن يُثْخن في قتل العرب المسلمين.

ولم تكد تجفّ دماء العرب المسلمين في جُرجان، إلّا وقتل قَحْطبة بن شبيب من أهل جُرجان ما يزيد على ثلاثين ألفاً، لأنه بلغه عنهم بعد قتل نُباتة أنّهم يريدون الخروج عليه، فدخل إليهم واستعرضهم وقتل منهم صبراً هذا العدد الضخم من الرِّجال[٣].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٩١ ـ ٣٩٣) وابن الأثير (٥/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨).
(٢) الطبري (٧/ ٢٩٢).
(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠١ ـ ٤٠٢) وابن الأثير (٥/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣).

د ـ وكأنّ هذه التصفيات الجسدية للعرب المسلمين في خراسان وما وراء النّهر وجُرْجان والمشرق الإسلامي عامة لم تكن كافية في هذه السنّة، فقد كان في الحجاز حرب بين جيش الدولة والخوارج تكبّد فيها الجانبان خسائر جسيمة(١)، وكان في اليمن حروب طاحنة بين جيش الدولة وجيش عبد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق تساقط من الجانبين خسائر فادحة(٢).

وهكذا تكسّرت النِّصال على النِّصال، وكان العرب المسلمون هم الخاسرين في هذا الصِّراع المرير.

٦ ـ الطوفان:

أ ـ ودخلت سنة إحدى وثلاثين ومئة الهجرية، فأصبح الفيضان المتمثل بالفوضى والانحلال في الدولة فيضاناً، فقد استمكن أبو مسلم الخُراساني من خُراسان والمشرق الإسلاميّ، ومات نصر بن سيّار الذي لم يقصِّر في الدفاع عن خُراسان وفي فضح أخطار عمليات أبي مسلم وسوء نيّته وحقده الدفين على العرب المسلمين، فكشف قبل غيره مبكِّراً ما يهدف إليه أبو مسلم في دعوته الشعوبيّة بالخطب والرسائل النثرية والشعريّة أيضاً التي وجّهها إلى مروان وعامله على العراق ابن هُبَيْرَة وقادة العرب المسلمين في خراسان وفي المشرق الإسلامي، ولكن جهوده وجهاده ذهبت أدراج الرياح، لأنّ الدولة وبخاصة رئيسه المباشر، وهو ابن هبيرة لم ينصره كما ينبغي وكان قادراً على نصره بلا مراء، ولأنّ الناس في خُراسان انجرفوا بتيار شعارات أبي مسلم الزائفة التي لم يلتزم بحرف منها، فلما اشتد عضده بدأ بتصفية أنصاره وأعدائه من العرب والمسلمين، وحينذاك ندم الذين عاونوه من العرب المسلمين حين لا ينفع الندم.

ولعلّ موت نصر بن سيّار هو المؤشر الرئيس للطوفان الجارف الذي

---

(١) الطبري: ٧/ ٣٩٣ ـ ٣٩٩.

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٠) وابن الأثير (٥/ ٣٩٢).

أتى على الدولة وعلى العرب المسلمين، فاقتلع الدولة من جذورها، وجعل من العرب المسلمين مواطنين من الدرجة الثانية، وجعل من الشعوبيين مواطنين من الدرجة الأولى[1].

ب ـ ولما مات نصر، تقدّمت قادة بني العبّاس إلى (الرَّيّ)[2]، فدخلها الحسن بن قَحطبة بدون مقاومة تقريباً.

وحين استقرّ أمر قادة أبي مسلم بالريّ، هرب أكثر أهلها لميلهم إلى بني أُميّة، فأمر أبو مسلم بمصادرة أملاكهم وأموالهم.

فأخذ قحطبة أمره في الري بالحزم والاحتياط وضبط الطرق وكان لا يسلكها أحد إلا بجواز منه.

وبلغ قَحطبة أنّ بـ (دَسْتَبى)[3] قوماً من الخوارج وصعاليك تجمّعوا بها، فوجّه إليهم أحد قادته في عسكر كثيف، فقاتلهم قتالًا شديداً حتى ظفر بهم، فتحصّن عددٌ منهم حتى آمنهم وأقام معه بعضهم وتفرَّق بعضهم.

وكتب أبو مسلم إلى ملك طَبرستان يدعوه إلى الطّاعة وأداء الخراج، فأجابه إلى ذلك.

وكتب إلى صاحب (دُنْبَاوَنْد)[4] بمثل ذلك، فأجابه: «إنّما أنت خارجيّ، وإن أمرك سينقضي».

وغضب أبو مسلم، وكتب إلى أحد قادته بالرَّيّ يأمره بالمسير إلى دُنْباوَنْد وقتاله، إلى أن يذعن بالطّاعة.

---

(١) انظر تفاصيل موت نصر بن سيار في الطبري (٧/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤) وابن الأثير (٥/ ٣٩٠ ـ ٣٩٦).

(٢) الري: مدينة مشهورة تعتبر قصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مئة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً، انظر معجم البلدان (٤/ ٣٥٥).

(٣) دستبي: كورة كبيرة مقسومة بين الري وهمذان، انظر معجم البلدان (٤/ ٥٨).

(٤) دنباوند: جبل بنواحي الري، انظر معجم البلدان (٤/ ٨٩).

وسار إليه القائد وراسله، فامتنع من الطّاعة وأداء الخراج، فأقام القائد محاولًا إخضاعه، ولكنّه عجز عن ذلك لوعورة بلاده وصعوبتها، وكان صاحبها يرسل إلى قائد أبي موسى كلّ يوم عدّة كثيرة من الدَّيْلَم يقاتله في عسكره، وأخذ عليه الطرق، ومنع المِيْراة، وكثرت في أصحاب ذلك القائد الجراح والقتل، فلما رأى أنّه لا يبلغ غرضاً عاد إلى الرَّيّ بخفَّي حُنَيْن.

ولما ورد كتاب قَحطبة على أبي مسلم بنزوله الرّي، ارتحل أبو مسلم عن مَرْو ونزل نَيْسَابور.

وأما قَحطبة، فإنّه سيّر ابنه الحسن بعد نزوله الرَّيّ بثلاث ليالٍ إلى هَمَذان، فسار عنها حماتها من أتباع الدولة إلى (نَهَاوَنْد)[1]، وفرض عليها الحصار الحسن بن قحطبة[2].

جـ ـ وفي هذه السنة قتل عامِر بن ضُبارة أكبر قادة الدولة بعد نصر بن سيّار، في معركة حاسمة بين جيش الدولة وقوّات أبي مسلم الخُراساني.

فقد ذكرنا أنّ ابن ضُبارة هزم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فهرب الأخير إلى خُراسان وسلك إليها طريق كُرْمان، فسار ابن ضُبارة في أثره.

وبلغ ابن هبيرة مقتلُ نُباتة بن حَنْظلة بجُرجان، فكتب إلى ابن ضُبارة وإلى ابنه داود بن يزيد بن عمر بن هُبيرة أن يسيرا إلى قَحطبة، فكانا في كِرَمان، فسارا في خمسين ألفاً، ونزلوا بأصبهان، وكان يقال لعسكر ابن ضُبارة: عسكر العساكر.

---

(١) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان، بينهما ثلاثة أيام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢٩ ـ ٣٣٢).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥) وابن الأثير (٥/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

وبعث قَحطبة إليهما جماعة من القوّاد، وعليهم جميعاً مُقَاتِل بن حكيم العَكّيّ، فساروا حتى نزلوا مدينة (قُم)[1].

وبلغ ابن ضُبارة نزول الحسن بن قُحطبة بنهاوند، فسار ليعين مَنْ بها من أصحاب مروان، فأقبل قَحطبة من الرَّيّ حتى لحق مقاتلَ بن حكيم العَكّيّ.

وتوجّه قَحطبة نحو ابن ضبارة وداود بن يزيد بن هبيرة، وكان عسكر قَحطبة عشرين ألفاً.

وأمر قَحطبة بمصحفٍ فنصب على رمح، ونادى: «يا أهل الشّام! إنّا ندعوكم إلى ما في هذا المصحف!»، فشتموه وافحشوه في القول، لأنهم يعلمون أنّ قوله يخالف عمله.

وأمر قَحطبة أصحابه بالحملة، فحمل العَكّيّ على جيش ابن ضُبارة، فانهزم أهل الشّام بدون مقاومة تذكر، فقُتلوا قتلًا ذريعاً، بلا هوادة ولا رحمة.

وانهزم ابن ضُبارة حتى دخل عسكره، وانهزم ابن هبيرة أيضاً، فاتبع قَحطبةُ ابن ضُبارة وقتله.

وأصاب قَحطبة عسكر ابن ضبارة، فأخذ منه ما لا يُعلم قدره من السِّلاح والمتاع والرّقيق والخيل، وما رُئي قط عسكر فيه أصناف الأشياء ما في هذا العسكر، كأنه مدينة كاملة.

وكانت هذه المعركة بشهر رجب من هذه السنة بنواحي أصبهان[2].

وقد أثرت هذه المعركة في معنويات جيش الدولة فانهارت، وفي

---

(١) قم: مدينة تذكر مع قاشان، تقع بين أصبهان وسادة، بينها وبين سادة اثنا عشر فرسخاً ومثله بينها وبين قاشان، انظر معجم البلدان (٧).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦) ابن الأثير (٥/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩).

معنويات قوات أبي مسلم فارتفعت، كما تحسّنت القضايا الإِدارية في جيش أبي مسلم لثراء ما غنموه من عسكر ابن ضبارة.

د ـ وفي هذه السنّة، وبعد انتصار قَحطبة في أصبهان على جيش الدولة وقتل قائد من أبرز قادتها، كتب قَحطبة إلى ابنه الحسن وهو يحاصر نَهاوند يبشِّر بانتصاره وقتل ابن ضُبارة، فكبّر أصحاب بن قَحطبة، ففتّ ذلك في عضد المحاصَرين في نهاوند من قوّات الدولة، فاقترح أحد قادتهم أن يخرجوا لقتال ابن قَحطبة قبل أن يأتيه أبوه أو مدد من عنده، فإِذا أخفقوا تفرّقوا في البلاد، كلّ واحد أو مجموعة في البلد الذي يأويهم ويأمنون فيه على أرواحهم.

ولكنّ الرَّجّالة من المحاصَرين قالوا: تخرجون وأنتم فرسان على خيول وتتركونا؟!

وأقام قَحطبة على أصبهان عشرين يوماً، ثم سار فقدم على ابنه بَنَهاوند، فحصرهم ثلاثة أشهر: شعبان ورمضان وشوّال، ووضع عليهم المجانيق، وضيّق عليهم الحصار.

وأرسل إلى أهل الشّام يدعوهم إلى الاستسلامِ وأعطاهم الأمان، ففتحوا له الباب.

وخرج الذين لم يوافقوا على الاستسلام، فدفع قَحطبة الأسرى إلى قادته، ثم أمر فنودي: مَنْ كان بيده أسير ممّن خرج إلينا، فليضرب عنِقه، وليأتنا برأسه.

وقُتل الأسرى، فلم يبق أحد ممّن كان قد هرب من أبي مسلم إلّا قُتل، إلّا أهل الشّام، فإِنّه وَفَى لهم وخلّى سبيلهم، وأخذ عليهم عهداً ألّا يمالئوا عليه عدوّاً.

ولما حاصَر قَحطبة نَهاوند، أرسل ابنه الحسن إلى (مُرْج القَلْعَة)[1]،

---

(١) مرج القلعة: مرج بينه وبين حلوان مرحلة، وهو من حلوان إلى جهة همذان، انظر معجم البلدان (٨/١٦).

فاستولى على (حُلْوان)[١] التي انسحب منها حماتها[٢].

هـ - وفي هذه السّنة أيضاً، استمر تطبيق الخُطَّة المرسومة لتطهير خُراسان وما حولها من بلاد المشرق الإِسلامي بالتدريج من العرب المسلمين، والتقدّم لتطهير العراق من قوّات الدولة، والاستيلاء عليها من قبل قوّاتِ أبي مسلم الخُراساني، وبعد الاستيلاء على بلاد الجبال، جاء دور منطقة شَهْرَزُورْ، فبعث قحطبة للاستيلاء عليها أربعة آلاف مقاتل بقيادة قائدين من أهل خُراسان، فنزلوا على فرسخَيْن من شهرزور في العشرين من ذي الحجّة، وقاتلوا عثمان بن سفيان الذي كان على مقدّمة عبد الله بن مروان بن محمد بن الحكم وهو ابن الخليفة بعد يوم وليلة من نزولهم، فانهزم أصحاب عثمان وقُتل عثمان، وأقام قائداً قَحطبة في بلاد الموصل.

وسيّر قَحطبة العساكر مدداً لقائديه، فاجتمع معهما ثلاثون ألفاً.

ولما بلغ مروانَ خبر هذه الهزيمة، وكان يومها بحرّان، سار منها ومعه جنود أهل الشّام والجزيرة والموصل، وحشر معه بنو أُميّة أبناءهم، وأقبل حتى نزل نهر الزّابّ الكبير[٣].

و - وفي هذه السّنة أيضاً، خرج يزيد بن عمر بن هُبَيْرَة نحو قحطبة في عدد كثير لا يُحصى ومعه حَوْثرة بن سُهَيْل الباهلِيّ، وكان مروان أمدّ به ابن هُبَيْرَة.

وسار ابن هُبَيْرة حتى نزل (جَلُوْلآء)[٤]، واحتفر الخندق الذي كانت

(١) حلوان: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد، بين جلولاء وهمذان، انظر معجم البلدان (٣/ ٣٢٢).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٧ - ٤٠٩) وابن الأثير (٥/ ٣٩٩ - ٤٠٠).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٠٩) وابن الأثير (٥/ ٤٠٠ - ٤٠١).

(٤) جلولاء: منطقة من مناطق السّواد في طريق خُراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، تقع على نهر عظيم يمتدّ إلى يَعْقُوبة (نهر ديالي)، انظر التفاصيل في معجم=

العجم قد احتفرته أيام معركة جلولاء في الفتح الإِسلامي سنة ست عشرة الهجرية (٦٣٧م)، وأقام ابن هُبيرة في هذا الخندق.

وأقبل قحطبة حتى نزل (قَرْمِيْسِيْن)[1]، ثمّ سار إلى حُلوان، ثمّ إلى (خَانِقِيْن)[2] وأتى (عُكْبَرَاء)[3]، وعبر دجلة ومضى حتى نزل (دِمِمًّا)[4] دون (الأنبار)[5].

وارتحل ابن هبيرة بمن معه منصرفاً مبادراً إلى الكوفة لمواجهة قَحطبة، وقدّم حَوْثرة في خمسة عشر ألفاً إلى الكوفة.

وقيل: إنّ حوثرة لم يفارق ابن هُبَيْرة، والأول أصحّ، لأنّ ابن هبيرة لا بدّ أن تكون له مقدّمة، وحوثرة يومئذ أبرز قادته، فمن المعقول أن يعهد إليه بهذا الواجب دون غيره من القادة.

وأرسل قَحطبةُ طائفة من أصحابه إلى الأنبار، وأمرهم بإِحدار ما فيها من السفّن إلى (دِمِمًّا) ليعبروا الفرات، فحملوا إليه كلّ سفينة هناك؛ فقطع

= البلدان (١٣/ ١٢٩ ـ ١٣٠)، ومكانها معروف اليوم، وكان معسكراً للجيش ثم أصبح قصبة عامرة.

(١) قرميسين: بلد بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً، قرب الدِّيْنَوَر، وهي بين همذان وحلوان على جادة الحج، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٦٣).

(٢) خانقين: بلد من نواحي السّواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال، ومن قصر شيرين إلى حُلوان ستّة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣)، وهي مدينة عراقية عامرة معروفة اليوم بهذا الاسم.

(٣) عكبراء: بليدة من نواحي دُجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٠٣).

(٤) دمما: قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند الفلّوجة، انظر معجم البلدان (٤/ ٨٣).

(٥) الأنبار: مدينة على الفرات في غربيّ بغداد بينهما عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢)، وهي قريبة جداً من مدينة الفلوجة المعروفة اليوم، وأطلاع الأنبار لا تزال قائمة.

قحطبةُ الفرات حتى صار في غربيِّه، ثم سار يريد الكوفة، حتى انتهى إلى الموضع الذي فيه ابن هُبَيْرة.

وخرجت هذه السنة[1]، وجاءت السنة الجديدة، وكانت السَّنة المنصرمة سنة أصبحت المبادرة بيد قوّات أبي مسلم الخراساني، وفقدت الدولة المبادرة فيها نهائياً، وكانت سنة انتصارات بالنسبة لقوّات أبي مسلم، وسنة اندحارات بالنسبة لقوات الدولة، مما جعل قوات أبي مسلم تتمتع بالمعنويات العالية وقوات الدولة تعاني من انهيار معنوياتها.

٧ ـ الكارثة:

أ ـ دخلت سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٧٤٩م)، وهي سنة الكارثة التي قضت على دولة وجاءت بدولة جديدة: قضت على الدولة التي كان العرب المسلمون فيها مواطنين من الدرجة الأولى، وجاءت بدولة أصبح فيها العرب المسلمون مواطنين من الدرجة الثانية، فانقضى عهد الدولة الواحدة، وحلّ عهد الدول المتفرقة، وانقضى عهد الفتح واستعادة الفتح ومضى إلى غير رجعة، وابتدأ عهد الدفاع المُسْتَكِنّ، وتكاثرت الهزائم والمصائب والنكبات.

لقد سقطت الدولة العربية في هذا العام، والعرب مادة الإِسلام بلا مراء.

فقد عبر قَحطبة هذه السنة في شهر المحرَم لثمانٍ مضين منه، نهر الفرات وصار في غربيِّه، وكان ابن هُبيرة قد عسكر في فم الفرات، من أرض الفَلّوجة التي تقع على الفرات غربي بغداد وعلى مسافة ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة، وقد اجتمع إليه فلول جيش ابن ضُبارة، وأمدّه مروان بَحْوثَرة الباهليّ، فقال حوثرة وغيره لابن هُبَيْرة: «إن قَحطبة قد مضى يريد الكوفة، فاقصد أنتَ خُراسان، وَدْعه ومروان، فإِنك تكسره، وبالحريّ أن

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤١٠) وابن الأثير (٥/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

يتبعك»، فقال: «ما كان ليتبعني ويدع الكوفة، ولكنّ الرأي أن أُبادره إلى الكوفة».

واستعمل ابن هبيرة على مقدّمته حوثرة، وأمره بالمسير إلى الكوفة، وكان الفريقان يسيران على جانبي الفرات.

وقال قحطبة لرجاله: «إنّ الإمام أخبرني أنّ لي في هذا المكان وقعة، يكون النّصر فيها لنا».

ونزل قحطبة (الجباريّة)[1] في طريقه إلى الكوفة، وقد دلّوه على مخاضة، فعبر منها وقاتل حوثرة، فانهزم أهل الشام.

ولكنّ جيش قَحطبة فَقَدَ قَحطبة، فقال أصحابه: مَنْ كان عنده عهد من قحطبة، فليخبرنا به! فقال مُقاتل بن مالك العَتَكِيّ: «سمعتُ قحطبة يقول: إن حدثَ بي حَدَثٌ، فالحسن ابني أمير الناس».

وبايع النّاس حُمَيْد بن قَحطبة لأخيه الحسن، وكان قد سيّره أبوه في سريّة، فأرسلوا إليه وأحضروه، وسلّموا إليه الأمر.

ولما فقدوا قَحطبة بحثوا عنه فوجدوه في جدول وحرب بن سالم بن أحْوَزقتيلين، فظنّوا أنّ كلّ واحد منهما قد قتل صاحبه.

وقاتل أهل خُراسان، فانهزم أهل الشّام.

ولما انهزم حوثرة لحق بابن هبيرة، فانهزم ابن هبيرة بهزيمته، ولحقوا بواسطِ وتركوا عسكرهم بما فيه من الأموال والسِّلاح[2].

ولا يمكن أن نطلق تعبير: معركة، على هذا الذي حدث بين الجانبين، فلم يكن هناك قتال بالمعنى الصحيح، بل كان هناك هزيمة منكرة أو فضيحة على أصدق تعبير، فما كادت مقدّمة ابن هُبيرة تنهزم، إلّا وانهزم

---

(١) الجبارية: لا ذكر لها في معجم البلدان.

(٢) انظر التفاصيل في معجم الطبري (٧/ ٤١٢ ـ ٤١٧) وابن الأثيرة (٥/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

الجيش كلّه وعلى رأسه قائده ابن هبيرة، وهذا إن دلّ على شيءٍ، فإنما يدلّ على انهيار معنويات جيش الدولة وسوء قيادتها وتغلغل الدعوة العباسيّة بين صفوفها سراً.

وقد كان قتل قحطبة وتغيّبه عن قيادة أصحابه مدة كان خلفه فيها بعيداً عن ساحة القتال، فرصة ذهبية بالنسبة لجيش الدولة، ولكنه لم ينتهزها في تحطيم قوّات أبي مسلم، فقد كان في شغل شاغل عنها بالهزيمة التي تقبّلها بدون قتال تقريباً.

إنّ هذه المعركة خير مؤشر على أن الدوّلة القائمة تسير بخطئ حثيثة إلى الزوال.

ب ـ ولعلّ أوضح دليل على انهيار الدولة القائمة ما حدث بالكوفة، فقد خرج محمد بن خالد بن عبد الله القَسْرِيّ بالكوفة مسوِّداً قبل أن يدخلها الحسن بن قَحْطَبَة، وأخرج عنها عاملَ ابن هبيرة، ثمّ دخلها الحسن.

وكان من خبره، أن محمّداً خرج بالكوفة ليلة عاشوراء مسوِّداً، وعلى الكوفة زياد بن صالح الحارثي، وعلى شُرَطه عبد الرحمن بن بشير العِجْلِيّ. وسار محمّد إلى قصر الإِمارة بالكوفة، فارتحل زياد ومَنْ معه من أهل الشّام، ودخل محمّد القصر.

وسمع حَوْثرة الخبر، فسار نحو الكوفة، فتفرّق عن محمّد عامّة مَنْ معه لما بلغهم الخبر. وبقي في نفرٍ يسيرٍ من أهل الشّام ومن اليمانيين الذين كانوا قد هربوا من مروان، وكان معه مواليه أيضاً.

وأرسل أبو سَلِمَة الخَلّال، ولم يظهر بعد، إلى محمّد يأمره بالخروج من القصر تخوّفاً عليه من حَوْثَرَة ومَنْ معه، ولم يبلغ أحداً من الفريقَيْن هلال قَحطبة بَعْدُ.

وبلغ حوثرة تفرّق أصحاب محمّد عنه، فتهيّأ للمسير نحوه.

وبينما محمّد في القصر، إذ أتاه بعضُ طلائعه فقال له: «قد جاءت خيل من أهل الشّام، فوجّه إليهم عدَة من مواليه، فناداهم الشّاميّون: نحن بِجَيْلة وفينا مليح بن خالد البَجَلِيّ، جئنا لندخل في طاعة الأمير، فدخلوا!!

ثمّ جاءت خيل أعظم منها مع رجلٍ من آل بَحْدَل، فلما رأى ذلك حوثرة من صنع أصحابه، ارتحل نحو واسِط.

وكتب محمّد بن خالد من ليلته إلى قَحطبة، وهو لا يعلم بهلاكه، يُعْلِم أنّه قد ظفر بالكوفة.

وقدم رسول محمّد بن خالد على الحسن بن قحطبة، فلما دفع إليه كتاب محمد بن خالد، قرأه على النّاس، ثم ارتحل نحو الكوفة، فأقام محمد بالكوفة يوم الجمعة والسّبت والأحد، وصبّحه الحسن بن قَحطبة يوم الاثنين.

وقيل: إنّ الحسن بن قَحطبة أقبل نحو الكوفة بعد هزيمة ابن هُبَيرَة، وعليها عبد الرحمن بن بشير العِجْلِيّ، فهرب عنها، فسوّد محمّد بن خالد وخرج في أحد عشر رجلًا، وبايع النّاسُ.

ودخل الحسن بن قَحطبة الكوفة من الغد، فأتوا أبا سلِمَة، وهو من بني سَلِمَة، فاستخرجوه، فعسكر بالنُخَيْلة، يومين، ثم ارتحل إلى (حَمّام أَعْيَن)[1]، ووجّه الحسن بن قَحطبة إلى واسِط لقتال ابن هُبيرة.

وبايع النّاس أبا سَلِمَة حفصَ بن سليمان مولى السُّبَيْع، وكان يقال له: الأمير، حتى ظهر أبو العبّاس السفّاح.

ووجّه أبو سَلِمَة إلى المدائن حُمَيْد بن قَحطبة في قوّاد، وبعث

---

(١) حمّام أعين: موضع بالكوفة مشهور، منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقّاص، انظر معجم البلدان (٣/ ٣٣٤).

المُسَيَّب بن زهير وخالد برمك إلى (دِيْر قُنّى)[1]، وبعث إلى (عين الثمر) وإلى الأهواز وبها عبد الواحد بن عمر بن هُبيرة، فخرج عنها عبد الواحد إلى البصرة.

كما بعث إلى البصرة أحد قادته، ولكن قائدها دافع عنها، فانهزم قائد أبي سَلِمَة، وكان قائدها سلم بن قتيبة الباهِلِيّ الذي ظلّ في البصرة حتى أتاه قتل ابن هُبيرة، فتخلىّ عنها[2].

ويبدو أنّ انتشار الدعوة للعباسيين سرّاً، هي التي أدّت إلى ضعف مقاومة رجال الدولة عن دولتهم في العراق واستسلامهم بشكل أو بآخرِ بدون مقاومة تذكر لقادة أبي مسلم، وسيرهم تحت ألويتهم وتأييدهم لهم في الناحيتين العسكرية والإِدارية، ولعلّ بقاء نشاط أبي سلِمة في الكوفة سرّاً مكتوماً، دليل على حذقه في الأعمال السريّة وحذره ويقظته، فلم يعرف شأنه أحد من رجال الدولة إلّا بعد أن انسحب قادة الدولة من الكوفة وتسلّمها العبّاسيون، وحينذاك فقط ظهر أبو سَلِمَة كأقوى رجل في الدولة المرتقبة.

جـ ـ وفي هذه السنة، سار أبو العبّاس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس من (الحُمَيْمَة) إلى الكوفة بعد استسلامها لقادة أبي مسلم الخَرساني. وكان سبب مسيره على رأس بني العبّاس من آل بيته، أنّ إبراهيم الإِمام لما أخذه رسول مروان إلى السِّجن الذي تُوفى فيه، نعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمّد وبالسّمع والطّاعة له، وأوصى إلى أبي العبّاس وجعله الخليفة بعده، فسار أبو العباس ومَنْ معه من آل بيته إلى الكوفة، حتى قدموها في صفر،

(١) دير قنى: دير على ستة عشر فرسخاً من بغداد منحدراً من النُّعمانية، وهو في الجانب الشرقي، معدود من أعمال النهروان، بينه وبين دجلة ميل، وعلى دجلة مقابله مدينة صغيرة يقال لها: الصافية، وقد خربت، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ١٦٤).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤١٧ ـ ٤٢٠) وابن الأثير (٥/ ٤٠٤ ـ ٤٠٧).

وشيعتهم من آل خُراسان بظاهر الكوفة بحمّام أَعْيَن، فأنزلهم أبو سَلِمَة الخلّال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وكتم أمرهم نحواً من أربعين يوماً من جميع القوّاد والشِّيعة.

وبويع لأبي العباس عبد الله بن محمد يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول[١] من سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريّة (٧٤٩م).

وهكذا أصبح للدولة الإِسلامية خليفتان: أُمويّاً وعباسيّاً، فكان لا بدّ من تصفية الحساب بينهما ليذهب خليفة ويبقى خليفة.

وسار مروان من حَرَّان على رأس عشرين ومئة ألف إلى الزاب الكبير[٢] للقاء قائد قَحطبة الذي استولى على شَهْرَزور وهو أبو عَوْن عبد الملك بن يزيد الأَزدِيّ، فوجّه أبو سَلِمة إلى أبي عون ثلاثة من قادته، مع كل قائد ثلاثة آلاف.

ولما ظهر أبو العبّاس السفّاح وبويع له بالخلافة، بعث إلى أبي عَوْن قائدين من قادته، مع الأوّل منهما ألفان، ومع الثاني ألف وخمسمائة، ثم بعث قائداً ثالثاً في ألفين، ثم أردفهم برابع ومعه خمسمائة، ثمّ قال أبو العبّاس: «مَنْ يسير إلى مروان من أهل بيتي؟»، فقال عبد الله بن عليّ: «أنا» فسيّره إلى أبي عَوْن، فقدم عليه، فتحوّل أبو عون عن سرادقه وخلّاهُ له وما فيه.

فلما كان لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومئة، سأل عبد الله بن عليّ عن مخاضة من الزّاب، فدلّ عليها، فأمر عُيَيْنَة بن موسى أحد قادته المرءوسين، فعبر في خمسة آلاف، فانتهى إلى عسكر مروان، فقاتلهم حتى أمسوا، ثمّ رجع إلى عبد الله بن عليّ.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٢١ ـ ٤٣١) وابن الأثير (٥/ ٤٠٨ ـ ٤١٧).

(٢) الزاب الكبر: هو الزاب الأعلى، بين الموصل وأربيل، ويجري بين الجبال والأودية، وماؤه شديد الحمرة، ويوم الزاب بين مروان وبني العبّاس كان على الزاب الأعلى بين الموصل وأربيل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٥).

وأصبح مروان، فعقد الجسر وعبر عليه، فنهاه وزراؤه عن ذلك، فلم يقبل. وسيّر ابنه عبد الله بن مروان، فنزل أسفل من عسكر عبد الله بن عليّ، فسرّح إليه عبد الله بن علي قائداً من قادته يدعى: المخارق في أربعة آلاف.

والتقى الجانبان، فثبت جيش مروان، وانهزم أصحاب المخارق وثبت المخارق، فأُسر هو وقسم من جماعته، فسيرهم قائد مروان إلى مروان مع رءوس القتلى.

ولما بلغت الهزيمة عبد الله بن عليّ، أرسل إلى طريق المنهزمين مَنْ يمنعهم من دخول معسكره، لئلا يؤثروا في معنويات رجاله، فبقوا خارج ميدان القتال[1].

وأشار أبو عَوْن على عبد الله بن علي، أن يبادر مروان بالقتال، قبل أن ينتشر خبر هزيمة المخارق بينهم، فيفتّ ذلك في أعضادهم، فنادى عبد الله بن عليّ في جيشه بلبس السِّلاح والخروج إلى الحرب.

وسار عبد الله إلى مروان، وجعل على ميمنته أبا عَوْن، وعلى ميسرته الوليد بن معاوية، وكان عسكره عشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وقيل غير ذلك.

وأرسل مروان إلى عبد الله يسأله الموادعة، فرفض عبد الله وأنشب القتال.

وأمر مروان ألّا تبدأهم قواته بالقتال، ولكنّ الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، وهو ختن مروان بن محمد على ابنته تحرش بهم، فغضب مروان وشتمه.

وقاتل الوليد بن معاوية بن مروان أبا عَوْن، فانحاز أبو عون إلى

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣) وابن الأثير (٥/ ٤١٧ ـ ٤١٨).

عبد الله، فقال موسى بن كعب أحد قادة عبد الله بن عليّ: «يا عبد الله! مرِ النّاس، فلينزلوا»، فنودي: الأرضَ.. الأرضَ. فنزل النّاس وأشرعوا الرِّماح وحثوْا على الرُّكب فقاتلوا جيش مروان، وجعل أهل الشّام يتأخّرون كأنهم يُدفعُون دفعاً.

واشتدّ بين الجانبين القتال.

وقال مروان لقُضاعة: انزلوا، فقالوا: قل لبني سُلَيْم فلينزلوا، فأرسل إلى السَّكاسك: أن احملوا، فقالوا: قل لبني عامِر فليحملوا!

وأرسل إلى السَّكون: أن احملوا، فقالوا: قل لغطَفَان فليحملوا!

وقال لصاحب شرطته: انزل، فقال: والله ما كنت لأجعل نفسي غرضاً. قال: أما والله لأسوءنّك! فقال: ودِدْتُ والله أنك قدرتَ على ذلك!!

وكان مروان ذلك اليوم لا يدبِّر شيئاً إلّا كان فيه الخللُ، فأمر بالأموال فأُخرجت، وقال للنّاس: «اصبروا وقاتلوا وهذه الأموال لكم» فجعل ناس من النّاس يصيبون من ذلك، فقيل له: إنّ النّاس قد مالوا على هذا المال، ولا تأمنهم أن يذهبوا به! فأرسل إلى ابنه عبد الله: أن سِرْ في أصحابك إلى مؤخّر عسكرك، فاقتل مَنْ أخذ من المال وامنعهم!!

ومال عبد الله بن مروان برايته وأصحابه، لينفِّذ أمر والده مروان في حماية المال، فقال الناس: الهزيمةَ... الهزيمةَ! فانهزم مروان وانهزموا، وقُطع الجسر، وكان مَنْ غرق يومئذٍ أكثر ممن قُتل.

وكانت هزيمة مروان بالزّاب يوم السّبت لإِحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة[1].

وكانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة، فقد بدأت دولة جديدة هي

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٣٢ ـ ٤٣٥) وابن الأثير (٥/ ٤١٧ ـ ٤٢١).

دولة بني العباس، وأنهَت دولة قديمة هي دوله بني أُميّة، وكان المتوقّع أن يكون فيها القتال استقتالاً من الجانبين المتقاتلين، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك، فما قاتل جيش مروان، ولا صبر على القتال ساعات، وانهزم بدون قتال جماعي تقريباً، وربما قاتل أفراد منه فأحسنوا القتال، ولكنّ القتال الفردي لا تأثير له في سير المعركة، والقتال الجماعي هو الذي له تأثير في سير المعركة.

ونعود إلى أسباب هزيمة مروان في هذه المعركة الحاسمة وشيكاً، عند الحديث عن سمات مروان قائداً في فقرة: القائد.

الإنسان:

١ ـ لما هُزِم مروان في معركة الزاب الحاسمة، هرب من ساحة المعركة، وعبر نهر دجلة من مدينة (بَلَد)(١) حتى أتى مدينة حَرَّان، فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً.

وسار عبد الله بن علي العباسيّ حتى أتى الموصل، فدخلها وعزل عامل مروان عليها واستعمل عليها عاملًا جديداً، وذلك بُعَيْد معركة الزّاب مباشرة.

وسار في أثر مروان، فلما دنا منه حمل مروان أهله وعياله ومضى منهزماً، وخلّف بمدينة حَرّان ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن الحكم وتحته أمّ عثمان ابنة مروان.

وقدم عبد الله بن عليّ حرَّان، فلقيه أبان مسوَّداً مبايعاً له، فبايعه ودخل في طاعته، فآمنه ومَنْ كان معه بحرّان والجزيرة.

---

(١) بلد: مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل، بينها سبعة فراسخ، وبينهما وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً، انظرالتفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٦٥).

ومضى مروان إلى حِمْص، فلقيه أهلها بالسَّمع والطّاعة، فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم غادرها، فلما رأى أهل حمص قلّة مَن معه، طمعوا فيه وقالوا: مرعوب منهزم، فأتبعوه بعدما رحل عنهم، فلحقوه على أميال من المدينة.

ورأى مروان غبرةَ الخيل، فوضع لهم كميناً، فلما جاوزوا الكمين صافَهم مروان فيمَنْ معه وناشدهم ألا يقاتلوه، فأبوا إلّا قتاله. وقاتلهم مروان، وأتاهم الكمين من خلفهم، فانهزم أهل حِمحص وقُتلوا حتى انتهوا إلى قريب المدينة.

وأتى مروان دمشق، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فخلّفه فيها وقال: «قاتلهم حتى يجتمع أهل الشام».

ومضى مروان حتى أتى فلسطين، فنزل (نهر أبي فُطْرُس)[1]، وقد غلب على فلسطين الحَكَم بن ضبعان الجُذاميّ فأرسل مروان إلى عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي فأجاره.

وكان السفّاح قد كتب إلى عبد الله بن عليّ يأمره باتباع مروان، فسار في أثره حتى أتى الموصل، فتلقّاه مَنْ بها مسوَّدين وفتحوا له المدينة، ثم سار إلى حرَّان فتلقاه أهلها مسوَّدين أيضاً، فهدم عبد الله الدّار التي حُبس فيها إبراهيم الإمام. وسار عبد الله من حَرّان إلى (مَنْبِج)[2] وقد سوّدوا، فأقام بها. وبعث إليه أهل (قِنَّسْرِيْن) ببيعتهم، وقدم عليه أخوه عبد الصَّمد بن علي، أرسله السفّاح مدداً له في أربعة آلاف، فسار بعد قدوم

---

(١) نهر أبي فطرس: موضع قرب مدينة الرّملة من أرض فلسطين، والنهر مخرجه من أعيُن في الجبل المتصل بنابلس، ويصب بالبحر الميت، وانظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٣٣).

(٢) منبج: مدينة كبيرة واسعة، بينها وبين الفرات ثلاث فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان (٨/ ١٦٩).

عبد الصمّد إلى قنَّسرين بيومين، وكانوا قد سوّدوا، فأقام يومين. وسار إلى حِمْص وبايع أهلها وأقام بها أياماً. ثم سار إلى (بَعْلَبَك)[1] فأقام بها يومين. ثمْ سار فنزل (المِزَّة)[2] مزّة دمشق، وهي قرية من قرى الغوطة، فقدم عليه أخوه صالح بن علي مدداً له.

وحاصر عبد الله بن علي دمشق، فدخلها عَنْوَة يوم الأربعاء لخمس مضين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريْةِ.

وأقام عبد الله بن عليّ في دمشق خمسة عشر يوماً، ثم سار يريد فلسطين، فلقيه أهل الأُردن وقد سوّدوا. وأتى نهر أبي فُطُرُس وقد ذهب مروان، فأقام عبد الله بفلسطين، فأتاه كتاب السفّاح يأمره بإرسال صالح بن علي في طلب مروان.

وانطلق صالح حتى بلغ (العَرِيْش)[3]، فأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام.

وسار صالح، فنزل نهر النّيْل، ثمّ سار حتى أتى (الصَّعِيْد)[4]، وبلغه أنّ خيلًا لمروان يحرقون الأعلاف، فوجّه إليهم قوّة من قوّاته، فأخذوا وقُدم بهم على صالح وهو بـ (الفُسْطَاط)[5]، وسار فنزل موضعاً يقال له: (ذات

---

(١) بعلبك: مدينة قديمة فيها آثار قديمة، بينها وبين دمشق ثلاث أيام، من جهة الساحل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٢٦).

(٢) المزّة: قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ، انظر معجم البلدان (٨/ ٤٧)، وهي اليوم ضاحية من ضواحي دمشق الحديثة.

(٣) العريش: مدينة كانت أول عمل من أعمال مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

(٤) الصعيد: بلاد واسعة كبيرة بمصر، فيها عدّة مدن عظام منها مدينة أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

(٥) الفسطاط: مدينة في مصر بناها عمرو بن العاص فاتح مصر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٣٧٧ ـ ٣٨٤)، وهي مدينة القاهرة القديمة حول جامع عمرو بن العاص الموجود حالياً.

السّلاسل)[1]، وقدّم أبا عَوْن عامرَ بن إسماعيل الحارثيّ وشُعْبَة بن كَثير المازنيْ في خيل أهل الموصل، فلقوا خيلًا لمروان فهزموهم وأسروا منهم رجالًا، فقتلوا بعضاً واستحيوا بعضاً. وسألوهم عن مروان، فأخبروهم بمكانه على أن يؤمنوهم. وساروا فوجدوه في كنيسة في (بوصير)[2]، فوافوه ليلًا. وكان أصحاب أبي عَوْن قليلين، فقال عامر بن إسماعيل: «إنْ أصبحنا ورأوا قلّتَنَا أهلكونا ولم ينجُ منّا أحد»، وكسر جفن سيفه، وفعل أصحابه مثله، وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا، وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه. وصاح صائح: «صُرِعَ أمير المؤمنين»، فابتدروه، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة فاحتزّ رأسه، فأخذه عامِر وبعث به إلى أبي عَوْن، وبعثه أبو عَوْن إلى صالح بن عليّ، فسيّره صالح إلى أبي العبّاس السفّاح.

وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجّة، ورجع صالح إلى الشّام، وخلّف أبا عَوْن بمصر، وسلّم إليه السّلاح، والأموال والرّقيق.

وحين وصل رأس مروان إلى السفّاح سجد شكراً لله.

ولما قُتل مروان، هربَ ابناه عبد الله وعُبَيْد الله إلى أرضِ الحبشة، فلقوا من الحبشة بلاء شديداً: قاتلهم الحبشة، فقُتل عبيد الله ونجا عبد الله في عدّة ممَّنْ معه، فبقي إلى خلافة المهديّ، فأخذه نَصْر بن محمّد بن الأشعث، عامل فلسطين للمهدي، فبعث به إلى المهديّ.

ولما قُتل مروان كان عمرهُ ستاً وخمسين سنة قمريّة، إذ ولد سنة ست وسبعون الهجرية، وقتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية، وأربعاً وخمسين سنة شمسيّة[3]، إذ ولد سنة (٦٩٥م) وقتل سنة (٧٤٩م).

---

(١) ذات السّلاسل: لا ذكر لها في معجم البلدان، ويبدو أنها في الصعيد.

(٢) بوصير: هي قرية بوصير قُوريدُس من كورة الأَشْمُونِيْن، إحدى كور الصّعيد الأدنى غربيّ النيل، وهي القرية التي قتل بها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة، انظر معجم البلدان (١/ ٢٦١) و (٢/ ٣٠٦).

(٣) ورد أن عمره حين قتل اثنتان وستون سنة، وقيل: أن عمره تسع وستون سنة، ولا=

وكانت ولايته على الخلافة من حين بويع إلى أن قُتل خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوماً.

وكان يكنّى: أبا عبد الملك، وكان أبيض أشهل شديد الشّهلة، ضخم الهامة، كثّ اللحية أبيضها، رَبْعَة، وكان حازماً شجاعاً إلّا أنّ مدّته انقضت فلم ينفعه حرصه ولا شجاعته(١).

وكان كثيرالمروءة، كثير العُجب، يعجبه اللّهو والطّرب، ولكنّه كان يشتغل عن ذلك بالحرب(٢).

أولاده: عبد الملك، وعبد الرحمن، وعثمان، وعبد الله، وعُبَيْد الله، وعبد الغفّار، ويزيد، وأبو عثمان، ومحمد، وأبان(٣).

نزل حَرّان من أرض الجزيرة، وكان جميع مَنْ مَلَكَ قبله من بني أُميّة ينزلون دِمَشْق، ومنهم مَنْ كان يَتَبَدّى، وكانت أيامه كلّها فتناً وحروباً، ولم تصفُ له الأمور(٤)، فما استراح لحظة بعد أن تولّى الخلافة، وقاتل في عدة جبهات داخليّة: جبهة بني أميّة المخالفين، وجبهة بلاد الشّام، وكان المفروض أن تكون هاتان الجبهتان له لا عليه. كما قاتل في جبهة الحجاز واليمن والأندلس، والعراق وخُراسان وبلاد المشرق الإِسلامي كافة، ولعلّ أخطر الجبهات التي قاتل فيها هي جبهة خُراسان بخاصته وجبهة المشرق الإِسلاميّ بعامة فهذه هي الجبهة التي قَضَت عليهْ خليفةً وعلى دولة الأُمويين في الشّام، وأدّت فيما أدّت إليه إلى قيام الدولة العباسية.

= يصحّ هذا، لأنّ سنة مولده معروف وسنة قتله معروف أيضاً، وهو كما ذكرنا في أعلاه.

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٤٣٧ ـ ٤٤٣) وابن الأثير (٥/ ٤٢٤ ـ ٤٢٩) وابن كثير (١٠/ ٤٤ ـ ٤٦)، وانظر العبر (١/ ١٧٤).

(٢) ابن كثير (١٠/ ٤٧).

(٣) جمهرة أنساب العرب (١٠٧) وانظر العقد الفريد (١٤/ ٤٦٩).

(٤) التنبيه والأشراف (٣٢٥).

٢ - وينبغي أن نفرِّق بين مروان الوالي، ومروان الخليفة، فبقدر ما كان مروان الوالي موفّقاً، في عمله إدارياً وقائداً وإنساناً، كان مروان الخليفة غير موفق في عمله إداريّاً وقائداً وإنساناً.

فقد استُعمل هشام بن عبد الملك على الجزيرة وأذربيجان وإرمينية ابن عمّه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم سنة أربع عشرة ومئة الهجرية كما علمنا، خلفاً لمسلمة بن عبد الملك بن مروان.

وكان سبب ذلك، أنّه كان في عسكر مَسْلَمَة بإِرمينية حين غزا الخَزَر، فلما عاد مَسْلَمَة من غزوته سار مروان إلى الخليفة هشام، فلم يشعر به حتى دخل عليه، فسأله عن سبب قدومه، فقال: «ضِقْتُ ذرعاً بما أذكره، ولم أَرَ مَنْ يحمله غيري!»، قال: «وما هو!»، قال مروان: «قد كان من دخول الخَزَر إلى بلاد الإِسلام، وقتل الجَرَّاح[1] وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين. ثمّ رأى أمير المؤمنين أن يوجِّه أخاه مسلمة بن عبد الملك إليهم، فوالله ما وطئ من بلادهم إلّا أدناها، ثم إنّه لمّا رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك، فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر، فاستعدّ القوم وحشدوا، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية، وكان قُصاراه السّلامة، وقد أردتُ أن تأذن لي في غزوةٍ أُذهب بها عنّا العار وأنتقم من العدوّ». قال هشام: «قد أَذنتُ لك»، وقال: وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل»، قال: «قد فعلتُ»، قال: «وتكتم هذا الأمر عن كلِّ واحد!» قال: «وقد فعلتُ، وقد استعملتك على إرمينية»[2].

وكان مروان قد خرج متخفياً عن مسلمة إلى هشام[3]، أي أنّه عاد من الجبهة الأماميّة في حالة الحرب دون إذن مسلمة ودون علمه!!

---

(١) هو الجرّاح بن عبد الله الحَكمِيّ، الذي قتله الخزر سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة في إقليم اللاّن من أقاليم إرمينية بالقرب من مدينة الباب (دربند) على بحر الخزر.

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٧٧).

(٣) ابن خلدون (٣/ ١٩٧).

وفي رواية أخرى: لما أقبل مسلمة، زحفت إليه الخزر، فلم يشعر مسلمة حتى طلعوا عليه، فقاتلهم وحال بينهم اللّيل. وبات المسلمون يحْيون، وانصرف الخزر، وقفل مسلمة واستخلف مروان بن محمّد[1].

والتناقض بين الروايتين واضح، فإن مسلمة عاد إلى دمشق بعد أن قتل خاقان ملك الترك وأقوى عاهل في المنطقة، وعاد مسلمة بعد أن أحكم أموره في إرمينية[2]، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً، بل العكس هو الصحيح، وقد تغلغل مسلمة بالعمق في بلاد الخزر، فكيف لم يطأ من بلادهم إلّا أدناها!!

أما الادِّعاء بأنْ مسلمة كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر، أفسح فيهما المجال للخزر بإكمال استعدادتهم وإنجاز حشودهم، فليس معقولاً ولا منطقيّاً، إذ لا يمكن أن يتصرّف أيّ قائد مسؤول في الدنيا هذا التصرّف: ينذر عدوّه بالحرب، ويفسح المجال له للاستعداد، ثم يتراخى عنه ثلاثة أشهر!!

أمّا أنّ مسلمة لم تكن له نكاية بالخزر، فهذا ما يدحضه سير القتال المسجّل في التاريخ العربي الإسلامي بالتفصيل، ويدحضه ما أنجزه مسلمة في حرب الخزر بالذّات.

يبقى ما ورد عن خروج مروان متخفياً من مسلمة إلى هشام، فهذا ما لا يمكن أن يحدث بالنسبة للجنديّ الاعتيادي البسيط، إذ لا يمكن أن يعود إلى أهله، أو يترك موقعه إلّا بإذنٍ من قائده، فكيف بمثل مروان، وقد كان الرجل الثاني من جيش مسلمة من بعد مسلمة وابن عمّه وأقرب المقرّبين إليه وأحد قادته الأقربين!

ولو كان مروان مبيّتاً الوشاية بابن عمّه مسلمة، لاستأذنه في القفول

---

(1) تاريخ خليفة ابن خياط (٢/ ٣٥٩).

(2) ابن الأثير (٢/ ١٧٩).

إلى دمشق بحجّة أو بأخرى، فيعود أدراجه إلى دمشق، إذ ليس من المعقول أن يعود من مدينة (الباب) على بحر الخزر إلى دمشق، والمسافة بين البلدين شائعة، والوقت الذي تقطع به تلك المسافة طويل، ثمّ يبقى أمر عودته سرّاً مكتوماً على مسلمة، فلا يعرف عن رحيل مروان وغيابه شيئاً.

كما أنّ العلاقة الوثيقة بين مسلمة ومروان من جهة، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومسلمة من جهة أخرى، تجعل من الصعب على مروان أن يشي بمسلمة، وتجعل من الصَّعب على هشام أن يتقبل وشاية مروان، وخاصة وأنها تناقض الواقع والحقائق النّاصعة ولا يمكن أن يصدِّقها عاقل!

كلّ ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثانية، وهي أنّ مسلمة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام، قفل راجعاً، واستخلف مروان على الجيش وعلى ولايته، ففي هذه السنة: سنة أربع عشرة ومئة الهجرية، قفل مسلمة بن عبد الملك عنِ مدينة (الباب) بعدما هزم خاقان وبنى (الباب)، فأحكم ما هنالك، فولى هشامُ إرمينية وأذربيجان والجزيرة مروان[1].

ويبدو أنّ مسلمة بعد عودته من إرمينية، اقترح على هشام أن يولي مروان مكانه، فاستجاب هشام لاقتراح مسلمة المنطقيّ المعقول.

ولم يكن هشام ليعزل مسلمة الذي كان الرجّل الثاني في الدولة الأُموية بعد هشام وشيخ بني أُميّة ودماغهم المفكر، بودن رغبة مسلمة في التخلي عن ولايته. وليس من المعقول أن يعزل مسلمة لعدم كفايته، لأنّ كفاية مسلمة فوق الشبهات، ولأنّ هشام بن عبد الملك ولّاه لكفايته المتميِّزة، حتى يُعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية في ظروف حرجة للغاية، هي ظروف النكسة التي راح ضحيّتها القائد الجرّاح الحَكميّ.

ومما يلفت النَظر، أن مسلمة لم يَغْزُ ولم يتولَّ ولاية منذ سنة أربع

(١) الطبري (٧/ ٩٠).

عشرة ومئة الهجرية، حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجريّة أو سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية.

وغياب مسلمة عن تحمّل أعباء الجهاد في الفتح واستعادة الفتح، في تلك الظروف التي قلّ فيها القادة المتميِّزون، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بمثل هذا الفرض - ليس طبيعياً، بالرغم من ثقة هشام المطلقة بمسلمة. وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ.

والذي يبدو أنّ تخليّ مسلمة عن الجهاد كان لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته، فتخلّى عن الجهاد مُكرهاً لاعتلال صحته وإصابته بالمرض الذي أقعده عن الجهاد.

وعلى كلّ حال، فقد تولّى مروان إرمينية وأذربيجان والجزيرة لكفايته المتميِّزة، فقد كان الرجل الثاني في القيادة الفعلية بعد مسلمة، فلما تخلّى مسلمة عن قيادته وولايته طوعاً واختياراً، كان مروان هو الرجل المناسب للعمل المناسب الذي يخلف مَسْلَمَة بن عبد الملك، وقد أثبتت المعارك التي خاضها وإدارته القادرة لولايته أنّه كان عند حسن ظنِّ هشام به، وأنّه لم يخيِّب ظنّه بل جعل ظنّه يقيناً.

وكان مروان في أيام ولايته يتّسم بالطموح، يحبّ السّلطة ويحرص عليها، ويوالي مَنْ يُرضي طموحه ويعادي من لا يرضي طموحه.

وقد كان موقفه من يزيد بن الوليد بن عبد الملك حين علم أنّه يدعو سرّاً لنفسه ويعتزم أن يقود ثورة مسلّحة على الخليفة القائم الوليد بن يزيد بن عبد الملك، موقفاً مشرِّفاً حقاً، فكتب إلى شيخ بني أُميّة وكبيرهم في حينه سعيد بن عبد الملك يحذِّره مغبّة اللّعب بالنار والفتنة ويخوِّفه نتائج هذا الشّغب الذي يؤدي إلى خروج الأمر عن بني أُميّة كافة، لأنّه يفرِّق كلمتهم ويُشتِّت شملهم ويزرع بينهم الحقد والعداوة والبغضاء.

وعلم يزيد بن الوليد بمحاولة مروان أن يثنيه عن الثورة على الخليفة

القائم، ولكن يزيد مضى في تنفيذ مخطّطه، فاستولى على السلطة بعد قتل الوليد بن يزيد، وأصبح يزيد خليفة بيده مقاليد السُّلْطة والأمور.

وأعلن مروان خلافَه ليزيد بن الوليد، ولكنه نسي خلافه حين أبقاه يزيد على ولايته، مما يدلّ على أنّ خلافَه كان دفاعاً عن منصبه لا دفاعاً عن المبادئ.

ولما مات يزيد بن الوليد، أعلن خلافه من جديد على إبراهيم بن الوليد الذي تولّى الخلافة بعد يزيد، ويبدو أنّه تمادى به طموحه، ففتق فتقاً في العائلة المالكة لم يستطع رتقه أبداً، فكأنّه حفر قبره بيديه، فخسر حتى القبر لما أصبح بحاجة إلى القبر، وخسر الأُمويون الخلافة التي كان مروان أحد أسباب زوالها عنهم.

ولما استُخلف مروان، دخل عليه الشّعراء يهنئونه بالخلافة، فتقدّم إليه طُريح بن إسماعيل الثّقفِيّ خال الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فقال: «الحمدَ لله الذي أنْعمَ بك على الإسلام إماماً، وجعلك لأحكام دينه قِواماً، ولأُمّة محمّد المصطفى جُنَّةً ونِظاماً»، ثم أنشد:

تَسوء عِداك في سدادٍ ونَعْمَةٍ خلافتُنا تِسْعِيْنَ عاماً وأشهراً

فقال مروان: «كم الأشهر؟»، فقال: «وفاء المئة يا أمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة، وأسعد عاقبة، في النُّصْرة والتَّمكين»، فأمر له بمئة ألف درهم!

ثمّ تقدّم إليه ذو الرُّمّة مُتَحانياً كَبْرةً[1]، قد انحلّت عمامته مُنحدرةً على وجهه، فوقف يُسوِّيها. فقيل له: تقدّم، قال: «إني أُجلُّ أمير المؤمنين أن أخطُب بشَرفه مادحاً بلَوْثة عِمامتي»، فقال مروان: «ما أمَّلتُ أنّه قد أبقت لنا منك مَيّ ولا صَيْدَح[2] في كلامك إمْتاعاً»، قال: «بلى والله يا أمير

(١) أي أنه طعن في السنّ، فتقوّس ظهره.
(٢) مي: صاحبة ذي الرمّة، وصيدح: ناقته.

المؤمنين، أَرِدُ منه قَراحاً، والأحسن امتداحاً»، ثمّ تقدمّ فأنشد شعراً يقول فيه:

فقلت لها: سِيْري أمامَك سيِّدٌ   تَفَرّعَ من مَرْوان أو من محمّد

فقال له: «ما فَعَلَتْ مَيّ؟»، فقال: «طُوِيَت غَدائرها ببُرْدِ بَلِيَ، ومحا التُّرب محاسن الخدّ»، فالتفت مروان إلى العبّاس بن الوليد بن عبد الملك فقال: «أما ترى القوافي تنثال انثيالاً، يُعطى بكلِّ مَنْ سَمَّى من آبائي ألف دينار، فقال ذو الرُّمّة: «لو علمتُ لبلغتُ به عبد شمس»[1]!

واستمتع مروان بما قيل في مدحه، ثم ذهبت زفّة الخلافة بعد أيام العسل القصيرة، فلما انقضت أيامه لم يرثه أحد، وهكذا على صاحب السلطان ألَا يفكِّر إلّا بانقضاء سلطانه، ليعرف كيف يحصل على السلطان، وكيف يعمل بعد الحصول عليه، والعاقبة للمتقين.

إن طموح مروان غير المشروع، قاده إلى السلطة وإلى الهلاك أيضاً.

وليس من شك في كفايته الإدارية المتميِّزة والياً، فقد أحسن في عمله كلّ الإحسان، ونعمت الأقطار التي كان يديرها بالأمن والاستقرار، وكان حازماً ذكيّاً لا يكلّ ولا يملّ من العمل المتواصل والجهد الجهيد.

وكان بليغاً في تعليقاته وفي رسائله، فقد كتب إلى نصر بن سَيار في أمر أبي مُسلم: «الظّاهر يدلّ على ضعف الباطن، والله المستعان».

ووقّع إلى ابن هُبيرة أمير العراق: «الأمرُ مضطرب، وأنت نائم، وأنا ساهر»، وكتب إلى حوثرة حين وجّهه إلى قَحطبة: «كُنْ من بَيات المارقة على حَذر».

ووقّع حين أتاه غرق قَحطبة وانهزام ابن هُبَيْرة: «هذا والله الإِدبار، وإلّا فمن رأى مَيْتاً هَزم حيّاً!».

---

(١) العقد الفريد (١/٣١٩ ـ ٣٢٠).

وكتب جواباً لأبيات نصر بن سيّار إذ كتب إليه:

أَرى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيْضَ جَمْرٍ ... ويُوشِكُ أن يكون له ضِرَامُ

«الحاضر يَرى ما لا يَرى الغائب، فاحسم الثُّؤْلول»[1]، فكتب نصر: «الثُّؤْلول قد امتدّت أغصانُه، وعظُمت نِكايته»، فوقّع مروان: «يداك أَوْكَتا، وفوكَ نَفَخَ»[2].

لقد كانت نهاية مروان مأساة من المآسي، وما جنى عليه غير نفسه الأمّارة بالسّوء، فيداه أَوْكَتا وفوهُ نفخ، كما قال مروان في أحد توقيعاته!

ولعلّ مصير مروان المؤلم والمحزن معاً، يكون عبرة للذين يقودهم طموحهم غير المشروع لتولي السلطة بأيِّ شكل وأسلوب، دون التفكير في النتائج القريبة والبعيدة، فكم من سلطة أودت بصاحبها وأردته وأودت بغيره وأردته وجرّت عليه وعلى غيره الويلات والمصائب؟

ومن السّهل في كثير من الأحيان الحصول على السلطة بطريقة أو بأخرَى، والصّعوبة في الاحتفاظ بها، لتفيد لا لتضر، ولتبني لا لتهدم، ولتعمّر لا لتخرِّب، ولا خير في سلطة يقتصر دورها على الضرر والهدم والتخريب.

تلك هي مجمل عبرة مروان بن محمّد لمن يريد أن يعتبر.

القائد:

١ ـ أسباب الهزيمة:

أ ـ العصبيّة العربيّة:

تعصّب الأمويون للعرب، وتجلّى ذلك في معاملتهم للمسلمين من غير

---

(١) الثؤلول: الخراج، وقيل: هو بثر صغير صلب مستدير في صور شتى.

(٢) هذا مثل، وأصله أنّ رجلًا كان في جزيرة، فأراد أن يعبر على زق لم يحسن إحكامه، حتى إذا توسّط البحر، خرجت منه الريح، فلما أشرف على الغرق، استغاث آخر، فقال هذا المثل: يداك شدّتا فم الزق (الجراب)، وفوك نفخهُ، انظر العقد الفريد (٤/ ٢١٠).

العرب معاملة كانت تختلف الاختلاف كلّه عن معاملتهم للعرب المسلمين: يسمّون المسلم غير العربي: (المولى)، وهي تسمية تشعر بسيادة العنصر العربيّ المسلم، ولا يسوون بين العربي المسلم وغير العربي المسلم في العطاء ومناصب الدولة العليا، وينظرون إلى غير العرب نظرة احتقار وازدراء.

وهذه العصبية للعرب، ألّبت الأعاجم في البلاد المفتوحة على العرب وأشعلت في نفوسهم عصبية مناوئة للعصبية العربيّة وهي العصبيّة الأعجميّة أو الشعوبيّة، فأدّت هذه العصبية من الجانبين إلى إثارة الضّغائن والأحقاد في صفوف الأمة الإسلاميّة الواحدة، فتفرّق الشّمل المجتمع وتصدّعت الوحدة المتماسكة.

وكان من نتائج هذه العصبية في الجانبين، استقطاب الأعاجم تحت لواء الدّعوة العباسيّة التي بدأت سنة مئة الهجرية (٧١٩م) وشبّت وترعرعت في خُراسان حتى أصبحت قوّة ضاربة في عهد مروان، فاستطاعت السيطرة على خُراسان وسائر المشرق الإسلامي والعراق، واستطاع جيشها إحراز النّصر على جيش مروان، لأنه جيش له (قضية) يقاتل من أجل تحقيقها، ولم تكن لجيش مروان (قضية) يقاتل من أجل تحقيقها والدفاع عنها، ولا عبرة بتعداد الجنود والمقاتلين، فالنّصر لأصحاب (القضية) والهزيمة لمن لا (قضيّة) له.

وقد كان جيش العباسيين (منظّماً) ينخرط في تنظيم واحد، له مبادئ معيّنة يلتزم بها وأهداف معروفة يسعى إلى تحقيقها، بعكس جيش مروان الذي تربطه سجلّات الديوان وحدها وهي رابطة الارتزاق.

والقوّة القليلة المنظّمة، تنتصر على القوّة الكبيرة غير المنظّمة، وهذا ما حدث بالنسبة لاندحار جيش مروان وانتصار جيش الدعوة العباسيّة عليه.

والعصبية العربية هي التي حدت بالشعوبيين إلى تنظيم صفوفهم تحت

شعارات معيّنة لتحقيق أهداف معيّنة، هي القضاء على العنصر العربيّ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ب ـ العصبيّة القبلية:

وهي عصبيّة أضيق نطاقاً من العصبية العربيّة، ولكنّها أبلغ ضرراً وأشدّ خطراً من العصبية العربية، لأنها تجعل من كلِّ قبيلة أمة مستقلّة، وهي تقتضي من أفراد القبيلة أن يتعاونوا ولو على الباطل، وأن ينصروا المظلوم منهم والظّالم، ومعنى ذلك أنها تفرّق العرب وتجعل بأسهم بينهم شديداً.

وبلغ من خطورة العصبيّة القبليّة وآثارها المدمّرة، أنها كانت سبباً من أهم أسباب قتل خليفة من الخلفاء الأُمويين، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

فقد قُتل خالد القَسْرِيّ وهو من اليمانية، والوليد بن يزيد من المُضَرِيّة، والعصبية القبليّة بين مُضَر واليمن على أشدّها حينذاك، فسُرّ الوليد بمقتل القَسْرِيّ وأظهر التَشفيّ والشماتة، وتجلىّ ذلك في قصيدة له قال فيها:

شَدَدْنَا مُلكُنا ببني نِزارٍ ... وَقَوَّمْنا بهم مَنْ كان مالا
وهذا خالدٌ أضحى قتيا ... ألَا مَنَعوه[1] إنْ كانوا رِجالا
ولكنّ المذلّة ضَعْضَعَتْهُمْ ... فلم يَجِدوا لذلّتهم مقالا[2]

وهي قصيدة طويلة كان لها في نفوس اليمانيّة أسوَأ الأثر، فاجتمعوا في مدن الشّام، واتّجهوا في جموع من اليمانيّة كبيرة إلى الخليفة في دمشق. وخرج الوليد إليهم في جموع من المضريّة واقتتلوا قتالاً عنيفاً عاقت بها الهزيمة بمضر، فتحصّن الوليد بقصره، ولكنّهم تسلّقوا عليه

(١) الضمير في: منعوه، يرجع إلى اليمانية.
(٢) الأخبار الطوال للدينوري (٣٣٣).

القصر وقتلوه[1]، فتولى الخلافة يزيد بن الوليد الذي استعان باليمانيّة.

وكما تعصّب الوليد بن يزيد للمضريّة على اليمانية، تعصّب مروان للمضرية على اليمانية أيضاً، فلجأ اليمانية إلى أحضان دعاة بني العبّاس، وكانوا في جيشهم، بينما كان المضريّون في جيش مروان، وهكذا كان الأعاجم واليمانية مع العباسيين، وكانت مضر وحدها مع مروان، وكان المفروض أن يكون العرب المسلمون كلّهم مع مروان.

جـ ـ العصبية العائلية:

خالف مروان سلفه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، فقاد جيشه من إرمينية والجزيرة إلى العاصمة دمشق، واستطاع بالقوة أن يجعل إبراهيم يخلع نفسه ويتولىّ مروان الخلافة، فشقّ بذلك شقاً في العائلة الأمويّة لم يستطع رتقه أبداً.

وقد انضمّ كثير من بني أُميّة إلى أعداء مروان، فقاتلوا في صفوفهم، وبلغ الانشقاق حدّاً جعل قسماً منهم ينضمّ حتى إلى صفوف الخوارج وغيرهم، كما مرّ بنا في الحديث على: الصِّراع الداخليّ.

وكما خالف مروان سلفه إبراهيم بن الوليد، خالفه عدد غير قليل من بني أُميّة وحاربوه حرباً لا هوادة فيها، أدّت فيما أدّت إليه إلى استنزاف قوّاته.

كما أنّ قسماً من بني أُمية خالفوه في المناطق التي كانوا يتوّلون إدارتها، كما فعل عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، الذي شق عصا الطّاعة على مروان، وقاتل في العراق قوّات مروان.

وكان المفروض أن يكون بنو أُمية مع مروان لا عليه، وكانوا يومئذٍ قوة ضخمة لا يُستهان بها عَدَداً ومَدَداً.

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري (٣٣٣).

وللإنصاف نذكر أن أوّل من شق صفوف الأمويين قبل مروان، هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك، الذي قاد ثورة على الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقتله في قصره، وتولّى الخلافة من بعده.

د ـ انحلال الضبط:

نعني بالضبط أو الانضباط أو الطّاعة، تنفيذ أوامر القائد دون تردّد ومن طيبة خاطر.

وقد انهار الضّبط في الجيش الأُموي وفي الدولة، فلا الجنود ينفِّذون أوامر القائد، ولا الناس يخضعون للسلطة.

ولعلّ من أسباب انحلال الضبط وانهياره، حرب الاستنزاف بين جيش الدولة وبين أعداء الدولة التي طالت كثيراً، فأصبحت الحرب هي القاعدة والسّلام هو الاستثناء، وكلما طالب الحرب زاد التذمّر وضعف الضبط.

ولعلّ من أسبابه الدعوة السريّة للعباسيين التي استمالت إلى جانبها كثيراً من الناس، وأصبح معتنقوا هذه الدعوة رَتَلًا خامساً بين صفوف جيش الحكومة ومكاتبها وبين أفراد الشعب، يثيرون الإشاعات، ويثبِّطون العزائم، وينشرون الفوضى والارتباك.

ومن مظاهر انحلال الضبط، أنّ مروان يولي والياً على العراق، فلا ينصاع السلف للخلف، ويؤدي الخلاف الناشب إلى الاقتتال بين الوالي السّابق والوالي الجديد.

ومن مظاهره، ما حدث في الأندلس من حرب طاحنة بين مُضَر واليمن، وتولية الأندلس أميراً لا من الخلافة بل من مراكز القوّة في الأندلس!!

ومن مظاهره، ما حدث من اقتتال بين جيش الدولة والخارجين عليها في الحجاز واليمن، مما أدىّ إلى ارتباك مواسم الحج ارتباكاً شديداً.

أما في خُراسان والمشرق الإسلامي، فقد كانت سلطة الدولة في إجازة طويلة!

وكلّ هذا الانحلال، أدىّ إلىترديّ معنويات جيش الدولة وإلى انهيار الضبط فيه، وتجلىّ هذا الانحلال في الضبط، ما ظهر في معركة الزّاب الحاسمة، فما أصدر مروان أمراً إلى قوّاته المحاربة إلّا ولم يُنفّذ أمره باستهتار عجيب!

وبلغ العصيان حدّاً في تلك المعركة الحاسمة لم يبلغه في معركة أخرى، فالقبائل رفضت تنفيذ أوامر مروان دون استثناء، حتى الرجل الذي كان على شرطته، عصى أوامره عصياناً فاضحاً، والمفروض أنّ مثل هذا الرجّل من أقرب المقربين إلى الخليفة ومن أخلص المخلصين له، ولكنه آثر العافية على الخطر، كأنّه كان واثقاً بأنّ الهزيمة النكراء ستحلّ بمروان وشيكاً.

والجيش الذي يصاب بانحلال الضبط وانهيار المعنويات لا ينتصر أبداً.

والدولة التي تفقد هيبتها، لا يمكن أن تبقىٰ أبداً.

هـ ـ تجاوز الاحتياط:

حشد مروان جيشه في الزاب لخوض معركته الحاسمة، وكان من حقّه وواجبه أن يحشد كلّ القادرين على حمل السّلاح من أنصاره لخوض تلك المعركة الحاسمة.

ولكنّه كان عليه أن يفكّر في معارك أخرى، يقاوم بها بالعمق أنصار العباسيين، فإذا انهزم في معركة الزّاب، فينبغي أن يخوض معارك أخرى في حَلَب ودمشق وفلسطين وفي مصر، ويفكّر بإعداد قوّات احتياطية، تدافع عن الدولة في معارك متعاقبة، وألّا ينتهي في معركة واحدة كما حدث، ثم يصبح بعد هزيمته شريداً طريداً، ليست لديه قوات احتياطية تدافع عنه وعن الدولة كما ينبغي.

والظّاهر أنّ مروان لم يفكر بإعداد قوّات احتياطية، تقاتل في حالة هزيمته في لقائه الأول والأخير، ولهذا كانت معركة الزاب هي معركته الأولى والأخيرة، ثم انتهى أمره وأمر الدولة بعد الهزيمة، وأصبح همّه الحفاظ على حياته كأيِّ إنسان، يهرب من بلد إلى آخر، وقوّات العباسيين تطارده، إلى أن استطاعت قتله في الصّعيد من أرض مصر، فانتهى خليفة وانتهت دولة الأُمويين.

إنّ إهمال إعداد قوات احتياطية خطأ فاحش لا يُغتفر لمروان، دفع ثمنه حياته ومصير دولته.

٢ ـ سماته القيادية:

لا ينبغي أن يُحكم على سمات مروان القياديّة بمناقشة معركة الزّاب الحاسمة التي خسرها مروان، لأنّه خاض معارك كثيرة من معارك الفتح واستعادة الفتح ولتوطيد الأمن الداخلي، وينبغي استنتاج سماته القيادية من دراسة معاركه كافة لا من دراسة معركة واحدة.

ويبدو أنّ مروان كان قائداً متميزاً في مزاياه القيادية حين كان والياً على إرمينية وأذربيجان والجزيرة، ونتائج معاركه التي خاضها هناك تؤيِّد مزاياه القياديّة المتميِّزة وتشهد عليها، لأنّه فتح فتحاً جديداً، واستعاد فتح مناطق شاسعة انتقضت على الدولة، وأعاد الأمن والاستقرار والنظام إلى ربوع الأقاليم التي يتولىّ حكمها، وسرّ نجاحه في مهمته قائداً وإدارياً، أنّه كان متفرِّغاً للواجبات القيادية والإدارية، لا تشتغله السياسة العليا عن هذه المهمّة.

فلما تولى مروان الخلافة، خَفَتَ بريقُ قيادته بالتدريج، لأنّه شُغل بتوطيد الأمن الداخلي وبمصاولة الثورات المحليّة، في معارك طاحنة يخسر الجانبان فيها في الاقتتال، ولا رابح فيها لجانب دون آخر، لأنّ السيوف العربية والإسلامية، أصبحت على العرب والمسلمين لا على أعدائهم،

فتوقّف الفتح واستعادة الفتح، وتنفَّس أعداء المسلمين الصعداء، فقد أصبح المسلمون بأسهم بينهم شديداً، يحسبهم غيرهم جميعاً وقلوبهم شتى!

لقد كان مروان قائداً لامعاً حين تفرّغ للقيادة والإدارة، ولكنه أصبح قائداً مهزوماً حين تفرّغ للسياسة وأصبحت القيادة واجباته الثانوية، وهكذا تفسد السياسة كلّ شيءٍ تتدخّل فيه، وبخاصة العسكريّة التي هي بحاجة إلى التفرّغ الكامل، فإذا تدخّلت السياسة بالعسكرية، فسدت السياسة وأفسدت العسكرية، وتاريخ الحرب قديماً وحديثاً خير دليل.

وقد شهد المؤرخون على كفاية مروان القيادية في مدّة ولايته على إرمينية وأذربيجان والجزيرة من سنة أربعة عشرة ومئة الهجرية إلى سبع وعشرين ومئة الهجرية، فذكروا: أنه فتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعدِّدة في سنين كثيرة. وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله، وقاتل طوائف من النّاس الكفّار ومن الترك والخزر واللآن وغيرهم، فكسرهم وقهرهم. وقد كان شجاعاً بطلًا مقداماً حازم الرأي[1] ـ وكان بطلًا شجاعاً، ذكره الخليفة أبو جعفر المنصور مرّةً فقال: «لله درّه!ما كان أحزمه وأسوسه وأعفّه عن الفيء»[2].

وكان مروان مجرِّباً صابراً على التعب والنصب[3]، وكان شجاعاً حازماً إلّا أنّ مدّته انقضت فلم ينفعه حزمه ولا شجاعته[4].

تلك هي سماته القياديّة التي نوّه بها المؤرخون والتي برزت أيام ولايته، ولم تَتَخَلَّ عنه بالطبع هذه السِّمات المتميزة بعد أن تولّى الخلافة، ولكنّ السياسة طغت عليها فغطّتها بحجاب كثيف وحجبتها عن الأنظار.

---

(١) البداية والنهاية (١٠/١٧).
(٢) العبر (١/١٧٨).
(٣) التنبيه والإشراف (٣٢٨).
(٤) ابن الأثير (٥/٤٢٩).

لقد كان قائداً فاتحاً، حريصاً على الغزو أعظم الحرص، منتصراً على أمم شتى من الترك والخزر واللآن وغيرهم، شجاعاً بطلًا مقداماً حازماً، صابراً على التّعب والنّصب، أميناً على الغنائم.

والحصول على المعلومات عن العدو، مهمّة شاقّة للغاية، تعمل عدّة أجهزة من أجهزة الجيش على تحقيقها، كالعيون والأرصاد ومفارز الاستطلاع المختلفة والاستطلاع الشخصيّ، وقد تميّز مروان بقابليته الفذة على حزر تَعداد عدوّه بسرعة وسهولة ويسر وبمنتهى الدقّة أيضاً.

ذكر كاتب مروان مُصْعَب بن الرّبيع الخثعمِي ـ قال: «لما انهزم مروان وظهر عبد الله بن عليّ العباسيّ على الشّام، طلبتُ الأمانَ فآمنني، فإني يوماً جالس عنده، وهو مُتّكئ، إذ ذكر مروان وانهزامه، قال: أشهدتَ القتال؟ قلت: نعم أصلح الله الأمير! فقال حدّثني عنه! قلت: لمّا كان ذلك اليوم قال لي: احزر القومَ! فقلتُ: إنّما أنا صاحب قلم، ولستُ صاحبَ حرب، فأخذ يمنة ويسرة ونظر فقال: هم اثنا عشر ألفاً! فجلس عبد الله، ثمّ قال: ما له قاتله الله! ما أحصى الديوان يومئذٍ فضلًا عن اثني عشر ألف رجل!»[1].

والقائد الذي يتمتّع بهذه المزيّة في معرفة تعداد عدوّه، يستطيع أن يُعدّ خطّته على هدى وبصيرة، لأنّه أحرز على أهمّ المعلومات عن عدوّه، فيختصر الطريق في إعداد خطّته السريعة السّليمة لمصاولة ذلك العدو.

وهذه المزيّة إن دلّت على شيءٍ، فإنما تدلّ على ذكاء القائد وتمتّعه بالتجربة العملية في علومه العسكريّة النظرية.

ومن دراسة المعارك التي خاضها مروان، نستطيع أن نستنتج أنّه كان حذراً يقظاً، لا يسير إلّا على تعبية، ليحرم العدو من مباغتة قواته، فلا يستطيع عدوّه أن يباغته في الحرب.

---

(١) الطبري (٥/ ٤٣٩).

فقد حاول رجال سليمان بن هشام بن عبد الملك أن يبيّتوا جيش مروان، فلم يفلحوا في محاولاتهم.

وكان مروان ذا رأي ومكيدة، ولعلّ إرساله ثلاثة آلاف فارس، التفوا حول حماة دمشق عندما أراد مروان الاستيلاء عليها، فضربوا جيش دمشق في وقت لا يتوقعونه ومن مكان لا يتوقّعونه أيضاً، دليل على ما يتمتّع به مروان من رأي ومكيدة في إعداد خططه العسكريّة وتنفيذها[(١)].

وكان تنفيذ خطة الالتفاف التي أعدّها مروان مباغتة كاملة بالمكان والزمّان معاً.

وما دمنا في مجال الحديث عن المباغتة، التي هي أهمّ مبدأ من مبادئ الحرب على الإِطلاق، فقد باغت مروان الخزر في بلادهم، بإِظهاره مهادنتهم علناً، واستعداده لحربهم سراً وتأخير وفدهم، ثم ترحيلهم على طريق طويلة، بحيث وصلوا إلى ملك الخزر في الوقت الذي وصل إليه مروان، دون أن يترك له الوقت الكافي للاستعداد، ممّا أدّى إلى انحدار الخزر انحداراً كاملًا وانتصار مروان انتصاراً مؤزّراً، لأنّ مروان باغت الخزر بالزمان مباغتة لم تترك أمامهم غير الرضوخ إلى مروان[(٢)].

وقد كان في مدّة ولايته على إرمينية وأذربيجان والجزيرة، يطبِّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، تطبيقاً جيداً، فكان مقصده في معاركه كسر شوكة المخالفين في ولايته وإعادتهم إلى طاعة الدولة، وفرض هيبة الدولة في المناطق التي يحكمها، فنجح في تحقيق مقصده أعظم النّجاح.

وكان يطبِّق مبدأ: التعرّض تطبيقاً مثاليّاً، فلا يكاد يسمع بحشود معاوية في منطقة من مناطق ولايته المترامية الأطراف، إلّا ويبادر إلى التعرّض، لإحباط نياتها في الانتقاض والثورة.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٧/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢) وابن الأثير (٥/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٢) انظر فتوح البلدان (٢٩٢ ـ ٢٩٤) وابن الأثير (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٦١).

وكان يطبِّق مبدأ: حشد القوّة، فيحشد رجاله في المكان المناسب والزّمان المناسب بكميّة من المقاتلين والمعدّات كافية لتحقيق المقصد المطلوب، فما خاب في معركة واحدة في مدة ولايته، وانتصر في جميع المعارك التي خاضها بسهولة ويسر على أعدائه.

وكان يطبِّق مبدأ: الاقتصاد في المجهود، فلا إسراف في الحشد ولا تقصير فيه، بل يقتصر على حشد القوّات المناسبة لتنفيذ المقصد المناسب.

وكان يطبّق مبدأ: الأمن، فكان حَذِراً يقظاً لا يسير إلّا على تعبية، يعجز عدوّه عن تبييته أو مباغتته، وعلى العكس من ذلك، فقد استطاع مروان في كثير من عمليّاته العسكرية مباغتة أعدائه وتبييتهم.

وكان يطبِّق مبدأ: المرونة، فلم تكن خططه التّعبويّة جامدة، بل كانت مرنة يحوِّرها بحسب ظروف المعركة وتطوّرها.

وكان يطبِّق مبدأ: التعاون بين قوّاته التي يقودها، وبين هذه القوّات والقوّات المحليّة للبلاد المفتوحة، ويعتبر مروان أول مَنْ نَظّم واجبات القوّات المحلية للتعاون مع قواته الأصلية، بحيث تعرف كل قوة من تلك القوات المحلية واجبها بالضّبط، دون التباس أو غموض.

وكان يطبّق مبدأ: إدامة المعنويات بالنصر، فنجح في ذلك نجاحاً باهراً يوم كان والياً، ولكنه لم ينجح في إدامة المعنويات بعد أن أصبح في قمة السُّلطة العليا خليفة للمسلمين.

وكان يطبّق مبدأ: الأمور الإِداريّة، تطبيقاً رائعاً، فلم يعرف عن جيش قاده في وقت من الأوقات أنه جاع أو عطش أو عانى نقصاً من شؤونه الإِداريّة.

تلك هي قابلية مروان المتميِّزة في تطبيق: مبادئ الحرب.

أما سجاياه القيادية الأخرى، فقد كان سريع القرار، وكانت قراراته صحيحة سليمة في كلِّ معاركه التي خاضها عدا معركة (الزّاب)، فقد كانت

قراراته خاطئة للغاية لأنّه كان مرتبكاً في هذه المعركة، أمله بالنصر قليل، ومعنوياته منهارة، ولأنّ رجاله تخلّوا عن تنفيذ أوامره في أحرج الأوقات وأخطرها.

وكان شجاعاً بطلّاً، لا غبار على شجاعته الشخصيّة، إلّا في معركة الزاب، فقد انهزم من ساحة المعركة، فلطّخ سيرته بعار الهزيمة التي لا تناسب خليفة من الخلفاء، لذلك رفض أهل الموصل السّماح له وللمنهزمين من رجاله لعبور دجلة عن طريق مدينتهم، لأنّهم لم يصدِّقوا أنّ الخليفة يمكن أن ينهزم، فقال قائلهم لرجاله المنهزمين معه: كذبتُم! أمير المؤمنين لا يفرّ[١].

وكان ذا إرادة قويّة ثابتة، يتحمّل المسؤولية كاملةً دون تردّد أو تملّص، يتمتّع بمزية سبق النّظر، فيحسب لكل أمرٍ حسابه ويُعدّ له عدّته، ويتمتّع بشخصيّة قويّة نافذة.

ولعلّ من أبرز سماته القيادية، هي مزية تحمل المشاق والصبر عليها، فقد كان: «صابراً على التّعب والنّصب»[٢].

ولكنّه لم يكن يتبادل الثقة الكاملة بينه وبين رجاله، ولا المحبة المتبادلة، لأنه كان «ظالماً»[٣]، «صارماً»[٤]، وكان يُغري بين القبائل ويُغضب بين العشائر، واصطفى قيس عَيْلان وانحرف عن اليمن وبادأها العداوة، فصارت عليه إلباً، وعليه حرباً[٥].

لهذا تخلّى عنه رجاله في أحرج الأوقات والظروف: في معركة الزّاب

---

(١) ابن الأثير (٥/٤٢٤).
(٢) التنبيه والإِشراف (٣٢٨).
(٣) العبر (١/١٧٨).
(٤) البداية والنهاية (١٠/٤٧).
(٥) التنبيه والإِشراف (٣٢٨).

الحاسمة، ولم يقاتل ولاته على المدن والأمصار كما ينبغي، بل استسلموا دون مقاومة تذكر لجيش بني العبّاس.

لقد كان النّاس يهابون مروان ويخافونه خوفاً شديداً حين كان في السّلطة قوياً، لأنه كان ظالماً لا يبالي بالقتل والصَّلْب، حتى لقد صَلَب الموتى والقتلى أيضاً، كما جرى في معركة حِمص عندما نكث أهلها، فقد صلب خمسمائة من القتلى حول المدينة وهدم قسماً من سور المدينة[1] انتقاماً من أهلها.

وبالغ في القتل مبالغة جعلت القلوب التي حوله تتغيّر عليه سرّاً وتظهر له الولاء علناً، أما الذين كانوا مع الأعداء، فقد قاتلوه بعنف وشدّة، لأنّه صدّع قلوبهم بالظلم والتعصّب والانتقام ولكن حين أصبح ضعيفاً، وبدت بوادر انهيار سلطته، خلع الناس عنهم لباس الخوف، وكشفوا له ولأعوانه نياتهم، فهؤلاء الذين بقوا حول مروان مضطرين اضطراراً، ولم يستطيعوا التخليّ عنه نظراً لظروفهم الخاصة أو لأسباب قاهرة، وهم أهل الشام، أقرب المقربين إلى بني أُميّة وحماة دولتهم وقاعدتهم الأمنية، بذلوا قصارى جهدهم للتخلّص من مروان، فقدم جنودهم إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان في جيش مروان، فاتّصلوا به سرّاً وحسّنوا له خلع مروان وشجّعوه عليه، وقالوا له: «أنت أرضى عند النّاس من مروان وأولى بالخلافة»، فأجابهم إلى ذلك، فسار بإخوانه ومواليه معهم، فعسكر بقنسّرين، وكاتب أهل الشّام، فأتوه من كلِّ وجه[2].

وبلغت درجة بغض مروان من أبناء شعبه، أنّ قسماً من بني أُميّة لجأوا إلى أعدائه وقاتلوه إلى جانبهم، حتى أن قسماً منهم لم يتورّع إلى اللجوء للخوارج والصّلاة خلفهم والقتال إلى جانبهم، لا محبة بهم بل كرهاً لمروان.

---

(١) ابن الأثير (٥/٣٢٩).

(٢) ابن الأثير (٥/٣٣١).

والقائد الذي لا يحبّه رجاله ولا يثقون به، لا يمكن أن ينتصر أبداً.

ولعلّ مروان وما حاق به، يكون عبرة للمعتبرين.

وأخيراً، لم يكن مروان يتمتع بمزية المقدرة على اختيار الرجل المناسب للعمل للمناسب، وبرز هذا النقص فيه واضحاً جلياً أيام خلافته، فقد كان بحاجة ماسة إلى كفايات حالية تسيطر على أجزاء دولته الشاسعة، فولى مَنح لا كفاية له، وَأهمل أصحاب الكفايات الرفيعة، فأسلمه قادته ولالاته الإمّعات إلى مصيره المؤلم في أحرج الظروف والأحوال.

مروان في التاريخ:

يذكر التاريخ لمروان، أنّه فاتح قُوْنِيَة من أرض الرُّوم، وكَمخْ من أرض الجزيرة.

ويذكر له، أنّه استعاد فتح كثير من إرمينية وأَذربيجان والجزيرة، ووطّد أركان الأمن والاستقرار فيها.

ويذكر له أنّه تولّى إرمينية وأذربيجان والجزيرة ثلاث عشرة سنة، نعمت فيه تلك المناطق بالهدوء والاستقرار والأمن بشكل لم تنعم به من قبله ولا من بعده.

ويذكر له، أنّه مزّق بني أُميّة إرضاءً لطموحه غير المشروع في تولي الخلافة، فلما تولاها كانت وبالاً عليه وعلى الدولة القائمة.

ويذكر له، أنّه يخافه الناس حين كان قويّاً في سلطته، فلما ضعف تخلّى عنه الناس وأسلموه لأعدائه.

ويذكر له أنّه كان قائداً لامعاً وإداريّاً حازماً في ولايته، لأنه كان متفرّغاً للقيادة والإدارة.

فلما تولىّ الخلافة شغلته السياسة عن واجباته إدارياً وقائداً، فأتلف نفسه وأودى بآل بيته وقرض الدولة القائمة.

إنّه مضى إلى غير رجعته، ولكنّ عبرته في التّاريخ باقية ما بقي التّاريخ.

المصادر والمراجع

الآلوسي (محمود شكري الألوسي):

١ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - ط٣ - تحقيق الأستاذ محمد بهجة الأثري - القاهرة ١٣٤٢هـ.

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري):

٢ - الكامل في التاريخ - بيروت - ١٣٨٥هـ.

ابن تغري بردي الأتابكي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي):

٣ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - القاهرة - ١٣٨٣هـ.

ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي):

٤ - المحبّر - تحقيق إيلزه ليختن شتيتر (الدكتورة) - بيروت - ١٣٦١هـ.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني):

٥ - تهذيب التهذيب - حيدر آباد الدكن - ١٣٢٧هـ.

ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي):

٦ - أسماء الخلفاء والولاة - ملحق بجوامع السيرة - القاهرة - بلا تاريخ.

٧ - جمهرة أنساب العرب - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة - ١٣٨٢هـ.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي):

٨ - صورة الأرض - ليدن - ١٩٣٨م.

٩ - صورة الأرض - بيروت - بلا تاريخ.

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبه):

١٠ - المسالك والممالك - تحقيق (M.J.De Goeje) - ليدن ١٨٨٩م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربي):

١١ - تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (- بيروت - ١٩٦٦م).

ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدم العلائي المعروف بابن دقماق):

١٢ ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ تحقيق الدكتور وليرس Vollers بولاق ـ ١٨٩٣م.

ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر المعروف بابن رسته):

١٣ ـ الأعلاق النفيسة ـ ليدن ـ ١٨٩٢م.

ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري):

١٤ ـ الطبقات الكبرى ـ بيروت ـ ١٣٧٦هـ.

ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي):

١٥ ـ عيون التواريخ ـ مخطوط في دار الكتب بالقاهرة رقمه (١٤٩) تاريخ.

١٦ ـ فوات الوفيّات ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٥١م.

ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري):

١٧ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ تحقيق بولس راويس ـ باريس ـ ١٨٩٤م.

ابن عبد الحكم (أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم):

١٨ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ـ القاهرة ـ ١٣٧٣هـ.

ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي):

١٩ ـ العقد الفريد ـ القاهرة ـ ١٩٦٢م.

ابن العبري (غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري):

٢٠ ـ مختصر تاريخ الدول ـ بيروت ـ ١٨٩٠م.

ابن المعتز (عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد):

٢١ ـ طبقات الشعراء ـ القاهرة ـ ١٣٧٥هـ.

ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر):

٢٢ ـ تاريخ دمشق ـ مخطوط بدار الكتب في القاهرة رقمه (٤٩٢) تاريخ.

٢٣ ـ تهذيب ابن عساكر ـ دمشق ـ ١٣٢٩هـ.

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي):

٢٤ ـ شذرات الذهب ـ القاهرة ـ ١٣٨٧هـ.

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمذاني المعروف بابن الفقيه):

٢٥ ـ مختصر كتاب البلدان ـ تحقيق (M.J.De Goeje) ـ ليدن ـ ١٨٨٥م.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري):

٢٦ ـ الشعر والشعراء ـ بيروت ـ ١٩٦٤م.
٢٧ ـ عيون الأخبار ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.
٢٨ ـ المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ ١٩٦٠.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير):

٢٩ ـ البداية والنهاية ـ بيروت ـ ١٩٦٦م.

أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفدا):

٣٠ ـ تقويم البلدان ـ تحقيق رينود والبارون ماك كوكين ديسلان. باريس ـ ١٨٤٠م.
٣١ ـ المختصر في أخبار البشر ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

أبو الفرج الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني):

٣٢ ـ الأغاني ـ طبعة دار الكتب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

أبو نعيم (أبو نعيم الأصبهاني):

٣٣ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ القاهرة ـ ١٣٥١هـ.

أحمد رضا:

٣٤ ـ معجم متن اللغة ـ بيروت ـ ١٣٧٧هـ.

الأربيلي (عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربيلي):

٣٥ ـ خلاصة الذّهب المسبوك في مختصر تاريخ الملوك ـ بغداد ـ بلا تاريخ.

الأزديّ (أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي):

٣٦ ـ تاريخ الموصل ـ القاهرة ـ ١٣٨٧هـ.

أسد رستم (الدكتور):

٣٧ ـ الرُوم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ بيروت ـ ١٩٥٥م.

أسمذارد (ر. ر. اسمدارد) بالاستراك:

٣٨ ـ الجغرافية العمومية ـ مراجعة وتنقيح محمد عوض إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٣٢٧هـ.

الإصطخري (أبو إسحاق الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي):

٣٩ ـ الأقاليم ـ مطبوع على الحجر ـ تحقيق مدلر.
٤٠ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحسني ـ مراجعة شفيق غربال ـ القاهرة ـ ١٣٨١هـ.

الأصفهاني (حمزة بن حسن الأصفهاني):

٤١ ـ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ـ بيروت ـ ١٩٦١م.

البسوي (أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي):

٤٢ ـ المعرفة والتاريخ ـ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ـ بغداد ١٩٧٤م ـ ١٩٧٦م.

البشاري (أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشارى):

٤٣ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ تحقيق (M.J.De Goeje) ط٢ ـ ليدن ـ ١٩٠٦م.

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري):

٤٤ ـ أنساب الأشراف ـ تحقيق (S.D.F. Goitein) القدس ـ ١٩٣٦م.

٤٥ ـ فتوح البلدان ـ تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ـ بيروت ـ ١٣٧٧هـ ـ.

بينز (نورمان بينز):

٤٦ ـ الإمبراطورية البيزنطية ـ تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ):

٤٧ ـ البيان والتبيين ـ تحقيق حسن السندوبي ـ ط٤ ـ القاهرة ـ ١٣٧٥هـ.

٤٨ ـ الحيوان ـ القاهرة ـ ١٣٦٢هـ.

٤٩ ـ عظماء من ذوي العاهات خلّدهم التاريخ ـ القاهرة ـ ١٣٩٢هـ.

الجهشياري (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري):

٥٠ ـ الوزراء والكتاب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

الخانجي (محمد أمين الخانجي):

٥١ ـ منجم العمران ـ القاهرة ـ ١٣٢٥هـ.

الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب):

٥٢ ـ تاريخ بغداد ـ القاهرة ـ ١٣٤٩هـ.

خليفة بن خياط:

٥٣ ـ تاريخ خليفة بن خياط ـ تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ـ النجف ـ ١٣٨٦هـ.

الذّهبي (الحافظ شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذّهبي):

٥٤ ـ تاريخ الإسلام ـ القاهرة ـ ١٣٦٧هـ.

٥٥ ـ دول الإسلام ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٦٤هـ.

٥٦ ـ العبر في خبر مَن غبر ـ الكويت ـ ١٩٦٠م.

الزاوي (طاهر أحمد الزاوي):
٥٧ ـ ترتيب القاموس المحيط ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م.
الزبيدي (محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي):
٥٨ ـ تاج العروس في جواهر القاموس ـ القاهرة ـ ١٣٠٦هـ ـ ١٣٠٧هـ.
الزبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري):
٥٩ ـ نسب قريش ـ تعليق إ. ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ ١٩٥١ ـ ١٩٥٣م.
الزركلي (خير الدين الزركلي):
٦٠ ـ الأعلام ـ ط٢ ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ ـ ١٣٧٨هـ.
زيدان (جرجي زيدان):
٦١ ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩١٤م.
الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري):
٦٢ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.
العجاج (عبد الله بن رؤبة التميمي):
٦٣ ـ ديوان العجاج ـ تحقيق الدكتور عزة حسن ـ بيروت ـ ١٩٧١.
العصامي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكيّ):
٦٤ ـ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
علي صافي حسين:
٦٥ ـ مسلمة بن عبد الملك ـ القاهرة ـ ١٩٦٤م.
عنان (محمد عبد الله عنان):
٦٦ ـ مواقف حاسمة ـ القاهرة ـ ١٣٤٥هـ.
غلوب (جون باحوت غلوب):
٦٧ ـ الفتوحات العربية الكبرى ـ تعريب خيري حماد ـ القاهرة ـ ١٩٦٣م.
الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي):
٦٨ ـ القاموس المحيط ـ القاهرة ـ ١٣٠٦هـ.
القزويني (زكرياء بن محمد بن محمود القزويني):
٦٩ ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ بيروت ـ ١٣٨٠هـ.
القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي):
٧٠ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ تحقيق إبراهيم الأبياري ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م.
كردعلي (محمد كرد علي):
٧١ ـ خطط الشّام ـ ط٢ ـ بيروت ـ ١٣٨٩م.

كليتي (برنارودين كليتي).

٧٢ ـ فتح القسطنطينية ـ ترجمة شكري محمود نديم ـ بغداد ١٩٦٢م.

لسترنج (Guy le Strange):

٧٣ ـ بلدان الخلافة الشرقية ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ـ بغداد ١٣٧٣م.

مجمع اللغة العربية (القاهرة):

٧٤ ـ المعجم الوسيط ـ ط٢ ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م.

مجهول (مؤلف مجهول):

٧٥ ـ العيون والحدائق في أخبار الحقائق ـ تحقيق (M.J.De Goeje)ليدن ـ ١٨٧١م.

محمود فهمي المهندس:

٧٦ ـ البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ـ بولاق ـ ١٣١٢هـ.

المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني):

٧٧ ـ معجم الشعراء ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ القاهر ـ ١٣٧٩م.

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي):

٧٨ ـ التنبيه والإشراف ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

٧٩ ـ مروج الذّهب ومعادن الجوهر ـ بيروت ـ ١٣٨٥هـ.

المقدسي (مطهر بن طاهر المقدسي):

٨٠ ـ البدء والتاريخ ـ شالون ـ ١٩١٦م.

النووي (أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي):

٨١ ـ تهذيب الأسماء واللغات ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

هنس (فاتر هنس Wal the Hinz):

٨٢ ـ المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ـ ترجمة عن الألمانية الدكتور كامل العسيلي ـ عمان (الأردن) ـ ١٩٧٠م.

ولهاوزن (يوليوس ولهاوزن):

٨٣ ـ الدولة العربية وسقوطها ـ ترجمة يوسف العش ـ دمشق ـ ١٣٧٦هـ.

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي):

٨٤ ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ كوتنكن ـ ١٨٤٦م.

٨٥ ـ معجم البلدان ـ القاهرة ١٣٢٣هـ.

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي):

٨٦ ـ البلدان ـ ليدن ـ ١٨٩٢م.

المراجع الأجنبية

Chember's Encyclopedia. - ٨٧

Encyclopedia Britanica. - ٨٨

Brooks, E.W:

The Arabs in Asia minor, 641-750- Journal of Hellenic Studies- Vol 18-1898. - ٨٩

Byzantinex and Arabs in the Time of early Alasid, 750 to 813- English Historicab REview- First Part- Octobre- 1900. - ٩٠

The Compain of 716 to 718 from Arabic Sources- Journal of Hellenic Studies- vol 19-1899. - ٩١

Arabic Lists of the Byzantine Themes- Journal of Hellenc stadies- vol 21-1951. - ٩٢

Bury, J.B:

History of the Later Roman Empire From The Ball of Jrene to the Aecession of Basil 1, (8.2-867)- London. - ٩٣

History of the later Roman Empire from Arcedius to Jrane (395-565) - London. - ٩٤

Chei RA.M.A:

La Lutte Arrabes E7 Byzntins - Alexandrie- 1947. - ٩٥

Gibbon, E:

Decilne and Fall of Roman Empire- London - 1897- 1902. - ٩٦

Vasilieav. A.A:

The Byzantin Empire. - ٩٧

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إعادة كتابة المعارك العسكرية العربية الإسلامية	٥
١ ـ تطور المعارك	٥
٢ ـ بصيص النور في الظلام	٧
٣ ـ المصادر	٨
٤ ـ الأسلوب والمنهاج	١٢
٥ ـ قوات الجانبين وخسائرهم	١٣
٦ ـ المحافظة على حقائق التاريخ	١٧
إرمينية قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه	٢١
الطبيعة	٢١
السكان	٢٧
فتح إرمينية	٤١
١ ـ البلاد وأهلها	٤١
٢ ـ المسلمون	٤٤
الفتح	٤٧
١ ـ فتح عِيَاض	٤٧
٢ ـ فتح عثمان بن أبي العاص الثقفي	٤٨
٣ ـ فتح سُراقة بن عمرو	٥٠
٤ ـ فتح سلمان بن ربيعة الباهليّ	٥٣
٥ ـ فتح حبيب بن مَسْلَمَة الفهري	٥٥
قادة فتح إرمينية	٦٤
استعادة فتح إرمينية	٦٥
القادة	٧١
١ ـ جهاد محمد بن مروان	٧١

الموضوع	الصفحة

٢ ـ جهاد مسلمة بن عبد الملك ٧٢
٣ ـ جهاد الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ ٨٠
٤ ـ جهاد سعيد بن عمرو الحَرَشيّ ٨٦
٥ ـ جهاد مروان بن محمد بن مروان الأُمويّ ٩٠
عبرة استعادة الفتح ٩٨
القادة الفاتحون والقادة الذين استعادوا الفتح ١١٩
*** عياض بن غنم الفهري فاتح الجزيرة وشطر إرمينية** ١٢١
إسلامه ١٢١
جهاده في العراق ١٢١
جهاده في الشام ١٢٣
الفاتح ١٢٤
الإنسان ١٢٦
القائد ١٢٩
عياض في التاريخ ١٣٠
*** عثمان بن أبي العاص الثقفي فاتح إرمينية الرابعة وجزيرة بركاوان وبلاد فارس وأول من هاجم السّند** ١٣١
إسلامه ١٣١
جهاده قبل الفتح ١٣٣
الفاتح ١٣٥
الإنسان ١٣٧
القائد ١٣٩
عثمان في التاريخ ١٣٩
*** سُراقة ذو النور بن عمرو فاتح باب الأبواب** ١٤١
إسلامه ١٤١
جهاده ١٤١
الشاعر ١٤٤
الإنسان ١٤٤
القائد ١٤٥
سراقة في التاريخ ١٤٦

الموضوع	الصفحة

* **عبد الرحمٰن ذو النور بن ربيعة الباهلي فاتح بلنجر والبيضاء من بلاد الخزر** ١٤٧
الصّحابي ١٤٧
جهاده ١٤٧
الإنسان ١٥٣
القائد ١٥٥
عبد الرحمٰن في التاريخ ١٥٦
* **سلمان بن ربيعة الباهلي فاتح شطر إرمينية** ١٥٧
الصّحابي ١٥٧
جهاده ١٥٨
الإنسان ١٦٧
القائد ١٦٩
سلمان في التاريخ ١٧١
* **حبيب بن مسلمة الفِهْريّ فاتح شطر إرمينية وشطر بلاد الرّوم** ١٧٣
إسلامه ١٧٣
جهاده ١٧٥
الإنسان ١٨٢
القائد ١٨٨
حبيب في التاريخ ١٩٢
* **محمّد بن مروان بن الحكم فاتح شطر بلاد الروم ومستعيد فتح شطر إرمينية** ١٩٣
نسبه وأيامه الأولى ١٩٣
في توطيد الأمن الداخلي ١٩٥
١ ـ في إخماد ثورة ابن الزبير ١٩٥
٢ ـ في إخماد ثورة ابن الأشعث ١٩٨
في ميدان الجهاد ٢٠٦
الإنسان ٢٠٧
القائد ٢١٢
محمد بن مروان في التاريخ ٢١٩
* **مسلمة بن عبد الملك بن مروان فاتح شطر الأنضول ومحاصر القسطنطينيّة** . ٢٢١
نسبه وأيامه الأولى ٢٢١

الموضوع	الصفحة
جهاده	٢٢٥
١ ـ في أرض الروم	٢٢٥
٢ ـ في حصار القسطنطينيّة	٢٣١
٣ ـ توطيد الأمن الداخلي	٢٦٢
أ ـ القضاء على حركة شوذب الخارجيّ	٢٦٢
ب ـ القضاء على فتنة يزيد بن المهلّب	٢٦٥
ج ـ ترصين الجبهة الشرقيّة	٢٧٥
٤ ـ في إرمينية وأذربيجان	٢٨١
الإنسان	٢٨٩
القائد	٣١٨
مسلمة في التاريخ	٣٣٦
*** الجرّاح بن عبد الله الحكميّ فاتح بلنجر وفاتح شطر إرمينية ثانية**	٣٣٩
نسبه وأيامه الأولى	٣٣٩
جهاده	٣٤٠
١ ـ الفاتح	٣٤٠
٢ ـ الشّهيد	٣٤٥
الإنسان	٣٤٦
القائد	٣٥٣
الجرّاح في التاريخ	٣٥٨
*** سعيد بن عمرو الحرشيّ فاتح شطر إرمينية ثانية وشطر خراسان**	٣٥٩
نسبه وأيامه الأولى	٣٥٩
في توطيد الأمن الداخلي	٣٦٠
١ ـ في حرب عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث	٣٦٠
٢ ـ القضاء على فتنة شوذب الخارجي	٣٦١
٣ ـ القضاء على فتنة يزيد بن المهلّب	٣٦٣
جهاده	٣٦٦
١ ـ في ميدان الصّغْد	٣٦٦
٢ ـ في ميدان إرْمينية	٣٧٤
الإنسان	٣٧٩

الموضوع	الصفحة

القائد ٣٩٣
الحَرَشيّ في التاريخ ٤٠٠
* **مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فاتح شطر بلاد الروم وشطر إرمينية** . ٤٠٣
نسبه وأيامه الأولى ٤٠٣
جهاده ٤٠٤
من الولاية إلى الخلافة ٤١٤
١ ـ في الصراع الداخلي ٤١٤
٢ ـ أول الغيث ٤٢٢
٣ ـ تصاعد الخلاف ٤٣٣
٤ ـ تفاقم الخلاف ٤٤١
٥ ـ الفيضان ٤٤٨
٦ ـ الطوفان ٤٥٣
٧ ـ الكارثة ٤٦٠
الإنسان ٤٦٨
القائد ٤٧٩
١ ـ أسباب الهزيمة ٤٧٩
٢ ـ سماته القياديّة ٤٨٥
مروان في التاريخ ٤٩٢
المصادر والمراجع ٤٩٣
الفهرس ٥٠٠